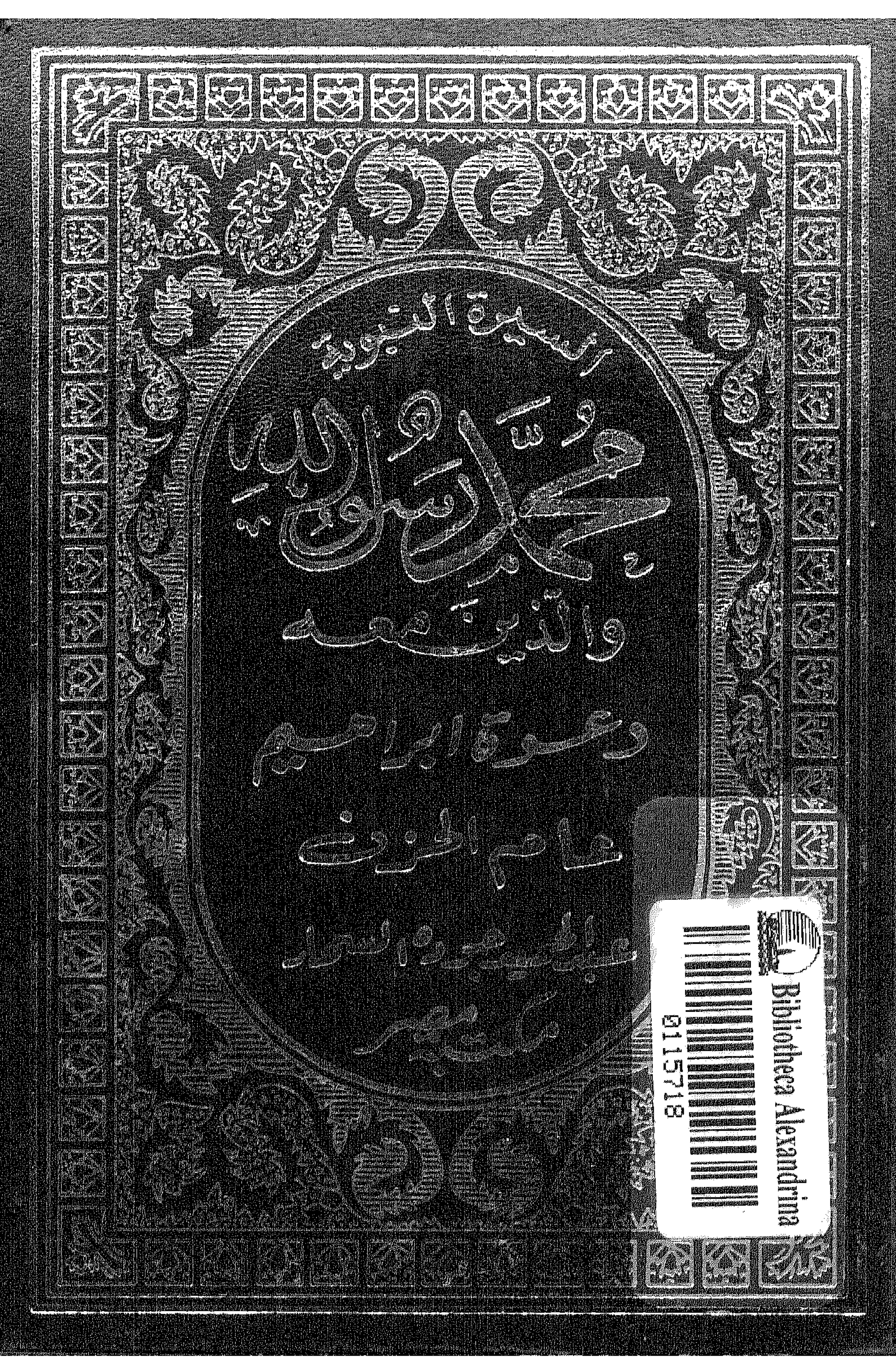

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
دعوة ابراهيم
عام الحزن
عبد الحميد جودة السحار
مكتبة مصر
Bibliotheca Alexandrina
0115718

السيرة النبوية



دعوة إبراهيم

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك انت العزيز الحكيم ﴾ *

(قرآن كريم)

قال ﷺ :

(أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى) .

١

شمس تغيب ويقفو إثرها قمر ، ونور صبح وبعده حلك ، والقوافل تنساب فى معبد الكون إلى الشمال ، والرياح تهب من الجنوب ، والأرض وشي والنسيم معنبر ، قد صنع فصل الربيع الرياض عقودا ، وحلى الثرى بنجوم الثريا ، والتفت الغصون كتعانق الأحباب ، وانتشر النوار الأصفر على جبين الصحراء كتاج من الذهب النضار على رأس عروس ، ونبعت العيون بماء زلال ، وسالت الأودية بالحياة ، وراح كل ركب يلتمس الواحات فى الطريق ليسعد بطيب ظل ظليل ، وترتاح الأرواح فى الأجساد .

وكانت صوامع الرهبان علامات على الطريق ، اعتكف فيها أناس فروا من الحياة وضجيجها وانقطعوا للعبادة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ما دار بخلدهم أن الانعزال عن الناس انعزال عن الدين ، فالتقوى لا تعرف الأنانية ، بل هى أن يتجاوبوا مع أنفسهم ومع العالم كله فى سبيل الخير الأسمى .

وانطلقت القوافل إلى دومة الجندل حيث سوقها السوى ، وقد نسى الناس أن أول من نزلها كانوا أبناء دوما ابن إسماعيل وكان كل ما يذكرونه أن أكيدر غرس فيها الأشجار وأعاد بناءها ، وأن بنى كلب ينزلونها وأنهم يحكمون السوق إذا ما غاب عنها أكيدر ملكها .

وجاء أول يوم من ربيع الأول فاجتمع الناس للبيع والشراء والأخذ

والعطاء ، وكانت المبايعة بيع الحصاة ، يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم . أو يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشىء المبيع . أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم . أو يعترض قطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصبتها فهى لك بكذا .

كانوا يقامرون بالنهار يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل . ويعكفون فى الليل على الخمر والميسر والنساء ويمضون الوقت فى اللهو واللعب ، فثقلت أرواحهم بأوزار الأجساد وصاروا مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضى الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تتلاشى ولذة لا تدوم ، قد أوغلوا فى الحياة الحيوانية فانعدم انسجامهم مع إنسانية الإنسان .

أطلقوا عنان نزواتهم وعواطفهم فاتجهت شهواتهم ورغباتهم إلى غايات جسدية ، فأهيضت أجنحة ارواحهم وانجذبت إلى الأرض ، وسيطرت عليهم أنانية مدمرة طاغية استبدت بهم فتفككت الحياة الإنسانية ، بل صارت حياة ضارية لا تحترم . الخير الإنسانى العام . بل تقدس كل ما يجلب منافع ذاتية أو يشبع شهوة عارمة ، لا فرق بين تجارة أو مضاربة أو غارة وسلب ونهب أو سفك دم برىء أو ظلم أو دعارة ، لا تمييز بين الحلال والحرام ، قد ساد بينهم قانون الغاب .

وكانوا يتمسحون بأصنام الآلهة التماسا للرزق والعافية فى الدنيا ، وما كان محراب ربهم فى أغوار نفوسهم بل كان حجرا يحملونه معهم إذا خرجوا أو يلتقطونه من هنا أو هناك ، ومن سفاهة أحلامهم تعصبوا لتلك

الحجارة التى لم يكن لها عليهم سلطان .

وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا حساب قد ذوى النور المقدس فى قلوبهم وذبل ، وخفت الضوء الذهبى الذى يشرق بنور ربه بعد أن قدموا البطون والشهوات على العقول ونقاء النفوس والأرواح ، فلم يكن للأخلاق جذور فى عين وجودهم ، وما كانت لهم سلطة مقدسة تتفجر منها قوانين الخير والمحبة وقواعد الأخلاق ، فسقطت كل القيم الإنسانية ، وظهر الفساد فى البر والبحر وأصبحت حياتهم فراغا وأوقاتهم هباء .

قطعوا كل العلائق بالذات العلية ، وأغلقوا نوافذ قلوبهم دون النور الإلهى ، فلم يروا داخل نفوسهم ، ولم يعرفوا ذواتهم ليعرفوا ذات الله ، وعجزوا عن أن يسيروا أغوار الكون ليرتقوا إلى ما فوق الطبيعة وإلى ما وراء عالمهم المادى ، فضلوا السبيل واستكانوا للشر واستجابوا لعواطفهم الجامحة ، وغذوا عصبيتهم وجاهليتهم بحطام أنبل المبادئ الإنسانية ، فهاموا فى طرقات ملتوية لا تقود إلا إلى الظلام .

صار الإنسان مادة تافهة ، لا يؤمن إلا بما يلمسه بيده ويراه بعينه ويذوقه بلسانه ويشمه بأنفه ويسمعه بأذنه ، فاستكان لحدوده فلم يحاول أن يصرع الشر أو يواصل حياة ثانية بعد الموت ، فإن كان سيدا أسلم نفسه للشره فى الأكل والشرب والعواطف ، وإن كان عبدا فللذل والجوع والحرمان ؛ قد ظلموا أنفسهم سادة وعبيدا .

وكانت القبائل متشاحنة قد نزلت البغضاء قلوبهم ، فالعداوات مشبوبة، والحروب دائرة، والثارات لا يخبو أوارها، والشعراء يهيمون فى الأودية يؤججون نيران الكراهية ، وسوس الفساد ينخر فى المجتمع ويشيع التحلل والانحطاط ؛ فصارت رحلة الحياة بلا هدف ، تشق طريقها فى

شعاب القسوة وبيداء الضياع وعفن البشرية .

ونسى البشر أرض الله ، فصارت فى أشد الحاجة إلى غيث من السماء يطهرها لتستمر عليها الحياة الكريمة التى تليق بالإنسان الذى قبل أن يحمل الأمانة ؛ إلى رسول من عند الله مؤيد من عند الله يعيد البعث الروحى إلى الناس ، ويرتقى بالنظرة إلى الحياة فيقتلع الشرور من نفوس البشر ويحقق انتصار الإنسان .

وتقضت أيام سوق دومة الجندل بما فيها من مقامرة وهضم للحقوق وولوغ فى الدنايا التى تحط من قدر البشر ، فانقلبت بعض القبائل إلى منازلها . وانطلق بعض التجار إلى الحيرة وبلاد فارس ، ويمم بعض التجار إلى بلاد الشام وبلاد الروم ، وتوغل بعض تجار من كلب فى البلاد الرومية حتى بلغوا عمورية .

كانت الثعالب السود تمرح فى شعاب الجبال ، والأرانب البيض تفر مذعورة إذا ما عكر سكون الفضاء وقع حوافر الخيل على الأرض الصلبة ، وفاحت روائح المسك واعترى العرب سرور لا يدرون مبعثه ، فقد كان كل من يفد إلى هذه البلاد ينعم بنشوة تملأ جوانحه .

وانساب تجار كلب فى أسواق عمورية ، كانت المتاجر كثيرة والبضائع من طرف وحرير ومصنوعات مكدسة هنا وهناك ، فراح التجار العرب يشترون بما معهم من عملات قيصر ، ويبيعون الطيب والسيوف اليمانية ، ويستبدلون العملات لدى الصيارفة الذين انتشروا فى كل مكان ليستفيدوا من فروق أسعارها .

وكان سلمان الفارسى يعيش فى عمورية على أمل أن يجد من يحملونه إلى أرض العرب بعد أن سمع من صاحبه أن قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث

بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مُهاجره إلى أرض بين حرتين . فلما مرَّ به التجار العرب هرع إليهم متفرحا وراح يحدثهم ، فعلم أنهم من كلب فقال لهم وهو ينظر إلى بقراته وغنيماته :

— احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيماتى هذه .

قالوا والطمع يسيل مع لعابهم والجشع يطل من عيونهم :

— نعم .

وساقوا بقرات سلمان وغنيماته إلى حيث أناخوا قافلتهم ، ثم حملوه معهم يكاد يطير من شدة الفرح وقد هان كل شيء فى عينى الباحث عن الحقيقة ، فهو فى طريقه إلى النور الذى ينشده ، النور الذى هجر الأهل والخلان فى سبيله ، النور الذى يبدد القلق والحيرة والشكوك وينزل بالقلب أنوار اليقين .

انصرفت رغبته عن كل ما حصَّل من علم المجوس وعلم النصرانية ، وعن الاستقرار الذى ذاق طعمه فى عمورية ، وعن البقرات والغنيمات التى اقتناها إلى الخير الأسمى الذى ينشده ، إلى جوهر الحقيقة التى صارت هدف حياته ، فقد زهد فى الدنيا وفى كل ما تجلبه من مسرات رغبة فى سرور روحى وحبا فى انشراح الصدر الذى ينيره قلب مؤمن أشرق بنور ربه .

إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ولا يريد إلا وجهه ، ترك حظ نفسه فى أصبهان وفى نصيبين وفى الموصل وفى عمورية ، وزالت عنه كل رغبة فى جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو سلطة أو سلطان . و لم تبق له إلا رغبة واحدة : أن يلتقى بذلك النبى العربى الذى بُشر به وبشرت به الأنبياء ليأخذ بيده إلى طريق الحق . وهل يقوده إلى الصراط المستقيم مثل نبى !

نبذ الدنيا و لم يتخذها ربا لكيلا تتخذه عبدا ، ونبذ الشهوة فرب شهوة أورثت حزنا طويلا ، وقطع كل علائقه بالماديات فى سبيل غاية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء فأخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل فيه حب الغاية التى ليس وراءها غاية ، فاختار جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، وصبر على مكروهها وصبر عن محبوبها طمعا فى حياة روحية سامية تشبعه أبدا وتغنيه أبدا وتشرح صدره أبدا وتهون عليه مصائب الأيام ، فصار يرى بنور الله ويفكر بهدى رب العالمين الذى بات يحسه فى عين ذاته ، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يلتقى بذلك النبى ويؤمن به ويصدقه ليعيش فى شعاع شمسه حواريا كحواريى السيد المسيح عليه السلام .

إنه جرب الرهبنة والعكوف فى الكنائس وتمضية النهار والليل فى المحاريب يردد ما لقن من ابتهالات ، غير أن طول السهر والقيام آناء الليل وأطراف النهار والاجتهاد فى الصلوات لم تشرح صدره و لم تكشف له عن لب الحقيقة ، فظلال الشك ترين على ما حاول أن يدخل قلبه من معتقدات ، وهو يريدها حقيقة ناصعة نقية بلا ظلال من ريب . فما إن سمع عن قرب ظهور نبى يأتيه الخبر من السماء حتى زهد فى الرهبنة وفى الدين الذى وجده أفضل من دين قومه وإن لم يهده الطمأنينة الخالصة ، فهو راغب فى الصفاء الذى لم تعكره أساطير الشعوب ولا أهواء الرهبان ولا مطامع القياصرة الذين فرضوا إرادتهم على المجامع المسكونية التى شرعت فى الدين ما يرضى أصحاب النفوذ والسلطان .

وانطلقت القافلة وسلمان بين الرجال وإن غاب عنهم بما فى فؤاده من أشواق وما فى رأسه من أفكار ، فلم يعد همه زينة الحياة الدنيا بل صار يرى

بعين بصيرته جمال الجمال ، بعد أن أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه و أصبح همه جوهر الحقيقة ووجه الله .

وبلغت القافلة وادى القرى وقد غمرت السعادة سلمان ، فهو فى أرض العرب مبعث ذلك النبى الذى خرج فى طلبه . وزاد فى سعادته أنه أحس أن الله أراد له الرشد والهداية بعد طول التأمل والبحث والحيرة .

سار سلمان مع تجار كلب فى السوق يتلفت وإذا بالرجال الذين ما أعطاهم بقراته وغنيماته ليحملوه معهم ينظر بعضهم إلى بعض وقد أطل الغدر من أعينهم ، فانقضوا عليه وأسروه بضاعة وعرضوه بين ما عرضوا من رقيق .

ولف سلمان حزن عميق ، فقَدَ فى لحظة حريته وهو الذى عاش طوال حياته حرا ينطلق من بلدة إلى بلدة كفراشة طليقة جريا وراء وجه الحقيقة ، وزاد فى أساه أن هؤلاء العرب الذين سيخرج منهم ذلك النبى الذى سيبعث بدين إبراهيم عليه السلام قد ظلموه وباعوه لرجل يهودى عبدا ، و لم يستسلم لثورة عواطفه فما لبث أن ضاءت بصيرته حقيقة أن الأنبياء لا يبعثون إلى أقوام صالحين ، فما رآه من هؤلاء النفر من تجار كلب مذ غادر معهم عمورية إلى أن باعوه فى وادى القرى يؤكد حاجتهم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

وانطلق سلمان خلف سيده اليهودى مطرق الرأس يفكر فى حكمة أسره فلم يهتد عقله إلى السر الدفين ، فما كانت عنده مفاتيح الغيب ليطلع على ما يخبئه له العليم الخبير ، وكان الأسى يعتصر فؤاده ولكنه لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه ، وكيف يعرف اليأس طريقه إلى قلب أشرق بالنور ؟

وراح سلمان يعمل فى أرض ذلك اليهودى ، ورأى النخل فاستبشر ., فصاحبه قال له وهو يحدثه عن النبى العربى : يخرج بأرض العرب ،

مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، به علامات لا تخفى . فهرع سلمان يطوف بوادى القرى بحثا عن الحرتين : عن الأرض ذات الحجارة السود وقد امتلأت جوانحه بالأمل والرجاء ، ولكن فترت حماسته لما لم يجد الصفة التى حدثه بها صاحبه وإن لم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا .

ومرت الأيام وسلمان يعمل فى أرض سيده ، فبينا هو عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة ، فلما رأى سلمان أعجب به فابتاعه من سيده ، فلم يستشعر سلمان أسى بل غمره شعور بالرضا ، فمن يدرى لعل الله قد بعث ذلك القرظى ليحمله إلى مبعث ذلك النبى الذى ينتظره أو إلى مهاجره .

وخرج سلمان مع سيده الجديد وانطلقا إلى المدينة ، فراح سلمان يقلب وجهه فيها فإذا بنشوه عارمة تغمره ، وإذا بنفث فى روعه يؤكد له أنها البلد الذى وصف له صاحبه . وما إن استقر فى أرض بنى قريظة حتى هرع ليطوف بالمدينة فإذا بفرح فياض يتفجر ينابيع من عين ذاته ، وإذا بسرور روحى عجيب يلفه . إنها أرض بين حرتين بينهما نخل ، إنها مهاجره ، إنها هى ولا ريب . وارتفعت الأسجاف عن عين بصيرته فرأى حكمة غدر تجار كلب به ، فخر إمام الزاهدين ساجدا لله يروى بدموعه الأرض ، وبات ينتظر فى صبر ذلك اليوم الأغر الذى يجتمع فيه بالنبى الذى أطل زمانه .

١

كان اليمنيون يرحلون إلى الشمال ، وكان أهل الحجاز يرحلون إلى الجنوب إلى اليمن ، وقد كثرت هجرة اليمنيين إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية عقب النشاط التجارى الذى قام به الرومان فى البحر الأحمر ، وبعد انهيار سد مأرب . وعلى الرغم من الاتصال الدائم بين الشمال والجنوب ، واجتماع الشماليين بالجنوبيين فى مواسم الحج وفى الأسواق ، فقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى إن كلا منهما اتخذ لنفسه شعارا فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر .

وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء ويقوى روح الشر بينهم ، وقد كان العداء شديدا بين الأوس والخزرج الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب وبين العدنانيين سكان مكة ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات كل يدعى أنه أشرف نسبا وأعز نفرا ، وكان اليمنيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة وملك راسخ .

وكانت القبائل فى عداء دائم ، وكان المثل الأعلى للعربى الكامل أن يتحلى بالشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرام إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، وما كان أحد يفكر فى إخضاع منافعه الشخصية ومنافع قبيلته للخير العام .

وكانت أسماء مشاهير العرب تزداد تألقا كلما زادت سفاهاتهم . وكلما زادت جرأتهم على حرمة الجار بالقول أو الفعل ، وكلما انتشرت فى الأرض فواحشهم ، فكان الشعراء يتغنون بكرم لاعبى الميسر ، وشجاعة سافكى الدماء والذين يغيرون على القبائل الآمنة لسلب حرية الرجال والنساء والولدان ، ويمتدحون شاربى الخمر وكل عاهر يلعب بعقول الغوانى ويطوف بدور البغاء .

وكانت بعض لمحات من الجود ومكارم الأخلاق تومض فى ذلك الظلام الحالك ، لا لفضيلة متأصلة فى قلوب الناس بل طمعا فى ذيوع الصيت وحسن الأحدوثة وإرضاء لغرور السادة الذين يريدون علوا فى الأرض والارتقاء إلى قمم الأمجاد .

كان الفساد يجرى فى شرايين المجتمع العربى مجرى الدم ، وكانت غارات المغامرين على القبائل تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكان الذين ينتزعون النساء من أحضان أزواجهن أو من كنف أسرهن لا يتسترون على أفعالهم النكراء ، بل كانوا يتفاخرون فى أشعارهم بما اقترفوا من آثام لتشيع بين الناس .

وكان فى كل قبيلة فارس يمشى فى الأسواق ويدعو الإماء والفتيات إلى نفسه ، أو يشن الغارة على قبيلة ليخطف منها امرأة أعجبته دون حياء . وقد جمع عروة الورد العبسى صعاليك قومه يغزو بهم القبائل من حوله ، فإذا أخفقوا فى غزواتهم كان يقوم بأمرهم فلقب عروة الصعاليك .

وأصابت الناس سنة شديدة فتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف . وخرج عروة فى صعاليكه وقد كنف على الناس الكُنُف (اتخذ لهم حظائر يأوون إليها) فانطلق للغارة والشتاء شديد وعشيرته

تكاد تهلك من الجوع ، وبينا هو وصعاليكه يبحثون عن فريسة إذا بناقتين دهماوين ، فنحر لهم إحداهما وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى ، وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان . وإذا برجل صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأخذ إبله وامرأته .

وكشفت المرأة عن وجهها فإذا بها من أحسن النساء ، فوقع جمالها فى قلب عروة وفى قلوب صعاليكه فانقلبوا بما معهم إلى أصحاب الكنيف فحلبوا لهم الإبل وحملهم عروة عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم ، فقالوا :

ــ لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها .

فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ثم يذكر أنهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، ففكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحله يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله .

كانت المرأة التى سباها من بنى هلال بن عامر بن صعصعة . يقال لها ليلى بنت شعواء . فمكثت عنده زمانا وهى معجبة له تريه أنه تحبه ، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم فأقبل عليها فقال لها :

ــ يا ليلى ، خبرى صواحبك عنى كيف أنا .

ــ ما أرى لك عقلا ! أترانى قد اخترت عليك وتقول خبرى عنى !

وأخذ بنو عامر امرأة من بنى عبس ففخر عامر بن الطفيل بذلك وذكر أخذه إياها ، فراح عروة يعيرهم بأخذه ليلى الهلالية . كانت مثل هذه الأشعار التى تفخر بسلب الحرائر تنتشر بين الناس فيتلقفونها ليسمر بها

السمار فى نواديهم ، فقد كان سبى النساء والعبث بهن أمرا مألوفا شاع فى كل القبائل .

وسبى عروة سلمى من بنى غفار ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا وكان شديد الحب لها . وذات يوم حملها معه إلى يثرب ونزل فى بنى النضير ، فلما رأى اليهود حسن سلمى طمعوا فى جمالها فقدموا إليه خمرا معتقة فراح يشرب ، فلما انتشى منعوه . وراح يطلب مزيدا من الخمر فالتمسوا منه فى رقة أن يدفع ثمن ما يشرب ، وما كان معه شيء إلا زوجه فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى استحق اليهود الرهينة . فلما أفاق قال لها :

— انطلقى .

قالت فى أسى :

— لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى .

وأخذ اليهود سلمى الغفارية لما لم يقدر عروة على افتكاكها فى الوقت المشروط ، فقال عروة فى أسى :

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور

وراحت سلمى تثنى عليه فقالت :

— والله إنك ما علمتُ لضحوك مقبلا ، كسوب مدبرا ، خفيف على متن الفرس ، ثقيل على العدو ، طويل العماد ، كثير الرماد ، راضى الأهل والجانب(١) ، فاستوص ببنيك خيرا .

وانصرف عروة الصعاليك حزينا ، ثم ما لبث أن عاد لحياة الصعلكة يهاجم القوافل ويوزع ما يسلب على رجاله ، وينشد الشعر وينال إعجاب

---

(١) الغريب ويراد به الضيف .

المجتمع المريض ويفضله فى الجود على حاتم الطائى .

ولم يكن المجتمع فى يثرب بأحسن حالا من المجتمعات العربية الأخرى ، فقد دب الشقاق بين اليهود واليهود ووقعت البغضاء فى قلوب الأوس والخزرج . وكثيرا ما كانت المنازعات تنشب بين العرب واليهود ، وكثيرا ما كانت تثور الحروب ولا تحقن الدماء إلا لفترة وجيزة ، ثم سرعان ما تندلع ألسنة نيران الفتن لتخرق اليهود والعرب دون تمييز .

وفى ذلك الجو المشحون بالعداوات والقلاقل والخوف راح ابن الهَيَّبان يجود بآخر أنفاسه ، وقد التف به ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن عبيد ، وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، وقد لاح فى وجوه الرجال هم ثقيل . فابن الهيبان رجل من يهود أهل الشام قدم عليهم ، حل بين أظهرهم ما رأوا قط رجلا أفضل منه .

كانوا إذا قحط عنهم المطر قالوا له :

— اخرج يا بن الهَيَّبان فاستسق لنا .

فيقول :

— لا والله ، حتى تقدموا بين يدى مَخرجَكم صدقة .

فيقولون له :

— كم ؟

فيقول :

— صاعا من تمر أو مُدَّين من شعير .

فيخرجونها ثم يخرج بهم إلى ظاهر حرتهم فيستسقى الله لهم ، فوالله ما يبرحوا مجلسه حتى يمر السحاب ويسقون .

وعرف ابن الهيبان أنه ميت، فالتفت بعيون زائغة إلى من كانوا عنده وقال:

ـــ يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟.

قالوا :

ـــ إنك أعلم .

قال في صوت خافت :

ـــ فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّف (أنتظر) خروج نبي قد أظل زمانه ، وهذه البلدة مُهاجره ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه ، وقد أظلكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ، فمن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه .

ومات ابن الهيَّبان وحديثه يرن في أعماق قلوب الفتية ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد بعد أن حفر في أعماق نفوسهم ، ثم قبر ابن الهيبان وما أسرع أن نَسي الناس تلك العبرة المؤقتة التي ينزلها بالأفئدة رهبة الموت وجلاله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من سعي للدنيا وكذب وبهتان وزور ، وأكل الأموال بالباطل ، ومد العيون إلى نساء الآخرين ، والاحتيال بالخمر والميسر على سرقة الأموال وسلب الزوجات والحريات ، وإحالة السادة والحرائر إلى عبيد .

واستمرت الشرور بين العرب من الأوس والخزرج واليهود ، وذات يوم نال العرب من اليهود ما يكرهون ، فقال لهم اليهود :

ـــ إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وأحس الأوس والخزرج رهبة ، فكثيرا ما سمعوا ذلك من اليهود وهم أهل كتاب عندهم علم ليس عند أصحاب الأوثان ، ترى لو تحقق ذلك الوعيد وبعث ذلك النبي ، فماذا يفعلون ؟!

٣

كانت الدولة الرومانية تترنح تحت حكم الإمبراطور فوقاس ، وكانت تعيش فى ظل كابوس رهيب من الفوضى الهدامة والظلم الذى يئن من وطأة سكان القسطنطينية وسكان الممالك الخاضعة للنسر الرومانى على السواء ، فقيصر الإله يضارب فى تجارة القمح لتتكدس فى خزائنه الأموال ، ورجال الدولة يقترفون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل ، فسيطرت الأسر النبيلة على النشاط التجارى وعلى الملاهى ودور البغاء وعلى كل ما يجلب الذهب والفضة ، فقامت بعض الأسر بتربية الدواجن واحتكرت تجارتها ، واحتكرت أسرات أخرى صناعة الأبسطة ، وسيطرت أسرات على حانات الخمر ودور الدعارة ، حتى الكنيسة نفسها اهتمت بالمسائل المصرفية وإقراض الأباطرة بأموال تصرف على حروبهم للفرس لقاء فوائد باهظة ، فلا غرو أن صار الناس جميعا فى الإمبراطورية الرومانية عبيد المال .

وكانت مصر وسورية وبعض الممالك الأخرى التى أوقعها سوء طالعها بين براثن الرومان ، تقاسى من ظلم جباة الضرائب الذين ينتزعون ثمرات الجهود المضنية ليحملوها إلى خزائن الإمبراطور الذى لا يشبع نهمه للذهب والفضة ، فلم يجد أهلها منفسا للثورة على الاضطهاد غير معارضة القسطنطينية فى لاهوتها ، فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح فى مصر وسورية تستلهم وحيها من العداء الذى تكنه للحكام الرومان أكثر منها

للعداء للمذهب .

وكانت عبادة الدولة والإمبراطور سائدة فى الإمبراطورية التى كان سوس الفساد ينخر فى عظامها ، وقد استشرى الانحلال لما أبت الطبقة الأرستقراطية أن تنسجم مع تلك العبادة والخضوع خضوعا مطلقا لقيصر ، فأصحاب الأراضى الواسعة يشكلون مشكلة خطيرة استعصى حلها على الدولة ، فهم أصحاب نفوذ وسلطان وقوة ومنعة ، وقلما كانوا يلينون للدولة وقوانينها أو يخضعون لرغبات الإمبراطور .

وزاد الأمر سوءا لما كثرت هجرات البرابرة إلى المقاطعات الرومانية ، فقد جلبوا معهم المتاعب وعاثوا فى الأرض فسادا ، فقضى ذلك على قيمة الأرض وتمزقت الضياع الكبرى شر ممزق ، ووهنت قوة أصحاب الأراضى المناوئين لنزوات رأس الدولة فخلا للإمبراطور وجه الشعب يرهقه كما يشاء ، ويمتص دماءه يروى بها أراضيه لتثمر مزيدا من الذهب والأموال .

وضربت الفوضى فى جنبات عاصمة الإمبراطورية بعد أن ضاق الشعب بأعباء الحروب الطاحنة الناشبة بين الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم ، وقد أرهقت تكاليف هذه الحروب دافعى الضرائب ووضح أثرها فى القسطنطينية ، فارتفعت الأسعار ، وزادت الضرائب وعاش فقراء العاصمة فى ضنك شديد ، وراحت أحياؤهم القذرة تزاحم قصور الأغنياء ، ولم يبق شىء بلا ثمن غير السيرك الذى فتح أبوابه للجميع ليشغل التعصب لأحد فريقى السيرك قلوب الناس ، وكان الإمبراطور يحسب أن فى ذلك اللهو منفسا لما يعانى الشعب من حرمان وضيق ، ولم يدر بخلده أن الفتن الداخلية كانت تجد لها مرتعا خصبا بين الحشود التى تتقاطر على

السيرك كل ليلة .

وأغلق فوقاس جامعة القسطنطينية وهو يحسب أنه يخنق بذلك صوت المثقفين الذين يرفعون أعلام العصيان فى وجه سياسته الخرقاء التى لا تنشد إلا إشباع شهواته المادية ، وملء خزائنه بالذهب معبود العصر المحبوب ، و لم يخطر له على قلب أن السيناتو : مجلس شيوخ الإمبراطورية قد تآمروا عليه وبعثوا إلى هرقل ابن حاكم إفريقية يحرضونه على أن يقبل بجيشه لتخليص البلاد من الإمبراطور الجشع الذى يشترى قمح البلاد لحسابه ، ثم يبيعه بما يشاء من أسعار باهظة فى زمن المجاعات .

وحمل هرقل جنوده فى السفن وأقلع من إفريقيه إلى القسطنطينية لينقذ البلاد من التردى فى هاوية الفساد ، وليرفع عن صدرها الكابوس الرهيب الذى جثم عليها مذ تولى الحكم فوقاس المفتون بالمظالم وجمع المال ، ودارت معارك بين حامية القسطنطينية التى لا تؤمن بما تحارب فى سبيله وبين جنود آمنوا بأنهم ما جاءوا إلا لإنقاذ بلادهم من الطاغية ، فدارت الدائرة على من كانت قلوبهم هواء ، ودخل هرقل القسطنطينية دخول الظافرين وهتافات الترحيب بالمنقذ تتعالى من كل مكان .

وقتل فوقاس ويقتله انهارت أسرة يوسطنيانوس ، وهرع شيوخ السيناتو للترحيب بالرجل الذى اختاروه سرا لتخليص البلاد من براثن الإمبراطور الجشع الطماع ، وتأهبت القسطنطينية لتتويج المنقذ إمبراطورا على البلاد التى أنهكتها حروبها مع فارس ، ومزقت وحدتها اختلافها فى المسيح ووحدته وطبيعته وإرادته ، وإن كانت كل المماليك الخاضعة للنسر الرومانى تدين بالديانة المسيحية .

وازدان القصر ورفعت الأعلام خفاقة فوق الدور والحوانيت وفى

الشوارع والميادين ، ولبست كنيسة أيا صوفيا كنيسة الحكمة المقدسة أبهى حللها ، وماجت الجماهير فى الطريق بين القصر والكنيسة ، وتسلق الشباب الأشجار والتماثيل ، وتدفقت البغايا من حيهن القريب إلى طريق الموكب الإمبراطورى مشاركة منهن فى أفراح الشعب .

ونفخ فى الأبواق ، وسرعان ما فتح باب القصر وخرجت منه الموسيقات والمشاة فى ثيابهم المزركشة ، ودروعهم المعدنية تتألق فى الشمس ، وفى أيديهم الرماح والمتاريس ، وقد تدلت على جنوبهم السيوف . ومن خلفهم الفرسان على ظهور الجياد كأنهم فى حصون ، ثم خرجت عربات رجال القصر والدولة ، ثم عربة الإمبراطور تحف بها كوكبة من خيرة فرسان الإمبراطورية . وما إن وقعت أعين الجماهير على هرقل حتى تعالت الهتافات مدوية بحياة المنقذ ، ابن السماء .

وبلغ الركب الفخم ميدان أيا صوفيا ، وقد اصطف فيه الجند ، ووقف عند باب الكنيسة رجال السناتو ورجال الدين وكبار الضباط والقضاة وكبار رجال الدولة فى ثيابهم المزركشة ، وهبط الإمبراطور من عربته بين ترحيب المستقبلين الذين علا وجوههم بشر واستبشار بفاتحة عهد جديد فى حياة الإمبراطورية الرومانية الخالدة .

وسار هرقل يعلوه الوقار فى الكنيسة التى كانت آية من آيات الفن البيزنطى ، وتقدم بين الصفوف إلى حيث وقف البابا هونوريوس الأول ومن خلفه كبار رجال الدين حتى إذا ما بلغ المحراب أدى صلاة شكر لله ، ثم دوى فى جنبات الكنيسة الهادئة الصامتة صوت البابا يعلن تتويج هرقل إمبراطورا على الدولة الرومانية بكل ما فى حوزتها من بلاد .

ودخل هرقل قاعة العرش وفتحت الأبواب لوفود المهنئين ، وما انتهت

مراسيم الاحتفال حتى بعث فى طلب المنجمين والعرافين ليروا ما يخبئه القدر ، فراح المنجمون يرصدون النجوم ثم عادوا إليه مطأطئى الرءوس باسرى الوجوه ، فالأسرار التى كشفت عنها النجوم كانت رهيبة لا يجرؤ أحد منهم على أن يلقى بها فى وجه هرقل أمل الإمبراطورية ومنقذها العظيم .

ودخل المنجمون والعرافون على الإمبراطور وقد ملأت النشوة جوانحه وتأهب ليسمع ما يثلج الصدور وما يشرق عليه من بهجة من وراء الغيب ، وراح المنجمون يحاولون أن تنم أساريرهم عن الطمأنينة والهدوء وإن كانت أفئدتهم تدوى بين ضلوعهم فى فزع وخوف ، وتقدموا وهم يترنحون حتى إذا ما وقعت أعينهم على الإمبراطور خروا له ساجدين وقد أرهفت حواسهم وتمنوا لو يطول السجود حتى لا يرى هرقل ما يكره فى وجوههم .

وأمرهم بالنهوض فرفعوا رءوسهم وقد زاغت الأبصار وانقبضت الصدور وظهر فى لفتاتهم وحركاتهم خوف شديد ، وأحس هرقل ما هم فيه من قلق واضطراب فأوجس خيفة وقال فى صوت متهدج :

— ماذا قالت النجوم ؟

فتقدم كبير منجمى القصر فى خطوات وجلة وقال فى صوت بدا كأنما قد أتى من أغوار سحيقة :

— نفس ما قالته من قبل يا مولاى .

— وما الذى قالته من قبل ؟

— سيدمر الإمبراطورية شعب مختون .

فهب هرقل فى ثورة وقال فى حنق شديد :

— ومتى هذا البلاء إن كنتم صادقين ؟

وصمت كبير المنجمين وإن كان يرتجف من الرأس إلى القدم ، وسرت فى أبدان العرافين رعدة شديدة خوفا من بطش الإمبراطور الغاضب الذى غاض إشراقه لما مست النبوءة المشئومة أذنيه . وتقدم هرقل من كبير المنجمين خطوات وهو يقول :

— تكلم .

— الأمان يا مولاى .

— لك الأمان .

فراح الرجل يروى على مسامع الإمبراطور نبوءة تقلص ظل النسر الرومانى عن الأرض التى يرفرف عليها ويؤكد اندحار الجيوش الرومانية أمام جحافل جيش الشعب المختون ، وأن ذلك البلاء ليس قريبا وليس بعيدا[1] . فزفر هرقل فى غيظ وراح يصر على أنيابه يكاد أن ينفجر حنقا، وما إن غادر المنجمون والعرافون قاعة العرش مطأطئى الرءوس حتى راح الإمبراطور يفكر فى التنكيل باليهود ، فهم فى وهمه الشعب المختون الذى تقول النبوءة إن صرح الإمبراطورية سيتقوض بسيوف بنيه .

كان اليهود يعيشون فى عزلة فى الإمبراطورية الرومانية لا يختلطون بغيرهم ترفعا ، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم حتى لا يضيع الدم الطاهر فى الأمم ، فهم يؤمنون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم كلاب البشرية ، وأن الإله إنما هو إله إسرائيل وحدهم وأنه فضلهم على العالمين ، ولما كانوا

(١) تولى هرقل الملك سنة ٦١٠ م وكانت معركة اليرموك التى انتصر فيها خالد ابن الوليد على جيوش الروم ٦٣٦ .

متشبثين بتلك العزلة كان التنكيل بهم سهلا ميسورا ، فراح هرقل يسوقهم زمرا إلى الملاعب الرومانية يلقى بزعمائهم إلى الأسود أمام شعبه المفتون بإراقة الدماء ، ويفرض عليهم المجالدة والقتال حتى الموت على أعين فاتنات الإمبراطورية وشبابها الماجن وشيوخها الذين قدت قلوبهم من فولاذ ، والهتافات تتجاوب فى جنبات الملاعب التى كانت منفسا لكل الشرور .

واستمر هرقل فى تعذيب اليهود وإلهاب ظهورهم بسوط عذاب ، وما دار بخلده أن الشعب المختون الذى سيدمر إمبراطوريته تدميرا هم أتباع النبى الأمى الذى بشر به السيد المسيح ، الفارقليط الذى سينزل عليه الكتاب المنير الذى سيمكث مع الناس إلى الأبد .

٤

براری سهلة كثرت فيها المزارع وقامت عليها أشجار النخيل كالأبراج ، وانتشرت هنا وهناك بساتين خضراء وعيون جارية وثمرات مختلفة الألوان كأنها العقيق والزمرد والمرجان ، ومراعى ممتدة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، وجبال وعرة وصحراء واسعة مترامية وحصون مرتفعة ومعاقل منيعة وبحر يخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، وقصور عجيبة وأبنية عظيمة ومدن عامرة ، وتجارة ممدودة فى الدر والياقوت والمسك والكافور والعود الرطب وأنواع العطر والفلفل والحديد والحرير القصب والتحف والسجاجيد والسيوف ، إنها أرض اليمن أرض الخير والبركات .

وفى قبيلة دوس فى أرض اليمن كان الناس يطوفون بصنم ذى الكفين وكان لعمرو بن حمُمة الدوسى ، وكان الإله العظيم الذى تقدم إليه القرابين والصلوات وترفع إليه الابتهالات والدعوات ، وكان بين الطائفين الطفيل ابن عمرو الشاعر الشريف الغنى الذى فتح أبواب داره للضيفان ، وأبو أزيهر الدوسى الذى خطب ابنة الوليد بن المغيرة أخت هاشم بن الوليد وخالد بن الوليد والذى ربط بهذه المصاهرة الأسباب بين دوس وبين حى من أعظم أحياء قريش ، فبنو مخزوم قد تساووا على الركب مع بنى هاشم وبنى أمية ، وقد اشتعلت بين تلك الأحياء المنافسة على شرف زعامة أهل الحرم ، وإنه لمجد عظيم قد جلبه ابو أزيهر لقبيلته بتلك المصاهرة الكريمة التى تتوق إلى مثلها كل قبائل العرب .

وكان إلى جوار أبى أزيهر صديقه الحميم سعد بن صبيح بن الحارث بن سابى بن أبى صعب بن هُنية ، وقد تعلقت عيون الناس بالطفيل وأبى أزيهر وابن هُنية أشراف دوس وساداتها وأصحاب الأموال وأهل الذكر من بنيها .

وكان بين الطائفين شاب فقير آدم بعيد ما بين المنكبين ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين لا يلتفت إليه أحد ، إنه عبد شمس ابن أخت ابن هُنية ، ولو قال كل العرافين والمنجمين للناس إن ذلك الشاب الفقير الذى يرعى غنم أهله والذى يقاسى شظف العيش سيصبح أشهر أهل دوس ، بل أشهر أهل اليمن جميعا لما صدقوهم .

إن عبد شمس وجد هرة وحشية لما كان صبيا فأخذ أولادها وعاد إلى البيت ووضع أولاد الهرة فى حجره وراح يداعبها ويحنو عليها ويطعمها ، ومر أبوه به فقال له :

ـــ ما هذه فى حجرك ؟

فقال عبد شمس فى فرح :

ـــ أولاد هرة وحشية .

ووقف أبوه ينظر إلى حدب ابنه على الهريرات الصغيرة وعنايته بها وصبره عليها ، فقال له وهو منطلق إلى حجرته :

ـــ أنت أبو هريرة .

وغلبت كنيته على اسمه فعرف فى دوس كلها بأبى هريرة ، وراح أبو هريرة يمضى وقته فى رعى الغنم مع أخيه كُريم ، ويلعب أحيانا مع ابن عمه أبى عبد الله الأغر ، حتى مات أبوه وهو صغير فشب يتيما لينصهر فى بوتقة الحزن ويعتزل الناس ويعود إلى نفسه ، استجماعا لشتات ذاته وامتلاكا

فأشرقت الوجوه واتجهت الأبصار إلى العروس بنت الوليد فأطرقت حياء ، فقامت إليها أسماء بنت مخربة أم أبى الحكم بن هشام تطيبها بأفضل ما عندها من أنواع الطيب ، وتحدثها حديثا رقيقا عن الدوسى القادم من اليمن بأموال قومه ليدفع مهر العروس الجميلة سليلة بنى المغيرة الأمجاد .

ومر الوقت وطال السمر و لم يفتح أبو أزيهر فمه بكلمة عن المهر الذى وعد بدفعه لبنت الوليد فران على المجلس قلق ، وبلغ ذلك القلق غايته لما نهض أبو أزيهر مستأذنا فى الانصراف دون أن يرد ذكر المهر على لسانه ، فاستشعر بنو المغيرة بطعم الإهانة إلا أنهم تحلموا على مضض .

وبعيدا عن أهل البيت خلا هاشم بأبيه وقال فى ثورة وغضب ، إن مماطلة أبى أزيهر فى دفع مهر أخته إهانة لهم ، ولو ذاع ذلك الخبر بين الناس لنال من كرامتهم ، وإن الأمر أصبح يستدعى وضع حد لهذه المهانة . فراح الوليد يعمل جاهدا على إخماد ثورة ابنه ، وإن كانت نار الغضب تندلع فى صدره وتلسع أفكاره .

وتصرمت أيام وأبو أزيهر يغدو ويروح بين دور بنى مخزوم والحرم ومجالس سادات قريش ، وبنو المغيرة يسألونه أن يدفع المهر الذى اتفقوا عليه وهو يعد ولا ينفذ شيئا مما يعد به ، فيزداد هاشم بن الوليد حنقا على حنق ، وهمس الناس فى مكة أن أبا أزيهر الدوسى يماطل فى دفع مهر بنت الوليد بن المغيرة ، وارتفع الهمس حتى صار حديث النوادى والسمَّار ، وترامى ما يتندر به القوم إلى مسامع هاشم فران الغضب على قلبه وانسدلت أسجاف الحقد على بصيرته ، فانطلق كالعاصفة إلى حيث كان ذلك الدوسى الذى جعلهم سخرية فى أفواه الناس .

واحتدم النقاش الغاضب بين أبى أزيهر وهاشم ، وملأ الحنق فؤاد هاشم

فأعمى بصره وعقله واستولت عليه فكرة واحدة : إن ما لحقهم من إهانة لا يغسله إلا دم من دفعه طيشه إلى الجرأة عليهم ، فاستل سيفه وطعن به أبا أزيهر فأرداه قتيلا ، وفى مثل لمح البصر ذاع فى مكة خبر مقتل هاشم لأبى أزيهر الدوسى ، وفى لحظات كان سادات قريش يديرون قداح الرأى بينهم ليروا لهم رأيا فى تلك العداوة التى نشبت فجأة بين قريش ودوس بعد أن أصبح بين القبيلتين ثأر .

كان تجار قريش فى الشراة ، وهى صقع بالشام بين دمشق ويثرب ، لا علم لهم بالثأر الجديد الذى سيجعل كل قرشى مطلوبا لدوسى ولو لم يشترك فى دم أبى أزيهر ، فكان على أشراف قريش أن يبعثوا أرطأة بن سيحان حليف حرب بن أمية ، وأن يعجلوا بذلك وأن يحثوه على الإسراع ليبلغهم الرسالة ليأخذوا حذرهم قبل أن يصل النبأ إلى الدوسيين فيغمسوا خناجرهم فى قلوب القرشيين الغافلين .

ورأى حاجز الأزدى ما نزل بسيد من سادات قومه فراح يسابق الريح ليخبر أهله بالرزء الفادح . وكان سباقا رهيبا بين أرطأة الذى كان مع بنى أمية كواحد منهم وبين الأزدى . سباقا بين الحياة والموت ، وقد أحس أرطأة أن أرواحا بريئة معلقة بأرجل راحلته فراح يستحثها على العدو دون رحمة أو شفقة .

وبلغ أرطأة السراة وقد نال منه الجهد وكادت راحلته تموت من التعب ، وما أسرع ما انطلق إلى تجار قريش يقص عليهم قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ويحذرهم غدر الدوسيين أخذا بثأر من قتله هشام لمطله إياه بمهر أخته .

ونجا تجار قريش الذى كانوا فى السراة ولكن ابن هُنيَّة صديق أبى أزيهر

لزمام أمره لكى يزيد فى خصب حياته الباطنية ويضاعف من ثراء عالمه الداخلى ، حتى إذا ما بلغت أذنيه الدعوة إلى الله كان معدا إعدادا نفسيا للتصديق والهجره إلى الله ليرتمى بكل كيانه فى أحضان الدعوة الجديدة .

وأتم الطفيل بن عمرو سيد دوس وشاعرها ، وأبو أزيهز صهر بنى مخزوم ، وابن هُنية صديق أبى أزيهر الحميم مناسكهم ، فابتعدوا عن بيت ذى الكفين وهم يتحدثون فى أمر دنياهم ، فما كان الدين فى أعماق ضمائرهم فهم يمارسون ما وجدوا عليه آباءهم عاكفين .

كان الحديث يدور حول سفر أبى أزيهر إلى مكة لزيارة بيت الوليد بن المغيرة ، وكان الطفيل سعيدا بخطبة أبى أزيهر لبنت الوليد فأخوها خالد هو قائد فرسان قريش له الأعنة وله القبة التى يضربونها إذا ما تأججت نيران الحرب ليجمعوا إليها ما يجهزون به الجيش ، فمصاهرة دوس لبنى مخزوم سترفع من شأن دوس بين قبائل اليمن . وكان ابن هنية متهلل الأسارير فزواج صديقه من قرشيةٍ سيفتح له بيوت سادات أهل الحرم وأشرافها ، فراح يتحدث عن تلك الزيجة فى انفعال وحماس لا يقل عن حماس الطفيل ، بينا كان أبو أزيهر صامتا يتظاهر بالإصغاء إلى الصديقين العزيزين وإن كان مشغولا عنهما بالأفكار التى استولت على رأسه واستبدت به .

وانطلق أبو أزيهر إلى مكة فلما بلغها راح يطوف بالحرم . ثم اتخذ سبيله إلى دار الوليد بن المغيرة فألفى هناك الوليد وهاشم بن الوليد وخالد بن الوليد وأبا الحكم بن هشام بن المغيرة (أبا جهل) وسادات بنى المغيرة وبنى مخزوم . فما إن وقعت أعين القوم عليه حتى خفوا إليه يرحبون به أجمل ترحيب .

وانتقل إلى حيث كان النسوة مجتمعات فى الدار خبر وفود أبى أزيهر

كان لا يأخذ أحدا من قريش إلا قتله بأبى أزيهر الدوسى ، ورأى أبو هريرة مقت خاله للقرشيين فنزل فى قلبه بغضهم ، وقد وقر فى ضميره أن هذه البغضاء قد سكنت سويداء قلبه وأن الزمن يعجز عن أن يغسل ذلك الغل الذى يملأ صدره ، و لم يخطر له على بال أن قرشيا أوشك أن يصطفيه الله ويبعثه رحمة للقبائل بل للناس جميعا ليطهر القلوب من البغضاء ويؤلف بينها ، وأن أبا هريرة الحاقد سيكون بفضل من الله من أتباعه المقربين الذين يجدون فى قربه غذاء للروح ونبراسا للعلم الصادق والحكمة الغالية .

٥

ألفان وخمسمائة بعير أناخت خارج الحرم والرجال يغدون ويروحون بين دورهم ودار أبى سفيان ، فمكة كلها تتأهب لرحلة الصيف التى ستنطلق إلى الشام وعلى رأسها سيد بنى أمية ، وقد جاء إلى أم القرى تجار ثقيف يقودهم أمية بن أبى الصلت صديق أبى سفيان الحميم ورفيقه فى السفر .

وراح معاوية بن أبى سفيان يمشى إلى حيث جلس أبوه بين سادات قومه وأمه هند بنت عتبة ترقبه وقد رفت عل شفتيها ابتسامة رضا ، وسرعان ما شرد ذهنها لترى نفسها فى دار الفاكه بن المغيرة زوجها الأول الذى جرح كبرياءها جرحا لا تنساه .

كان الفاكه من فتيان قريش وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل ممن كانوا يغشون البيت فولجه فلما رأى هندا رجع هاربا ، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله وقال :

— من هذا الذى خرج من عندك ؟

— ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى أنبهتنى .

— ارجعى إلى أمك .

وارتجفت هند وهى فى مكانها فى بيت أبى سفيان من الرأس إلى القدم ، فتلك الذكرى كلما هاجت تخزها وخزا أليما . وحاولت أن تطردها عن

ــ ثمرة فى كمرة .

ــ إنى أريد أبين من هذا .

ــ حبة فى إحليل مهر .

ــ صدقت . انظر فى أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول :

ــ انهضى .

جتى دنا من هند فإذا بها تكاد تموت رعبا ، فشرفها قد بات معلقا بكلمة تخرج من بين شفتيه فقال لها :

ــ انهضى غير زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية .

وتهللت أساريرها وهى فى مكانها ترنو إلى معاوية ، ورأت فى وضوح على صفحة ذهنها الفاكه وهو ينهض إليها فيأخذ بيدها وهى تنشر يدها من يده وتقول :

ــ إليك عنى ، فو الله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك .

كانت لحظة قاسية لكأنها دهر سرمد ، ترى ماذا كان مآلها لو أن الرجل أخطأ . وانتبهت من ذلك الكابوس الذى ران عليها على أصوات الرجال المقبلين المدبرين ، فألفت رجلا يتفرس فى وجه معاوية فصوبت إليهما بصرها وكل حواسها ، فالتقطت أذناها قول الرجل :

ــ إن هذا الفتى سيسود قومه .

فردت هند على الرجل فى حدة :

ــ ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه .

كانت أحلام هند عريضة ، وكانت ترجو لابنها ملكا كملك كسرى أو قيصر ، فراحت تبث فيه التطلع إلى السيادة وتوسع آفاق حبه

رأسها ولكنها ألحت عليها وفرضت نفسها فرضا ، وراح كلام الناس يدوى فى أذنيها دويا مفزعا يكاد يمزق أعصابها وإن مضى على ذلك ثمان سنين . وعلا صوت أبيها حتى غطى على كل صوت :

— يا بنية ، إن الناس أكثروا فيك فأنبئينى بنبئك ، فإن يكن الرجل عليك صادقا دسست عليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

— لا والله ما هو علىّ بصادق .

— يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن .

ورأت هند نفسها فى نسوة والفاكه فى جماعة من بنى مخزوم وعتبة فى جماعة من عبد مناف ، والقافلة تنطلق إلى اليمن حتى إذا شارفوا البلاد قالوا :

— غدا نرد على الرجل .

ورن فى أذنيها صوت أبيها وقد نم عن الريبة :

— إنى أرى ما حل بك من تنكر الحال وما ذاك إلا لمكروه عندك .

— لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه، ولكنى أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمنى ميسما يكون علىّ سبّة .

— إنى سوف أختبره .

فصفر عتبة بن ربيعة بفرسه حتى أدلى . ثم أدخل فى إحليله حبة بر وأوكأ عليها بسير ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما قعدوا قال له عتبة :

— جئناك فى أمر وقد خبأت لك خبئا أختبرك به ، فانظر ما هو ؟

للسيطرة ، وما كانت هند بدعا بين سيدات قريش ، فأم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس كانت ترقص ولدها عبد الله بن عباس قائلة :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى
إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يوارى فى ضريح القبر

وجاء الليل وماج الناس بعضهم فى بعض ، وجلست صاحبات الرايات الحمر لاستقبال الرجال : سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وعناق صديقة دلدل ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان ابن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومى ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر ، وغاص المكان بتجار الفساد وجند الشيطان والباحثات عن الذهب .

وأقبل أبو سفيان وإلى جواره صديقه العزيز أمية بن أبى الصلت الطامع فى النبوة ، يحف بهما سادات قريش ، فلما وقعت أعين الناس على سيد بنى أمية ساد المكان سكون وأرهفت الآذان ، فإذا بصوت أبى سفيان يجلجل إيذانا بالرحيل ، فكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون ، وتحركت آلاف الرواحل وراح الفرسان يحرسون قافلة أبى سفيان فبدا كأن مكة كلها قد خرجت إلى الشام .

وانطلقت القافلة فى معبد الله وأبو سفيان يصدر أوامره ، وأمية بن أبى الصلت هائم فى الوجود يقلب وجهه فى ملكوت السموات والأرض ويجتهد فى الوصال بالذات العلية التى يطمع فى أن تبعثه هاديا ومبشرا

ونذيرا . ونزلت القافلة منزلا فلم يعتزل أمية قومه ليأنس بربه ويأخذ فى ذكره ليسعد بجلاء قلبه فتنكشف له أكثر الحقائق بكشف إلهى ، بل أخذ سفرا له يقرؤه على أصحابه فقد كان أمية يحصل العلوم من الكتب ، فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت فى نفسه ورسخت فى قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله علم ما لم يعلم .

واستأنفت القافلة رحلتها وأمية يفكر فيما قرأه فى الكتب ، فلم يتصل بالله و لم يفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وحجبت عن قلبه أنوار العلوم و لم تتجل فيه حقيقة الحق فى كل الأمور ، فرغبته الجامحة فى النبوة ليتيه بها على الناس حالت بينه وبين أن يصفو قلبه لله وحده ، فمنعه الله من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته والتعرض لنفحاته المبذولة بحكم جوده وكرمه ، فالقلب مقبول من الله إذا سلم من غير الله ، فمن كان لله كان الله له .

واستمر أمية يقرأ الأسفار على أصحابه كلما نزلوا منزلا فى الطريق حتى نزلوا قرية من قرى النصارى ، فجاء بعض الرهبان إلى أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال :

ـ هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

لم يكن أبو سفيان مهتما بالنبوءات التى شغلت أذهان المترقبين للبعثة ، وما كان من المهتمين بالإرهاصات الدالة على قرب ظهور النبى المنتظر فقال فى عدم اكتراث :

ـ لا إرب لى فيه . والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى

بما أكره لأجدن منه .

فذهب أمية فى مسوح الرهبان ليسأل ذلك العالم عما شغله ، وليعبد الله مع الرهبان لعل الله يستجيب لدعائه ويبعثه هاديا إلى قومه ويحقق رجاءه ، وخالفه شيخ من النصارى فدخل على أبى سفيان فقال :

ـــ ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

ـــ لست على دينه .

ـــ لئن ذهبت إليه لتسمعن عجبا !!

وصمت قليلا ثم قال لأبى سفيان :

ـــ أثقفى أنت ؟

ـــ لا ، ولكن قرشى .

ـــ فما يمنعك من الشيخ ؟! فو الله إنه ليحبكم ويوصى بكم .

وخرج النصرانى من عند أبى سفيان ، ومكث أمية عند أصدقائه النصارى حتى جاء قومه بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا . ترى ماذا قال له العالم الذى تناهى إليه علم الكتاب حتى ران عليه ذلك الحزن وتلك الكآبة ؟

وانقضى الليل وما يكلم أمية أصحابه ولا يكلمونه ، ثم التفت إلى أبى سفيان وقال فى تبرم :

ـــ ألا نرحل ؟

ـــ وهل بك من رحيل ؟

ـــ نعم .

فرحلوا فساروا ليلتين وأمية صامت لا ينبس بكلمة ، وظل شارد الفكر حتى إذا ما كانت الليلة الثالثة التفت إلى أبى سفيان وقال :

ـــ ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

ـــ وهل بك من حديث ، والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

ـــ أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبى .

ـــ وهل لك من منقلب ؟

ـــ إى والله لأموتن ثم لأحيين .

فالتفت إليه أبو سفيان وقال فى سخرية :

ـــ هل أنت قابل أمانتى ؟

فقال أمية دون أن يفطن إلى رنة الهزء البادية فى صوت أبى سفيان :

ـــ على ماذا ؟

ـــ على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

فضحك أمية ضحكة مريرة ثم قال :

ـــ بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن فريق الجنة وفريق فى النار .

ـــ ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

ـــ لا علم لصاحبى بذلك لا فىّ ولا فى نفسه .

ومضت ليلتان والحوار دائر بين الصديقين ، أمية يعجب من أبى سفيان الذى ينكر البعث والحساب وأبو سفيان يضحك منه ، حتى قدمت القافلة غوطة دمشق فباعوا متاعهم، وأقاموا بها شهرين فارتحلوا حتى نزلوا قرية من قرى النصارى. فلما رأى الرهبان أمية بن أبى الصلت جاءوه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبين

وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكلم أصحابه ولا يكلمونه .

وعجب أبو سفيان فطالما خرج مع أمية ولكنه لم يجده مهموما مثل ما وجده فى هذه الرحلة ، ترى ماذا يقول له أصحابه الرهبان وفيم يتحدثون وما الذى يجعله يعود من عندهم حزينا كئيبا ؟

وقال أمية لأبى سفيان :

— ألا نرحل ؟

— بلى إن شئت .

فرحلوا وأمية شارد حزين يضيق صدره بما سمع من الرهبان ، فلما انقضت ليالى لم يستطع صبرا على الأفكار التى تدور فى نفسه فقال :

— يا أبا سفيان هل لك فى المسير لنتقدم أصحابنا ؟

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا حتى برزا من أصحابهما ساعة ثم قال أمية :

— هيا صخر .

— ما تشاء ؟

— حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

وأحس أبو سفيان أن ذلك الحديث تنفيس عن الأفكار التى تدور فى رأس أمية والتى ولدتها خلوته مع أصدقائه النصارى الذين كان على دينهم ، فقال :

— إى والله .
— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟
— نعم .
— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟
— لا والله لا أعلم .
— أمحوج هو ؟
— لا بل هو ذو مال كثير .
— وكم أتى عليه من السن ؟
— قد زاد على المائة .
فقال أمية فى أسى :
— فالشرف والسن والمال أزرين به .
فقال أبو سفيان فى عجب :
— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .
فقال أمية فى ثقة :
— هو ذاك .
وصمت قليلا ثم قال :
— هل لك فى المبيت ؟
— لى فيه .

ونزلوا منزلا وباتوا فيه ، وأبو سفيان يفكر فيما قال أمية ويحاول أن يميط اللثام عن حديث صديقه دون جدوى فما كان بقادر على أن يفهم أن الشرف والسن والمال تزرى بإنسان ، حتى إذا ما لاحت الشمس فى الأفق الشرق ارتحلوا ، فلما كان الليل قال أمية :

— يا أبا سفيان .

— ما تشاء ؟

— هل لك فى مثل البارحة ؟

كان أمية متلهفا على أن يخلو بصديقه يناجيه ويبثه حزنه ويفصح عن بعض ما يجول فى خاطره لعله يقضى على ذلك القلق الذى استبد به مذ سمع من الرهبان ما سمع ، فقال أبو سفيان :

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا على ناقتين نجيبتين حتى إذا برزا قال أمية :

— هيا صخر . هيه عن عتبة بن ربيعة ؟

— هيا فيه .

— أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

واتسعت عينا أبى سفيان دهشة ، فما بال صديقه يكرر ما قاله من قبل ؟ إن فى رأسه أشياء لا يريد أن يفصح عنها ولا يقوى على كتمانها ، أشياء أقلقته وأطارت الطمأنينة من فؤاده ، بل لعلها حطمت أملا عظيما من آماله ، وقال فى انتباه :

— إى والله إنه ليفعل .

— وذو مال ؟

فقال أبو سفيان وهو يحاول أن يستشف ما وراء ذلك الحديث :

— وذو مال .

— أتعلم قرشيا أسود منه ؟

— لا والله ما أعلم .

ــ كم أتى له من السن ؟

وزاد عجب أبى سفيان فقد أنبأه بذلك من قبل ، ولكنه رأى من الخير أن يجاريه حتى يكشف عن خواطره فقال :

ــ قد زاد على المائة .

ــ فإن السن والشرف والمال أزرين به .

ــ كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

فقال أمية فى شرود :

ــ لا تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .

وأطرق برهة ثم قال :

ــ فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ثم قلت : أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب . قال : هو من إخوانكم من قريش .

وأحس أمية أن صوته يتهدج وأن مرارة ملأت فمه ، فصمت قليلا ثم قال :

ــ فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه ... قلت للعالم : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة

كلها فيها مصائب ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

فقال أبو سفيان فى حدة :

— هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنًّا شريفا .

— والذى حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن قول النصرانى حق ، هل لك فى المبيت ؟

— نعم . لى فيه .

فباتوا ثم خرجت قافلة أبى سفيان قاصدة مكة، حتى إذا كان بينهم وبينها مرحلتان ليلتان ، أدركهم راكب من خلفهم فسألوه فإذا هو يقول :

— أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها ، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

فأقبل أمية على أبى سفيان فقال :

— كيف ترى قول النصرانى يا أبا سفيان ؟

فقال أبو سفيان وقد نظر فى شرود :

— أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق .

وخرج أهل مكة لاستقبال القافلة العائدة من الشام ، وكثر العناق واشتد وجيب القلوب فى الصدور وانهمرت الدموع من العيون . والتقى أبو سفيان وأمية بن أبى الصلت بمحمد بن عبد الله ، و لم يخطر لهما على قلب أن ذلك الرجل الشاب حين دخل فى الكهولة ، الذى يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، هو النبى المنتظر .

٦

كان البيت غارقا في الصمت وخديجة وفاطمة وعلى لاذوا بالسكوت ، فرب البيت محمد بن عبد الله فى غرفته يناجى ربه ، وأم أيمن فى الطبقة الأولى من الدار ترعى شئونها ، وخرج زيد بن محمد إلى الحرم ، وانطلق هند بن أبى هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش إلى بعض شئونه .

وكانت خديجة فى سرور روحى فياض ، فهى ترى بعين بصيرتها أن أنوارا تفيض فى دارها كأنما تنسكب من السماء ، أنوارا تتألق فى الليل والنهار تبهر أنوار الشمس التى رأتها فى منامها تهبط من السماء لتستقر فى دارها قبل أن تتزوج أبا القاسم ، وقد صارت تشم روائح زكية يفوق أريجها كل ما فى الأرض من طيب وعطر ، إنها عبير ينعش الروح وينزل بالنفس نشوة صافية سرمدية تشرح الصدر وتملأ الجوانح بالرحمة .

وكانت تحس أن شيئا غامضا مثيرا ينفث فى روعها أنها مقبلة على أروع أيام حياتها ، وأن أنوار اليقين تشرق فى قلبها فتبدد عن سمائه كل السحب التى كانت تربطها بالدنيا حتى لتكاد أكثر الحقائق أن تنكشف لها ، وكانت تفعم بمشاعر نبيلة كلها روحانية فتطفر الدموع من مقلتها شكرا لله على أن خصها بلطفه ورحمته .

ووقعت عينا خديجة على ما فى دارها من فاخر الرياش والتحف النادرة التى استوردت من الشام ومصر والعراق وفارس فلم تحفل بالطرف الغالية والترف الذى ران على المكان ، بل زهدت فى كل متاع بعد أن تعلمت فى

مدرسة أبى القاسم أن المال يأكل نفسه وأنه لا يفرح به وأن قيمته فى قدر الحاجة إليه ، وأن الكنز الحق هو كنز صالح الأعمال ، وأن التفرح فى الله هو نبع السعادة الذى لا ينضب بل يربو ويزداد كلما نهل منه الناهلون .

كانت أموالها ممدودة ولكنها كانت زاهدة فيها ، فأبو القاسم قد غرس فيها حب الإنفاق وأن تكون كل حركاتها وسكناتها لله لا تريد بها إلا وجهه ، فقادها إلى ينبوع الفرح الصافى فصلحت نيتها فى الأخذ والترك والإنفاق ، وعرفت السعادة الحقة بالقرب من الله وتعريض قلبها لنفحات رحمته .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهى فى كنف أبى القاسم تبدلت فيها نظرتها إلى الحياة والكون وما وراء الطبيعة ، فبعد أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح زهدت فى هذه المادية الطاغية بعد أن ذاقت حلاوة رفرفة الروح فى الملكوت ، والفرح الفياض فى الجهاد المجنح للاتصال بذات الذوات ، والاستبشار بصفاء القلب وتزكيته وجلائه وإشراق أنوار المعرفة فيه .

كانت فى حيرة فى عباداتها قبل أن يعرف النور طريقه إلى دارها ، فقد تفتحت عيناها أول ما تفتحت على عبادة الأصنام وتقديس اللات والعزى ومناة وهبل ومئات التماثيل المكدسة فى الكعبة ومن حولها، ثم لما تزوجت من هند ابن أبى هالة بن زرارة التميمى عرفت الشىء الكثير عن عبادة تميم وكانوا يدينون بالمجوسية ويعبدون النار ، ولما كفر ابن عمها ورقة بن نوفل بدين قومه واعتنق النصرانية كانت تلقىٰ إليه سمعها وهو يحدثها عن إله بنى إسرائيل ورب المسيحيين فكانت مشتتة الفكر ليس لها قرار . حتى إذا ما جاء ابن عبد الله إليها بدد كل الشكوك وبذر فى عين ذاتها بذور الإرادة

والإخلاص ، وراح يدربها على السير فى طريق الله والتماس بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمال لا نقصان فيه ، فأصبحت تستشعر أن عالمها أوسع من العالم الأرضى ، وأن مملكتها أعظم من كل الممالك . وأن استدرار لطائف المعارف من خزائن الملكوت خير وأبقى من الأموال المكنوزة و زينة الحياة الدنيا .

وسمعت خديجة وهى فى مكانها صرير باب فانتبهت فقد انتهى أبو القاسم من صلاته ، وعرفت فاطمة الزهراء أن أباها الحبيب قادم فأشرق وجهها بالبشر ، ولاح على وجه على بن أبى طالب الانشراح فقد كانت أسعد الأوقات تلك الساعات التى يمضيها رب البيت مع من فى البيت يفيض عليهم من حنانه وعلمه وحكمته .

وأقبل محمد على أهل بيته وهو يبتسم ، فرأت خديجة فيه هالة من نور تزداد تألقا على مر الأيام حتى لتكاد أن تفيض على مكة وتملأ الآفاق . ورأت فيه فاطمة جوهر الحنان وينبوع الحب فهرعت إليه رقيقة كالنسيم طاهرة كالندى متفتحة كزهرة الربيع ، ففتح لها ذراعيه فارتمت فى أحضانه فرفعها بين يديه وقبلها قبلة رقيقة لكأنها ذوب نفس لطيفة لبها الرحمة والصفاء . ورأى فيه علىّ الوالد الحنون والقدوة الصالحة والأسوة الحسنة ومدينة العلم التى ينهل منها ما يشاء كيفما يشاء وأنى يشاء ، ففتح نفسه وقلبه وعقله لأنوار المعرفة والحكمة المتدفقة من بين شفتى ابن عمه الكريم .

وجلسوا ترفرف عليهم البركات وترعاهم عناية السماء ، فهم فى حركاتهم وسكناتهم يجاهدون فى الله ليهديهم الله سبله ، يعيشون مع الله آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قلوبهم تخفق بذكر الله ، فقد صبروا فى

الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وذكروا الله فذكرهم الله .

كانت دار خديجة فى ظاهرها إحدى دورْ مكة التى تحيط بالحرم ، ولكنها كانت فى حقيقتها دارا تختلف عن كل ما حولها . فدور أم القرى مشدودة إلى الأرض غارقة فى الظلمات وإن انسكبت من نوافذها أنوار النهار ، بينا كانت هى منجذبة إلى السماء تشرق فيها أنوار تبهر الوجدان وتنير الأفئدة على الدوام .

ونهض أبو القاسم ليدور على دور بنى هاشم وبنى زهرة ويزور بناته قبل أن يعتكف فى غار حراء طوال شهر رمضان يتحنث ويأنس بربه ، فهو يصل رحمه ويعرف للقرابة حقها ، وهو يحب أن يشب ابن عمه الذى يتربى فى رعايته على صلته لأرحامه . فأخذ عليا معه وانطلق إلى دار أبى طالب .

واستقبل محمد فى الدار التى تكفلت به صبيا أحسن استقبال ، وأقبل على عمه وامرأة عمه فاطمة بنت أسد وأبناء عمه عقيل وجعفر وطالب بكل عواطفه فهو بطبعه لا ينسى فضلا لذوى الفضل ، وقد وجد فى أهل ذلك البيت من العطف والرعاية ما عوضه من موت آمنة وفقد عبد المطلب .

واستأذن محمد فى الانصراف فالتمست فاطمة بنت أسد من على أن يمضى نهاره عندها مع إخوته ، فأبى الصبى أن يفترق عن ابن عمه ولو ساعات فأسعد الأوقات وأمتعها لروحه تلك الفترات التى يعيش فيها مع أبى القاسم يستأثر وحده بعذب حديثه وغزارة علمه وفيض حكمته .

وانطلقا إلى دار عمهما أبى لهب فإذا بامرأة عمهما أم جميل بنت حرب ابن أمية ترحب بهما وتبش لهما ، وإذا بأبى لهب يقبل عليهما

وقد أشرق وجهه بابتسامة صادقة ، فقد كان أبو لهب يحب محمدا حبا صادقا وكان حريصا على أن يزوج ابنيه عتبة ومعتب لرقية وأم كلثوم ابنتى ابن أخيه الأمين .

وهرعت جارية إلى حيث كانت رقية وأم كلثوم وقالت لهما : إن أباهما قد جاء لزيارتهما . فطارتا بجناح الشوق إلى حيث كان الوالد الحنون فضمهما إليه فى حب شديد ، وما لبث أن جاء عتبة ومعتب ليسلما على أبى القاسم .

ودار حديث رقيق ورفرفت السعادة على الجميع ، وكان محمد أكثرهم انشراحا واستبشارا فابنتاه العزيزتان تعيشان فى دار عمه أبى لهب عيشة راضية ، وقد زاد فى سروره أن قرأ فى عينى ابنى عمه حبهما لرقية وأم كلثوم .

وخرج أبو القاسم وعلى لزيارة زينب ، وقد ذاع فى مكة خبر حب أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى لابنة خالته زينب بنت محمد ، فأبو العاص كان كثير السفر فى تجارته ، وكان إذا هزه الشوق إلى امرأته راح ينشد الشعر شوقا إليها ، وقد ردد الرواة قوله فيها :

ذكـرت زيـنب لما ورَّكت أرِ مـا
فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما
بـنت الأمين جزاهـا الله صالحة
وكل بعـل سيثنـى بالـذى علمـا

وبينا كان محمد وعلى فى طريقهما إلى دار أبى العاص إذا بفتى قصير دحداح فى السابعة عشرة من عمره قد جلس يبرى النبل ووقف عند رأسه

حمزة بن عبد المطلب ، فألقى محمد على عمه حمزة تحية طيبة ثم حدث الفتى حديثا يترقرق بالمحبة ، ولا عجب فقد كان الفتى سعد بن أبى وقاص ، وأبو وقاص هو مالك بن وهيب عم آمنة بنت وهب ، فكان محمد ينظر إلى سعد على أنه خاله ، فكل بنى زهرة أخواله .

وفى دار أبى العاص بن الربيع سعدت زينب بزيارة أبيها ، وسعد محمد بابنته وزاده غبطة أن زوج ابنته قد عرف فى مكة بالأمين كما عرف هو نفسه بذلك من قبل . وراحت هالة بنت خويلد تسأل عن أختها خديجة وعن فاطمة الزهراء وعن الأعزاء زينب ورقية وأم كلثوم ومحمد يجيب وقد انفرجت شفتاه عن الرقة ولاح فى عينيه المحمرتين صفاء النفس .

وفيما كان محمد وأبو العاص وهالة وزينب وعلى آخذين بأطراف الحديث إذ أقبل نوفل بن خويلد ليزور أخته ، وسرعان ما جاءت صفية بنت عبد المطلب ومعها ابنها الزبير بن العوام بن خويلد لرؤية هالة بنت خويلد ففاضت القلوب بالرحمة ، وأحس نوفل بعطف صفية على ابنها فتذكر يوم أن رأى صفية تضرب ولدها الزبير وهو صغير بعد أن قتل أبوه فى حرب الفجار وتغلظ عليه ، فعاتبها فى ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فمس أذنيه وهو فى مجلسه قولها له فى ذلك اليوم :

من قال إنى أبغضه فقد كذب   وإنما أضربه لكى يلب
ويهزم الجيش ويأتى بالسلب   ولا يكن لماله خبء مخب
يأكل ما فى الظل من تمر وحب

كان حبل الوداد موصولا بين محمد وقومه فهو يزور كل من كان بينه وبين بنى هاشم صلة قربى ، فإذا مرض أحد من بنى مخزوم عاده فهو يذكر أن جدته أم أبيه عبد الله منهم ، ويفتح قلبه لآل عفان وبنيه فعفان تزوج

أروى بنت عامر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب توأم أبيه ، وقد قرب عثمان بن عفان إليه لدماثة خلقه وأمانته التي اشتهر بها فضلا عن أنه ابن بنت عمته .

ولما مات عفان تزوجت أروى عقبة بن أبي معيط فولدت له الوليد وعمارة وخالدا وأم كلثوم ، فاتصلت الأسباب بينه وبين عقبة وآله . وكانت الصلات وطيدة بينه وبين بني هلال لأن أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج عمه العباس منهم ، وبينه وبين بني كلدة في الطائف فالحارث ابن كلدة طبيب العرب كان زوج خالته ، وقد مرض سعد بن أبي وقاص ذات يوم مرضا فعاده أبو القاسم فقال : ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب . فلما عاده الحارث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس ، اتخذوا له فريقة[1] بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان . فتحساها فبرئ .

كان قلب محمد بن عبد الله كبيرا يسع كل من كان بينه وبينه صلة رحم مهما كانت تلك الصلة بعيدة ، وكل من أسدى إليه معروفا مهما كان ضئيلا ، فهو لا ينسى أبدا حليمة السعدية التي أرضعته، ولا ثويبة التي بشرت عمه أبا لهب بمولده، ولا مرضعات بناته ولا حواضنهن، ولا أي ممن اتصل به بسبب، وكان عطفه سابغا عليهم جميعا فلا غرو أن أحبه كل من عرفه . ولو شاء أن يعيش في سويداء قلوب قومه ناعم البال ينعم برغد العيش لوجد في أموال خديجة ما يغنيه أبدا وما يرفعه إلى السؤدد والجاه والسلطان ، وفي حب الناس ما يرضى نفسه . ولكنه ما خلق للحياة الناعمة فقد اصطفاه الله ليجاهد في سبيل تبليغ رسالة ربه ، ويتحمل الألم والعذاب والاضطهاد وعداوات الذين كانت قلوبهم تخفق بحبه حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) تمر يطبخ بحلبة .

٧

أجدبت الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وضج رعايا الدولتين من فداحة الضرائب ، فقد ذابت الأموال فى الحروب الناشبة بين الرومان والفرس وكان على الناس أن يغذوا خزائن الدولتين اللتين أصبحت العداوة بينهما سمة العصر وحديث الدنيا .

ووهنت إشعاعات الثقافة الرومانية والثقافة الفارسية فلم يجد العرب ما ينهلون منه إلا قشور المعرفة ، وحسبوا أن الرقّى موائد تمد وشراب وترف ولهو وغناء وقيان ورقص وقمار ، فراح سادات العُرب وأشرافهم يحاولون أن يقلدوا ما فى البلاط الفارسى من ترف وما فى قصور القسطنطينية وحوران وبصرى من الضلال ، فسرت الجهالة فى مكة وفى كل القبائل فى شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، وظهر الفساد فى البر والبحر .

وبدا أن القبائل كلها تقاسى من طور المراهقة ، فلا سلطان لأحد على أحد محاولات دائبة للتحرر الاجتماعى والسياسى والدينى من قيود شريعة القبيلة ، فكانت المجتمعات العربية تكابد انهيارا معنويا قد خمدت فيه النوازع والنواهى ، فمات الإحساس بالندم لا سخط على فعل سيئ ولا شعور بعار ، بل زهو بإتيان الفواحش وإهدار الكرامة الإنسانية وسفك الدماء البريئة ، وما بقيت بعض الفضائل إلا للزهو والتفاخر .

وكانت حاسة الشرف تزمجر بين صدورهم كالوحش الضارى وإن كانت كل فعالهم لا تمت للشرف ، فقد كانوا جميعا كالذئاب العادية

والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضا : السلب فضيلة ، والرجال الأحرار موثوقون فى حلق الأسر ، والنساء الحرائر ينتزعن من أحضان بعولهن ليلهو بهن اللاهون ويتغنى بما وقع عليهن من اعتداء المغنون ويفخر بذلك المفتخرون ، فاغتصاب امرأة صار حديث السمار فهو يعد ضربا من ضروب البطولة والزهو .

وكان الشعراء يفخرون بسبى رجال قبائلهم لنساء أعدائهم ، فقد قال جرير يعير بنى دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :

وبرحرحان غداة كُبِّل معبد
نكحت نساؤكم بغير مهور

وكانوا يعيرون نساءهم بأن الرجال لهم إليهن وسيلة ، فقد قال فارس الفوارس عنترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة
أن يأخذوك تكحّلى وتخضّبى

وأنا امرؤ إن يأخذوه عنوة
أقرن إلى شد الركاب وأجنب

ويكون مركبك القعود ورحلة
وابن النعامة عند ذلك مركبى

وكانوا يحاولون أن يفتخروا حتى بما فيه مهانة ، فقد حاول شاعر أن يزهو بأنه يجد فى أثر السبايا المردفات على حقائب الإبل ليستنقذهن بالعشى ، فقال :

وأوثق عند المردفات عشية
لحاقا إذا ما جرى السيف مانع

فقيل له :

ــ ويحك ! وأى فخر أن تلحق النساء بالعشى وقد نكحن وامتهن؟

فلا غرابة أن أصر أفلاطون على استبعاد الشعراء من جمهوريته .

وكان الرواة يجدون لذة فى سرد نوادر ما كان بين السبايا من نساء الأشراف وبين من سلبوهن ، وكانت قصة هند زوجة الحارث بن عمرو الكندى أكثر القصص ترديدا فى المجالس والنوادى ، ففى كل سامر كان راوية يقول :

ــ سبى ابن هبولة الغسانى امرأة الحارث بن عمرو الكندى ، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال منها ، فقال لها : هل كان أصابك ؟ قالت : نعم ، والله فما اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفزهما حتى قطعها . وقال فى ذلك :

كل أنثى وإن بدا لك منها
آية الود حبها خيتعور[1]

إن من غره النساء بود
بعد هند لجاهل مغرور

وكانوا ينعمون بحرية شخصية ولا يعرفون الحرية الاجتماعية ، تغلب عليهم الفطرة والطبع . وما كان منهم من يفكر كيف برز هذا العالم الذى يعيش فيه إلى الوجود ، وما الخير وما الشر ، وما العدالة وما الظلم ، وما جزاء العدالة وما الذى يردع الناس عن المعاصى ، وما الجمال وما الحب ، وما الغنى وما الفقر ، وما الحكمة وما الشجاعة ، وما العفاف وهل من مصلحة المجتمع أن ينظم

---

(١) الخيتعور : سيئة الخلق وكل ما لا يدوم على حاله .

الجنس ، وما حقوق النساء على الرجال ، بل قبلوا حياتهم وسلموا بها سواء أكانوا أحرارا أم عبيدا ، أغنياء أم فقراء ، وإن لم يستمرئوها .

وقد ألغوا الرئاسة العامة وعدوها لغوا ، وكل ما أخذته مكة من نظم الحكم فى الإمبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم أن جعلت لها مجلسا للشورى أشبه بالسيناتو مجلس الشيوخ الرومانى عرف بشيوخ دار الندوة، ولم يدخل تلك الدار إلا من بلغت سنه أربعين عاما. واستثنى من هذا الشرط بعض النوابغ من قريش كحكيم بن حزام وعمرو بن هشام (أبى جهل)، ومن عجب أن محمد بن عبد الله لم يكن من المرشحين ذات يوم ليكون من حكماء دار الندوة فقد حببت إليه العزلة لينأى الله به عن شرور مجتمعه، وليسير حرا طليقا من معتقدات قومه فى طريق رسالته.

ووزع شرف الرئاسة على بيوتات قريش ، فكانت الرفادة والسقاية فى قريش وكان صاحبها العباس بن عبد المطلب ، وكانت راية قريش « العقاب » فى بيت من بيوت شرفهم العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها ، فإن اتفقوا على أحد منهم أعطوه الراية ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ، وكانت هذه الوظيفة من خصائص بنى أمية وكان صاحبها أبو سفيان بن حرب .

ولم تقف آمال أبى سفيان عند شرف حمل راية قريش عند الحروب بل كانت أطماعه تمتد إلى أن يصبح سيد مكة غير منازع ، بل حاكما على كل العرب كحليفه كسرى إن واتته الظروف ، فهو يرى بعينه الفاحصة أن مجد بنى هاشم فى أفول بعد أن وهن عظم أبى طالب واشتعل رأسه شيبا ، وثقل لسان الزبير بن عبد المطلب الذى كانت كل قبائل العرب ترتجف فرقا من هجوه .

وكانت السدانة والحجابة وظيفة دينية وعلى من يتولاها أن يقوم بخدمة

بيت الله وحفظ مفتاحه ، وكانت فى بنى عبد الدار وكان صاحبها عثمان بن طلحة ، فكان عليه وعلى عشيرته تدبير كل الشئون الاجتماعية داخل الحرم ، وكان عليهم أن يشرفوا على دار الندوة فهى فى الحرم فى دائرة اختصاصهم .

وكانت المشورة أشبه برئاسة المجلس وكانت فى بنى أسد رهط خديجة بنت خويلد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وما كان رؤساء قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبهم وافقهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا

وكان أبو بكر صاحب الأشناق وهى الديات والمغارم ، وكان القرشيون يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرما أو دية ، وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بنى تيم ، فكان أبو بكر إذا نهض مع أحد ليجمع له صدقة الناس أعانوا من نهض معه وإن نهض غيره خذلوه ، فقد اشتهر أبو بكر بالصدق ومتانة الخلق .

وأما القبة فهى أشبه بوزارة الحرب وما كانوا يعمدون إليها إلا وقت الحرب ، فكانوا يضربون قبة يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بنى مخزوم رهط خالد بن الوليد ، وكان خالد صاحبها وصاحب الأعنة وهى رئاسة الفرسان .

وكانت السفارة فى بنى عدى وهى أن يمشى السفير للصلح بين حيين شبت بينهما نيران الحرب وتعاظم أوارها ، أو إذا نافر قريش حى للمفاخرة ، وكان صاحبها عمر بن الخطاب الذى استطاع أن يشق طريقه وأن يفرض نفسه على مجتمعه وهو لا يزال فى شرخ الشباب وربيع عمره .

وكانت الأيسار فى بنى جمح وهى الأزلام والقداح يضربون بها إذا

أرادوا أمرا ، وكانوا يؤمنون إيمانا صادقا بأن ما يخرج من الأزلام أو القداح إن هو إلا رغبة الإله ومشيئته ، فإذا جاء على غير هواهم قدموا القرابين للإله واستمروا فى ضرب القداح حتى يرضى ، وكانت آية رضاه أن يخرج القدح موافقا لهواهم ! وكان صفوان بن أمية صاحب الأيسار .

وكانت الأموال المحجرة وهى التى سموها لآلهتهم فى بنى سهم وهى أشبه بالأوقاف الخيرية ، وكان صاحب تولى النظر فى هذه الأموال الحارث ابن قيس .

كان هذا هو حال مكة ؛ قسم المجد فى بيوت شرفهم العشرة ، قد آوى كل من أبناء هذه البيوتات إلى ركن شديد من رهطه . فما كانت هناك شريعة مكتوبة ولا سلطة تأخذ الحق من القوى للضعيف وما كانت العدالة تطبق على الجميع ، إذا سرق من لا حول له ولا قوة قطعوه وإذا سرق شريف تركوه ، وما كان للضعفاء من ملجأ إلا أن يرتموا فى أحضان بيت من بيوت القوة يلتمسون منه الحماية خشية أن يتخطفهم الناس ويهضموا حقوقهم ، وكان على من يقبل إجارتهم أن يعلن على الملأ أنهم فى جواره وحمايته .

وكانت دار الندوة هى مركز السلطة فى مكة ولكنها عجزت عن إبداع التنظيمات التى تستهدف مصلحة المكيين جميعا سادة وعبيدا . وكان هم رجالها الأوحد ألا يقوى بيت على حساب بيت من بيوت الشرف حتى لا يستأثر بالقوة وحده ويستبد بالسلطان ، وكانت بيوت الشرف جميعا راضية ما دامت أموال التجارة تتدفق إلى مكة ، وخمور الشام ترد فى ركاب القوافل ، والحسان من مصر والشام والقسطنطينية والحيرة وفارس مردفات على حقائب الإبل ، وعرق البغايا يدر على السادة المترفين الذهب

والفضة ونقود كسرى وقيصر .

كان الفساد قد ران على مكة بعد قرون طويلة من الغضب والدماء وقسوة القلب وتمزيق أواصر الأخوة الإنسانية ، فبدا أن ذلك المجتمع ينحدر إلى الفناء لا أمل فى انتفاضة تقيله من سقطته ، ولا إرهاصا بعودة الربيع إليه بعد أن أطبق عليه خريف عمره ووهن عظمه ، وقد رفع خنجر الضلالة ليطعن به قلبه .

وكان الناس يتدفقون من الدور ومن الدروب إلى دار أبى سفيان لا يفكرون إلا فى الأرباح التى تعود عليهم من بضاعتهم التى سيشتركون بها فى رحلة الشتاء ، فقد كانت قريش تتأهب للخروج إلى اليمن ، وكان أبو سفيان زعيم القافلة يأخذ ما عند الناس من سلع وأموال لقاء عمولة يتقاضاها مقابل ما يؤدى لهم من خدمات .

وكان الناس يمرون بدار خديجة ويعجبون ، ففى مثل هذه الأيام كان ميسرة يفتح أبواب مخازن خديجة يستقبل ما يأتى به المكيون من تجارة بينا يكتب الكتاب صكوكا بما تسلموا ، ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح وابتسامته الآسرة تشرق فى وجهه ، والإبل تتقاطر من كل صوب وحدب إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ، فما بال السكون يخيم على المكان ؟ وما الذى زهد أهل البيت فى البيع والتجارة بعد أن كانت قوافل الطاهرة تعدل قوافل مكة كلها ؟!

حسب أناس أن خديجة بعد أن تزوجت ابن عبد الله وأنجبت منه ركنت هى وزوجها إلى الدعة وآثرا السلامة فماتت فيهما روح المغامرة ، وأنهما اكتفيا بما هما فيه من نعيم . وقال أناس إن الشيخوخة قد دبت فى ميسرة وإن خديجة لم تجد من تأتمنه على أموالها بعده ، وإنها وإن كانت تزوجت أمين

قريش فهى لم تعد تطيق فراقه بعد أن صار النور الذى ترى به وعقل العقل وروح الروح . و لم يكن يدرى بحقيقة ما يدور فى ذلك البيت المبارك إلا نفر قليل ممن يعيشون فيه ، ومن صحابة أبى القاسم ومن صفوة أقرباء الطاهرة الذين كانت تفضى إليهم بما ترى من أمور زوجها وما تسمع من روائع حكمته .

غرس محمد فى قلب خديجة أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر فى الأموال والأولاد ، وأن كل ما لله فليس من الدنيا ، وراح يرفعها من عالمها الأرضى إلى ملكوت السماء ، ويصفى فؤادها ويجلوه ليسعد بإشراق أنوار المعرفة فيه ، ويتذوق لذات روحية تفوق اللذات المادية التى يجلبها اللهو والتجارة ، فإذا بالحقيقة تتلألأ فى عين ذاتها ، وإذا بتجارتها وأموالها تهون فى سبيل نفحة من نفحات ربها أو جذبة من جذباته تفيض عليها سعادة لا تذوب ولا تنقشع ، بل تستقر حلوة سائغة فى أغوار نفسها وفى صميم وجدانها .

وباتت خديجة تنتظر حادثا جليلا بشرت به الأنبياء وفاضت به الكتب السماوية وتنبأ به الرهبان والأحبار والكهان ، فكانت ترقب فى لهفة إشراق أنوار اليقين من دارها وتعد نفسها ويهيئها ربها لتكون حاضنة دعوته وناصرة رسوله وأول المؤمنين به المؤازرين له بأموالها وروحها بل وبفلذات أكبادها .

إنها أصبحت متفرحة فى الله تحب الله لذاته وتحب زوجها لأنه قادها إلى طريق الله وفجر فى قلبها كنوزا من اللذات الروحية ما كان لها بها من علم . لذة المعرفة ولذة الإنفاق لوجه الله وبذل كل بذل فى سبيل سعادة البشرية والتماس الكمال إرضاء لكمال الكمال .

كان البيت الذى يبدو للناظرين هادئا ساكنا يسعد برغد العيش وينعم بكنوز الأموال ، ينبض بالجهاد فى سبيل التحليق إلى ما وراء الكون وما فوق المادة لينهل من خزائن الملكوت بركات ورحمة ، ويتعرض لنفحات ربه فيرفرف فى عوالم الفرح الفياض والسعادة الحقة .

وفتحت دار خديجة وخرج منها رب البيت محمد بن عبد الله ، فانطلق يحمل تجارته إلى أبى سفيان سيد بنى أمية الخارج فى تجارة قريش إلى الشام لعل الله يجعل فيها خيرا ، فأبو القاسم كانت له تجارته الخاصة ، فكان يرسل بضاعته إلى الأسواق ليعيش من حر ماله ويسد حاجاته — وما أقلها — مما يكسب ، على الرغم من أموال خديجة الطائلة .

٨

كان الظلام يلف الطائف وقد لاذ بنو ثقيف بدورهم ، وكان أمية بن أبى الصلت يقلب صفحات التوراة والإنجيل فى فتور بعد أن خمدت نار حماسته لما قال له علماء النصارى إن النبى المنتظر من قريش ، وأنه يبعث فى الأربعين .

إنه منذ ذلك اليوم وهو كئيب حزين ، فيا طالما جلس إلى نساء ثقيف وقال لهن سيرسل الله رسولا وهو يحس فى أعماقه أنه ذلك الموعود والمنتظر ، وقد بات لا يدرى ماذا يقول لهن لو تحققت نبوءة علماء النصارى الذين انقطعوا للعبادة فى صوامعهم وبيعهم وجاء نبى الأميين من قريش !

وراحت نار الغيرة والحسد تأكل صدره ويستشعر لسعها أليما فى فؤاده ، فهو لا يجد فى قريش كلها من يصلح فى زعمه للرسالة إلا عتبة بن ربيعة ، ولكن نبوءة علماء النصارى تؤكد أن ذلك النبى فقير وعتبة غنى . وأنه فى الأربعين وقد زاد عتبة على المائة . واشتد ضيقه لما راح يقارن بين علمه وصفاته وبين علم كل من أشرفوا على الأربعين من القرشيين وأهليتهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من أوتى الحكمة أو من يتمتع منهم بمثل ما يتصف به من مكارم الأخلاق وحسن الخلق .

كان حليف بنى أمية وكان رفيق أبى سفيان فى كل رحلاته ، وكان يعرف عن أبى سفيان بخله وعهره . ولو لم يكن أبو سفيان قد جاوز

الأربعين لما خطر له على قلب ، فهو على الرغم من غناه ماجن لا يتجنب المحارم والمظالم ، وقد عجم أعواد كل رجال بنى أمية السائرين إلى الكهولة فلم يجد فيهم محوجا كريم الطرفين متوسطا فى العشيرة يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

وفكر فى بنى هاشم فراح يزن شبابهم الداخلين فى الكهولة بموازينه ، فوجد أن غنى العباس قد أزرى به وأن الدنيا قد شغلته عن الدين فراح يقرض الناس بالربا ويأكل أموال الناس بالباطل ، وإن كان له شرف سقاية حجيج بيت الله . ولم يقف طويلا عند حمزة بن عبد المطلب فهو فارس وهو كريم وهو شريف وسط فى عشيرته ، وهو يتجنب المظالم ولكنه لا يتجنب المحارم ، فهو يكثر من الشراب ويقبل على اللهو إذا ما لعبت الخمر برأسه .

وطاف بذهنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعر بنى هاشم وصديق ابن عمه محمد بن عبد الله الذى لا يفارقه ، فرن فى ضميره بعض هجوه لأعداء قومه ، ولم يجد فى شعره ما يدل على اهتمامه بأمر السماء فأشاح بتفكيره عنه . وراح يستأنف الفحص عن رجالات بنى هاشم حتى إذا ما بلغ أبا القاسم أمعن الفكر طويلا . فهو طاهر القلب نقى الضمير يتحنث طوال شهر رمضان فى غار حراء ، وقد اشتهر بين قومه بالأمين ، وهو يتجنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ، وهو كريم الطرفين وسط فى العشيرة ، وهو فقير ويقف على أعتاب الأربعين ، واشتدت ضربات قلب أمية وانبهرت أنفاسه ولكنه راح يحاول أن يعيد الطمأنينة إلى فؤاده ، فجعل يؤكد لنفسه أن محمدا لا يدرى ما الكتب السماوية وما الإيمان ، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وما كان الله فى وهمه يبعث من

كان مثل ابن عبد الله لتبليغ رسالته !

وفكر فى سادات بنى مخزوم فلم يجد فيهم رجلا يصلح للرسالة غير الوليد بن المغيرة ، إلا أن الوليد كان كعتبة بن ربيعة قد أزرى به المال والسن ، فأموال الوليد ممدودة حتى إنه يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش سنة ، فهو عدل قريش كلها وقد فات الأربعين بسنين .

وراح يعجم أعواد بنى تيم فلم يجد فيهم من هو خير من أبى بكر ، فهو دمث الأخلاق طيب القلب متواضع لين الجانب ، يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، يصون عرضه ويحفظ مروءته ، وإنه ليذكر له أن رجلا دعاه أن يستصحبه لحاجة يعينه عليها فرآه يمر فى طريق غير التى يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! قال الرجل : إن فيها أناسا نستحى منهم أن نمر عليهم . قال : تدعون إلى طريق نستحى منها ؟ ما أنا بالذى أصاحبك .

إن أبا بكر رجل سمح ودود يألف الناس ويألفه الناس ، وهو يمتلئ بنشوة الإعجاب برجال الإصلاح ، ولكنه ليس من أصحاب الرسالات وإن كان مؤمنا بالغيب يجيد تأويل الأحلام ، فلا بد له من قدوة حسنة يعجب بها ويتعصب لها ويضع نفسه وماله فى سبيل تأييدها ونصرتها .

واستمر أمية بن أبى الصلت يقيس مواهبه وصفاته بمواهب رجالات بيوت شرف قريش العشرة التى تؤهلهم للنبوة ، فلم يجد فيهم من يصلح لمنافسته على شرف الرسالة . فكان يضيق بنبوءة علماء النصارى التى أكدت له أن النبى المرتقب من قريش ، رجل شاب حين دخل فى الكهولة بُدُو أمره ، يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنوده من الملائكة !

وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب يقرأ ما وصل إلى يديه من علم أطباء فارس والروم ، وكان ابنه النضر بن الحارث يروى على مسامع والده قشور العلوم التى حصّلها من الفرس وبعض أجزاء الحكمة التى امتصها من الكتب ، وقد انتفخت أوداجه غرورا فقد وقر فى ضميره أنه حكيم العرب وعالمها وأنه من الظلم له أن يقارن بحكام القبائل الذين تجرى على ألسنتهم أحيانا بعض الحكم والخطرات الفلسفية .

وكان عروة بن مسعود سيد بنى ثقيف فى داره ومن حوله أشراف الناس يتحاورون ويتجادلون ، ويلقى الرواة ما حفظوا من الأشعار التى أنشدت فى الأسواق ، والنوادر التى كانت تسلية السمار ، والأخبار التى التقطوها فى أثناء رحلاتهم إلى جند يسابور أو الحيرة أو بصرى أو غزة أو منف أو يكسوم أو صنعاء. وبينا كانت الطائف تحيا حياتها الليلية المألوفة، إذا بأصوات فزع وهلع جعلت الناس يهرعون إلى خارج الدور ليروا ماذا جرى .

وتعلقت العيون بالسماء فإذا برهبة تنزل بالصدور ، وإذا بخفقات القلوب تشتد وقد زاغت الأبصار ، فالشهب تساقط من السماء . وبقى الناس فى ذهول لحظات ، ثم راحت صيحات الهلع تزلزل الطائف فقد أشرف العالم على الفناء .

وماج الناس بعضهم فى بعض ، وراح السادة يعتقون رقيقهم وسيبوا أنعامهم وانطلقوا إلى الفضاء لا يلوون على شىء يحسون أن سيتخطفهم الموت ، قد ذهل الأب عن بنيه ، والزوج عن زوجه ، والأم عن وليدها .

واستمرت النجوم تهوى لكأنما كان من فى السماء يرجم أهل الأرض ، فبلغت القلوب الحناجر وكاد الرعب أن يقضى على النفوس قبل أن تنشق الأرض

وتندك الجبال على الرءوس ، وظل الناس يجرون هنا وهناك ولكن أين المفر ؟!

وفزعت ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان رجلا منهم وكان أدهى العرب وكان يخبرهم بالحوادث وكان ضريرا ، فقالوا له :

ـــ يا عمرو ، ألم تر ما حدث فى السماء من الرمى بهذه النجوم ؟

فقال فى قلق :

ـــ بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هى التى يرمى بها فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق .

ورأى أهل مكة الرجم بالشهب والنجوم تهوى من عليائها فانخلعت القلوب وران الفزع الأكبر على الوجوه وارتجفت الأوصال وزلزلت الأرض تحت الأقدام ، والناس ينتظرون الهول والدمار ويترقبون أن تخر عليهم السماء وتنهار عليهم الجبال . وباتوا فى رعب من أن تأخذهم الرجفة فيصبحوا فى دارهم جاثمين ، أو تخسف بهم الأرض فيكونوا من الهالكين ، ففزعوا إلى الحرم يطوفون به ويقدمون القرابين ويتمسحون بالأصنام ويبتهلون إلى ربهم والدموع تبلل اللحى والخدود ، ويسألونه فى صدق أن يرفع عنهم مقته وغضبه .

وحاول الكهان أن يكشفوا عن سر السماء فباءوا بالإخفاق ، فجزع الناس وقالوا فى يأس مرير :

ـــ هلك من فى السماء .

فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل

يوم بقرة ، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة ، حتى أسرعوا فى إتلاف أموالهم واستبد بهم الخوف والقلق فركبوا إلى عبد ياليل الثقفى ، فقالوا :

ــ إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم .

فقال لهم :

ــ انظروا البروج الاثنى عشر ، فإن انقض منها شيء فهى ذهاب الدنيا ، وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم .

وقالت ثقيف لقريش :

ــ أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمت من فى السماء ، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هى والشمس والقمر ؟

ورأى الناس فى يثرب النجوم يرمى بها فقالوا :

ــ ولد مولود .. مات ملك .. مات مولود .

وكان عمرو بن عنبسة السلمى يدخل تيماء وكان قد رغب عن آلهة قومه ، فلما حط الرحال لقى رجلا من أهل الكتاب فقال له :

ــ إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده ، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرحل فيتركه ويأخذ غيره ، وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك ، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا .

فقال الرجل وهو يتفرس فى وجه عمرو بن عنبسة :

ــ يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فانطلق عمرو إلى مكة وسأل :

— هل حدث حدث ؟

فقيل له :

— لا .

فلم يعد له هم إلا مكة يأتى فيسأل :

— هل حدث حدث ؟

وراح الكهان يعوذون برجال من الجن ليسترقوا السمع فى مقاعد لهم ويلقوا ما يسمعون إليهم ، فإذا بمن يحاول أن يستمع يجد له شهابا لا يخطئه ، فقد منعت الشياطين من خبر السماء تطهيرا للأرض من الكهانة وتمهيدا لنزول الوحى الكريم بالنور الذى سيشرق باليقين فى قلوب البشر .

وصاح صائح من الكهان :

— قد منع السمع عتاة الجان .

﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السَّماءَ فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[1] .

---

(١) سورة الجن الآيات ٦ — ١٠ .

٩

كانت نار العداوة متأججة بين الأوس والخزرج ما إن يطفئها عاقل من عقلائهم حتى يشعلها سفيه من سفائهم ، فيمشى الرجال إلى الرجال وتتقارع السيوف فتسيل الدماء وتزهق الأرواح وتتغلغل العداوات فى سويداء القلوب .

وكانت المعارك الحربية تهدأ بين الحين والحين ، ولكن معارك الشعراء من الجانبين ما كان ليعتريها الفتور ، فشعراء الأوس وعلى رأسهم قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت كانوا يفتخرون بقومهم ويذكرون مثالب أعدائهم ، وكان شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبى رواحة يمتدحون رهطهم ويهجون كل من انتسب إلى الأوس بسبب .

وأصبحت العداوة بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت علامة من علامات الحياة فى يثرب ، فقيس بن الخطيم يشبب بعمرة زوج حسان ، وحسان يشبب بأخت قيس ليلى بنت الخطيم ، والرواة من الجانبين يمشون بذلك التشبيب بين القبائل ليكون مادة للسمر فى منتدياتهم .

وصار حديث الحرائر مضغة فى الأفواه ، فقيل إن خولة أخت حسان أنشدت متعشقة عمارة بن الوليد المخزومى :

يا خليلى نابنى سهدى ... لم تنم عينى ولم تكد
فشرابى ما أسيغ وما ... أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل ... آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته ... ليس بالزميلة النكد

من بنى آل المغيرة لا خامل نكس ولا جحد
نظرت يوما فلا نظرت بعده عينى على أحد

وكان حسان يهجو قيسا ويهجو الأوس هجاء مرا ، وكانت القبائل تخشى لسانه الذى قال فيه : والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه . وقد وضعه على قيس والأوس فنالهم منه شر عظيم ، فالشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل .

وشجر قتال بين الأوس والخزرج فوضعوا أبناءهم ونساءهم فى الحصون ، واشتدت الخصومة بين الحيين حتى إن الرجل لم يعد يأمن أن يخرج من حصنه إلى عمل يقضيه خوفا من القتل ، وجلس حسان فى حصنه وقد أسدل ناصيته بين عينيه وأطلق لخياله العنان ، فتذكر تلك الأيام التى ذهب فيها إلى الحيرة وعاش فى قصر الخورنق يلقى قصائد المديح بين يدى النعمان بن المنذر . فما لبث أن أحس حسرة على زوال ملك المناذرة ، بعد أن قتل كسرى النعمان وولى فارسيا على إمارة اللخميين .

وفى مثل لمح البصر انتقل خياله إلى بلاط الغساسنة فانفرجت أساريره ، فجبلة بن الأيهم صديقه . فما من مرة ذهب فيها إلى قصره إلا وخلع عليه ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيره من جلسائه .

ورن فى ضميره أصوات الغناء التى سمعها فى مجلس جبلة ، ورأى بعين خياله ما فى ذلك المجلس من جلال وعظمة وبهاء . عشر قيان . خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وجبلة جلس للشراب وفرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطّن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ،

يمتاز هو وأصحابه بها .

واقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع[١] ، وبقى حسان فى حصنه لا ينطلق مع الرجال للقتال فقد قطع أكحله[٢] فلم يكن يضرب بيده ، وراح يقول فى حسرة وألم :

أضر بجسمى مر الدهور
وخان قراع يدى الأكحل
وقد كنت أشهد وقع الحروب
ويحمر فى كفى المنصل

وما كان حسان جبانا ، فلو عرف عنه الجبن لعيره به غريمه قيس بن الخطيم الذى يتصيد سقطاته ومثالبه .

ومشت الأوس لإقرار الصلح بين الحيين العربيين خشية أن يقوى اليهود ويعود نفوذهم فى يثرب ويشتد سلطانهم ، فأبت بنو النجار من الخزرج وحالوا بين الفريقين وبين السلام حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض وإن بقوا على عداوتهم وتشاحنهم .

ووضعت السيوف فى قربها ، وعادت السهام إلى جعبها . ولكن ألسنة الشعراء استمرت فى الانطلاق ، قال حسان معددا أمجاد الخزرج :

ويثرب تعلم أنا بها إذا التبس الحق ميزانها
ويثرب تعلم أنا بها . إذا قحط القطر ندمانها
ويثرب تعلم أنا بها إذا خافت الأوس جيرانها

---

(١) اسم مكان .

(٢) الأكحل : عرق فى اليد .

ويثرب تعلـم أن النبيـ ـت عند الهزاهز[1] ذلانها
نبت بالنبيت وأشياعها من ان أوعدت قط أرطانها
فكيف إذا نازلتها بها ليوث غريف[2] وشبلانها
متى ترنا الأوس فى بيضنا نهز القنا تخبُ نيرانها
وتعط المقاد على رغمها وينزل من الهام عصيانها
ويثرب تعلم أن النبيـ ـت ليست بشىء وأعوانها
فلا تفخرن والتمس ملجأ فقد عاد للأوس أديانها
ونحن إذا حاربت عامر أمام الكتيبة أعيانها

ولا يسكت بالطبع قيس بن الخطيم بل يقول فيما يقول :

نحن الفوارس يوم الربيـ ـع قد علموا كيف فرسانها
جنبنا الحراب وراء الصريـ ـخ حتى تقصف مرانها[3]
فلما استقل كليث الغريف زان الكتيبة أعوانها
تراهن يخلجن خلج الدلاء تختلج النزع أشطانها
ويثرب تعلم أن النبيت رأس بيثرب ميزانها
حسان الوجوه حداد السيو ف يبتدر المجد شبانها
وبالشوط من يثرب أعبد ستهلك فى الخمر أثمانها
يهون على الأوس أثمانهم إذا راح يخطر نشوانها

وما كان السلام يدوم طويلا بين القبيلتين فالاستفزازات مستمرة ، وتقاليد الجاهلية مسيطرة على العقول ، والعداوة تطل بخطمها تهتبل أية

---

(١) الشدائد . (٢) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .
(٣) المران : الرماح .

سانحة لتثير القتال . وقد حدث أن نزل بحاطب بن قيس الأوسى رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل إلى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج فقال لرجل يهودى :

ـ لك ردائى إن كسعت هذا الذبيانى .

ففعل اليهودى فنادى الذبيانى :

ـ يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح !

فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل الخزرجى رجلا من الأوس لا ذنب له بذلك اليهودى ، وثارت الحرب بين الحيين ، وكان على الخزرج عمرو ابن النعمان البياضى وعلى الأوس خضير بن سماك الأشهلى .

وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر ، فقدما يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

كانت يثرب تموج بالعداوات وتنبض بالخطايا . ففيها أشهر سقيفة لصاحبات الرايات الحمر من البغايا ، فكان شباب القبائل يقصدون إليها ، وكانت منزلا للفسقة من سادات الأسرات وأوشابها ، فكانت الخمور تجرى فيها جريان الأنهار ، وكان اليهود تجار النشوة واللذة يجمعون الأموال من الربا ويقترفون كل منكر لسلب العرب وكنز الذهب والفضة ، فقد وقر فى ضميرهم أن ليس عليهم فى الأميين سبيل ما دام دم غير اليهود وشرفه وماله حلالا لهم .

وكان اليهود يعملون على توسيع رقعة الخلاف بين الأوس والخزرج لتشغل كل قبيلة بثاراتها ، وعلى الرغم من انشغال الحيين بعداوتهما عنهم فلم يكن اليهود جميعا بل كانت قلوبهم شتى بأسهم بينهم شديد . وكان

يقع أحيانا بين العرب واليهود شيء من النفور فإذا ما قاتلوا الكفار قالوا : نسألك بالنبي الذى وعدتنا أنْ ترسله ، وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا ، فكانوا ينصرون ، وإذا ما بطش العرب بهم قالوا لهم :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وذات يوم بينا كان أناس من اليثربيين العرب جالسين وبينهم سلمة بن سلامة ، إذ بيهودى من بنى عبدالأشهل يقف على رأسهم ويذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له :

— ويحك ، أوَ ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

— نعمْ والذى يحلف به . وليود أى شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا .

— ويحك وما آية ذلك ؟

— نبى يبعث من نحو هذه البلاد .

وأشار بيده إلى مكة واليمن ، وقالوا :

— ومن يراه ؟

فنظر إلى سلمة بن سلامة وهو أحدثهم سنا وقال :

— إن يستنفذ (يستكمل) هذا الغلام عمره يدركه .

وساد الصمت وإن كان يدوى فى ضمير الوجود صوت اليهودى الذى وقف على جبل من أربعين سنة يصيح :

— طلع الليلة نجم أحمد .

وإن كانت الشهب يرمى بها لتطهير السماء لنزول الوحى على خاتم الرسل ، ليشرق النور على العالمين .

١٠

كان بنو جمح مجتمعين فى ناديهم حول الكعبة ، وكان فيهم أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح وصفوان بن أمية صاحب الأيسار ، فما كان أحد يضرب القداح والأزلام عند هبل قبل أن يلتمس الإذن منه . وكان بلال بن رباح واقفا يصغى إلى أحاديث القوم ، وسرعان ما مشى إليه واستشعر رغبة فى أن ينطلق إلى أبى بكر بن أبى قحافة يسعد بالأنس به وإرواء النفس من نبعه الصافى .

كان بلال مولى لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وقد شب فيهم أمينا ذا خلق قويم فكانوا يخرجونه فى تجارتهم فكان يعود بالأرباح الوفيرة ، وزادت الثقة فيه على مر الأيام فكان لبنى جمح كما كان ميسرة لخديجة أمين القافلة وصاحب الأمر فيها .

وفى رحلات الشتاء والصيف عرف بلال أبا بكر فعرف فيه التواضع ولين الجانب والنجدة والكرم والسخاء ، يغار على مروءته ويتجنب ما يريب ، فلم يشرب الخمر حتى لا يخدش وقاره ، وما كان يكذب وما أخلف وعدا قط فتفتحت نفس بلال له . فكانت أسعد ساعات حياته تلك التى يقضيها فى صحبته يلقى إليه سمعه لتستمتع روحه بحكمته وعذب حديثه .

كان بنو جمح يرفلون فى العز . فكانت دار أمية بن خلف تزدان بالتحف المجلوبة من فارس وبلاد الشام ومصر ، وكانت دار صفوان بن

أمية تموج بفتيات من كل الأجناس ، وكانت الدفوف تضرب والراقصات يرقصن للرجال والشراب يراق فى البطون لجلب النشوة ، والرواة يروون أباطيل الشعراء ، والظرفاء يلقون النوادر المكشوفة دون حياء ، وأذرع السادة تلتف حول خصور الغوانى ، والضحكات الماجنة الآثمة تعلو على أصوات القيان المغنيات ، فقد أطلق للجنس عنانه وتفجرت فى النفوس شهوات وقتية حكم عليها أن تموت عند قمة نشوتها .

وكان بلال يعاين كل ما يجرى فى دور بنى جمح من فساد بله فى كل دور شرفاء قريش ، ولكنه لم يكن يستنكر شيئا فقد شب وترعرع فى قوم يفخرون بإنفاق الأموال فى شرب الخمور وفى لعب الميسر وفى حض فتياتهم على البغاء ، وينتزعون النساء من أحضان الأزواج ويغتصبون البنات من الآباء والأمهات ، وتتغزل حرائرهم فى الرجال ويمتى الرواة بذلك الغزل فى القبائل ، وكان الرجال يبعثون بنسائهم عن طيب خاطر إلى أشرافهم وإلى أقوياء الأبدان والأذهان يستبضعن منهن وينجبن ذرية من النابهين الأقوياء .

وما كان للمرأة وزن فالأزواج يخلعون النساء فى يسر كما يخلعون النعال ، وما من امرأة فى قبائل العرب إلا وقد طافت على أزواج كثيرين فما كانت أكثر من متاع .

وكانت المتع المادية طابع بيوت الشرف فى مكة ، وما كانت العبادات إلا نوعا من تقديس تقاليد الآباء ، وما كانت تمارس إلا طمعا فى نعيم الدنيا ودفعا لأذى الآلهة الذى يصيب الناس فى الأرض ، فما كان للدين مكان فى أعماق النفوس وسويداء القلوب إن هو إلا عصبية من عصبيات الجاهلية .

وكان بلال يخرج مع الخارجين إلى الحرم يطوف بالبيت العتيق ويقدم القرابين للأرباب ويدين بالولاء للات والعزى وإن كان يحترم الآلهة الأخرى ، مثله فى ذلك مثل قريش الذين ولد فيهم . وكان يعيش فى دنيا الشر وإن كانت فى أعماقه كنوز مطمورة زاخرة بالخير لم تجد من يكشف عنها الغطاء ، وكانت تلك الكنوز تسفر عن معدنها كلما ألقى سمعه إلى بعض من ارتفعوا بإنسانيتهم عن مادية العصر وفجوره .

وكان يجد راحة نفسية كلما جلس إلى أبى بكر وكان معجبا بوقاره واعتداله وسماحة خلقه وكرمه ، فلو أن أبا بكر لم يبلغ بعد الثامنة والثلاثين من عمره إلا أنه كان أكثر وقارا من شيوخ قريش وساداتها ، وكانت أمتع لحظات حياته تلك التى يذهب فيها لزيارة أبى بكر ويجد عنده صديقه محمد ابن عبد الله ويصغى إلى سحر حديثه ، فقد كان يحس نشوة عارمة تملأ جوانحه وكأنما يرتفع إلى السماء .

وملأت صورة محمد أقطار رأسه واستولت على لبه ، إنه متواصل الأحزان دائم الفكرة ليس له راحة ، طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعم وإن دنت لا يذم منها شيئا ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يكن لغضبه شىء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .

إنه خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ولا يطوى عن أحد من الناس بشر ، قد وسع الناس بسطة وخلقة ، وهو أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه، لا يؤيس راجيه ومن سأله حاجة لم يرده

إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير .

واستمر بلال يفكر فى ابن عبد الله ، إنه يحس كلما أعاره سمعه أنه يصغى إلى ترانيم آتية من وراء عالم شفاف رقيق طاهر ليس من هذه الدنيا التى تموج بالغلظة والقسوة و الشرور . وأن أحاديثه صادقة نابضة بالإيمان تنفذ إلى القلب وتملؤه بالنور . وأن كل فعاله تؤكد أنه إنما خلق للناس لا لنفسه ، فهو يعين الملهوف ، ويبذل كل ما يصل إليه للفقراء والمساكين وابن السبيل ويتحمل المتاعب فى سبيل راحة الآخرين وأنه مشرق على الدوام لكأنه منارة فى بحر لجى جثم عليه ظلام ثقيل . فقد تمثل فيه الكمال الإنسانى .

واستولى على بلال شعور غامض بالإعجاب بأبى القاسم ، إعجابا ليس له حدود . وإن عجز عن أن يفسر ذلك الشعور فمن أين له أن يفطن إلى أن ذلك الإنسان الكامل قد خلق ليكون بداية خير زمن فى تاريخ البشرية جمعاء !

وضاق بلال بأحاديث سادات بنى جمح وبأشعار الشعراء الماجنين فانسل من نادى القوم وغادر الكعبة وانطلق إلى أبى بكر ، وهو يمنى النفس بلقاء أبى القاسم ليغسل أدران الروح ويصفى القلب من شواغل الدنيا ويهيم معه فى ملكوت كريم ينبض بمشاعر تسمو بإنسانية الإنسان .

* * *

وكان سعد بن أبى وقاص فى ذلك الوقت يلقى تحية طيبة على أمه التى يحبها بكل جارحة من جوارحه قبل أن يغادر الدار ، وسرعان ما خرج من دور بنى زهرة وانطلق فى الطريق الذى كانت حوانيت العطارين على جانبيه ، وكانت دكان أبى طالب تكاد تكون خالية من الطيب والمسك والعنبر

بينا كانت دكان أسماء بنت مخربة أم بني المغيرة وجدة أبي الحكم بن هشام (أبي جهل) غاصة بأفخر أنواع العود والمندل والأطياب المجلوبة من اليمن وأرض البخور .

وأمام دار خديجة التقى بعمار بن ياسر فوقف الشاب يحادث عمارا الذى كان رفيق محمد بن عبد الله فى رحلاته ، وقد قال عمار إنه ذاهب لزيارة أبى القاسم قبل أن يهل هلال رمضان ويصعد محمد إلى غار حراء ليتحنث كما اعتاد أن يفعل فى كل عام . واعتذر سعد بأن محمدا قد زاره بالأمس وأنه منطلق إلى دار أبى بكر ليسأله عن تأويل رؤيا رآها ، ولم يعجب عمار لذلك فقد عرف عن أبى بكر براعته فى تفسير الأحلام .

وجلجلت ضحكات من دار أبى سفيان المقابلة لدار خديجة فالتفت سعد وعمار وفى أعينهما دهش ، فأبو سفيان قد خرج على رأس قافلة قريش إلى اليمن ، فإذا بحنظلة بن أبى سفيان ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان ومعاوية بن أبى سفبان مقبلين ومن حولهم رجال من بنى أمية وقد أخذوا طريقهم إلى المسجد الحرام .

وعرج عمار إلى دار خديجة ، وانساب سعد إلى الكعبة فطاف بها ثم خرج من باب بنى مخزوم ومر بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ثم سار غربا إلى المسفلة حيث دار أبى بكر ، فألفى عبد الرحمن بن أبى بكر خارجا للقنص وقد ركب فرسه وتنكب قوسه ، ودار حديث رقيق بين بارى النبل القصير الدحداح وبين ابن أبى بكر الذى يشب فارسا شاعرا ككل أبناء بيوتات قريش ، ثم دلف سعد إلى الدار .

كان أبو بكر جالسا وعنده حكيم بن حزام بن خويلد — وقد صارت دار الندوة إليه بعد أن كانت لبنى عبد الدار ، اشتراها لتكون مكرمة له

ولأبنائه من بعده ـــ وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وبعض شباب قريش . وكانوا جميعا من الشباب القرشي ـــ باستثناء حكيم ـــ المتطلعين إلى حياة جديدة غير حياة مكة الغارقة فى الأساطير والخرافات والأوهام ، وقد وجدوا فى أبى بكر أسوة حسنة فكانوا يهرعون إليه ليقتبسوا منه الطهارة والصدق ومكارم الأخلاق ، فقد كانت ضمائرهم نقية لم تتغلغل فيها بعد وثنية الآباء ولا التعصب الأعمى لأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئا .

ودخل سعد على القوم وألقى عليهم التحية ، ثم سار وجلس إلى جوار عبد الرحمن بن عوف فهو مثله من بنى زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، ودار الحديث حول التجارة والرحلات فراح عبد الرحمن بن عوف يقص بعض قصصه فى الأسواق ، فقد ذاع صيت أمانته فى القبائل فكانت التجارة ترسل إليه من كل حدب وصوب إلى مكان الصفق ، فما كان يبدأ فى الصفق معلنا بدء البيع حتى يخف الناس إليه ولا ينفضون من حوله حتى يأتى على ما معه من تجارة ، فيأخذ نصيبه بلا زيادة ولا نقصان ويعيد إلى أصحاب التجارة حقوقهم .

وقص عثمان قصة خروجه مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ، وراح يصف ركوب البحر وأسواق الحبشة وبلاط النجاشي وعادات الناس وما عادت القافلة به من أرباح مادية وصلات طيبة ، فقد توطدت صداقة بين عمرو والنجاشي واستطاع عمرو بدهائه أن يستولى على إعجاب عاهل البلاد .

وتحدث حكيم بن حزام عن أسواق الشام واليمن والحيرة وبصرى ،

وأسهب فى الحديث عن قصر هرقل إمبراطور الروم الذى يمضى أغلب أوقاته فى بصرى ، وكثيرا ما يبعث إلى أشراف الأقوام الذين يؤمون أسواقها ليفدوا عليه فيكرمهم ويسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، ويحاول أن يستشف من أحاديثهم حقيقة ميولهم ، وأن يعرف عواطفهم معه أو مع الفرس أعدائه وأعداء بلاده ؟

وتحدث الزبير بن العوام عن الفروسية والفرسان وابن عمه حكيم بن حزام يرمقه فى إعجاب ، واشترك فى الحديث أبو عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص ، وكان انفعال الشباب يترقرق فى الوجوه ويجرى على الألسنة ، وكان الحديث يدور حول بعض مناوشات دارت بين بعض الفرسان أو بعض الأحياء ، ولم يخطر على قلب أحد من الحاضرين أن هؤلاء الشبان المغمورين سيرفعهم دين قويم إلى مصاف أشهر قواد الأرض ، وأنهم سيقوضون بسيوف الله المسلولة جيوش أعظم إمبراطوريتين : إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان .

وتحدث طلحة بن عبيد الله عن قوافل بنى تيم فهو من رهط أبى بكر ، وذكر الرهبان النازلين فى صوامعهم على طريق القوافل فهيج بحديثه ذكريات أبى بكر . فرأى نفسه وهو طفل صغير يخرج مع أبيه فى قافلة قريش التى كان سيدها أبو طالب فى ذلك اليوم الذى تشبث فيه محمد بن عبد الله بعمه وخرج معه إلى الشام .

واحتلت رأس الصديق أحداث ذلك اليوم الذى نزلت فيه قافلة قريش إلى جوار صومعة بحيرا الراهب ، ورن فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بين بحيرا وأبى طالب ، وانثالت على فكره صورة بحيرا وهو يكشف عن ظهر محمد ويقبل الخاتم الذى بين كتفيه ، وسرعان ما رأى محمدا يخرج فى تجارة

خديجة وهو إلى جواره يصغى إلى عذب حديثه ويسعد برفقته ، حتى إذا ما نزلت القافلة بالقرب من صومعة الراهب نسطورا ورأى الراهب الشاب القرشى الوسيم انطلق إليه كالمسحور وراح يحادثه فى اهتمام ويسأله عن بعض شأنه فى يقظته ومنامه ، ثم يطلب منه أن يكشف عن ظهره ليرى الخاتم الذى بين كتفيه فلما وقعت عليه عيناه مال وقبله فى تقديس واحترام .

قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنه بشر . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . وقال نسطورا أن سيكون لمحمد شأن ، وكان أبو بكر فى عين ذاته يؤمن بصديقه أعمق الإيمان ، ويرى أن ليس للعرب من معلم ولا هاد غير أبى القاسم فهو صاحب نفسية عظيمة وإرادة قوية ، اتصل بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وكاد أن يميط اللثام عن سر الوجود ، إنه إنسان عظيم وإنه لشرف لأعظم الرجال أن يكونوا مريدين لصاحب هذه العظمة الخارقة .

وأدار أبو بكر عينيه فى وجوه سعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وأبى عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وعثمان ابن عفان ، وإذا بهامس يهمس فى جوفه يقول : « يا لحسن طالع هذا الجيل ، لو أن هؤلاء الأشبال تعلموا الحكمة من محمد بن عبد الله ! » .

١١

بين مكة ويثرب تقع قرية ودان ، وهى على بعد ثمانية أميال من الأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب ، وهى لقبائل ضَمرة وغفار وكنانة ، وكان رجال غفار يعيشون على مهاجمة القوافل وسلبها ، وكانوا غلاظ الأكباد ترتجف منهم قلوب الذين يمرون بالقرب من ديارهم ويوسعون الخطو وهم يترقبون خشية أن ينقض عليهم فرسان الليل فيسلبوهم أرواحهم أو أموالهم أو حرياتهم .

وكان جندب بن جنادة (أبو ذر) يقطع الطرق ويشن الغارة على القوافل وحده ، وكان يعود إلى القبيلة بما سلب فيمد الشباب أعينهم إلى ما معه وقد لاح فيها الحسد ، دون أن يجرؤ أحد على أن يسأله القسمة أو المشاركة فقد كان قويا ذا سلطان بطشه شديد .

واشتهرت غفار فى القبائل بالسطو وقطع الطرق فوقر فى العقول أن غفارا لا يأتى منها شيء طيب ، فإذا ما نزل رجل من غفار على قوم من الأقوام نظروا إليه فى ريبة وعاملوه فى حذر وراقبوه حتى يرحل عنهم .

وعلى الرغم من أن غفارا كانت تعيش على السلب والنهب وزهق الأرواح البريئة فما كانت بقادرة على أن تعيش بلا إله ، فكانت تتعبد للات والعزى ونهم وآلهة العرب الأخرى . إلا أن مناة كانت إلهتهم المفضلة يحجون إليها قبل أن ينطلقوا إلى الحرم ، ويحلقون رءوسهم عندها إذا ما انقلبوا إلى أهليهم بعد تأدية مناسك الحج فى مكة . وكان أبو ذر يقدم إليها

نصيبا من غنائمه ويسوق إليها النحائر ويتقرب إليها بالقرابين .

كان أبو ذر شجاعا ورث عن مجتمعه عاداته فما كان يرى فى السطو عيبا ، إلا أن الله أعطاه بصيرة نافذة فكان كلما سرى فى الليل ورأى النجوم والكواكب والقمر ، فكر فى آيات السماء وفى الأصنام التى يقدسها فيتدسس الشك فى آلهته إلى وجدانه ، وتهمس هواتف الإيمان فى ضميره مؤكدة أنها أهون من أن ترفع سماوات وأن تزينها بمصابيح ترشد السارين بالليل ، حتى وإن كانوا قطاع طرق مثله !

واستمر أبو ذر يفكر فى ملكوت السماء والأرض فإذا به يستشعر بإشراق النور فى قلبه ، وتنكشف الحجب عن عين ذاته ، وتتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور الإلهية فيهتدى إلى أن لهذا الكون رباً غير اللات والعزى ومناة وكل آلهة العرب ، إلها عظيما قادرا لا مطمع فى أن يرقى إليه العقل أو يتناوله بالدرس والبحث . فأحب أبو ذر ربه وراح يجاهد نفسه ليرضى إلهه ويصلى له ويتوجه حيث يوجهه الله .

وذاق أبو ذر لذة الأنس بالله ، وهبت عليه نسائم الألطاف فلمعت فى قلبه من وراء ستر الغيب أشياء من غرائب العلم كالبرق الخاطف راحت تمحو من نفسه كل صفاته المذمومة وتقطع كل العلائق التى كانت بينه وبين السطو والسلب وسفك دماء الأبرياء .

وعرف أبو ذر جوهر الحقيقة ووضع قدميه على الصراط المستقيم ، ولكنه وهو صاحب السطوة والنفوذ فى قبيلته لم يفكر فى أن يسفه أحلام قومه أو يسب آلهتهم ، فإنه لشىء رهيب تقشعر منه الجلود أن يقف إنسان وحده فى وجه الناس يعيب دينهم ويأمرهم أن يعبدوا إلها غير آلهة آبائهم الأولين .

(دعوة إبراهيم)

وقعدت همة أبى ذر عن أن يدعو إلى الحقيقة التى رآها بعين بصيرته ، ورضى بأن اهتدى وحده ، وفرح بأنه يتوجه فى دعائه وصلاته إلى الله ، حتى أمه وأخوه أنيس وعشيرته الأقربين لم يفكر فى أن يدعوهم إلى الحسنى ، فقد كان على ثقة من أنه أعجز من أن يقدر على أن يقنع أحدا بتبديل عقيدته ، وإن كانت تلك العقيدة واهيه ينفر منها كل ذى عقل سليم .

آثر أبو ذر السلامة واكتفى بوصول الحقيقة إلى قلبه وهو المغامر الشجاع الذى لا يرهب الرجال ، ولكن حرب العقائد تحتاج إلى شجاعة تفوق شجاعة الفرسان ومقارعة الخطوب ، والدعوة إلى دين تحتاج إلى تأييد من الله ونصر من عنده وإلقاء أنوار اليقين فى القلوب .

وانحبس الغيث عن غفار وأجدبت الأرض وحاق بالناس الضيق ، وبينا كان أبو ذر وأخوه أنيس جالسين يتلويان من الجوع إذ دخلت عليهما أمهما وفى وجهها رهق قد انتقع لونها وغارت عيناها وعلاها ذبول ، وقالت :

ـــ أرى أن ننزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فرحب الرجل بهم وأكرم وفادتهم ، فلما رأى الناس عطف الخال عليهم تحرك الحسد فى نفوسهم ووسوس لهم الشيطان أن يكيدوا للوافدين عليهم ، فذهب رجل منهم وقال للخال :

ـــ إذا ما خرجت جلس أنيس إلى نسائك .

وطوى الرجل نفسه عن ابنى أخته ، وأحس أبو ذر بإعراض خاله عنهم فقال له :

— ما خطبك ؟ إنى أنكرك منذ أيام . أراك معرضا عنا قليل الحديث طويل التفكير .

فقال الخال والغضب يملأ جوانحه :

— قال لى قومى : إذا خرجت عن أهلى خلفنى إليهم أنيس .

فقال له أبو ذر فى أسى :

— أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا فيما بعد .

وعاد أبو ذر وأنيس وأمهما إلى غفار ، ليصلى أبو ذر لله ويتوجه حيث وجهه الله ، ينتظر ما يأتى به الغد لا يدرى ما يخبئه له القدر .

١٢

راحت خديجة تعد زاد أبى القاسم وكان من كعك وزيت . وكانت تستشعر نشوة واستبشارا فقد عرفت لذة الخلوة بالله والأنس به والفرح الفياض الذى يغمر الفؤاد كلما أشرق فيه نور اليقين . فمحمد الحبيب كان يأخذها معه فى السنوات الأخيرة لتتعبد طوال شهر رمضان فى حراء مع الحنفاء من قريش ، فكانت تسعد بصفاء القلب وتتهلل بالبشر لنسائم الرحمة التى تهب عليها من خزائن الملكوت ؛ ولكن ذلك الجنين الذى تحرك فى أحشائها قد حبسها هذا العام عن أن ترقى لتعتكف مع المعتكفين ، وتهيم بروحها رفرافة فى عالم النشوة والنور تنهل من ينابيع الكمال والسعادة السرمدية التى لا تعرف الذبول ولا الفتور .

وكانت خديجة ترجو أن يكون ذلك الذى فى بطنها عوضا لها ولزوجها الكريم عن القاسم الذى مات فى عمر الورود ، فالأمين قد حزن عليه حزنا كشف عن تعلق قلبه الكبير بابنه العزيز ، فلعل ذلك الآتى بعد حين يكون قرة عينه وغصنا رطيبا من شجرته الزكية المباركة .

وجاء أبو القاسم يتألق وجهه بالنور تعلوه هالة من المهابة فأحست خديجة إجلالا كأنها كانت بين يدى مَلَك كريم ، وزاد فى روعة مشاعرها ذلك الإشراق الذى غمر الدار وذلك الأريج الطيب الذى أفعم به المكان وانتشت به الأرواح كأنه انتشر من عالم مسحور .

ومال محمد إلى على بن أبى طالب وقبله ، ثم حمل فاطمة الزهراء بين يديه وضمها إلى صدره الحنون وراح يلثمها فى حب عميق ، وودع خديجة وزيد بن محمد وأم أيمن وكل من فى الدار ، ثم حمل زاده وخرج قاصدا وجه الله معتزما أن يمضى شهرا فى صحبة مولاه ورعايته راجيا أن يتعرض لنفحاته ورحمته ، فسعادته الحقة فى أن تشف روحه وتسمو فوق سموها لتنعم بغاية غاياته : بالوصال بروح الوجود .

وانطلق يتكفأ فى مشيته فى الطريق الموصل إلى الصفا حيث دور بنى مخزوم ، ومر على حوانيت العطارين فكان يلقى على الناس أطيب تحية فيحيونه بأحسن منها ويستقبلونه باشين متطلقى الوجوه ، فهو حبيب إلى كل النفوس لما عرف عنه من جميل الشمائل والخلق العظيم .

ودخل المسجد من باب إبراهيم فإذا الحرم يموج بالبشر ، أناس ينحرون الذبائح بين إساف ونائلة ويطوفون بما يذبحون ، وأناس يتزاحمون عند زمزم ، وأناس يتمسحون بالأصنام ويبتهلون إليها ، وكان تمثال مريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل آلهة القبائل التى كانت على هيئة رجل أو امرأة أو فرس أو أسد أو نسر ، قد جلب ذلك التمثال من بلاد الشام أو الروم العرب المتنصرين ، فالكعبة بيت العرب جميعا وثنيين ومجوس وصابئين ويهود ونصارى وحنفاء موحدين .

وكان أشراف القوم فى دار الندوة يحكمون بين الناس ويشرفون على ختان الصبيان وضرب الحجاب على البنات اللاتى بلغن الحلم وتحرير وثائق الزواج أو تزجية الوقت بالإصغاء إلى رواة السوء .

وانتشرت نوادى القوم حول أول بيت وضع للناس : فكان بنو هاشم

مجتمعين فى ظل الكعبة حيث كان يمد فراش عبد المطلب ، وكان بنو أمية وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح وبنو أسد وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد شمس ملتفين فى حلقات حول سيدهم ، لا هم لهم إلا حديث الدنيا وجمع المال وملء البطون وإشباع الشهوات والاستجابة للنزوات والفخر بكل ما يحط من شأن الإنسان .

وتقدم محمد إلى الكعبة وكان أمامه مقام إبراهيم وقد التصق بالبيت وبئر أبيه إسماعيل صادق الوعد الأمين والناس يموج بعضهم فى بعض ، ولكنه شغل عن الغادين والرائحين والطائفين والجالسين بالمشاعر النبيلة التى ملأت جوانحه بعد أن قطع كل علائقه بالدنيا وتوجه بكل كيانه ووجدانه إلى الله رب العالمين .

وراح يطوف بالبيت سبعا وهو مستغرق فى ابتهالاته إلى ربه لا يسمع الأصوات الهادرة من حوله ولا صوت أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت ويدعوان فى حرارة : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ولا الأهازيج التى كانت فى السماء ولا تسبيحات الملائكة التى كانت مفعمة بالحرارة تأهبا لليلة مباركة تنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر .

وراح محمد يغادر الكعبة وقد أشرق قلبه بنور ربه ووحى الله إلى موسى الكليم يرن فى ضمير الوجود : « وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه فيقول لهم كل شىء آمره به . وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمى فإنى أنتقم منه » .

وسار محمد إلى الغار وقد وسع من خطوه يحس تعطشا تاما إلى الأنس بربه ، ومزامير داود فى سريرة الكون تنشد : « .. فاضت الرحمة على شفتيك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك والأمم يخرون تحتك » ونبوءة إشعيا تتألق بالأنوار فى التوراة : عبدى الذى سرت به نفسى ، أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف وما أعطيه لا أعطى أحدا . مُشقع[1] يحمد الله حمدا جديدا ، يأتى من أقصى الأرض ، تفرح البرية وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكرزونه على كل رابية . ولا يضعف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى ، ولا يُذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة بل يقوى الصديقين . وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفأ ، أثر سلطانه على كتفيه » .

واستمر محمد فى سيره وقد انكشف الحقائق كلها فى قلبه بإلهام من ربه . وغمرته سعادة لما فتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وزادت غبطته لما أحس أنه على نور من ربه .

وظل يمشى على الأرض هونا مخلفا دور مكة وراءه ، وخطاب إشعيا لمكة العاقر التى لم يبعث الله بها نبيا بعد يرن فى جوف الزمن : « أيتها العاقر ! افرحى واهتزى وانطلقى بالتسبيح فإن أهلك يكونون أكثر من

---

(١) زاهى وفى خير البشر لابن ظفر « محمد » .

أهلى » .

وراح محمد يشتد فى جبال فاران « مكة » وقد هجر الناس والدنيا فى حب الله ، وخرج عن نفسه إلى الله وصبر مع الله ابتغاء بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقصان فيه ، وعالم أوسع من عالم الأرض .

ورجع صوت شمعون نبى بنى إسرائيل يدوى فى أغوار أورشليم : جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

وطفق صدى صوت زرادشت يتجاوب فى وديان فارس وسهولها وجبالها « استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيء صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب .. إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل من بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار فى هيا كلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين ، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وأن نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات» .

واستمر محمد يعرج فى الجبل والأنوار التى تشرق فى قلبه تبهر كل الأنوار ، والفرح الفياض الذى يستشعر به فى عين ذاته لقربه من الله قربا حقيقيا يفوق كل أفراح الدنيا ، بعد أن صار جمال المدركات بالبصائر أكمل عنده من جمال المبصرات ، ولذة النظر إلى الله أمتع من كل اللذات الحية التى ما إن تفور حتى تغور . وكان غائبا عن كل ما حوله إلا عن ربه ، بينا كان ملايين المتعبدين فى الهند يقرءون فى الساماقيدا : « تلقى

أحمد الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

كان وهو يشتد فى الجبال هائما فى محبة الله يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، تأججت فى وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، فراح يغذ السير فى حماس لينفرد بربه ويخلو بحبيبه ، ويستغرق فى عذوبة الذكر ويستمتع بحلاوة الأنس ويستحوذ على مفاتيح السعادة التى تنزل الرحمة على قلبه ، وبشارات الأنبياء تخفق بذكره فى الكتب المقدسة ، فحَيقْوق يقول : إذا جاءت الأمة الآخرة يسبح بهم صاحب الجمل تسبيحا جديدا فى الكنائس الجديدة ، فافرحوا وسيروا إلى صهيون بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة التى أعطاكم الله فى الأيام الآخرة ، أمة جديدة بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، فينتقمون من الأمم الكافرة فى جميع الأقطار .

ويوحنا الإنجيلى يقول فى رؤياه : ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل يحكم . ويوحنا اللاهوتى يقول : ومن فمه يخرج سيف ماض لكى يضرب به الأمم ... وهو يدوس معصرة خمر .

واستمر فى صعوده وقد تواضع لله وهو ينعم بجيشان العواطف النبيلة فى وجدانه ، تلك العواطف التى تتجه إلى الله وتستمد حيويتها منه وتتألق وتشرق بنوره ، يحس فى صميم ذاته لا بجوارحه أنه يسير معه ، وأن قلبه يخفق بذكره ، وأن روحه ترفرف بحمده ، وأن أنفاسه تسبح له ، وأن السموات والجبال والوديان تترنم بمجده .

ورن صوت يحيى بن زكريا فى قافلة البشرية مبشرا بقرب ملكوت الله قائلا : توبوا فقد اقترب الملكوت ، وصوت المسيح تتجاوب به الجبال والوديان والسهول والبرية : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره .

إن أحببتمونى فاحفظوا وصيتى وأنا أطلب إلى أبى فيعطيكم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ... إن هذا الكلام الذى سمعتموه ليس هو لى ، بل للآب الذى أرسلنى ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذى يُرسل أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم جميع ما أقول لكم .

إن انطلاقى خير لكم ، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب .

وسرى فى الوجود ابتهالات المسيح فى صلواته : « فليأت ملكوتك » . وحواره لحوارييه لما ضرب لهم مثل الزرع والزارع ولما سألوه ماذا أراد بهذا المثل وقوله لهم : لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، الزرع هو كلام الله .

وبلغ محمد مدخل الغار فالتفت خلفه يلقى نظرة على الكون ، فإذا بنور يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وإذا بالنسيم يهب رخاء له تسبيحات تشرح الصدر ، وإذا بعطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه فترفعه إلى ذروة انتصاره الروحى . وتقدم ليدخل الغار على بركة الله وكانت

بشارة السيد المسيح تقرع الآذان الغافلة : ﴿ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[١] .

ودخل غار حراء ليرابط مع الله ويتدبر ويتفكر ويسعد غاية السعادة بلذة المناجاة ويفتح نفسه لتلقى كنوز السماء .. فصفا قلبه من شواغل الدنيا . وزكاه بالنظر إلى ملاحظة جمال الله وجلاله وجلاه بالترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليه من الرحمة ، وأقبل على ربه بإرادة صادقة فبذر الله فى أغواره الاخلاص وهو سر من أسراره يستودعه قلب من أحب من عباده . ليظهر به ينابيع الحكمة من القلب على اللسان .

وأقبل بكنه الهمة على الله فأرشد إلى الطريق ، وقويت بصيرته على مشاهدة ما وراء حواسه الخمس وأشرق سراج عقله فإذا بعلم من عند الله ينقش فى بياض لوح قلبه . وإذا بالصور الباطنية التى لا تدرك بالأبصار بل بالبصائر حقيقة ساطعة ناصعة أمام عين ضميره ، فغمره استبشار وفرح فياض لذلك اليقين الذى استولى على فؤاده .

وأحس أنه دنا فتدلى من المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ، وأنه يقرع أبواب السماء وأن الأبواب جميعا فتحت له ، وأن كل الحجب ارتفعت عن سر الغيب ، فشعر بخصب وجوده وامتلائه بالحكمة ، وبأن كلاما كريما نزه عن معانى الحروف والأصوات ينفث فى روعه ، فألقى سمعه وهو شهيد وقد تهلل بالفرح لما يرحى إليه .

وأضاء زيته الذى فى مشكاة قلبه وازداد اشتعالا فأصبح نورا على نور ،

---

(١) سورة الصف آية ٦ .

والتفت فى الغار فإذا بنور باهر قد تألق بالمكان ، نور يبهر نور الشمس ، فامتلأ دهشة وقبل أن يفيق من دهشته سمع صوتا ينادى :

ــ يا محمد ! يا محمد !

فانخلع قلبه وخرج من الغار مرعوبا ، وانطلق إلى دار خديجة لا يلوى على شيء وهو يضطرب من الخوف على الرغم من الرؤيا الصادقة التى كان يراها تأنيسا له ولكى يهدأ فؤاده .

ولما رأته خديجة والفزع فى وجهه هرعت إليه تسأله ما به ، فقال لها :

ــ أرى نورا وأسمع صوتا وأخشى أن يكون بى جنون .

فضمته إليها فى حب شديد وقالت فى إيمان :

ــ كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث .

وسمع أبو بكر أن صديقه أبا القاسم قد عاد خائفا من حراء فانطلق إلى دار خديجة ليرى ما الخبر ، وبلغ الدار ودخل على خديجة وليس عندها أبو القاسم فسألها عن الخبر فقصت عليه حديث زوجها ثم قالت له :

ــ يا عتيق اذهب بمحمد إلى ورقة .

ودخل أبو القاسم فأخذ أبو بكر بيده فقال :

ــ انطلق بنا إلى ورقة .

وذهب به إلى ورقة فقال محمد :

ــ إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ! يا محمد ! فأنطلق هاربا إلى الأرض .

فقال ورقة له :

ــ لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى .

وعاد محمد إل غار حراء ولا يزال أثر الخوف فى قلبه ، وسرعان ما ردت نفسه إلى طبعها لما عاود النظر إلى الله وحرك النظر القلب إلى ذكر الله فاطمأن فؤاده وانشرح صدره بالأنس بالله ومشاهدته ومراقبته ومناجاته .

وجاءت ليلة القدر أعظم ليلة فى تاريخ الوجود ، وحانت اللحظة التى بشر بها كل الأنبياء ، وأتى ملكوت الله الشريعة البيضاء كلام الله على الأرض ، فإذا الملائكة تنزل والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، وإذا بأنوار تشرق فى الغار ومحمد قائم يدعو ربه ، جاءه الملك فقال :

ــ اقرأ .

فقال محمد فى خوف :

ــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ــ اقرأ .

ــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ــ اقرأ .

ــ ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

ــ اقرأ .

ــ ما أقرأ .

ــ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علَق * اقرأ وربك

الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[١] .

فقرأها محمد فانصرف عنه فخرج محمد مرعوبا من الغار ، حتى إذا ما كان فى وسط من الجبل سمع صوتا من السماء يقول :

ــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول :

ــ يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقف ينظر إليه فما يتقدم وما يتأخر ، وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك ، فما يزال واقفا ما يتقدم أمامه وما يرجع وراءه .

وصنعت خديجة طعاما ثم أرسلته لأبى القاسم فجاء رسلها إلى الغار فلم يجدوا محمدا به ، فعادوا إليها وقالوا فى خوف :

ــ لم نجده بحراء .

وخفق قلب خديجة رهبة وذهبت نفسها شعاعا خشية أن يكون قد حاق بالحبيب مكروه ، ولم تستطع صبرا فأرسلت فى طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشق ذلك عليها حتى أتاها ترتجف بوادره فجلس إلى فخذها ملتصقا بها ، فقالت فى وجد :

ــ يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى .

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ــ ٥ .

فقال لها :

— لقد أشفقت على نفسى .

وراح يخبرها الخبر وخديجة تصغى إليه فى اهتمام وقد تذكرت تلك الليلة التى رأت فيها الشمس تهبط إلى سماء دارها لتشرق بنورها على المشارق والمغارب . وتذكرت قول اليهود يوم اجتمعت نساء قريش فى الحرم : قد أظل زمان نبى فمن استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل . وطفا على سطح ذهنها كل النبوءات التى كانت تشير إلى أن محمد بن عبد الله هو المنتظر والمرتقب ، فما كاد ينتهى من حديثه حتى قالت فى حماس :

— أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فو الله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق !

وملأ حديث خديجة قلب زوجها ثقة . ولم تطق الصبر على الانفعالات التى راحت تمور بين جنبيها فقامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، فأخبرته بما أخبرها به أبو القاسم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة :

— قدوس قدوس[1] ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

---

(١) قدوس قدوس أى طاهر طاهر وأصله من التقديس وهو التطهير .

وخرج أبو القاسم وراح يطوف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل فقال :

ــ يا بن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره فقال له ورقة :

ــ والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذَّبنَّه[1] ولتؤذينه ولتُخْرجنَّه ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

---

(١) الهاء فى هذه الأفعال للسكت .

١٣

تهللت خديجة بالفرح حتى إنها راحت تناجى الله والدموع تملأ عينيها والانفعال الشديد يستحوذ عليها ، كانت تشكره بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى محمد بن عبد الله لرسالته ، وزاد فى غبطتها صدق ما نفث فى روعها وما رأت فى أحلامها بعد أن عاد ميسرة من الشام يقص عليها أنباء الأمين وما كان بينه وبين الرهبان والتجار والسادة والعبيد . فقد ألقى فى عين ذاتها منذ تلك الأيام أن ابن عبد الله هو النبى المرتقب ، وقد دفعها إيمانها بما وقر فى ضميرها أن تعرض نفسها على محمد بعد أن دست عليه من يزين له زواجها ، وهى الطاهرة سيدة نساء قريش من تقدم إليها أعظم سادات قومها يطلبون يدها فرفضتهم جميعا لأنهم دون آمالها وأحلامها .

كانت آمالها العريضة المجنحة تزين لها أن تكون فراشا للنبى العربى الذى بشر به الأنبياء ومن أكدت النبوءات جميعا أن قد أظل زمانه ، فكانت تقيس كل من يتقدم إليها بصفات الأنبياء فما وجدت فى كل من تقدموا لخطبتها الصفات التى تؤهلهم للرسالة . ولكنها ما إن رأت محمدا واستأجرته لتجارتها وسمعت ما يقول الناس عنه حتى لمست فيه الورع والتقوى والأمانة والعفة والخلق الكريم ، فألهمت أنه نبى هذه الأمة وآمنت به وتزوجته . ولم يتزعزع ذلك الإيمان لحظة واحدة بل كان يزداد على مر الأيام قوة وتألقا .

(دعوة إبراهيم)

كانت تتعجل الزمن وتتلهف على مبعث زوجها فكانت تذهب إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة بن نوفل تقص عليه أحوال محمد وما يرى فى نومه ويقظته وأنسه بربه ورفع أستار الغيب عن جوهر الحقيقة ، فكان ورقة يصغى إلى حديثها فى اهتمام ولا يزيد على أن يقول فى انفعال : متى يا خديجة متى ؟!

وها هي ذى النبوة قد صارت حقيقة واقعة بعد أن أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وقد وقفت خديجة إلى جوار زوجها تسكن روعه وتشد أزره وتؤكد له فى ثقة أن الله لا يخزيه أبدا لأنه على خلق عظيم . إنها قد استبشرت بفيض كرم الله على زوجها وعليها ولكن ذلك الفرح بتحقيق أمانيها لم يذهلها عن طبيعتها . إنها تريد أن تكون أمينة مع نفسها ، أمينة مع ربها ، أمينة مع الرسالة المباركة التى وضعت على أكتاف زوجها ، فلم تقبل الأمر فى يسر دون تفكر أو تدبر بل أرادت أن تستوثق وأن يطمئن قلبها إلى أن ذلك الذى يأتى زوجها ملك من عند الله وليس بشيطان من الجن ممن يعوذ بهم الكهان قبل أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقالت لأبى القاسم وهى تحاوره :

— أى ابن عم . أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال :

— نعم .

— فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاء جبريل فقال محمد ﷺ لخديجة :

— يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

— قم يا بن عم فاجلس على فخذى اليسرى .

فقام محمد ﷺ فجلس عليها فقالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

— فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .

فتحول فجلس على فخذها اليمنى فقالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

— فتحول فاجلس فى حجرى .

فتحول فجلس فى حجرها قالت :

— هل تراه ؟

— نعم .

فتحسَّرت وألقت خمارها وأدخلت زوجها بينها وبين درعها ثم قالت له :

— هل تراه ؟

— لا .

فقالت فى فرح :

— يا بن عم اثبت وأبشر ، فو الله إنه لملك وما هذا بشيطان .

وأثلج صدر خديجة وتهللت أساريرها وغمرها إيمان عجيب ، وإذا بشفتيها تتحركان بأول شهادة تحركت بها شفتا مسلم على وجه الأرض فقالت فى صدق :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فإذا بنور يملأ أرجاء الدار وكأنه انبعث من مشكاة قلب خديجة ، وإذا بالدموع تترقرق فى عينى أبى القاسم فيخر ساجدا لله .

وخرج محمد ﷺ إلى أعالى مكة فإذا بجبريل يأتيه فيراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال . وراح يعلمه الوضوء فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين ، ففعل محمد عليه السلام مثله ، وركع جبريل ركعتين مواجهة للبيت الحرام ، ففعل محمد كما يرى جبريل يفعل ، وكان ذلك قبل غروب الشمس . ثم انصرف جبريل فجاء محمد عليه السلام خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها أبو القاسم ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

وكانت أول صلاة أقيمت فى الدين الجديد . ونام الزوجان متفرحين بالله وقلباهما قد شغلا بالله ، فالعين تنام والقلب يقظان . وقبل طلوع الشمس قام محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة التى تم لها الاستبصار وعلمت علم اليقين أنها على الطريق فتوضآ وصليا ركعتين ، فقد كانت الصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها . « وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار » .

وبينا كان محمد عليه السلام آخذا بأطراف الحديث مع خديجة إذا بالرعدة تستقبله وتريد وجهه وغمض عينيه ، ولم تستطع خديجة أن ترفع وجهها إليه وإن كانت تسمع عند وجهه كدوى النحل ، وظن محمد أن نفسه تقبض منه وإن كان يسمع صوتا له صلصلة كصلصلة الجرس يخالط

قلبه ، وزال عنه ما كان يكابده وقد وعى كل ما سمع ، فنظر إلى خديجة وهو متطلق الوجه وقال :

— يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

فخفق قلبها بالرضا وقالت فى انفعال شديد :

— الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

١٤

بلغ زينب ورقية وأم كلثوم أن أباهن الحبيب عاد من غار حراء مرعوبا يرتجف من الخوف فهرعن إليه خافقات القلوب يخشين أن يكون قد أصابه مكروه ، فإذا كل من فى الدار مشفق على الرجل الكريم . ولولا قوة ثبات جنان خديجة ، وإيمانها العميق بزوجها وبأن الله لا يخزيه أبدا ، لذهبت نفوس بنات محمد شعاعا ، ولمزق الحزن قلب زيد بن محمد ، ولأصاب على بن أبى طالب البوار ، ولانفطر كبد أم أيمن . فقول محمد الذى كان الروح التى تخفق فى جنباتهم لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد وأرى نورا وأخشى أن يكون بى جنون ، كاد يذهب عقولهم ، فإنه لشىء يفوق الاحتمال مجرد التفكير فى أن الرجل الذى عرف برجاحة العقل والحكمة قد طاش لبه .

كان كل من فى الدار خائفين على رب البيت يرتجفون فرقا مما سمعوا ، ولكن خديجة كانت ثابتة ثبات الطود لم يتزعزع إيمانها برجلها قيد أنملة ، فهى منذ عرضت نفسها عليه ترجو أن يكون نبى هذه الأمة ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة لا ترى منه إلا كل خلق عظيم . وها هى ذى اللحظة الحاسمة التى كانت تترقبها فى لهفة قد أقبلت ، لحظة أن يبعث الله زوجها إلى الناس وأن يكرمه بالنبوة . فقالت له لتسكن روعه ولتنفى عنه مظنة الجنون : كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك . فو الله إنك لتؤدى

الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . إن خلقك لكريم .

كانت مؤمنة بكل كلمة نطق بها لسانها ، وقد خفف قولها من لوعة الأسى التى نزلت بأفئدة أهل البيت وأضاءت نور الأمل فى نفوسهم التى كانت مظلمة حزينة حتى الموت . ولما جاء أبو بكر الصديق الوفى لأبى القاسم وأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل ثم عاد به يقص على الجميع ما كان من قول ورقة لمحمد : إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول . استبشرت خديجة وراحت زينب تعبث فى القلادة التى أهدتها لها أمها يوم زواجها وهى تحاول أن تزن بعقلها كل ما سمعت وكل ما قيل وكل ما عرفت عن أبيها من مكارم الأخلاق ، فتسللت الطمأنينة إلى قلبها وإن كانت مشفقة على أبيها مما هو فيه . وراحت رقية تنقل بصرها بين أبيها وأمها فتستشعر رغبة فى أن تجهش بالبكاء ولكنها كانت تغالب عواطفها حتى لا تزيد الجو المكفهر الذى ران على الدار تجهما وقلقا وحيرة . وكانت أم كلثوم تتأرجح بين الأمل الذى أشرق من فم الطاهرة سيدة نساء قريش وبين الاضطراب الذى كانت تغذيه مخاوفها .

ولم تجد فاطمة الزهراء من تلوذ به من إحساساتها المتباينة غير صدر أبيها فارتمت بين أحضانه وتشبثت به فانقشع عنها كل خوف . بينا راح على بن أبى طالب الفتى الذى لم يبلغ بعد العاشرة يغدو ويروح فى الدار يفكر فى مصدر الصوت الذى نادى ابن عمه الحبيب ومنبع النور الذى أشرق فى الغار فى سواد الليل البهيم .

وكانت أم أيمن لا تدرى ماذا تفعل وما تقول ، كانت تسمع مخاوف سيدها فتنهمر منها الدموع وكانت تصغى إلى أحاديث سيدتها التى تنبض

بتفاؤل صادق فيشرق فى فؤادها النور .

وجاء هند بن أبى زرارة يسعى إلى الدار يسأل أمه عن حال أبى القاسم الرجل الذى شب فى كنفه فلم يجد منه إلا كل خير وحب ، فلم يسمع منها كلمة واحدة تنم عن الخوف بل كانت فى نبراتها رنة فرح كأنها قد جاءها زوجها بالبشرى و لم يأت خائفا يترقب .

وراح أبو القاسم يتأهب للعودة إلى الغار ليقطع كل علائقه بالدنيا ويداوم على ذكر الله ليصفو قلبه وتشرق عليه أنوار المعرفة وقد شدت زوجه العظيمة أزره بوقوفها إلى جواره وإيمانها العميق به ، فراح يغادر الدار بخطى ثابتة وقد تعلقت به العيون المشفقة والقلوب المحبة .

وعادت زينب إلى دار زوجها العاص بن الربيع وجعلت تقص على ابن الخالة بعض ما دار من حديث فى بيت أبيها حول ذلك النور الذى رآه أبو القاسم والصوت الذى سمعه وهو يتعبد فى الغار . وبلغ هالة بنت خويلد حديث ما جرى فى حراء فأشفقت على أختها وأقبلت على زينب تستوضحها الأمر فتزداد حيرة على حيرة ، فما رأت تعليلا لذلك النور الذى أضاء الغار فى الظلام ، ولا لذلك الصوت الذى ينادى محمدا من المجهول ، وقد كانت تعرف خلق أبى القاسم جيدا فهو يمقت الكهانة والكهان ، ولولا ذلك لأقنعت نفسها بأن تلك البشائر إن هى إلا إرهاصات بكهانته .

وحدثت رقية زوجها عتبة بن أبى لهب بما ألم بأبيها ، وأظهرت إعجابها بأمها ورباطة جأشها وإيمانها الذى لم يتزعزع بأن الله يريد لأبى القاسم أمرا وأن سيكون له شأن عظيم ، وراحت تقص عليه كيف أتى عتيق إلى الدار وأخذ بيد أبيها إلى ورقة بن نوفل ، وكيف طلب ورقة من أبيها أن يثبت ولا

يفزع حتى يكشف سر النور والصوت الآتى من وراء الحجب .

وجلست أم كلثوم أمام زوجها معتب بن أبى لهب شاردة اللب قد ظهر فى وجهها خوف وقلق ، وراحت تسأل زوجها من أين جاءت لخديجة كل هذه الطمأنينة التى بدت فى حركاتها وسكناتها ، وتؤكد له أنه لولا تفاؤل أمها واستبشارها لانهارت ونزل بقلبها حزن ثقيل . وأظهرت إعجابها بسيدة نساء قريش التى أضفت على البيت السكينة والهدوء بل جعلت الأمل يتدسس فى أفئدة أهله .

وكانت خديجة تغدو وتروح فى الدار فى قلق فقد كانت تترقب أمرا جليلا أمرا داعبها سنين طويلة ، فلما دنت من تحقيق أحلامها انتابها خوف شديد من المجهول ، ولكنها راحت تقاوم ذلك الخوف وتحاول أن ترد نفسها إلى طبعها الهادئ لتستطيع أن تقف إلى جوار أبى القاسم ، فهو فى حاجة إلى مزيد من عطفها وتأييدها .

وبعثت خديجة رسلها إلى حراء ليحملوا له زاده وليطمئن قلبها الواجف عليه ، فلما عادوا إليها يقولون : لم نجد أبا القاسم فى الغار . اشتد وجيب قلبها واستبد بها خوفها فلم تستطع صبرا ، فبعثت رسلها إلى دار أبى طالب ودار العباس ودار حمزة ودار أبى لهب ودور أعمامه كلهم ودور أخواله من بنى زهرة ليبحثوا عنه ، فلما عادوا إليها وقالوا لها لم نجده أحست أنها تريد أن تنهار وأن الفزع قد زلزل كيانها .

وجاءت زينب ورقية وأم كلثوم يسعين إلى دار الطاهرة والخوف يلفهن والقلق يمور فى صدورهن والحيرة تطل من العيون . فلما رأين أمهن هرعن إليها يلتمسن عندها السكينة ولكن خديجة صاحبة القلب المؤمن

الكبير كانت ترتجف من الرأس إلى القدم خشية على الرجل الحبيب الذى عاشت معه أسعد أيام حياتها .

وجاء أبو القاسم وفى عينيه فزع ترتجف بوادره مما فعل به الملك وما قال له ، وهو الذى كان يعد لهذه اللحظة الرهيبة منذ استقبلته على يديها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما وضعته آمنة فى دار عبد الله ، وراح يقص على خديجة كيف ضمه الملك وكيف أرسله وهو يقول له : اقرأ . حتى إذا ما انتهى أبو القاسم من حديثه وقالت له زوجه : أبشر يا بن عم فإنى أرجو أن تكون نبى هذه الأمة . لم تحتمل التريث بل أسرعت بارتداء ثيابها وخرجت إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة وقصت عليه كل ما سمعت من أبى القاسم ، فلما قال لها ورقة : إنه الناموس الذى جاء موسى انجفلت إلى دارها تكاد يغشى عليها من الفرح ، فقد تحققت كل أمانيها وأحلامها وأصبح محمد نبى هذه الأمة .

وشهدت خديجة وبناتها أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد انعكس الإيمان العميق على الوجوه المستبشرة . وقالت بنات محمد فى فرح وهن ينصرفن إلى دورهن إنهن سيتحدثن إلى أزواجهن بالنبأ العظيم ، ولكن محمدا ﷺ طلب منهن أن يكتمن هذا الأمر حتى يأمره الله بإعلانه .

وعند الغروب وقف محمد عليه السلام يصلى وخلفه خديجة ، وبينا هما مستغرقان فى صلاتهما دخل على بن أبى طالب وظل يرقبهما فى عجب ، حتى إذا ما أتما صلاتهما تقدم على من ابن عمه وقال :

— ما هذا ؟

فأقبل محمد — صلوات الله عليه وسلامه — على الصبى الذى تربى فى

كنفه والذى طالما حدثه حديث الروح وقال :

ـــ دين الله الذى اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى .

فراح على يرمق ابن عمه فى دهش ثم قال :

ـــ هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب .

وكره أبو القاسم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له :

ـــ يا على إذا لم تسلم فاكتم هذا .

وانصرف على ومحمد ﷺ مطمئن إلى أن الفتى لن يفشى سره فهو ربيبه تلقى عنه مكارم الأخلاق ، وما كان لمن شب فى حجر النبى أن يخونه أو يفشى سرا طلب منه أن يخفيه .

ودخل على لينام وهو يفكر فيما رأى وفيما سمع من الرجل الذى أحبه بكل جارحة من جوارحه والذى اتخذه أسوة حسنة ، إنه يدعوه إلى دين اصطفاه الله لنفسه وبعث به أنبياءه فهو يدعوه إلى الخير ، وإن كان قد دعاه إلى الكفر باللات والعزى فقد سبق أن غرس ابن عمه الحبيب فى نفسه كراهية الأصنام جميعا فلم يسجد للات والعزى ولا لصنم من الأصنام التى تكدست فى الكعبة ووضعت من حولها . وراح يزن كل كلمة من الكلمات التى قالها لابن عمه لما عرض عليه الإسلام ، إنه قال له إنه لن يقضى أمرا حتى يحدث أبا طالب ، وإذا بأفكار أكبر من سنه تغمر رأسه فقد أراد الله له الرشد فأنار بصيرته وجعله يسأل نفسه : آلله استشار أبا طالب لما أراد أن يخلقه ؟! فما دام الله لم يحدث أباه يوم أن أرادت مشيئته

أن يهبه الحياة فلماذا يؤجل هو اعتناقه عقيدة خيرة تدعو إلى إله واحد لا شريك له إلى أن يحدث أباه ؟

وأحس الفتى الصغير نسائم حرية صادقة تهب على وجدانه ، وراح يتذكر كل ما رآه من الأمين من صدق ومروءة ونخوة وإغاثة للملهوف وصلة الرحم وخلق كريم فإذا بهامس يهمس فى أغواره : إن لم يكن أبو القاسم نبى هذه الأمة فمن يكون ؟

وإذا برحمة من الله تطوف به فبات يتحرق شوقا على طلوع النهار ليعلن إسلامه .

وأشرقت شمس يوم الثلاثاء اليوم التالى لنزول الوحى على محمد ﷺ فى حراء ، وتأهب محمد وخديجة للصلاة وإذا بباب يفتح ويخرج منه على ويندفع إلى أبى القاسم وهو يقول فى انفعال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وضم محمد ﷺ عليا إلى صدره فى حب عميق ، وراحت خديجة ترنو إليهما وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وتوضأ على ووقف خلف رسول الله ، ووقفت خديجة خلف على وراحوا يصلون ركعتين لله سرا . وقد أحست خديجة أن الدار تفيض بالأنوار وأنه عما قريب ستغمر رسالة السماء المشارق والمغارب ، وسيتحقق حلمها الذى رأته منذ أكثر من خمسة عشر عاما .

وجاء زيد بن حارثة فاستقبله أبو القاسم باشّا ثم راح يعرض عليه الإسلام ، فأطرق زيد برهة وإذا بكل حياته مع الرجل الرحيم الذى تبناه تمر فى مخيلته كلمح البصر ، ورن فى ضميره صوت محمد ﷺ فى ذلك

اليوم الذى جاء فيه أبوه وعمه لفدائه : أنا من قد علمت وقد رأيت صَحبتي لك فاخترنى أو اخترهما ، وإذا به يقول : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا . أنت منى مكان الأب والعم .

اختاره على أبيه وأمه وأهله ، فضله على أسرته وقبيلته ووطنه ، وهو يعرض عليه الآن أن يكفر بالأصنام وأن يقر بألوهية الله وحده لا شريك له ، وإنها لدعوة تطمئن إليها الفطرة ، وإنه لعلى خلق عظيم ، وهو أهل لأن يكون لله رسولا . وأحس زيد إشراقا فى ضميره وانشراحا فى صدره فأعلن عن رضى واغتباط إسلامه .

وجلست أم أيمن إلى محمد وخديجة تصغى إليهما وهما يحدثانها حديث الدعوة الجديدة التى تنفى الألوهية عن كل الآلهة ثم تثبتها فى قوة لله وحده لا شريك له ، ورأت أم أيمن أنها دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ، دعوة يقبلها العقل وتبتهج بها الروح وتشرق لها النفس ويطمئن الفؤاد ، فدخلت فى الدين الجديد وهى مستبشرة بما أتاها .

وعند الغروب قام محمد ومن خلفه على وزيد ومن خلفهم خديجة وأم أيمن يصلون لله ، وباتت دار خديجة هذه الليلة وهى أول بيت من المسلمين .

١٥

كانت خديجة قد قطعت كل العلائق بالتجارة وزينة الحياة الدنيا بعد أن رفع محمد ﷺ الحجاب عن قلبها وطهر كل السبل لوصول الحقيقة إلى فؤادها وجعلها تتذوق لذة الإنفاق حبا فى رضوان الله ، وكانت تعيش على أمل أن تتحقق أحلامها وبشارات الكهان والأحبار والرهبان ويصبح أبو القاسم النبى المنتظر . فلما نزل الوحى على زوجها الحبيب فى غار حراء وتأكدت من صدق نبوءته وأن ما جاءه هو الناموس الأكبر الذى جاء الأنبياء من قبله وأنه قد علمه الوضوء والصلاة لرب العالمين ، كاد يغشى عليها من الفرح ولكنها أحست بفطرتها السليمة أن نزول الوحى هى بداية الجهاد والشدة ، وأكد صدق إحساساتها قول ورقة للنبى ﷺ : ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه .

إنها دعوة وإن أبا القاسم خير من ينهض بها ، وإنها جهاد وإنه لخير المجاهدين ، وإنها لشدة وهو خير الصابرين على الشدائد ، وإنها لقتال فى سبيل الله وهو فارسها ، فهو يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وتسديد الرماية وإنه يدرب ابن عمه الفتى على بن أبى طالب ليشب فارس قريش وخير صناديدها .

كان إيمانها به وبقدرته ليس له حدود ، وكانت تراه كفئا للرسالة وأعبائها وإلا لما اصطفاه ربه لرسالته ، وكانت ترى نفسها المتفرحة فى الله

المتفتحة لعطايا الله الهائمة فى ملكوت الله المتأهبة لتحمل كل الشدائد فى سبيل الله حسنة من حسناته ، فهى أول مريدة فى مدرسة النور ومكارم الأخلاق .

وأسلمت وجهها لله وعرفت لذة مناجاته وطول النظر إليه ، ولكنها كانت متلهفة على أن يستعلن أمر الأمين ليغمر النور أفئدة قومها وليهديهم ربهم الصراط المستقيم ، فقلبها الكبير كان عامرا بحبهم بل بحب البشر أجمعين .

وأطلقت لخيالها العنان وراحت تفكر فى بيوت شرف قريش العشرة ، وكان بنو أسد رهطها أول من فكرت فيهم ، فورقة بن نوفل قس قريش وأكثرهم علما بالأديان قال لأبى القاسم : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . وهى تحسب أن مثل هذا القول من شيخ بنى أسد سيجعل الأسديين يهرعون إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، وطاف بذهنها ابن أخيها حكيم بن حزام ، إنه سيد من سادات دار الندوة وله مكانة مرموقة بين أشراف قريش ، فلو اعتنق حكيم بن حزام الدين الجديد لشجع ذلك كثيرا من قومه على الدخول فى الإسلام . ولكن هل يفعل حكيم ؟

وفكرت فى الزبير بن العوام ، إنه فتى جلد فى الثانية والعشرين من عمره مات أبوه العوام بن خويلد من عشرين سنة فى حرب الفجار ، وقد حزنت عليه حزنا شديدا وغمرت ابنه بحنانها فكان يأتى لزيارتها ويجلس إلى زوجها طويلا يلقى إليه سمعه وهو مبهور بحديثه الشجى الذى لا يرتفع إليه أحاديث حكماء العرب ، وهو وإن كان ابن أخيها فهو فى ذات الوقت ابن عمته صفية ، وهو راجح العقل حر التفكير ، وهى على ثقة من أنه

سيرحب بالدين الجديد بل سيكون من خيرة جنوده ، فهو لا يزال فى مقتبل العمر لم تفسده المطامع الدنيوية و لم تجمد نفسه على التعصب الأعمى للآلهة .

وفكرت فى أختها هالة وفى ابن أختها العاص بن الربيع زوج العزيزة زينب ، فخفق قلبها حبا وعطفا وخوفا ، فهى ترجو صادقة أن يشرح الله قلبيهما للإيمان بالدعوة الجديدة لأنها تحب لهما الخير والسعادة والهداية ، بيد أنها تخشى أن تأخذهما العزة بالإثم فتصبح حياة ابنتها المؤمنة التى شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أليمة لقلبها الغض الذى تفتح لحياة مشرقة جديدة على قومها .

واشتد وجيب قلبها واستولى عليها خوف شديد لما احتلت العزيزتان رقية وأم كلثوم صفحة رأسها ، إنها تهللت بالفرح لما شهدت العزيزتان بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، ولكنها لما فكرت فى مآلها فى دار أبى لهب بعد أن كفرتا بآلهة قريش استشعرت كأن يدا قوية تعتصر قلبها عصرا ، فعتبة ومعتب ألعوبتان فى يد أمهما أم جميل ، وهى قاسية القلب عنيفة فى عداوتها قُد فؤادها من صخر ، وأبو لهب رجل أطلق لشهواته العنان يمضى وقته فى الشراب والمقامرة والتنابذ بالألقاب . فهو يمجد الآباء والأجداد ولا يطيق من تسول له نفسه أن يمس معتقداتهم بسوء ، فلطالما سخر من الذين يفكرون فى نبذ آلهة آبائهم ليعتنقوا اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها من الأديان .

ولف خديجة وجوم فمستقبل بناتها قد بات يتأرجح ، فإن استعلن أمر محمد ﷺ و لم يدخل أزواجهن فى الدين الجديد فستغلق فى وجوههن

أبواب الأزواج وسيعدن إليها كسيرات الفؤاد . ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وماذا يستطيع أبو القاسم أن يفعل غير أن يستمر فيما يأمره الله به بعد أن اصطفاه ، إنها الرسالة وإن أعباءها ثقيلة لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرجال .

وهمست خديجة فى إيمان : « فلتأت مشيئة الله بما يشاء » . وراحت تعجم أعواد بنى هاشم فأبو طالب يحب محمدا حبه لولده أو أشد ، وهو سيد بنى هاشم وزعيمهم وإن كان يقاسى قلة فى المال ، وهو راجح العقل وقد اعتاد أن تكون كلمته هى العليا . أفيرضى بعد أن ذهبت السنون وبلغ من العمر عتيا أن يكون تابعا لابن أخيه وإن كان رسول رب العالمين ؟ وأبت عقلية خديجة التى تمرست فى التجارة وفى الحساب وسبر أغوار الرجال أن تخدع نفسها وتصدق أن أبا طالب سيفرح بالدين الجديد وسيدخل فيه راضى النفس . وأحست كدرا فهى تقدر أبا طالب وترى أن وقوفه إلى جوار الأمين كسب للدعوة الجديدة ما بعده كسب ، وتمنت صادقة لو أن الأيام تكذب حدسها ويحتضن شيخ الهاشميين رسالة السماء ، حتى يشرق النور على العالمين .

وورد على ذهنها عمه العباس بن عبد المطلب ، إنه مشغول عن الآلهة بتجارته وبأمواله الممدودة التى يقرضها بالربا ، وهو سعيد بأن صارت إليه السقاية والرفادة ، وهو يسقى الحجيج ويطعم فقراءهم ليقال إنه جواد ولشرف الدنيا وللأحاديث والذكر ، وهو طيب القلب معدنه نفيس ، فلو أنه طرح كبرياءه للبى داعى ابن أخيه . أما زوجه أم الفضل فهى الطيبة والطهارة والخلق الكريم ، وقد دارت بينهما أحاديث عن

الأمين فكانت أم الفضل تشرق بالفرح كلما قالت لها : إنها لترجو أن يكون أبو القاسم نبى هذه الأمة . وها هو ذا أبو القاسم قد صار نبيا فلو أنها بعثت إليها بأن أحلامها قد صدقت وأن الله قد أرسل محمدا عليه السلام رسولا لآمنت به وصدقته وهرعت إليه والدموع تترقرق فى مقلتيها .

واحتل ذهنها حمزة بن عبد المطلب وقد تنكب قوسه وركب فرسه ، إنه أخوه فى الرضاعة رفيق طفولته وشريكه فى حزنه على عبد المطلب وصديق الشباب وإن اتخذ كل منهما سبيلا ، فقد آثر محمد العزلة وانغمس حمزة فى مجتمع قومه ومع ذلك كان الود بينهما متصلا ، وكان الفارس معجبا بابن أخيه الأمين الذى اشتهر بخصاله الحميدة ، وإن خديجة لتطمع فى أن تقوده فروسيته إلى الطريق القويم . إلى الإيمان بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه .

وخطر على فكرها أبو سفيان بن الحارث ابن عم الأمين الذى يشبهه والذى كان يلازمه على الدوام ، وذكّرها الحارث بشباب الهاشميين طالب وعقيل وجعفر فألفت نفسها تتهلل بالأمل ، فقد رأت فيهم شباب الدعوة الذين سيتحمسون للدين الجديد ، وامتدت أحلامها إلى عمته عاتكة التى ربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم بزواجها بأبى أمية بن المغيرة . إنها تحب ابن أخيها حبا جما وهى التى جاءت إليها أيام كانت تستأجر الرجال للخروج فى تجارتها وعرضت عليها أن تستأجر ابن أخيها محمد بن عبد الله ، فلو أنها آمنت برسالة محمد لتبعها ولداها عبد الله وزهير ومن يدرى فقد يتفشى الإسلام فى بنى مخزوم بفضلها .

وطاف بها خاطر : لو أن الوليد بن المغيرة اعتنق الدين الجديد لتبع بنو

مخزوم سيدهم ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا . أوّ يعقل أن يتنازل الوليد عن مكانته وأن يطعن كبرياءه بيده ويسلس قياده ليتيم قريش !

وأبو سفيان بن حرب ما يكون موقفه من الدعوة ؟ إنه سيضع أصابعه فى أذنيه ولن يستجيب لداعى السماء ما دام ابن عبد الله سينتزع الزعامة من الأمويين للهاشميين . إنه لا يستطيع أن يرى إلا أنها منافسة بين الهاشميين والأمويين ولن يقر أبو سفيان لأحد غيره فى قريش كلها بالسيادة .

وعتبة بن ربيعة سيد عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، والأرقم بن أبى الأرقم . والمطعم بن عدى ، وعقبة بن أبى معيط ، والحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب زوج خالته ، وابنه النضر ، ماذا يكون موقفهم منه ؟! وأحست خديجة قشعريرة تدب فيها من الرأس إلى القدم إشفاقا على زوجها ، فالطريق محفوف بالصعاب والأهوال . وقبل أن تستسلم لمخاوفها لاحت لعين ذاتها الحقيقة ناصعة ، إنه ليس وحده ، إنه مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه .

وجاءت جارية حكيم بن حزام لزيارتها فأقبلت عليها متفتحة النفس وراحت تقص عليها بعض ما كان فى غار حراء وتخبرها أن الله قد اصطفى محمدا ﷺ لرسالته ، وما كادت خديجة تتم حديثها حتى أسرعت الجارية إلى مولاها ، ودخلت على حكيم وعنده أبو بكر فقالت له :

— إن عمتك خديجة تزعم فى هذا اليوم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى .

وخفق قلب أبى بكر ، إنه كان يكثر غشيانه فى منزله وكان يحاوره

فكان يعجب بأصالة أفكاره ويرى أنها فيض من الله ، وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه فكان يترقب فى لهفة أن يسمع من محمد ما يكون بعد أن آب إلى حراء عقب أن طلب منه ورقة أن يثبت إذا ما سمع الصوت الذى يناديه ورأى النور الذى يغشى الغار ، ولكنه لم يعلم أن صديقه قد قفل عائدا من تحنثه يحمل رسالة السماء .

ولم يستطع أبو بكر صبرا فاستأذن فى الانصراف وانطلق إلى دار خديجة وقد تذكر رؤياه التى رآها ، فإنه رأى القمر ينزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، وإنه ليحس الساعة أن رؤياه صادقة وأنه فى طريقه لتحقيقها .

لم تكن بأبى بكر غطرسة وما كانت له زعامة مهددة بالزوال وما كان من المؤمنين بالأصنام ، بل إنه كرهها منذ أن قال لإلهه إنى جائع فأطعمنى وظل إلهه غارقا فى بلهه وسكونه ، وما كان ذهنه مغلقا وما كان صاحب هوى ولا حليف الشهوات ، فهو يريد جوهر الحقيقة ، وإنه ليرى فى صديقه الأمل الذى يخفق فى قلوب طلاب الإصلاح ، فما إن سمع مولاة حكيم تقول إن خديجة تزعم أن زوجها نبى مرسل مثل موسى حتى صدق أن محمدا رسول الله حتى قبل أن يلقاه .

ووقف أبو بكر على باب خديجة يطرقه فى انفعال ، ومرت لحظات ثم انفرج الباب عن جارية قادته إلى حيث ينتظر ، ثم ذهبت إلى حيث كان أبو القاسم وأهل بيته وأنبأته بقدوم عتيق بن أبى قحافة .

وذهب محمد — عليه السلام — للقاء صديقه ، وقامت خديجة وقد تحركت عواطفها لتسمع ما يكون بين الصديقين وكانت على ثقة من أن

ابن أبى قحافة سيستجيب لدعوة الحبيب ، ودخل أبو القاسم على صديقه مشرق الوجه فقام إليه أبو بكر وقال فى انفعال :

— يا أبا القاسم ! ما الذى بلغنى عنك ؟

فقال النبى ﷺ فى هدوء :

— وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟

— بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله .

— نعم يا أبا بكر . إن ربى جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعا .

ودق قلب خديجة فى صدرها وأرهفت سمعها ، و لم يطل انتظارها فقد سمعت أبا بكر يقول فى صوت ينم عن الصدق والإيمان بما يقول :

— والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مد يدك فإنى مبايعك .

وغمر خديجة فرح فياض ، فما تردد أبو بكر ولا أبى عليه ولا أرجعه فى الكلام ، بل قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله . فاندفعت خديجة إليه مستبشرة وعليها خمار أحمر، فقالت :

— الحمد لله الذى هداك يا بن أبى قحافة .

وانصرف أبو بكر وما بين لابتيها أشد سرورا من رسول الله ﷺ بإسلامه .

١٦

جاء الليل فعاد سعد بن أبى وقاص إلى الدار ، فكان أول ما فعله أن ذهب إلى أمه يغمرها بحنانه . ومد الطعام فجلس إلى جوارها يطعمها أطيبه ، ينافسه أخوه عامر فى البر بها والعطف عليها . كانت أسرة هانئة سعيدة ترفرف عليها السكينة وتطوف بها آمال متواضعة ، فما كانت أمانى الأم لتمتد إلى أكثر من أن يوفق سعد فى صناعة برى النبل وأن ينجح عامر فى تجارته .

وحان وقت النوم فنهضت الأم إلى الصنم الموجود فى البيت لتؤدى له صلاتها وهى توصى ولديها بالصلاة للآلهة شكرا اتقاء لشرهم فى الدنيا وجلبا للرزق وإطالة العمر على الأرض ، وكانت أمهما مؤمنة بآلهتها متعصبة غاية التعصب لتقاليد قومها يضيق صدرها بأية بادرة تسىء إلى دينها أو تخدش قدسيته ولو من بعيد .

ونهض سعد وهم بأن يتمسح بالصنم ولكنه وجد تثاقلا فى نفسه ، إنه سمع من أبى القاسم كلاما بذر الشك فى عين ذاته فى قدرة آلهته على القدرة ، إنها أحجار صماء نحتها الناس ثم عبدوا ما ينحتون غرورا . وقد سمع من أبى بكر وهو من الحنفاء الذين أنكروا دين قريش وعبدوا الله وحده تسفيها لمعتقدات قومه استراح له عقله ، فقد كان فى التاسعة عشرة من عمره يتلفت باحثا عن الحقيقة ، ولم تكن نفسه قد تحجر فيها ما لقن من

عقائد وما اكتسب منها من طول انغماسه فى مجتمعه .

كان يستشعر كلما جلس إلى أبى القاسم أنه بين يدى رجل فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه فجرت الحكمة على لسانه . وكان يتمنى فى أغواره لو أنه يستطيع أن يقبس من نوره قبسا ينير بالحكمة وجدانه ، فقد كان يطمع فى أن تتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور .

إنه يحس إحساسا صادقا بعظمة الأمين ، فما من مجلس كان فيه أبو القاسم إلا وقد تضاءل الرجال إلى جواره ، فشخصيته آسرة إن صمت ، وإن تكلم استولى بفصاحته على القلوب وجذب إليه النفوس لتسعد بالهيام فى دنياه الصافية الرقراقة الخفاقة بالحقيقة واليقين .

وألقى سعد نظرة ازدراء على الصنم ثم أولاه ظهره وسار إلى فراشه يحس راحة فى ضميره وطمأنينة فى فؤاده ، واندس فيه وأسلم جنبه للرقاد وسرعان ما خطفه النوم فراح فى سبات عميق .

ورأى نفسه فى ظلام دامس وهو يحاول الخروج منه كلما خرج من ظلام دخل فى ظلام ، فانبهرت أنفاسه وهو يضرب فى الظلمات ، واستولى عليه فزع وهلع واضطراب ، وبينا هو فى ضيقه وتبرمه إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فتفرس فى القمر فى استبشار فرأى أبا بكر وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة يطلون من القمر ويشيرون إليه أن يلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتهيتم إلى ها هنا ؟

فقالوا له :

— الساعة .

وهب من نومه يحس كأنما حلمه قد حفر فى قلبه ، وتولته دهشة لاجتماع أبى بكر وعلى وزيد فى مكان واحد وأين ؟ فى القمر ، إنها رفعة .. إنها إشراق لطيف .. إنها دعوة لأن يرتفع مثلهم .. لو دعاه أحدهم إلى خير ليتبعنه .

وفر الليل هاربا أمام النهار فغادر سعد فراشه وذهب إلى حيث كانت أمه ليلقى عليها تحية الصباح فإذا بأخيه عامر قد سبقه إليها وراح يسبغ عليها عطفه ، فأقبل عليهما مشرق الوجه يبذل لأمه كل نفسه لعلها ترضى .

وخرج سعد إلى عمله وجلس يبرى النبل لفرسان قريش الخارجين للقنص ، فأقبل نوفل بن العدوية أسد قريش ، وخالد بن الوليد فارس بنى مخزوم ، وحمزة بن عبد المطلب وشباب مكة المولع بالصيد ليبروا سهامهم ، ودار بينهم حديث شائق حول صيد الغزلان وصيد الحسان وسعد غائب عنهم بالتفكير فى الرؤيا التى رآها .

وخرج أبو بكر من داره وقد عزم على أن يدعو إلى الدين الذى اعتنقه من يثق فيهم من شباب قريش وكان على ثقة فى أنهم سيستجيبون لدعوته ، فهو معظم فى قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من أعف الناس محبب فى قومه حسن المجالسة من أعلم الناس بتعبير الرؤيا وأعلم الناس بأنساب العرب وما فيها من خير وشر ، ولكنه ما كان يعد مساويهم ومن ثم كان محببا فيهم . بخلاف عقيل بن أبى طالب فإنه كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم .

كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعينون به فيما يأتيهم ، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد ، ولعله كنى بأبى بكر لابتكاره

الخصال الحميدة ، فكان المتطلعون إلى مستقبل أفضل لمدينتهم المقدسة يهرعون إليه بعد أبى القاسم ليجدوا عنده النور الذى ينير لهم السبيل .

وجاء أبو بكر إلى سعد فألفاه فردا بعد أن انصرف فرسان قريش للهو ، فقال له :

— جئتك يا سعد فى أمر ذى بال . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت خاله وهو منكم .

فقال سعد فى حماس :

— إن محمدا غير متهم . فهو يؤدى الأمانة ويصل الرحم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الدهر .

— قد نزل على محمد وحى من السماء أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده .

— أيكفر باللات والعزى ؟

— نعم ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

— ومن تبعه على دينه هذا ؟

— أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

وتذكر سعد رؤياه فقال فى انفعال :

— وأين رسول الله الآن ؟

— فى شعب أجياد يعبد الله مستخفيا .

كان النبى ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فبينما هما فى صلاتهما إذ عثر عليهما

أبو طالب فوقف ينظر فى دهش ، حتى إذا ما أتما صلاتهما قال لابنه :

ــ ما هذا الذى أنت عليه ؟

فقال على :

ــ يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت معه .

فالتفت أبو طالب إلى أبى القاسم وقال :

ــ يا بن أخى ما هذا الذى أراك تدين به ؟

فقال محمد ﷺ وهو يطمع فى إسلام عمه الذى يحبه من كل قلبه .

ــ هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إلى الله تعالى وأعاننى عليه .

كان أبو طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا فقال :

ــ إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه .

ثم التفت إلى ابنه على و لم ينهره بل قال :

ــ أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

وانصرف أبو طالب وجاء أبو بكر والفتى الدحداح سعد بن أبى وقاص وكان فى التاسعة عشرة من عمره سليم القلب خالص النية ، وما إن وقعت عيناه على محمد ﷺ حتى استشعر رهبة وإجلالا ، وراح النبى ﷺ يعرض عليه الإسلام ثم قرأ : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . فأخذ سعد بعذوبة القرآن وفتن برقته وانتشى بحلاوته وكان لجرسه وقع عظيم فى نفسه ، فقال :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا ، وما مالت الشمس للغروب حتى وقف يصلى لله فدخلت عليه أمه فألفته قد خر ساجدا ، فرمقته فى عجب فإذا به يصلى صلاة لم تألفها فقالت :

ــ سعد ! سعد ! ماذا تفعل ؟ ولمن تسجد ؟

وأتم صلاته فقال لها :

ــ أسجد لله رب العالمين . إنى أدعوك يا أماه إلى الله وحده لا شريك له وإلى الكفر باللات والعزى وشهادة أن محمدا عبده ورسوله .

فقالت أمه فى فزع :

ــ سعد .

ــ إنه دين حسن يدعو إلى التراحم والتواد والتقوى وصلة الرحم وبر الوالدين .

ــ إنى لا أفارق دين آبائى أبدا . ثب إلى رشدك يا سعد .

ــ استمعى إلى يا أماه عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

ــ ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟

ــ نعم .

ــ والله لا أكلت طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء به محمد وتمس إسافا ونائلة .

ــ لا . لا تفعلى يا أمت .

ــ لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى .

ــ إنى لا أدع دينى .

وجاء أوان تناول الطعام فدعا سعد وعامر أمهما إلى العشاء فأبت ، فتركها سعد وظل عامر يحاول أن يثنيها عن عزمها دون جدوى ، وانقضى يوم وأم سعد على عهدها لا تأكل ولا تشرب . ثم مر اليوم الثانى وهى لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد خمدت ، فجاء إليها سعد وقال :

ـــ تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين هذا النبى ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى .

وراح أهل الدار يفتحون فاها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فلما فتحت عينيها التفتت إلى عامر وقالت لسعد تعيره :

ـــ هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

وخرج سعد إلى شعب أجياد يصلى مع النبى وعلى وأبى بكر وزيد مستخفين ، فلما صلى الركعتين اللتين يصلونهما بالعشى عاد إلى الدار فوجد أمه على الباب تصيح :

ـــ ألا أعوان يعينوننى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟

فقال لها سعد وهو حزين :

ـــ لا أعود إليك ولا أقرب منزلك .

فرجع من حيث جاء وأمه تتميز غيظا فقد أحست الهزيمة ، وما كان يدور بخلدها أن يعصى سعد لها أمرا أو يخيب رجاء وهو البار بها المتفانى فى رضاها . ترى ما كنه هذا الدين الذى استولى على لبه ؟ سحره محمد ورب الكعبة .

وراحت ترقب عودته نادما مستغفرا ولكن الأيام تمر وسعد لا يئوب

إليها فتشعر أنها تكاد تختنق اختناقا ، وتأبى كرامتها أن ترضخ لذلك العقوق فتصطبر على مضض ثم ترسل إليه :

ـ عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار .

فرجع إلى منزله فمرة تلقاه بالبشر ومرة تلقاه بالشر وتعيره بأخيه عامر وتقول :

ـ هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

ولم يخطر لأمه حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس على قلب أن سيأتى يوم قريب يشرق فيه نور الإسلام فى فؤاد ابنها عامر ، وأنه سيلقى منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى ، وأنها ستعطى آلهتها عهدا ألا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته .

١٧

كانت الشمس تنحدر فى الأفق الغربى لتختفى خلف جبال مكة ، وكان الناس فى الحرم يطوفون بالبيت أو يجلسون فى المسجد وقد انتشرت بطون قريش فى نواديهم ، ودخل سادات القوم دار الندوة تلك الدار التى أصبحت لحكيم بن حزام . وكانت غاية آمال شباب قريش أن يكون لهم فى ذات يوم رأى فى تلك الدار التى تبسط سلطانها على أهل الحرم .

وكانت السادة والعبيد من كل دين ومن كل مذهب يمارسون شعائرهم فى حرية فى جنبات أول بيت وضع للناس ، فقد كان حرما آمنا تجبى إليه طيبات كل شيء ، وكان أهله متسامحين مع كل الملل والنحل ما دام أصحاب المذاهب لا يتعرضون لآلهتهم بسوء ، ولا يهاجمون دينهم ، ولا ينتقدون سوء توزيع الأموال بينهم ، ولا يحاولون أن يحدوا من حرياتهم الجنسية أو يكبحوا جماح شهواتهم الضارية .

وكان فى الطائفين بالبيت والجالسين حوله من أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة ، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

وكان منهم حنفاء يعتقدون بوحدانية الله ويحاولون أن يهتدوا إلى ملة أبيهم إبراهيم ، وما كانوا على هدى واحد بل كان كل منهم يعبد الله على قدر جهده واجتهاده وقد ضربوا جميعا فى البلاد بحثا عن دين إبراهيم ، فمنهم من تنصر أو تهود ومنهم من بقى على دينه ينتظر مبعث النور .

ووضع نصارى العرب تمثالا لمريم وهى تحمل المسيح بين تماثيل اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنام قبائل العرب ، فما وجد العرب فى ذلك غرابة فما يضيرهم أن يضاف تمثال إلى الثلاثمائة وثلاثين تمثالا التى كانت فى جوف الكعبة ومن حولها .

ومنهم من كان على دين المجوس ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنوار اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل منهم من كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله .

كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع لا عن سماحة خلق بل لأن أهل مكة كانوا يعيشون على الاتجار بالدين . وماذا يهمهم من تعبد المتعبدين ما دامت حريتهم الجنسية مكفولة ، وما دامت أموالهم تربو مع الأيام ، وما دامت الخمور تجلب من الشام . وما دام الناس يمتدحون الأيسار الذين يمضون سواد الليل فى الميسر والتنابذ بالألقاب ، وما دام الأشراف والسادة يجمعون الذهب والفضة من فتياتهم اللاتى يجلسن للبغاء .

* * *

ومن خباء قريب من حيث جلس العباس بن عبد المطلب خرج محمد ﷺ فنظر إلى الشمس . فلما رآها مالت ذهب إلى بئر زمزم فتوضأ فأسبغ

الوضوء ثم خرج غلام مراهق فتوضأ ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فتوضأت . ثم قام محمد ﷺ يصلى وقام الغلام إلى جنبه وقامت المرأة خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ، ثم خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة .

وكان عند العباس عفيف الكندى وكان امرأ تاجرا قدم للحج وأتى العباس ليبتاع منه بعض التجارة وكان العباس له صديقا ، فراح يرمق المصلين فى دهش ثم التفت إلى العباس وقال :

— ويحك يا عباس ، وما هذا الدين ؟

فقال العباس فى بساطة :

— هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى يزعم أن الله بعثه رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب وهذه امرأته خديجة .

ترى أكان العباس يعلم أن زوجه أم الفضل قد أعلنت إسلامها فى ذلك اليوم وأنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ وأن أسماء بنت أبى بكر قد دخلت معها فى دين الله ؟

وكان عثمان بن عفان فى طريقه إلى داره ، وما إن دخل حتى ألفى خالته سعدى بنت كريز عند أمه أروى فراحت تحدثه عن محمد ﷺ وعن الوحى الذى نزل عليه من السماء وعن صفات الأمين ، وتؤكد له أنه نبى هذه الأمة الذى بشرت به الأنبياء ، وجعلت تحثه على اتباعه وهى تزين له الإسلام .

كانت أم أروى وسعدى بنتى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وكانت وعبد الله توأمين . فكان محمد ﷺ ابن خالهما وكانتا تعرفان عنه أنه أجود

الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، قد قطع كل علائقه بالدنيا ليتصل بربه ويشرق نور المعارف فى صدره . وقد توجت عزلته وتعبده لله وحده بأن اصطفاه ربه وبعثه رسولا للعالمين .

وكان لعثمان مجلس من أبى بكر وكانا كلما تحاورا تحدثا عن الدين . ويا طالما أسهب أبو بكر فى حديثه عن محمد وتحنثه ومحبته للعزلة وزهده فى الدنيا وهو القادر على أن يكون من أعظم تجار مكة ومن أثريائها ومن أشرف رجالها ، فكان يهتدى إلى أن أبا القاسم ما هجر اللذات وفرض على نفسه حياته الخشنة التى يحياها إلا لشىء أسمى من اللهو والتجارة .

وكان عثمان يتهلل بالفرح الروحى الفياض كلما جلس إلى أبى القاسم وأعاره سمعه ، فقد كان يحس كأنما حديث ابن خال أمه يرفعه من الأرض إلى السماوات ويجعله يحلق فى ملكوت صيغ من مكارم الأخلاق .

ونهض عثمان وانطلق قاصدا أبا بكر والأفكار تتزاحم فى رأسه . إنه تمنى ذات يوم أن يتزوج رقية بنت محمد وكانت من أجمل خلق الله . وما كانت رغبته فيها لذلك الجمال فحسب بل ليربط الأسباب بينه وبين ذلك الرجل الكريم الذى تتسلل محبته إلى قلوب الناس ، وليتيسر له أن ينهل من ينبوع الحكمة الذى تفجر فى قلب محمد من طول سهره مع الله . ولكن بينما كان فى فناء الكعبة قيل : أنكح محمد عتبة بن أبى لهب بنته رقية . فدخلته حسرة ألا يكون سبق إليها ، فإن كان زواج رقية من عتبة قد أبعده عن الرجل الذى تعلق به فؤاده فهذه الدعوة الفاضلة التى يدعو إليها ستجعله يدنو منه دنوا يشرح صدره ، وييسر له قبس النور من نبع النور .

وجاء أبا بكر فأصابه وحده ، وأطرق متفكرا فسأله أبو بكر عن تفكره فقال :

ـــ انصرفت إلى منزلى فوجدت خالتى سعدى بنت كريز فأخبرتنى أن الله أرسل محمدا .

فراح أبو بكر يرغبه فى الإسلام ويحثه أن يكون من أوائل الملبين لداعى الله وعثمان يصغى فى اهتمام ويستشعر كأن نورا يضىء فى جوانحه وبردا ينزل على قلبه وسلاما يعسربل روحه ، وبينا النور ينداح فى ظلام نفسه مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا ، فقام أبو بكر وهمس فى أذن صاحبه ، فقعد ﷺ ثم أقبل على عثمان فقال :

ـــ أجب الله تعالى إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى جميع خلقه .

فما تمالك عثمان حين سمعه أن قال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وذاع فى بنى أمية أن عثمان قد دخل فى الدين الجديد . وما إن صك ذلك النبأ أذنى عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية والد مروان بن الحكم حتى ثار ، وأغضبه أن يتنكر ابن أخيه لآلهة آبائه فذهب إليه يحاول أن يثنيه عن ذلك الدين ، ولكن عثمان وقف فى وجه عمه كالطود الأشم ، فلما فل سلاح الإقناع بالحسنى أخذه عمه فأوثقه كتافا وقال :

ـــ ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أصلك أبدا حتى تدع ما أنت عليه .

فقال عثمان فى صلابة :

ـــ والله لا أدعه ولا أفارقه .

واستمر الحكم فى تعذيب عثمان وعثمان لا يهن ولا يضعف ولا يتزعزع إيمانه بل يظل صلبا فى الحق ، فخشى عمه أن يفتن الضعفاء به فأطلقه وهو كاره حائر لا يدرى أأحسن ساعة أن أوثقه أم أحسن ساعة أن أطلقه أم أساء فى الحالتين !

وكانت الأفكار التى تدور حول محمد قد ملأت رأس الزبير بن العوام ، إنه ألقى سمعه إلى عمته خديجة فحدثته عن أبى القاسم أحاديث عجيبة استولت على لبه وأسرت فؤاده ، وأعار أمه صفية أذنيه فإذا بها تروى عن ابن أخيها روايات تتسرب إلى عين ذاته وترفع الحجب عن وجه الحقيقة فيستشعر كأن شيئا غامضا مثيرا يجذبه إلى صاحب الشخصية الفذة الآسرة الحبيبة .

إن على بن أبى طالب قد أسلم وهو الفتى الذى لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره أعلن إيمانه بالدين الجديد بعد أن استبان لعين بصيرته جمال الدعوة ، وهو قد بلغ الثانية والعشرين فما الذى يقعده عن الإقرار بوحدانية الله ورسالة الرجل الذى اصطفاه ربه لهداية البشر ؟!

وانبعثت من أغواره هتافات تهيب به أن آمن بالله ورسوله ما دام نور اليقين قد أنار قلبك ، فلم يجد ملاذا له إلا أن يأتى أبا بكر الرجل الذى يفزع إليه فى كل ما يشغله ، فانطلق إليه يستشيره وإن وضحت لعينيه معالم الطريق .

ودخل على أبى بكر وكان يألفه وراح يحدثه بما يساوره من أفكار ، فإذا بالرجل الحكيم يرغبه فى الإسلام ثم يقوده إلى حيث كان محمد ﷺ لينطق بالشهادتين اللتين اطمأن بهما قلبه .

وسمع عمه ، الذى ثار على صفية يوم أن رآها تضرب ابن أخيه وهو صغير واتهمها بأنها لا تحبه،أن ابن العوام كفر بآلهة قومه واتبع من جعل الآلهة إلها واحدا ، فانقشع من قلبه كل عطف على الفتى اليتيم وذهب إليه والغضب يطل من عينيه وأمره فى حدة أن يقلع عن تلك الصبوة التى عبثت بعقله لكأنما الإيمان يفر مرعوبا أمام سورة الغضب . وزاد فى حنقه أن الزبير لم يرتعد فرقا من خشيته بل قال فى جنان ثابت :

— لن أفارق دينى .

وشد عمه وثاقه وجاء بدخان يعذبه به فملأ عينيه وأسال منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزا ما أقساه ، وتسرب إلى رئتيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت وأن روحه تكاد أن تفر من بين جنبيه ، ولكن حلاوة الإيمان كانت تطغى على كل الآلام فكان يثبت على دينه فى إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد .

إنه عانى شدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال لا تزعزعها عواصف عذاب قد يؤلم الجسد ولكن يعجز عن أن يصل إلى الروح ، وهى شدة هيأت أحسن الفرص لنفوذ سر الله إليه فقد طهرت ضميره من الأدران كما تطهر النار المعادن من الخبث .

لم تكن معتقدات قومه كافية لإشباع طموحه بعد أن اعتاد أن يجلس إلى ابن خاله الأمين ويسمع حديثه عن ملكوت السماء ، فلطالما ذهب لزيارة عمته خديجة وما أكثر ما شارك على بن أبى طالب وزيد بن محمد متعة الإصغاء إلى الرجل الذى تخرج الحكمة من بين شفتيه ، فلما بلغه أن الله بعث أبا القاسم رسولا وألقى سمعه إلى الدين الجديد وجد فى دعوة ابن خاله

روحا جديدا يؤذن بتجديد شباب البشرية وإعادة الكرامة إلى الإنسانية ، فوطد النفس على أن يكون له ظهيرا يؤيده وينصره ويقف معه فى وجه كل طغيان حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

* * *

والتقى أبو بكر ببلال مولى بنى جمح فقال له :

— ظهر نبى هذه الأمة .

فقال بلال فى اهتمام :

— من ؟

— محمد بن عبد الله .

فأحس بلال طمأنينة تنزل بقلبه وراحة تنساب إلى ضميره وتستقر فى وجدانه ، فهو يعرف لمحمد ﷺ صدقه فلم يجرب عليه كذبا قط . وعرف له أمانته التى ذاعت فى الآفاق وحسن خلقه وطهارة قلبه الكبير الذى يتسع لكل الناس ، فهو ليس فظا غليظ القلب كسيده أمية بن خلف ، ولا يتصف بالصلف والغرور الذى يملأ جوانح أبى الحكم بن هشام ، وهو كريم جواد لم يعرف عنه البخل الذى كان صفة لأبى سفيان ، ليس بصخاب فى الأسواق ، لا فرق عنده بين سيد وعبد ولا أبيض ولا أسود ، فهو خليق بالرسالة وهو كفء لحمل الأمانة .

وشرد بلال يفكر فى خصال أبى القاسم وهو مبهور بشخصيته الفذة التى ليس لها مثال فى الناس ، ولا غرو فهو ربيب السماء صنعه الله على عينه واصطفاه وجعل فيه نورا يجذب إليه البصائر قبل الأبصار ، وراح أبو بكر يبسط لبلال دعوة محمد — ﷺ — فيقول :

— إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار إلى عبادة خالق السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل . وتخلى الطريق بين العبد وربه يدخل إليه بغير واسطة ويتقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتوادد والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وانطلق أبو بكر وبلال إلى دار خديجة ودخلا على محمد ﷺ ، فإذا ببلال يرى بعين ضميره كأنما الكون كله يفيض بأنوار سماوية . وراح أبو القاسم يعرض على بلال الإسلام فإذا بخشوع ينزل بفؤاده ، وإذا بلسانه يتحرك بوحى من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان : شهادة بنفى الربوبية عن الآلهة جميعا وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبد الله ورسوله .

وتلألأ فى نفس بلال الإحساس بالخير الأسمى ، وشاع فيها الرضا بعد أن محق الشرك من فؤاده وأنصف ذاته ، بل البشر جميعا ، لأن الشرك ظلم عظيم . وغادر بلال دار النبوة وهو مرفوع الرأس يستشعر الراحة والرضا ، وكأنه قد خلق خلقا جديدا . فقد دخل على محمد — ﷺ — وهو عبد لبنى جمح وخرج من عنده وهو عبد لله وحده ليس عليه سلطان إلا ربه ، وهام فى الوجود مستبشرا عظيما فى نفسه قد هان فى عينيه كل سلطان أرضى بعد أن ربط الأسباب بينه وبين السماء .

وأصبح بلال سابق الحبشة إلى الإسلام من أتباع محمد — ﷺ —

يختلف إليه حينما تغفل أعين الناس ، فى قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، يرشف الحكمة من نبع الحكمة ويتأدب من مؤدب البشرية وينهل الشجاعة من معين الشجاعة ويتزود بالتقوى خير الزاد ، ويتعلم أن الناس سواسية ، وأن لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بصالح الأعمال .

وسرى الهمس فى مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يدعو سرا إلى توحيد إله واحد . وبلغ الهمس دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فإذا بسعيد يتذكر وصية أبيه الذى هجر دين آبائه وآمن بالله وحده ووقف على باب الكعبة يعلن على الملأ أن ليس فى القوم من هو على دين إبراهيم غيره . إنه كان ينتظر ظهور النبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء ليصدقه ويؤمن به ، فلما وافته منيته أوصى ابنه سعيدا أن يسارع بتصديقه إذا ما ظهر ، وها هو ذا النبى الذى كان أبوه يرقب مبعثه قد بعث ، فذهب سعيد إلى زوجه فاطمة بنت الخطاب وقال لها فى فرح :

— ظهر نبى هذه الأمة ، إنه محمد بن عبد الله وإنه لخليق بالرسالة .

ودار حوار بين الزوجين اللذين كانا ينتظران ذلك النبى الذى أوصاهما باتباعه زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يذهب للقاء ربه ، وانتهى الحوار بأن ارتدت فاطمة ثياب الخروج وانطلقت مع زوجها إلى دار الطاهرة وسيدة نساء قريش .

وجلس سعيد وفاطمة إلى رسول الله ﷺ وقد أعاره السمع ، فكان حديثه الشجى ينفذ إلى القلب ويشرح الصدر ويجعل نور الإيمان يشرق فى الأفئدة ويرقق النفوس ويرفعها من العالم المادى المحدود إلى عالم الروح .

الذى ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وشهد سعيد شهادة الحق وهو مستبشر بأنه قد صار على نور من ربه وقد احتلت صورة أبيه زيد بن عمرو بن نفيل رأسه وهو على راحلته يقول: اللهم إنى لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكن لا أعلم. إلهى إله إبراهيم ودينى دين إبراهيم ، ثم يسجد على ظهر راحلته .

وكان سعيد متفرحا بالهدى الذى أنزل السكينة على قلبه بعد أن عرف أحب الوجوه إلى الله يعبده به ، وكانت فاطمة تستشعر نشوة روحية فياضة وهى تنطق بالشهادتين ، وودت لو أن آل الخطاب جميعا كانوا معها ليحظوا بسعادة الدنيا وهناءة الأبد .

وعاد من اليمن عبد عمرو بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة وكان ينزل على عسكلان بن عواكن الحميرى كلما سافر إليها ، ولما كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين فى اليمن فقد كان السمر يدور حول الدين والأنبياء وحول البشارات التى يفيض بها الكتاب المقدس عن ظهور نبى من الأمم . وكان ابن عوف يسمع من الأحبار والرهبان أنه سيبعث من البيت الحرام نبى مثل موسى ، فلما دخل على أبى بكر وسمع منه أن الله قد أوحى إلى عبده محمد بن عبد الله ﷺ ما أوحى وأنه قد بعثه رسولا إلى الناس كافة ، تذكر عمرو بن عوف كل ما سمعه عن النبى المنتظر وملأه إحساس عميق برسالة محمد كأنما قد أوحى إليه الإيمان به ووجده أهلا للرسالة ، فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقام مع أبى بكر وانطلقا إلى دار خديجة .

كان محمد — ﷺ — جالسا وإلى جواره على بن أبى طالب ، فلما دخل عليه أبو بكر وعبد عمرو بن عوف الزهرى رحب بهما ثم راح يعرض على عبد عمرو الإسلام . حتى إذا ما شرح الله قلبه للإيمان وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، قال له النبى عليه السلام :

— أنت عبد الرحمن .

ولاح البشر فى وجه ابن عوف . إنه دخل دار خديجة وهو عبد عمرو ، فإذا بالرسول يسميه عبد الرحمن ، وابتسم أبو بكر راضيا فهو أول من سماه رسول الله — ﷺ — من المسلمين . سماه عبد الله بعد أن كان اسمه عبد الكعبة .

كان عبد الرحمن تاجرا من أنجح تجار قريش طارت شهرته فى الأفق لعفته وصدقه وأمانته ، وكان راضيا بما نال من ثقة من وثقوا به وكلفوه بالاتجار فى تجارتهم ، فلما سمع رسول الله ﷺ يقول له :

— أنت أمين فى أهل الأرض أمين فى أهل السماء .. أنت صادق صالح بار .

أحس كأنما قد ذهب عنه كل حزن ونزلت على قلبه سكينة وتهلل بفرح فياض ونشوة روحية تفوق لذات الأرض جميعا .

* * *

وعاد طلحة بن عبيد الله من سوق بصرى ، فلما دخل مكة قال :

— هل من حدث ؟

— نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه ابن أبى قحافة .

كان طلحة من بنى تيم وكان أبو بكر سيد بنى تيم ولما يبلغ بعد الأربعين

وإن كان أبو قحافة لا يزال يمشي فى الأرض ، فأبو بكر رجل يألفه الناس محبب سهل أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وهو تاجر ذو خلق ومعروف . وكان طلحة يألفه لعلمه وحسن مجالسته وكان حديثه عن صديقه محمد بن عبد الله ينبض بالحماسة والإيمان ، فما إن سمع طلحة أن أبا القاسم يدعو إلى الله وأن أبا بكر قد تبعه حتى هرع إلى أبى بكر وألقى إليه سمعه فإذا بنور اليقين قد أشرق فى فؤاده ، فخرج أبو بكر وطلحة بن عبيد الله حتى دخلا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فابتسم لهما فتألقت أسنانه المفلجة البيضاء ، فاستشعر طلحة كأن الكون كله يبتسم ، وجلسا إليه وراح أبو بكر يتحدث فإذا برسول الله يصغى ملتفتا إليه بكل جسمه ، إنهما ما جاءا إلا ليعرض رسول الله ـــ عليه السلام ـــ على طلحة الإسلام ، فراح محمد صلوات الله عليه ـــ يتحدث بلسان فصيح عن الدين الجديد تشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وينفذ حديثه الأخاذ إلى قلب طلحة لكأنما كان كلامه يكتب على لوح فؤاده بأحرف من نور ، وإذا بأنوار تشرق وتضيء ظلمات نفسه وإذا بلسانه يتحرك فى انفعال المأخوذ بالشخصية العظيمة التى بهرته بحكمتها :

ـــ مد يدك أبايعك .

وشهد طلحة بن عبيد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وشهد بدين الإنسانية فى أمة العصبية ، وآمن بفجر تاريخ البشرية الجديد ، ووطن النفس على أن يكون ظهيرا للدعوة التى ستعيد للبشرية كرامتها وتخرجها من الظلمات إلى النور .

١٨

خرج محمد — ﷺ — إلى جبال مكة وهو حزين فقد انحبس عنه الوحى بعد أن نزل عليه : اقرأ باسم ربك ، وكان ذلك إيذانا بنزول ما يقرأه على الناس وتأكيدا بأن الوحى الذى يأتيه إنما هو وحى ربه . لقد ارتجفت بوادره من الخوف لما غطه جبريل يوم أن جاءه فى غار حراء ففر هاربا فى الأرض ، بيد أنه الآن فى شوق عظيم إلى الروح الأمين ليسمع منه ما يسكن ذلك القلق الذى استولى عليه .

وراح يغدو إلى جبل ثبير وهو يسأل نفسه : أكان ما رآه فى غار حراء حقيقة واقعة أم وهما من الأوهام ؟! أبعثه الله رسولا إلى الناس كافة أم هو يخدع نفسه ؟! إنه يريدها حقيقة ناصعة ترضيه ، فهو صادق مع نفسه قبل أن يكون صادقا مع الآخرين .

شق عليه أن فتر الوحى عنه وخشى أن يكون به جنون أو يكون كاهنا ، وفيما هو فى حزنه تبدى له جبريل على هيئة رجل قد ملأ الفضاء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن جأشه وقرت نفسه وعاد إلى دار خديجة يتعبد فى الغرفة التى أعدت لمناجاة ربه . ومرت أيام أخرى وهو يقابل الذين هداهم الله للإسلام و لم ينزل عليه الوحى بقرآن يقرأه على الناس فعاد إليه قلقه وشق

ذلك عليه فغدا إلى حراء وراح يفكر فى انحباس الوحى عنه . وعادت إليه فكرة أن يكون ما يدور بخلده وهما من الأوهام أو مسا من الجنون فلفه حزن ثقيل ، إنه يريد جوهر الحقيقة . يريدها ناصعة لا شية فيها . وفيما هو فى قلقه وأساه تبدى له جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن روعه واطمأن قلبه وعاد إلى مناجاة ربه وطول السهر معه يسأله أن يكشف له عن حقيقة أمره . واجتهد فى عبادته وفى سهره حتى أصابته وعكة فترك قيام الليل ليلتين . وعجبت جارة من جيرانه لذلك الانقطاع فجاءته فقالت :

— يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين .

ولفه حزن ثقيل ، وزاد فى أساه وشق عليه أن أهل مكة قالوا : ودعه ربه وقلاه . وخشى أن يكون ذلك هو الحقيقة الموجعة لنفسه ، فغدا إلى جبال مكة وتمنى لو يرى جبريل على الهيئة التى خلقه الله عليها لا على هيئة رجل فى أفق السماء ، وفيما هو فى تفكره تبدى له جبريل على هيئة رجل يسبح فى الفضاء . فقال له محمد — ﷺ :

— وددت أنى رأيتك فى صورتك .

فرآه فى الأفق الأعلى من الأرض قد طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب ، فخر النبى — ﷺ — مغشيا عليه ، فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه .

وأفاق من غشيته فانطلق إلى خديجة وقد أخذته رجفة ، وما إن وقعت عيناه على الطاهرة حتى قال :

— دثرونى .. دثرونى .

فراحت خديجة تدثره حتى إذا ما سكن روعه صبت عليه الماء ، فجاءه الوحى :

﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾(١) .

وطابت نفس محمد — عليه السلام — فربه يأمره بإنذار قومه ، وحمى الوحى وتتابع ، فنزل عليه :

﴿ يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا * إن لك فى النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾(٢) .

ثم أوحى إليه :

﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٣) .

ثم أوحى إليه :

---

(١) المدثر ١ — ٧ . (٢) المزمل ١ — ١٠ .

(٣) الضحى : الضحى ١ — ٥ .

﴿ ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجرا غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1] .

وعرف محمد — عليه السلام — أن الله أوحى إليه قرآنه ليقرأه على الناس ، ونفى عنه فكرة الجنون التى طافت به ، ومدحه ربه بأنه على خلق عظيم فلم يعد فى شك من أمره ، ولكنه أشفق على نفسه من تكاليف الرسالة ، إنه سيقف فى وجه قومه يدعوهم إلى الله والله معه وإنها لدعوة ستغضب الناس الذين ألفوا حياتهم ووقر فى ضمائرهم عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ولكن ماذا يهمه من أمر الناس ما دام ربه قد أمره بإنذارهم وهو وكيله وهو ناصره ؟ فوطن النفس على أن يدعو إلى رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وأن يصبر على ما يقولون حتى تشرق أفئدتهم بالنور .

وراح يملى ما أنزل عليه على كتاب وحيه ، أبى بكر وعلى والزبير بن العوام وعثمان بن عفان . وراح المسلمون الأوائل يقرءون القرآن سرا على من يثقون فيهم من أصحابهم آملين فى أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكان المكيون يسمعون آيات الله ويعجبون ببلاغتها ، فكانت صدور تنشرح للإيمان وكانت قلوب تقفل نوافذها فى وجه النور دون أن تثور ، وكان رجال يغضبون لجعل الآلهة إلها واحدا فيقومون بتعذيب من آمنوا منهم ليردوهم عن الحق المبين .

وبينا كان رسول الله — ﷺ — يقوم الليل ويرتل القرآن ترتيلا كان خالد ابن سعيد بن العاص فى سبات عميق ، فرأى فى نومه نارا متأججة يشيب من هولها الوليد ، ورأى نفسه على شفيرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها وأن محمد بن

---

(١) القلم ١ — ٤ .

عبد الله — عليه السلام — أخذ بحجزته يمنعه من الوقوع فيها ، فقام من نومه فزعا ترتعد فرائصه يحس كأن روحه تكاد أن تفلت من بين جنبيه ؛ وظل مرعوبا حتى إذا ما سكن روعه وانزاح الرعب عن عقله قال فى نفسه :

— أحلف بالله أن هذه رؤيا حق .

وما أشرقت الشمس حتى انطلق إلى أبى بكر ليقص عليه ما رأى ويسمع منه تأويل رؤياه .

فلما جلس إليه وقص عليه حلمه الذى أفزعه قال له أبو بكر :

— أريد بك خيرا . هذا رسول الله — عليه السلام — فاتبعه .

وذهبا إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فقال خالد :

— يا محمد ما تدعو إليه ؟

— أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فشرد خالد قليلا كأنما يتذكر شيئا ثم قال :

— كنت ذات ليلة نائما فرأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه ، فبينا أنا كذلك إذ خرج نور من زمزم ثم علا فى السماء فأضاء فى البيت ثم أصاب مكة كلها ، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى إنى لأنظر إلى البسر فى النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون فى بنى عبد المطلب . ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم .

فقال رسول الله ﷺ :

— يا خالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله .

وأسلم خالد . وقرئ القرآن همسا فى نوادى بيوت أشراف مكة العشرة ، وعرف أقوام أن محمدا — ﷺ — قد عاب آلهتهم وسفه أحلام آبائهم فغضبوا وكان منهم سعيد بن العاص ، فلما بلغه أن ابنه قد صبأ عن دين آبائه واتبع الدين الجديد امتلأ غضبا ، وضايقه وهو السيد المطاع فى قريش أن يتبع ابنه محمدا الذى خالف قومه وجاءهم بما لا علم لهم به ، فأرسل فى طلبه فنهره وضربه بمقرعة كانت فى يده حتى كسرها على رأسه ثم قال :

— اتبعت محمدا وأنت ترى خلافه لقومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ؟

فلم يأبه سعيد لغضب أبيه وهانت آلام جسده بعد أن عرف لذة الوصال برب المشرق والمغرب فقال :

— والله اتبعته على ما جاء به .

فغضب أبوه وقال :

— اذهب يا لكع حيث شئت . والله لأمنعنك القوت ..

— إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به .

— اخرج .. اخرج .

ثم التفت إلى بنيه وقال :

— لا يكلمه أحد منكم .

فانصرف خالد إلى رسول الله — ﷺ — يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه فى نواحى مكة وهو سعيد بالنور الذى يملأ جوانحه وبصحبة

رسول الله التى وجد فيها نعمة من الله لا تقرن بها نعمة أخرى ، فهو ينهل من نبع الحكمة ويقبس من مصدر النور .

وجلس كتاب الوحى يكتبون ما نزل على رسول الله ومحمد يتلو فى صوت يخشع له الكون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾(١) .

وإذا بكل من فى الدار من أوائل المسلمين يقولون : آمين . وهم يستشعرون كأنما آيات الله قد رفعتهم إلى الملكوت .

ومر صهيب على دار رسول الله — ﷺ — وفى رأسه أفكار وفى صدره رغبة جامحة . إنه سمع قرآن محمد وقد سمع من قبل فى دار عبد الله بن جدعان شعر فحول الشعراء ، فرأى بذوقه المرهف أن قرآن محمد من نبع سماوى غير ذلك النبع الذى نهل منه الشعراء ، وما يدعو إليه يقبله العقل ويستريح إليه الفؤاد . إنه استفتى قلبه فزين له الإيمان برسالة الأمين . فجاء ليدخل على رسول الله . وفيما هو يتقدم ليدخل رأى عمار بن ياسر يحوم حول الدار ، إن عمارا خرج مع محمد من قبل فى تجارة خديجة وكان معه يوم أن بعثت خديجة إليه من يزين له التقدم لخطبتها وقد عرف عن كثب أمانته ومكارم أخلاقه ، فلما سمع بعض آى القرآن وبلغه أن محمدا يقول إنه رسول الله وجده أنه أهل للرسالة ، فجاء ليشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

---

(١) الفاتحة ١ — ٧ .

محمدا عبده ورسوله .

ودنا عمار من صهيب وقلل :

ـــ أين تريد يا صهيب ؟

فقال صهيب فى ثبات :

ـــ أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه .

فقال عمار فى انشراح :

ـــ وأنا أريد ذلك .

فدخلا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما أنزل من القرآن فتشهدا ، واستأنسا بحديثه فظلا يسعدان بعلمه الفياض الذى أشرق فى قلبه من رحمة ربه حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين ، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه :

ـــ أين كنت ؟

فقال فى ثقة وياسر وسمية ينظران إليه فى دهش وكأنه قد عاد إليهما رجلا آخر :

ـــ كنت عند محمد ـــ ﷺ ـــ ، وقد عرض على الإسلام فأسلمت .

ودار حوار طويل بين عمار وأبويه ياسر وسمية ، عمار يتلو آيات من القرآن فينشرح صدر سمية ويستشعر ياسر كأن نورا ينسكب فى وجدانه ويشرق فى فؤاده ، فيجادل ابنه فى ضعف ثم ينتهى الحوار الذى دار فى سكون الليل بين ابن بار مؤمن وأبوين يريدان وجه الحقيقة لا يخشيان زوال سلطان ولا ضياع أموال إذا أسلما . فتهلل وجه عمار الطيب المطيب بفرح واستبشار ورأى بعين بصيرته الأنوار تغمر الدار .

١٩

وقف عمرو بن عنبسة السلمى يعترض الركبان الخارجين من مكة بعد أن رغب عن آلهة قومه ورأى أنها آلهة باطلة . حجارة لا تضر ولا تنفع ، وبعد أن لقى رجلا من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين فقال : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها وهو يأتى بأفضل الدين . فإذا سمعت به فاتبعه . فلم يكن له هم إلا مكة يسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقولون : لا ، فينصرف إلى أهله . وأهله من الطريق غير بعيد .

ولمح قافلة قادمة من مكة فاعترضها فسأل من فيها :

— هل حدث فى مكة حدث ؟

فنظروا إليه فى دهش وقالوا :

— لا .

فانقلب راجعا إلى أهله . ثم خرج إلى الطريق ذات يوم وقعد ينتظر الركبان الخارجين من مكة وإذا به يرى راكبا مقبلا فقام إليه فقال له :

— من أين أنت ؟.

— من مكة .

— هل فيها من خبر ؟

— نعم . رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها .

فقال عمرو فى فرح :

ــ صاحبى الذى أريد .

فشد راحلته وجاء مكة ونزل منزله الذى كان ينزل فيه . فسأل عنه فوجده مستخفيا فانتظر فى الحرم . وما لبث أن جاء رسول الله ــ ﷺ ــ ليطوف بالحرم وسادت قريش فى مجالسهم لا ينكرون مما يقول شيئا . فما عاب الله آلهتهم التى يعبدونها دونه ، وما ذكر بعد هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فكانوا يشيرون إليه ويقول فى سخرية :

ــ إن غُلام بنى عبد المطلب ليكلَّم من السماء .

وعرفه عمرو بن عنبسة فذهب إليه فقال :

ــ من أنت ؟

ــ أنا نبى الله .

ــ وما نبى الله ؟

ــ رسول الله .

ــ وبم أرسلك ؟

ــ بأن يُعبد الله وحده ولا يُشرك به شىء ، وتكسر الأوثان وتحقن الدماء وتوصل الأرحام .

وكان محمد ــ عليه السلام ــ وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح إيمانه ، وراح يقنع الرجل بالموعظة الحسنة لم يشهر فى وجهه سيفا ولم يرغمه على الكفر بدين آبائه . فلما اقتنع الرجل بمنطقه قال :

ــ نعم ما أرسلت به . أشهد أنى آمنت بك وصدقتك . ابسط يدك أبايعك .

فبايعه على الإسلام ثم قال له :

ــ أقيم معك يا رسول الله ؟

— لا . ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .

وانطلق عمرو بن عنبسة السلمى إلى قومه وقد استراحت نفسه إلى الدين الذى كان ينتظر بزوغ نجمه مذ لقى ذلك الرجل من أهل الكتاب الذى قال له : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، وهو يأتى بأفضل الدين .

* * *

وكان أبو ذر الغفارى وأخوه أنيس جالسين أمام الدار فجاء رجل من مكة ونزل بهما وراح يقص أخبار أهل الحرم . وقال فيما قال إن رجلا خرج بمكة يزعم أنه نبى ، فشغل أبو ذر بذلك النبأ حتى إنه لم يعد يلتفت إلى ما يقول المكى ، فلما انصرف التفت أبو ذر إلى أنيس وقال :

— انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتنى بخبره .

وذهب أنيس وبقى أبو ذر يرقب عودة أخيه فى لهفة ، حتى إذا جاء هرع إليه وقال له :

— ما عندك ؟

— والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر يزعم أن الله أرسله ، ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق .

— فما يقول الناس فيه ؟

— يقولون : شاعر . كاهن . ساحر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

— اكفنى حتى أذهب وأنظر .

— نعم . وكن على حذر من أهل مكة .

فحمل أبو ذر جرابا وعصا ثم أقبل حتى أتى مكة فجعل لا يعرفه ويكره

أن يسأل عنه ، فمكث فى المسجد وطال مكثه . وجاء على بن أبى طالب ولم يتجاوز بعد العاشرة من عمره ليطوف بالبيت ، فألفى أبا ذر جالسا وقد سجا الليل فذهب نحوه وقال :

— كأن الرجل غريب ؟

— نعم .

— تعال معى .

فانطلق على به إلى حيث ينزل الضيفان بدار خديجة فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح خرج إلى الحرم يبحث عن النبى لا يسأل أحدا ولا يخبره أحد عنه بشىء . وانقضى النهار وجاء الليل وأقبل على ومر بأبى ذر فقال :

— أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

— لا .

— فانطلق معى .

فانطلقا وبات أبو ذر ليلته ، ثم خرج إلى المسجد يبحث عن النبى وتصرم النهار وأرخى الليل سدوله ، وجاء على ومر بأبى ذر فقال :

— تعال معى .

— وسارا صامتين ثم قال على :

— ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

— إن كتمت علىّ أخبرتك .

— فإنى أفعل .

— بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبى ، فأرسلت أخى ليكلمه فرجع ولم يشفنى من الخبر فأردت أن ألقاه .

— أما إنك قد رشدت . هذا وجهى إليه فاتبعنى ، ادخل حيث

أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنى أصلح نعلى فامض أنت .

وانطلقا ودخل علىّ على النبى — ﷺ — وأبو ذر معه . فلما رأى النبى — ﷺ — استشعر استبشارا وقال :

— السلام عليكم .

وكانت أول تحية ألقيت فى الإسلام ، فقال النبى — صلوات الله عليه — :

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

— أنشدنى ما تقول .

— ما هو بشعر فأنشدك ، ولكنه قرآن كريم .

— اقرأ علىّ .

وراح النبى يقرأ على الرجل ما أنزل عليه من ربه وأبو ذر يصغى وهو مأخوذ ، ثم قال :

— أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وقال له النبى :

— ممن أنت ؟

— من غفار .

فجعل النبى — ﷺ — يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا ، لما كان يعلم من غفار قبيلة السطو والنهب وقطع الطريق ، ثم قال :

— إن الله يهدى من يشاء ، يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتونى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .

— والذى بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو من يثق بهم إلى الإسلام سرا ، وكان المكيون ينظرون إليه وهو يصلّى فى الحرم وبعض أنصاره دون مبالاة ، فالحرية الدينية مكفولة فى بيت الله ما دام العابد لا يتعرض لديانة قريش بسوء ولا يجرح شعورهم ، وكان أقصى ما يفعلونه أن يسخروا من ذلك الذى يزعم أن الخبر يأتيه من السماء ويصفونه تارة بأنه شاعر وتارة أخرى بأنه كاهن أو ساحر . وكان بعض أصحاب الأمزجة الحادة يؤدبون من انسلخ من الصابئين عن دين الآباء ثم يفل سلاحهم أمام صمود المؤمنين .
ها هو ذا أبو ذر يأبى أن ينسل إلى قومه راضيا بإيمانه الذى أشرق فى قلبه ، بل وطد العزم على أن يعلن إسلامه مدويا فى جنبات بيت الله ، فلما اجتمعت قريش بالمسجد نادى بأعلى صوته :

ـ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

كانوا فى لهوهم وعبثهم فما بال هذا الرجل قد جاء يعكر صفوهم ، فمال عليه أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خر مغشيا عليه . فأكب عليه العباس ثم قال لهم :

ـ ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم عليهم !

فخلوا عنه ، فجاء زمزم فغسل عنه الدم وقصد رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا بكر ، فقال له محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ :

ـ متى أنت هاهنا ؟

ـ كنت هاهنا منذ ثلاثة أيام .

ـ فمن كان يطعمك ؟

ـ ما كان لى طعام إلا ماء زمزم .

فقال أبو بكر :

— ايذن لى يا رسول الله فى طعامه الليلة .

وانبلج صبح اليوم التالى فخرج أبو ذر إلى المسجد فألفى قريش فى نواديهم ، فنظر إليهم فهانوا فى عينيه ، وأحس رغبة فى أن يعاود الجهر بإسلامه فصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش ... يا معشر قريش .

فالتفت الناس إليه فصاح فيهم :

— أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فزمجر القوم وقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه ثم أقبل على القوم فقال :

— ويلكم تقتلون رجلا من غفار وتُجُركم وممركم على غفار !.

ترى أكان العباس الذى أسلمت زوجه أم الفضل مشفقا على قومه حقا أم أن قلبه قد مال إلى دين ابن أخيه فراح يحميه ويحمى المؤمنين برسالته وإن التمس أعذارا تبدو فيها النصيحة لقومه !

وعاد إلى حيث كان رسول الله — ﷺ — فجلس راضى النفس ثم استأذن فى العودة إلى قومه فقال له الرسول الكريم :

— إنى قد وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك ويأجرك فيهم ؟

— نعم أفعل .

وخرج أبو ذر وأتى أنيسا فقال له أخوه :

— ما صنعت ؟

— قد أسلمت وصدقت .

— ما لى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت .

فأتيا أمهما فقالت لأبى ذر :

ـ ما رأيت ؟

ـ رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رئى ملاحيا أبدا ولا مماريا أحدا ، حتى سماه قومه بالأمين ، يدعو إلى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن لا إلـٰه إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم أخى أنيس .

فقالت أمهما :

ـ ما لى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت .

وأتى أبو ذر قومه فألفاهم جالسين عند خفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى سيدهم ، فراح يتحدث فى إيمان عن محمد ـ ﷺ ـ ويحبب أهله فى الإسلام ، حتى أسلم خفاف بن رحضة وتبع كثير من القوم سيدهم ، وطمع أبو ذر فى إسلام غفار كلها فالتفت إلى من أبوا أن يدخلوا فى دين الله وقال :

ـ وأنتم . ما يمنعكم من الإسلام ؟

فقالوا :

ـ إذا قدم رسول الله أسلمنا .

٢٠

فى عماية الصبح فتح باب دار خديجة فخرج منه رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وهند بن أبى هالة بن سعيد بعد أن هجر أباه ولزم النبى ﷺ ، وانطلقوا فى شوارع مكة الضيقة المسقوفة حتى بلغوا الحرم فطافوا بالبيت سبعا ، ثم انسلوا إلى شعاب مكة ليلتقوا بالمسلمين ليصلوا لله بعيدا عن عيون الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام .

ومن دور بنى تيم خرج أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة وصهيب مولى عبد الله بن جدعان وطلحة بن عبد الله .

وخرج من دور بنى هاشم جعفر بن أبى طالب فى خطى ثابتة فأبو طالب يعلم بإسلامه بل هو الذى أمره أن يصلى مع ابن عمه ، فقد رأى النبى — ﷺ — وعليا يصليان وعلىّ على يمينه ، فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره ، وكان جعفر فى حيرة من أمر أبيه فهو لم يثر لما عثر ذات يوم على النبى — عليه الصلاة الله وسلامه — وعلى ابنه علىّ وهما يصليان فى الشعب مستخفيين ، بل قال لابنه : إنه لم يدعُك إلا إلى خير فاتبعه ، فلماذا لم يتبع أبو طالب ابن أخيه ؟ أحقيقة إنه يخشى أن تقول نساء قريش إن شيخ بنى هاشم قد أسلم قياده إلى فتى من فتيان بنى هاشم أم لأنه يؤمن بأن الله أجل من أن يبعث رجلا رسولا ؟

ومن دور بنى أمية خرج عثمان بن عفان وهو على يقين من أن إسلامه قد

ثلم كرامة الأمويين ، فالمنافسة على السيادة كانت مشتعلة الأوار بين بنى هاشم وبنى أمية ، وقد كاد أبو سفيان أن يكون زعيم قريش بلا منازع . أفيقبل بنو أمية أن يكون من منافسيهم رسول يأتيه خبر السماء ؟ ترى ماذا يفعل أبو سفيان عندما يعود من رحلة اليمن ويعلم أن وحيا من السماء قد نزل على محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمى العتيد ؟

كان عثمان هاشميا من ناحية أمه أمويا من ناحية أبيه فكان موزع العواطف بين الحيين المتنازعين على زعامة قريش ، فلما أشرق قلبه بنور اليقين نسى عصبيته لقبيلته ، بل جعل دبر أذنه عصبيته لقوميته بعد أن علمه رسول الله — ﷺ — أن الناس سواسيه وأن لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى ، فصارت غاية أمانيه أن يهدى الله قومه إلى الحق وأن تفيض رحمة ربه على العالمين .

وخرج من دور بنى أسد الزبير بن العوام وكان فى الثانية والعشرين من عمره وقد فرحت عمته خديجة بإسلامه ، إلا أن ذلك الفرح قد كدره عدم إسلام ابن أخيها حكيم بن حزام ، فهى تحب ابن حزام وتتمنى له الهداية وأن يكون من السابقين لتلبية نداء الله . ولكن ما كان ذلك ميسورا فحكيم قد أصبح صاحب دار الندوة اشتراها بماله ليكون له شرف امتلاك دار حكومة قومه ، وهو مسموع الكلمة فى الدار التى يشرئب بأعناقهم إليها الطامحون من رجال قريش ، وهو شريف معدود من أشراف قريش . أوَ يترك كل هذا المجد ليصبح تابعا من أتباع زوج عمته ؟! إن قلب حكيم مشغول بالدنيا متعلق بغرورها بينما كان الزبير لا يزال خلى الفؤاد لم يعم قلبه عن الحقيقة ، فلما بزغ نور الحق لم تعترض سبيله عوائق من المطامع والأهواء .

وخرج من دور بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأخوه عامر ، وقد كانت أمهما تعير سعدا بأخيه عامر وتقول : هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا . وقد جاء سعد ذات يوم والناس مجتمعون على أمه وعلى أخيه عامر فقال : ما شأن الناس ؟ فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامرا وهى تعطى الله عهدا لا يظلها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صبأته . فالتفت سعد إليها وقال : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

كان عبد الرحمن يشق طريقه ليكون من أشهر تجار مكة ، وقد ذاعت أمانته فى الأمصار حتى إن البضائع كانت ترسل باسمه حيثما كان فى الأسواق ليبيعها ويأخذ نصيبه ثم يرد الأموال وأرباحها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة . وكان سعد فى التاسعة عشرة وكان عامر فى السادسة عشرة وكانا على الرغم من صغر سنهما يرغبان فى الحقيقة ، فلما اتضح لهما صدق دعوة محمد — ﷺ — أسرعا بالتصديق ، ولم يؤثر فيهما وهما الباران بأمهما صياحها ومحاولاتها لتعيدهما إلى الظلمات بعد أن عرفا طريق النور .

ومن دور بنى مخزوم التى كانت تطل على الحرم من فوق الصفا خرج الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى وعياش بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى أخو أبى الحكم بن هشام (أبى جهل) فأمهما أسماء بنت مخربة التميمية . وكان عياش يعرف قسوة قلب أبى الحكم وأطماعه التى ليس لها حد ، فأموال بنى المغيرة ممدودة ورجال بنى مخزوم رجال الكر والفر والطعن والنزال ، ومن هذه صفاته لا بد أن يرنو إلى الصدارة وإلى منافسة بنى هاشم وبنى أمية . فإن كان الوليد بن المغيرة هو سيد بنى مخزوم فما أقصر أيامه فى

الأرض ، فإن ذهب فلا خليفة له غير أبى الحكم . كانت الدنيا تملأ قلبه وتستولى على تفكيره ، وكانت السيادة تتخايل له والزعامة هدف حياته فما كان يستطيع أن يتصور أن يقوم فى قريش من ينافسه فى أطماعه ، فما بالك إذا قامت دعوة تقوض كل قصور أحلامه وأمانيه ؟

كان عياش يرتجف فرقا من أخيه وكان يجل أبا الحكم ، فلما عرف الإيمان طريقه إلى قلبه هان فى عينيه كل سلطان إلا سلطان الله ، ولم يعد يخشى بنى المغيرة ولا بنى مخزوم بل ولا العالم بأسره ، فإن كان ينسل الآن ليصلى مع رسول الله — ﷺ — فما ذلك إلا استجابة لرغبة النبى الكريم ، فهو لا يريد أن تقف النبتة فى وجه العواصف قبل أن يشتد عودها .

وخرج أبو سلمة المخزومى مشرق النفس فأمه برة بنت عبد المطلب تبارك دعوة ابن أخيها ، فهو كالزبير بن العوام كلاهما ابن عمة صاحب الدعوة ، غير أن الزبير ابن أخى خديجة حاضنة الإسلام .

وخرج عمار بن ياسر وأبوه ياسر متسللين حتى لا يفجأهما أحد من بنى مخزوم ، فهما ليسا منهم بل حلفاء لهم . تزوج ياسر سمية وكانت جارية من جواريهم ، فلماء جاء عمار ثمرة ذلك الزواج شب فيهم وإن كانت عواطفه منذ نعومة أظفاره مع محمد بن عبد الله ، فقد بهرته مكارم أخلاقه وما آتاه الله من الحكمة ، فلما سمع أن الله قد بعث صديقه العظيم رسولا إلى الناس كافة هرع إليه مغتبطا ليعلن إسلامه ، فهو يراه خليقا لأن يكون رسول رب العالمين .

ومن دور بنى جمح خرج عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وحاطب بن الحارث وأخواه حطاب ومعَمر وبلال بن رباح مولى أمية بن

خلف ، وانطلقوا فى هدوء لا يترقبون قد غمرتهم نشوة روحية أنستهم كل خطر ، وكانوا فرحين بما آتاهم الله يغذون السير لينعموا بلقاء رسول الله ﷺ ويسعدوا بالوقوف بين يدى رب العالمين .

وخرج عبد الله بن مسعود من دار عقبة بن أبى معيط ، إنه يخرج فى غنم لآل عقبة ، وذات يوم جاء رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه أبو بكر إلى حيث كان عبد الله يرعى الغنم . إنه قصير طوله نحو ذراع ، خفيف اللحم رجلاه دقيقتان ، ما يراه أحد إلا ويبتسم لقصره ودقة رجليه ، إلا أن النبى ﷺ دنا منه وقال فى صوت رصين ليس فيه أثر من سخرية أو هزء :

ـ هل عندك لبن ؟

ـ نعم ، ولكن مؤتمن .

وكشف الصبى القصير عن ضمير حى ومعدن نفيس . فأقبل رسول الله عليه السلام يحادثه وابن مسعود يستشعر كأن نورا يصب فى فؤاده فتشرق نفسه بالنور . وما انتهت المقابلة إلا وكان ابن أم عبد ـ وكان يعرف بأمه ـ قد نطق الشهادتين بلسانه بعد أن أقر بهما فؤاده ، وقال : يا رسول الله علمنى . فمسح رأسه وقال : بارك الله فيك فأنت غلام معلم .

كان صدق إيمانه وحسن حظه ونعمة الله عليه ما حرك لسانه بالتماس العلم من ربيب السماء ، فإذا به يحس بعد أن مسح رسول الله ـ ﷺ ـ رأسه كأن كنوزا من الحكمة تفجرت فى قلبه ، وتعلق الفتى بالرسول الذى آمن به وصدقه فسار يمشى أمامه ومعه ويستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام ، فعرف بصاحب سر رسول الله .

وخرج أبو عبيدة بن الجراح مشرق القلب يحمد الله على أن هداه إلى

الإسلام ، فمن حسن طالعه أنه كان يألف أبا بكر ، ومن رحمة الله عليه أن جعله ذا بصيرة تستطيع أن تغوص فى نفس أبى بكر لتكتشف الكنوز الزاخرة فيه بالصدق ورجاحة العقل وإرهاف الضمير ، فوقر فى وجدانه أن أبا بكر رجل عظيم لا تهفو نفسه إلا إلى العظمة والكرامة والطهر . فإن كان أبو بكر قد آمن بما جاء به محمد بن عبد الله فلا بد أن ما جاء به شيء عظيم ! فلما ألقى سمعه إلى الرسول — ﷺ — إذا ما رآه وما سمعه يفوق كل ما تصوره عقله . وإذا بغشاوة تنزاح عن قلبه ، وإذا به يمتلئ بأنوار اليقين .

وخرج من دور بنى عدى سعيد بن زيد وما كان يهاب من قومه غير عمر بن الخطاب ، فهو يعرف ما نال أباه زيد بن عمرو بن نفيل من اضطهاد الخطاب بن نفيل لما آمن بوحدانية الله وفكر فى أن يدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم . إن الخطاب كان يحرض عليه شباب مكة فكانوا يرمونه بالحجارة حتى اضطروه لأن يفر إلى الجبال ، وهو على ثقة بأن عمر بن الخطاب أشد تعصبا لآلهة قومه من أبيه ، فلو عرف عمر أن سعيدا ابن عمه قد أسلم وكفر بدين آبائه ، وأنه قد يسر لأخته فاطمة بنت الخطاب الدخول فى الدين الجديد ، فسيبطش عمر الجبار به وبزوجه ولن يرقق قلبه أنه ابن عمه وأنها أخته ، فهو لا يحفل بأية صلة إذا ما ثار للأرباب !

ومن دور عبد شمس خرج هاشم بن عتبة بن ربيعة . إنه ابن سيد عبد شمس ، بل ابن من تجله قريش كلها حتى إن أبا سفيان يراه أشرف الناس . أوَيرضى عتبة عن صبوة ابنه ؟ عتبة الذى كان يرشحه أمية بن أبى الصلت للرسالة لما عرف من الرهبان أن الرسالة المنتظرة فى قريش وليست فى ثقيف ؟ إنه كان يراه الرسول الموعود لولا أنه أزرت به السن فقد فات عتبة

الأربعين ، وقد قيل لأمية إن النبى المنتظر يبعث على رأس الأربعين . كيف فات هاشم أنه باتباعه لمحمد يسىء إلى أبيه وإلى أبى سفيان زوج أخته هند ؟! إن نور الدعوة قد بهره وبساطتها أرضت فطرته السليمة ، إنها الحق وإنها من ربه ، وما كان ليحفل بأبيه ولا بأبى سفيان بعد أن استبان له العدل وأن الشرك ظلم شديد .

بذر محمد — ﷺ — بذرة الإيمان فى كل بيت من بيوت شرف قريش العشرة بعون من ربه الذى جعل قلوب الأحرار والعبيد تفتح لدينه القويم . وستتغلغل البذور فى المجتمع المكى ، وسترون بدماء الشهداء لتستوى أعوادا قوية ، وتتفرع لتظلل الإنسانية من هجير الوثنية .

وأحس بعض المكيين بالمتسللين فخرجوا فى أثرهم يرصدونهم ، حتى إذا ما اجتمع المسلمون برسول الله — ﷺ — وألقوا إليه أسماعهم وتفتحت له قلوبهم ، عادوا مهرولين إلى دور بنى مخزوم وأفضوا إلى أبى جهل بما رأوا ، فجمع أبو جهل بعض رجاله ثم انطلق إلى حيث كان محمد — ﷺ — وصحبه .

كان المسلمون قد اصطفوا خلف نبيهم الأمين وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، قد قطعوا كل علاقتهم بالدنيا وراحوا ينعمون بمناجاة بهم الواحد القهار . فلما أقبل أبو جهل ورفاقه أخذهم ذلك الخشوع الذى ران على المصلين الواقفين بين يدى إلـٰه لا يرونه ، فاختفوا خلف صخرة ينظرون وقد صوبت عيونهم إلى سليل بنى هاشم وقد أم أصحابه فاستشعر أبو جهل حسدا أسدل حجبا على بصره وبصيرته فلم ير عياش بن أبى ربيعة بين المصلين ، ولم ير الأنوار التى غمرت المكان وفاضت من القلوب . كل ما رآه أن على بعد خطوات منه جماعة شقت عصا الطاعة وعبدت إلـٰها

غير ما يعبدون ، فوجب عليه تأديبهم . ولكنه رأى أن ما معه من رجال أهون من أن يقضوا على هؤلاء الصابئين ، فوقف ينظر وهو يتميز غيظا يكاد صدره أن يتمزق .

وقضيت الصلاة وانطلق سعد بن أبى وقاص وبعض أصحابه لقضاء حاجة فمروا بأبى جهل وصحبه ، فراح أبو جهل يسخر بمحمد وبما جاء به وبمن اتبعه ، فمشى الرجال إلى الرجال وتشابكوا بالأيدى وراحوا يتقارعون بالألسن . المسلمون يمجدون ربهم فى إيمانهم والمشركون يذكرون هبل واللات والعزى ومناة وما يخطر على قلوبهم من أسماء آلهتهم ، فكانت قلوب المسلمين على قلب رجل واحد تتجه إلى رب واحد . بينما كانت قلوب المشركين شتى تتعصب لآلهة متعددة لا ترتفع إلى أكثر من حجارة منحوتة و أخشاب محفورة أو منقورة أو معادن مصنوعة ، ما أيسر أن تكبها على وجوهها يد إنسان .

وامتدت الأيدى إلى الحجارة فما كانت السيوف فى مناطق الرجال ، وتناول سعد بن أبى وقاص عظم بعير فضرب به وجه رجل من رجال أبى جهل فشجه ، فسالت أول دماء بين المسلمين والمشركين . كانت دماء يسيرة ولكنها كانت إيذانا بإراقة دماء تروى أرض العرب فى الصراع المرير الذى سينشب بين الحق والباطل ، حتى يتم نور الله .

واشتد الصراع ضراوة وأصيب سعد بن أبى وقاص بشج أذنه وارتفعت أصوات المتلاحمين ، فخشى أبو جهل أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا لنجدة إخوانهم ، فانسل والذين معه من المكان وقد غرس فى قلب طاغية قريش كراهية محمد وأصحابه ، فإن كان ينقلب إلى أهله اليوم والغيظ ينهش صدره فسيعمل على استئصال البدعة التى جاءهم

بها ابن أبى كبشة ، فلم ينس القرشيون أن أبا كبشة جد محمد — ﷺ — من ناحية أمه قد ابتدع لقومه عبادة الشعرى دون سائر الكواكب والنجوم !

وعاد سعد ورفاقه إلى النبى — ﷺ — والدم يسيل من أذنه ، فضمد محمد — عليه السلام — له جرحه وقال له :

— فى سبيل الله دمك يا سعد .

٢١

خرجت قريش كلها لاستقبال القافلة العائدة من اليمن ، وانطلق أشراف قريش لاستقبال أبى سفيان فهو سيد بنى أمية ، وقد تزوج فى بيوت شرف قريش والقبائل فربط الأسباب بينه وبين ذوى الجاه فى العشائر ، فأمه صفية بنت حزن بن بجير من بنى عامر بن صعصعة ، فكان بنو عامر أخواله ، وهى عمة ميمونة وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب ، وقد تزوج صفية بنت أبى العاص بن أمية فكان له منها حنظلة ورملة وأميمة ، وتزوج زينب بنت نوفل فكان له منها يزيد بن أبى سفيان ، وتزوج عاملة بنت أبى أزيهر من الأزد فكان له منها عنبسة ثم محمد ، وتزوج صفية بنت أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان له منها عمرو وهند وصخرة ، وتزوج لبانة بنت أبى العاص بن أمية ، وتزوج هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فكان له منها معاوية وجويرية وأم الحكم وعتبة .

جمع أبو سفيان بين الأختين وتزوج فى قريش وفى اليمن لأن هذه كانت سنة قومه ، وليجمع حوله الأصهار والأنسباء من ذوى الجاه والسلطان ممن يهبون لنصرته إذا تحزبت الأمور واحتاج إلى أعوان .

وتعانق الرجال الذين أشرقت وجوههم بالبشر للقاء بعد طول الغياب ، وهرع الأبناء ليلقوا بأنفسهم فى أحضان الآباء . ونظرت النسوة من الشرفات والقلوب تخفق بين الجوانح والدموع تترقرق فى

العيون والعواطف الجياشه تمور فى الصدور ، فاليوم من أيام مكة النابضة بأحر المشاعر وأغنى الإحساسات .

وانطلق أبو سفيان إلى داره ومن حوله أولاده وأصهاره حنظلة ويزيد وعنبسة وعمرو ومعاوية ، وعبيد الله بن جحش زوج ابنته أم حبيبة ، وحويطب بن عبد العزى زوج أميمة ، والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب زوج هند ، وسعد بن الأخنث بن شريق الثقفى زوج صخرة وكان يبغض قريشا ، وأبو مُرة بن عروة بن مسعود ؛ وفتحت أبواب دار أبى سفيان لاستقبال الوافدين لتحية أبى حنظلة .

وجاء الناس يسلمون عليه ويسألون عن بضائعهم ، وجاء محمد — ﷺ — ودخل على أبى سفيان وهند بنت عتبة عنده تلاعب صبيانها فسلم عليه وسأله عن سفره ومقامه ولم يسأله عن بضاعته ، ثم قام — ﷺ — تعلوه المهابة والوقار فقال أبو سفيان لهند :

— والله إن هذا ليعجبنى . ما من أحد من قريش له معى بضاعة إلا وقد سألنى عنها وما سألنى هذا عن بضاعته .

فقالت له هند وهى مستمرة فى ملاعبة صبيانها :

— وأما علمت شأنه ؟

فقال أبو سفيان وهو فزع :

— ما شأنه ؟

— يزعم أنه رسول الله .

فشرد أبو سفيان وتذكر ما كان بينه وبين أمية بن أبى الصلت يوم أن خرجا معا إلى الشام ودخل أمية على عالم من علماء النصارى يسأله عن أشياء فقد كان يطمع فى أن يكون النبى المرتقب ، ورن فى وجدانه ما كان

بينهما من حوار :

— حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

— إى والله .

— وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

— نعم !

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا . بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به ؟

— كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

— لا . تذكر حديثى يأتى منه ما هو آت .. فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت يحجه العرب . قلت : وفينا بيت تحجه العرب ! قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين

دخل فى الكهولة . بدوٌّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

فرجف أبو سفيان حتى قالت له هند :

— ما لك ؟

فانتبه فقال :

— إن هذا لهو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا .

— بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه .

— هذا هو الباطل .

وخرج أبو سفيان ، فبينا هو يطوف بالبيت إذ به قد لقي الرسول عليه السلام فقال له :

— إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي . كان فيها خير .

فأبى رسول الله إلا أن يأخذ منه أبو سفيان ما يأخذه من قومه وقال :

— إذن لا آخذها .

— فأرسل فخذها وأنا آخذ منك ما آخذ من قومى .

فأرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بضاعته فأخذها ، وأخذ منه أبو سفيان ما كان يأخذه من غيره .

ولم ينشب أن أخرج إلى اليمن ثم قدم الطائف فنزل على أمية بن أبى الصلت ، قال أمية :

— يا أبا سفيان ما تشاء ، هل تذكر قول النصرانى ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟.

— محمد بن عبد الله .

فقال أمية فى انفعال :

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب . قالت لى هند : يزعم أنه رسول الله .

وأحس أمية كأن خنجرا يغوص فى قلبه ويمزق أحشاءه ، فقد عاش سنين طويلة وهو يحلم بأن يكون النبى المنتظر . ويا طالما جلس إلى نساء ثقيف يحدثهن حديث الدين ويقول فى زهو إنه المرتقب والموعود ومن بشرت به الأنبياء . وقد نزل به هم ثقيل لما قال له عالم النصارى إن الموعود من قريش وإنه فى الأربعين . فخرجت النبوة من يده فهو ليس من قريش وقد فات تلك السن بأعوام كثيرة . فلما تلفت فى قريش لم يجد فيها غير عتبة بن ربيعة إلا أن المال والسن والشرف أزرين به . وما خطر له على قلب أبو القاسم فهو فى عزلة عن نوادى قومه وساحات الشعراء ، وقد حسب أنه استكان إلى الدعة التى وفرتها له الطاهرة وسيدة نساء قريش .

كان حزنه عميقا لما وصف له النصرانى نبى الأميين ، وقد اعتكف بعد عودته من تلك الرحلة وكره الدنيا والناس . أفيستمر فى زعمه بأنه ينتظر أوامر ربه ليبلغ رسالته أم يطبق شفتيه ويلتزم الصمت حتى ينسى أهل الطائف ما سرى بينهم من وهم كان هو مصدره ؟

تبخرت آمال سنين عقب مقابلة ذلك النصرانى ، وهانت فى عينيه مسوح الرهبان التى كان يرتديها ، وفترت حماسته وهو ينظر فى كتب الدين فقد كان يتعبد لغاية . فلما تصدع يقينه واهتز إيمانه باصطفاء الله إياه استشعر هوان أمره ، وتمنى من أعماقه لو أن الناس غضوا أبصارهم عنه

وتركوه فى زوايا النسيان يمضغ آلامه وحده .

إنه عانى أعمق الأسى لما قيل له إنه ليس المنتظر . أما وقد بعث الله رسوله فهو يستشعر بنفسه تذهب شعاعا وكأنما لم يعد له وجود ، وأحس استحياء من نساء قريش وإن لم يلق منهن أحدا أنه كان يحدثهن أنه هو .

وقال فى صوت خافت كأنما يأتى من قرار سحيق :

ـــ فالله يعلم ؟

وأخذ يتصبب عرقا ثم قال :

ـــ والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى ، ولئن ظهر وأنا حى لأطلبن من الله فى نصره عذرا .

ترى أَوَيصدق وعده ويتبع أمية بن أبى الصلت من كان يطمع فى النبوة محمدا رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وقد استبان له الرشاد ؟

ومضى أبو سفيان إلى اليمن وكان فى القافلة العباس بن عبد المطلب ، وراحت الأيام تمضى فى هدوء أشبه بذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة .

٢٢

دبت الحياة فى بيت خديجة ، فأم أيمن تغدو وتروح فى الدار وقد لاح على وجهها الاهتمام ، ووقفت فاطمة الزهراء عند مدخل غرفة نوم أمها الحبيبة ، بينا كانت زينب والقابلة عند فراش الطاهرة ينتظران أن تضع ما فى بطنها .

وجلس محمد ــ ﷺ ــ حيث اعتاد أن يجلس أهل البيت ، وعلى مقربة منه على بن أبى طالب وهند بن أبى هالة وزيد بن حارثة وقد لزموا الصمت وإن أرهفت حواسهم وامتدت آذانهم إلى حجرة سيدة نساء قريش .

وخفت الرجل بعد أن هرعت أم أيمن إلى سيدتها ، ولف الدار سكون وعلا الوجوه ترقب وانتظار ، وإذا بصوت وليد يجلجل فى المكان فتنتشى النفوس وتنزل طمأنينة بالقلوب وتنبسط الأسارير ، وإن كان فى الضمائر تشوف إلى نوع المولود .

وجاءت أم أيمن تسبقها فاطمة وعلى وجهيهما البشرى ، وقبل أن تصلا إلى حيث كان رب الدار سبقتهما إليه أصواتهما النابضة بالفرح :

ــ ولد .. ولد .

وانفرجت ابتسامة رضا عن أسنان رسول الله ــ ﷺ ــ المفلجة ، وحمد الله على ما آتاه ، وغمر الدار فرح فياض . وزاد فى غبطة رسول الله ــ عليه السلام ــ أن رأى تهلل الاستبشار على وجوه على وفاطمة وهند

وزيد وأم أيمن ، فقد كانت المشاعر النبيلة تهزه حتى لتكاد تبلل أهداب عينيه .

وقام ليدخل على زوجه التي واسته وشدت أزره ووقفت إلى جواره على الدوام ، فمشى يتقلع كأنما ينحط من صبب ذريع الخطوة سائل الأطراف تعلوه مهابة . فقد غض طرفه ليخفى الفرح الذى يترقرق فى مقلتيه .

وتقدم من فراش خديجة فتوجت شفتيه ابتسامة رقيقة ما إن رأتها زوجه حتى تبددت كل أوصابها واستشعرت كأن رحمة من ربها فاضت عليها ، فإذا بكل مشاعرها تسجد لله شكرا وإذا بروحها تؤدى فى لحظة أعمق صلاة .

ومدت زينب يديها ورفعت الوليد فى رقة فقدمته إلى أبيها ، فأخذه رسول الله — عليه السلام — على كفَّى الحنان فدفقت من كنوز قلبه مشاعر نابضة بأجمل ما فى النفس البشرية من إحساسات الحب والرأفة والرحمة والإشفاق .

ورنت خديجة إلى زوجها وفلذة كبدها بين يديه وهو يميل عليه ليضع قبلة على جبينه فأحست كأن فؤادها يلثم الوجود جميعه ، وكأن كل أفراح الأرض والسماء تنسكب فى وجدانها وتغمر عواطفها ، فلا تجد لها منفسا إلا أن تترقرق فى مآقيها الدموع كأنها من رحمة الرحمة وعين الرأفة وذات الرقة والإشراق . كانت ترجو أن يكون لها ولد من الرجل العظيم الذى اصطفاه رب العالمين لتبليغ رسالته ، فهو شرف لا يدانيه شرف فى الدنيا أن يكون لها ولد من خاتم الأنبياء . وكانت تقدر النعمة التى خصها الله بها من فيض كرمه فلم تجد للتعبير عن شكرها العميق لما أعطاها الله غير

الإنفاق فى سبيل الله ، فأمرت بنحر النحائر وتوزيعها على فقراء مكة ابتغاء مرضاة الله .

وذاع فى مكة أن الطاهرة وسيدة نساء قريش أنجبت لأبى القاسم ذكرا وأنه سماه عبد الله ، فهرع المسلمون مستبشرين فرحين إلى دار النبى — ﷺ — مهنئين بأن منَّ الله عليه بمن يرث الأمجاد . ولما خرج أبو القاسم عليهم به خفقت قلوبهم بالحب وهم يمدون أعينهم إلى بضعة من الرسول — عليه السلام — . ولما كان عبد الله قد ولد بعد اصطفاء الله لأبيه — ﷺ — ولم يشهد من أمر الجاهلية شيئا ، فقد لقبه المسلمون بالطيب والطاهر ، ولا غرو فقد ولد فى نور الإسلام .

وتعلق قلب خديجة بالوليد فأبت أن تدفع به إلى المرضعات فى اليوم الثامن من مولده كما كانت عادة سادات قريش ، وأقنعت نفسها بأنه لن يجد فى قبائل البادية من هو أفصح من رسول الله — ﷺ — ولا من هو فى مثل علم على بن أبى طالب ربيب ربيب السماء . كانت دارها منارة للدين الجديد وإنه لخير لعبد الله أن يشب فى منبع الحكمة والنور .

وكان على وفاطمة يداعبان عبد الله وخديجة ترنو إليهما متفرحة وسرعان ما يشرد خيالها فتذكرَ ما قال زوجها الحبيب ليلة مولد ابن أبى طالب : « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » . ففى تلك الليلة كشف عن بصر محمد — ﷺ — فشاهد أنوارا وهو يتبتل فى غار حراء ، وكان رسول الله — ﷺ — يتيمن بتلك السنة ويسميها سنة الخير وسنة البركة .

كان على فى حجر ابن عمه ولد على الفطرة وقبل أن يفسد أبواه تلك الفطرة بتلقينه عادات قومه ومعتقداتهم ، أكرمه الله بأن دفع به إلى دار

الندوة ليتولى أبو القاسم تربيته فيعصمه من مساوئ الجاهلية ، فإن كان الله قد كرم وجه على وقد ولد قبل الرسالة بعشر سنين فعبد الله قد ولد بعد المبعث ولا كان كافرا طرفة عين .

كانت خديجة سعيدة بعلى ، سعيدة بفاطمة ، سعيدة بنور النبوة التى أشرقت فى دارها . وبلغت سعادتها ذروتها لما أنجبت لرسول الله — ﷺ — عبد الله . فغبطتها قد فاقت ذلك السرور الذى غشيها لما جاءت بالقاسم ، فالقاسم كان ابن الرجل النبيل الذى تطمع خديجة فى أن يكون هو النبى المرتقب . أما عبد الله فهو وريث مجد رسول الله من اصطفاه ربه ليبلغ الناس رسالته . وهو مجد ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وراحت خديجة تحتضن ابنها وقد جاشت عواطف الأمومة فيها حتى كادت تفتنها عن جليل رسالتها . فهى لم تخلق لتكون حاضنة لوليد حتى لو كان ولد رسول الله — ﷺ — ، بل خلقت لتكون حاضنة أعظم رسالة حملها بشر ، لتكون أمّا للمؤمنين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، أمّا يفيض حنانها وعطفها وشذى ذكراها العطرة على أبناء ذلك الدين القويم الذى بزغ نوره أول ما بزغ من دارها على مر السنين والأجيال والقرون . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كان الإسلام لا يزال سرا فى صدور المؤمنين به ، فإن كان الله قد أمر رسوله بأن يقوم وينذر ويكبر ربه فقد كان يدعو صحابته ومن يثق بهم . وكان أبو بكر يدعو سرا فى ناحية وعثمان يدعو سرا فى ناحية وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وكل من أشرق قلبه بنور اليقين يدعون إلى الدين الجديد همسا ، فما استعلن أمر الإسلام بعد ،

وهو فى حاجة إلى جهود مضنية وصبر طويل وكفاح مرير حتى يتم الله نوره ، وهو أحوج ما يكون إلى إيمان خديجة ونصرتها وصمودها كالطود إلى جانب الرسول — عليه السلام — ، لا تزعزعها عواصف الشرك ولا تنال من عزيمتها أسلحة الاضطهاد ولا يشغلها عن تأييد دين الله مشاغل من ولد ودنيا ، فقد ارتضت أن تكون لله ومن كان لله لا يشغل عنه بما سواه .

ومرت الأيام ومحمد — ﷺ — يقابل الراغبين فى الدين الجديد فى داره أو فى شعاب الجبال بعيدا عن عيون سادات مكة وأشرافها . يعرض عليهم الإسلام أو يفقههم فيه ثم يعود إلى خديجة يقص عليها ما كان فى يومه وهى تصغى إليه فى فرح واستبشار . ثم تدفع إليه بابنه عبد الله فيأخذه ويقبله ويداعبه فيستشعر كأن أوصاب اليوم قد تبخرت وأن عواطف رقيقة حانية تتفجر من فؤاده فتغمره بسعادة واستبشار .

كان يحب زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان يفيض عليهن من فيض قلبه الكبير . وقد حزن على موت القاسم ، فلما منَّ الله عليه بعبد الله وجد فيه عوضا عن أخيه فتعلق به وأحبه . وكان يحس غبطة لما يسمع أصحابه يكنون الصغير بالطيب والطاهر . وقد شكر الله بلسانه وفؤاده وكل جوارحه أن جاء عبد الله بعد أن اصطفاه ربه لرسالته ، فسيشب فى وهج الأنوار .

وذات يوم هرعت إليه خديجة وفى وجهها هلع وقالت له إن عبد الله مريض ، فخف إلى حيث كان ابنه فى أحضان أم أيمن ونظر فى وجهه فألفاه ذابلا وقد ضاق صدره وكأنه يتنفس من ثقب إبرة ، فأحس أبو القاسم أسى يطوف به ، وتحركت رقته فمد يديه وتناول ابنه وضمه إلى صدر

الحنان ، فاستشعر بالطيب ينتفض فى حضنة فترقرق الدمع فى عينيه . ورأت خديجة العبرات بين أهدابه الطويلة . فاشتد وجيب قلبها وانتشرت رهبة بين ضلوعها ونزل حزن ثقيل . فقد فطنت إلى أن عبد الله يموت .

أيمضى عبد الله هكذا سريعا بعد أن ملأ الدار حياة وأملا ؟ أتموت أمانيها المشرقة المجنحة العريضة التى داعبتها كلما مدت عينيها إلى ابن رسول الله — ﷺ — ؟ كانت ترى فيه وريث النفحة الإلـٰهية والشرف الذى لا يسمو إليه شرف . وما اتضحت لها فى ذاك الوقت حقيقة أن ما جاء به محمد عليه السلام ليس ميراث فرد من البشر أو جماعة من الناس ، بل ميراث البشرية جمعاء .

إنها تقرأ فى وجه زوجها هول الفاجعة وتستشعر من الأسى الذى غمره قمة المأساة فترتجف من الرأس إلى القدم ، فعبد الله يجود بأنفاسه ويدب الفناء فيه ليودع الدنيا .

واحَر قلباه ! واكَرباه ! ذهب عبد الله ولن يئوب ، وسيقبر كما قبر أخ له من قبل مخلفا فى القلب حسرات . إنها حزنت على فقد القاسم ولكن حزنها على فقد عبد الله يفوق كل ما مر بها من أحزان ، فالأمل فى أن تنجب لأبى القاسم ولد بعد القاسم كان كبيرا ، أما اليوم فلا أمل فى الإنجاب . ووقعت عيناها على زوجها الواله الحزين وهو يسجى ابنه الحبيب فى فراشه والدموع تسيل على خديه وتبلل لحيته ، فلم تستطع احتمال لوعة النفس فأجهشت بالبكاء . وارتفع صوت أم أيمن بالنحيب ، وجاء على وفاطمة وقد فطنا إلى أن الموت قد اختطف الطيب فخنقتهما العبرات . وراحت خديجة تذرف الدمع الهتون ولقيت من مصيبتها نصبا ، فذهب إليها رسول الله — ﷺ — يواسيها ويمسح بحنانه عن فؤادها الأحزان ، وإن كان فؤاده يكاد ينفطر على الطاهر الحبيب .

٢٣

راح محمد ـــ ﷺ ـــ يدعو الناس إلى الإسلام سرا وجهرا ، فاستجاب لله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول . ودخل دار الأرقم بن أبى الأرقم وكانت على الصفا تطل على الحرم ودار الندوة وتكشف حركات سادات قريش وكل ما يجرى فى الكعبة .

وفى دار الأرقم كان المسلمون يصلون ويتفقهون فى أمر الدين ، وكان الراغبون فى الإسلام يفدون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يلقون إليه أسماعهم فتنشرح صدورهم للدين الجديد ، وما كان كفار قريش يفعلون أكثر من السخرية من ذلك الذى يأتيه خبر السماء فما كانوا يقدرون خطر دعوته .

كانت العبادات تمارس فى حرية فى أول بيت وضع للناس ، فكانت اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية والحنيفية والصابئة تعيش فى ظل الكعبة جنبا إلى جنب ما دام أصحاب تلك الديانات لا يعيبون دين قريش . وما كان أكابر القوم يرون فى دعوة ابن عبد الله ما يثير غضبهم فقد حسبوها فى أول الأمر دعوة من دعوات التوحيد الهادئة التى كانت تظهر بين الحنفاء بين الحين والحين .

وأوحى الله إلى عبده : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض

جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾(١) . فاشتد ذلك على النبى — ﷺ — فمكث شهرا جالسا فى بيته يفكر فى أمر الله وخديجة تشد أزره وتهون عليه الأمر ، وهو يستشعر عجزه عن احتمال الوقوف فى وجه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد شمس وبنى نوفل الثائرين الغاضبين .

وظنت عماته أنه مريض فدخلن عليه عائدات ، فقال — ﷺ — :

— ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرنى بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين . فأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى .

— فادعهم ولا تجعل عبد العزى (أبا لهب) فيهم فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه .

وراح محمد — ﷺ — يفكر فيما أمره به ربه . إنه أوحى إليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٢) . وقد نصحه عماته ألا يدعو عمه أبا لهب ولكنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك النصيحة ، فعمه من عشيرته الأقربين . وما كان لرسول أن يعصى أوامر ربه وإن كان على يقين أن أبا لهب سيسمعه ما يكره ، بل قد تكون دعوته إلى الإسلام من أسباب تنغيص حياة ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم ، فقد زوج ابنتيه لابنى عمه عتبة ومعتب وهما ألعوبة فى يد أمهما أم جميل بنت حرب التى تنهش الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها خير .

وأصبح الصباح فبعث رسول الله — ﷺ — إلى بنى عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب وقد ظن أنه ما جمعهم إلا لأنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون ، فقال له :

---

(١) الشعراء ٢١٤ — ٢١٥ (٢) الحجر ٩٤

— هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد ، واترك الصبأة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك . إن أقمت على أمرك فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش وتمدها العرب ، فما رأيت يا بن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر مما جئتهم به .

ودار حوار شديد بين عبد المطلب وبين رسول الله — ﷺ — انتهى بأن انسحب الموجودون دون أن يستجيب أحد منهم إلى دعوة محمد — ﷺ — ، ومرت أيام ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول الله — ﷺ — ثانيا وخطبهم ثم قال لهم :

— إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لا إلـٰه إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . والله يا بنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .

فتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب فإنه قال :

— يا بنى عبد المطلب هذه والله السوءة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم .

فقالت له أخته صفية :

— أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء (أصل) عبد المطلب نبى فهو هو .

قال أبو لهب فى ضيق :

— هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب :

— والله لنمنعنه ما بقينا .

وأحس محمد — ﷺ — صدق تأييد أبى طالب ، فذهب إلى داره واجتمع هناك ببنى عبد المطلب فقال لهم :

— يا بنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة ، فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين . وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن الله لا إلٰه إلا هو ، وأنى رسول الله . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس .

ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم ، فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس ، فأنت أخى ووزيرى .

وعزم محمد — عليه السلام — على أن يدعو قريشا فقام على الصفا

وقال :

ـــ يا معشر قريش .

فقالت قريش :

ـــ محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :

ـــ ما لك يا محمد ؟

ـــ أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟

ـــ نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .

ـــ فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ...

حتى عدد الأفخاذ من قريش .

ـــ إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إلـٰه إلا الله .

فقال أبو لهب :

ـــ تبا لك سائر اليوم .

وانصرف أبو لهب وسار معه رجل من قريش ، فقال له الرجل :

ـــ فما تفعل إن كان ما يقوله محمد حقا ؟

فقال أبو لهب فى سخرية :

ـــ إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالى وولدى .

وعاد أبو لهب إلى داره وراح يروى على امرأته ما كان من محمد ابن أخيه ، فراحت أم جميل تشاركه فى هزئه وسخريته ولكن ذلك لم يشف غليلها فهى حاقدة بطبعها . أنانية لا تطيق الخير لغيرها . فهى تستشعر

بالنار ترعى فى أحشائها كلما وصف قومها خديجة بالطاهرة . ولولا الخشية من أن تكشف عن خبيئة نفسها الحاسدة الخبيثة لأعلنت على الملأ سب خديجة . فلما بلغها أن محمدا لم يكتف بأن زعم أن الخبر يأتيه من السماء بل دعا قومها إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله وأنه عبده ورسوله زاد حنقها على ابن عبد الله وزوجه ، فلو آمن الناس بدعوته لربا شرف سيده نساء قريش ، وأعمتها الغيرة عن أن ترى فى نبوة محمد شرف بنى هاشم بل شرف قريش كلها . وأبت أن تصيخ إلى صوت قلبها الذى حاول أن يقنعها بأن نبوءة محمد — ﷺ — شرف عظيم سيسربل ولديها معتب وعتبة زوجى ابنتى رسول الله ، فأحست رغبة طاغية فى أن تحطم الدعوة الجديدة وما تأتى به من أمجاد لغريمتها التى صارت هدفا لغل نفسها .

وانسلت من الدار لتدور على دور قريش تسب محمدا عليه السلام وتنال من خديجة لتشفى مرض قلبها وتحرض الناس على من جعل الآلهة إلـها واحدا وزعم أنه يُكلَّم من السماء ، فطفقت تنفث سمومها وتزين للناس مقاومة الدعوة التى فرقت بين الأخ وأخيه ، والمرء وأبيه ، والرجل وصاحبته التى تؤويه . وبعد أن طافت بالدور وفيما هى فى طريق عودتها إلى دارها راحت تجمع الحطب . فلم تنس بخلها الذى جبلت عليه وهى تشن حربها الشعواء على محمد — عليه السلام — وزوجه ، فهى كأخيها أبى سفيان شحيحة وكان البخل أبرز صفاتهما .

وأوحى الله إلى محمد — ﷺ — ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾[١] . فأرسل لمن كان عنده من كتاب الوحى

(١) المسد ١ — ٥

ليكتب ما أنزل عليه.ولما انتهى شرد يفكر فى ذلك الهجاء الشديد لعمه وامرأته فتبين أن قد انفصمت كل الصلات الطيبة بينه وبينهما .

كانت رقية وأم كلثوم فى كنف ابنى عمهما وقد تيقن بعد نزول الوحى بسورة المسد أن لم يعد لبنتيه الحبيبتين مكان فى دار أبى لهب ، فلو كان الأمر بيده ما هجا عمه ولا امرأته وما عكر صفو رقية وأم كلثوم ، ولكن الله هجاهما وقد أمره الروح الأمين بأن يصدع بما يؤمر فراح يقرأ على المسلمين ما أنزل عليه .

وذاعت سورة المسد فى مكة ومشى بعض الناس بها إلى أبى لهب وأم جميل ، فاربد وجه أبى لهب واستبد به الحنق والغضب فبعث فى طلب عتبة ومعتب وقال لهما إن محمدا قد سبه وسب أم جميل ، ثم التفت إلى عتبة وقال :

ـــ رأسى ورأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد .

فقال معتب فى غضب :

ـــ لآتين محمدا فلأوذينه فى ربه .

وانطلق معتب إلى محمد عليه السلام وكان عند أبى طالب . فأتاه وسب إلٰهه ثم بصق فى وجهه ورد عليه ابنته وطلقها . فقال محمد ـــ ﷺ ـــ :

ـــ اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك .

فوجم لها أبو طالب وقال :

ـــ ما كان أغناك يا بن أخى عن هذه الدعوة .

وخرج محمد عليه السلام إلى الحرم والتقى بأبى بكر فراجا يتحاوران ، وفيما هما فى حديثهما إذ أقبلت أم جميل وفى يدها حجر وقد أعماها

الغضب ، فلما رآها أبو بكر قال :

— يا رسول الله إنها امرأة بذية فلو قمت فوالله لتؤذينك .

— إنها لن ترانى .

فجاءت فقالت :

— يا أبا بكر ، صاحبك هجانى .

— لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وكان أبو بكر يقول صدقا ، فما هجاها رسول الله بل ما هجاها إلا الله .

— أنشد فيَّ شعرا .

— والله ما صاحبى بشاعر وما يدرى ما الشعر .

— والثواقب إنه لشاعر وإنى لشاعرة .

مذمما أبينـــــا ودينـــه قلينـــا

وأمره عصينا

ولم يغضب أبو بكر فقد صرف الله عن رسوله شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وهو محمد .

ثم ولت أم جميل ذاهبة فالتفت أبو بكر إلى الرسول — ﷺ — ، فلما قرأ فى وجه أبى بكر التساؤل قال :

— جعل بينى وبينها حجاب .

ومر رسول الله — ﷺ — على قومه وهم يسجدون للأصنام فقال :

— يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم .

وعرفوا أنه يعيرهم بعبادة الأصنام ، فيا طالما قال لهم إنها حجارة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فقالوا :

— إنما نعبد الأصنام حبا لتقربنا إلى الله .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى داره فهرع إليه أصحابه ليتفققهوا فى دينهم ، وجاءت قريش إلى حصين وكانت تعظمه فقالوا له :

— كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى — ﷺ — ، ودخل حصين وابنه عمران مع رسول الله — عليه السلام — ، فلما رآه النبى قال :

— أوسعوا للشيخ .

فجلس حصين فقال :

— ما هذا الذى بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟

فقال :

— يا حصين كم تعبد من إلٰه ؟

— سبعة فى الأرض وواحد فى السماء .

— فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟

— الذى فى السماء .

— فإذا هلك المال من تدعو ؟

— الذى فى السماء .

— فيستجيب لك وحده وتشرك معه ؟ أرضيته فى الشرك يا حصين ؟ أسلم تسلم .

واستمر الحوار فإذا بحصين ينشرح صدره للدين الجديد فيعلن إسلامه ، فيقوم إليه ولده عمران فيقبّل رأسه ويديه ورجليه فرحا بأن هدى الله أباه إلى الإسلام وزحزحه عن نار جهنم .

وبكى رسول الله ـ ﷺ ـ فشخصت إليه الأبصار فقال :

ـ بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفّى حقه فدخلنى من ذلك الرأفة .

فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه :

ـ شيعوه إلى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش قالوا :

ـ قد صبأ .

وتفرقوا عنه وصدورهم تكاد تميز من الغيظ وتنفجر من الغضب .

٢٤

كان أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يجوبان السوق فى اليمن وإذا برسول يقدم من مكة ويقدم إلى أبى سفيان كتابا من ابنه حنظلة ، فيقرأ الكتاب فيتغير لونه ويظهر فى وجهه أثر الانفعال . فلما رأى العباس ما اعتراه قال له :

ـــ ماذا فى الكتاب يا أبا حنظلة ؟

فقال أبو سفيان وهو شارد :

ـــ إن محمداقائم فى أبطح مكة يقول : أنا رسول الله ، أدعو إلى الله .

ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن فجاء حبر من اليهود إلى حيث كان أبو سفيان والعباس فقال :

ـــ بلغنى أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال .

قال العباس :

ـــ نعم .

فقال الحبر وهو يتفرس فى وجه العباس :

ـــ نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟

ـــ لا والله ولا كذب ولا خان ولا كان اسمه عند قريش إلا الأمين .

ـــ هل كتب بيده ؟

فأراد العباس أن يقول نعم ، فخشى من أبى سفيان أن يكذبه ويرد عليه فقال :

— لا يكتب .

فوثب الحبر وترك رداءه وقال :

— ذبحت يهود وقتلت يهود .

ورجع العباس وأبو سفيان إلى منزلهما فقال أبو سفيان :

— يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك .

كان العباس على علم بأن زوجه أم الفضل على دين محمد ، وكان فى كل ما فعل هواه مع ابن أخيه فقال :

— قد رأيت لعلك أن تؤمن به .

— لا أومن به حتى أرى الخيل فى كداء .

وعجب العباس فما كانت الخيل تطلع على كداء فهو جبل وعر ، فقال ؟

— ما تقول ؟

ولم يدر أبو سفيان لم قال ذلك القول فقال :

— كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلا تطلع على كداء .

ولو اخترق بصر أبى سفيان حجب الغيب لرأى خيل خالد بن الوليد تطلع على كداء يوم فتح مكة ، يوم يأخذه العباس إلى رسول الله — ﷺ — ليعلن إسلامه .

وأقبل أبو سفيان حتى نزل على أمية بن أبى الصلت بالطائف فقال :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

وصمت أمية قليلا وهو يفكر فى رسول الله — ﷺ — ، ثم قال :

— قد كان لعمرى .

ـــ فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

ـــ والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .

ورأى أبو سفيان الحيرة فى وجه أمية فقال له :

ـــ ما يمنعك من اتباعه ؟

فقال ابن أبى الصلت وهو يطرق برأسه :

ـــ ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف . إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال أمية :

ـــ كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

* * *

وكانت فى ثقيف بيت آخر قد أهمه ظهور محمد ـــ ﷺ ـــ ودخله من النفاسة والحسد ما أقلق أهله ، كان ذلك البيت بيت الحارث بن كلدة زوج خالة رسول الله ـــ عليه السلام ـــ . وكان الحنق يملأ جوانب ابن خالته النضر فهو يحسب أنه أعلم العرب طرا ما دام قد ذهب إلى الحيرة وجنديسابور وتعلم أجزاء الحكمة وأحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسفَنْديار . فلما بلغه أن ابن خالته قائم على أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أحس بالحقد ينهش فؤاده ولم يستطع صبرا ، فشد الرحال إلى مكة ليكون على ابن خالته يهزأ به ويؤلب عليه الناس .

وشد أبو سفيان الرحال إلى مكة وهو يفكر فيما دهاها . ترى ما أمر الناس بها ؟ كان أشياخ قريش فى طريقهم إلى أبى طالب وقد أجمعوا خلاف ابن أخيه وعداوته ، فلما جاءوه قالوا :

ـــ يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يظهر دين الله ويدعو إليه لا يرده عن ذلك شيء ، واستشرى الأمر وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وأضمروا له العداوة ولصحبه ، فوثب الحكم بن العاص على ابن أخيه عثمان بن عفان وراح يعذبه ، وأخذ نوفل بن العدوية أبا بكر وطلحة بن عبد الله فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنى تيم وراح يعذب القرينين ، وكان نوفل جبارا وكان يدعى أسد قريش . وعاد عم الزبير إلى تعذيبه . وأقبل أبو سفيان إلى مكة فوجد أصحاب محمد ـــ ﷺ ـــ يضربون ويحقرون ، وتذكر وصف أمية للنبى المنتظر فى أثناء عودتهما من الشام : رجل شاب حين دخل فى الكهولة ، بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة ، فجعل أبو سفيان يقول :

ـــ فأين جنده من الملائكة ؟!

فدخله ما يدخل الناس من النفاسة فمشى إلى أبى طالب مع عقبة بن أبى معيط ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة بن عبد شمس ، وأبى البحترى العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنى الحجاج بن عامر ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

ـــ يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه

أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله — ﷺ — لهم ولا خذلانه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا . فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله — ﷺ — أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له :

— يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله — ﷺ — وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال :

— أقبل يا بن أخى .

فأقبل عليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا .

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله — ﷺ — وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

— يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك خير ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه

أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

ــ والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا .

فقال له المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف :

ــ والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال له أبو طالب .

ــ والله ما أنصفونى ولكنك جمعت خِذلانى ومظاهرة القومَ على ، فاصنع ما بدا لك .

ــ فأرسل إليه فلنعطه النَّصَف .

فأرسل إليه أبو طالب ، فجاء رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا بن أخى ، هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ قولوا أسمع .

ــ تدعنا وآلهتنا وندعك وإلـٰهك .

قال أبو طالب :

ــ لقد أنصفك القوم فاقبل منهم .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ أرأيتكم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطىء كلمة ، إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟

فقال أبو جهل :

— إن هذه الكلمة مربحة ، نعم وأبيك لنقولنها وعشَر أمثالِها .

قال :

— قولوا لا إلـٰه إلا الله .

فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا ، وقال عقبة بن أبى معيط :

— واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد .

وخرجوا من عند أبى طالب وهم يقولون :

— لا نعود إليه أبدا وما خير من أن نغتال محمدا .

فلما كان من مساء تلك الليلة جاء أبو طالب وعمومة محمد — ﷺ — إلى منزله فقد بلغهم ما عزم عليه القوم فلم يجدوه ، فجمع أبو طالب فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثم قال :

— ليأخذ كل واحد حديدة صارمة ثم ليتبعنى إذا دخلت المجلس فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابن الحنظلية (أبو جهل) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال الفتيان :

— نفعل .

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال :

— يا زيد أرأيت ابن أخى ؟

فقال زيد :

— نعم كنت معه آنفا .

فقال أبو طالب :

— لا أدخل بيتى أبدا حتى أراه .

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو فى بيت عند

الصفا ومعه أصحابه يتحدثون . فأخبره الخبر فجاء رسول الله — ﷺ — إلى أبي طالب فقال :

— يا بن أخي أين كنت ؟ أكنت في خير ؟

— نعم .

— ادخل بيتك .

فدخل رسول الله — ﷺ — ، فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي — ﷺ — فأخذ بيده فوقف على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال :

— يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟

— لا .

فقال للفتيان :

— اكشفوا عما في أيدكم .

فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة ، فقال :

— والله لو قتلتموه ما بَقيتُ منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم .

فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل .

٢٥

اجتمع المسلمون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم يتحدثون وكانت الدار على الصفا تطل على الحرم ، وحانت التفاتة من أبى بكر فرأى قريشا فى مجالسهم فضاق بأن المشركين كانوا آمنين فى بيت الله بينما كان المسلمون يترقبون خشية من الناس . إنه على الحق وهم على الضلال فكيف يختفى النور تاركا الدنيا للظلمات ؟

وراح أبو بكر يحدث محمدا — ﷺ — ويلح على رسول الله فى الظهور ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا أبا بكر إنّا قليل .

كانوا قلة حقا ولكنهم كانوا أقوياء باليقين الذى نزل بأفئدتهم . فهان القوم فى عينى أبى بكر فجعل يتحدث فى حماس وصدق يزين له الخروج إلى المسجد لإعلاء كلمة الله ، ولم يزل به حتى خرج رسول الله — ﷺ — ومن معه من أصحابه إلى المسجد .

وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله — ﷺ — جالس ودعا إلى الله ورسوله ، فامتلأ سادات قريش حنقا فقد ضاقوا بدعوة ابن عبد الله وكلموا أبا طالب فيه وبيتوا الغدر لمن سب آلهتهم وسفه أحلامهم ، وقبل أن ينالوا منه شيئا ، أيأتى ابن أبى قحافة ليسخر منهم على أعين الناس ؟

إنها الفتنة وإن سكتوا عليها استشرى الشر فى مكة ، فثاروا على أبى بكر وعلى المسلمين وضربوهم ضربا مبرحا ، ووُطئ أبو بكر بالأرجل وضرب

ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مطبقتين ويحرفهما إلى وجهه بعنف حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فقد غرق فى دم غزير بعد هذه القسوة القاسية .

وطار الخبر إلى بنى تيم رهط أبى بكر فجاءوا والشر يطل من أعينهم وأصوات مزمجرة متوعدة تنطلق من أفواههم ، فأجلوا المشركين عن أبى بكر وحملوه فى ثوب إلى أن أدخلوه منزله لا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا :

— والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة .

ثم رجعوا إلى أبى بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال :

— ما فعل رسول الله — ﷺ — ؟

فراحوا يلومونه على ما فعل فعاد يقول :

— ما فعل رسول الله — ﷺ — ؟

ونظر إلى أمه فقالت :

— والله ما لى علم بصاحبك .

— اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وخرجت أمه إلى دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ودخلت على فاطمة بنت الخطاب وقالت لها :

— إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله .

فقالت فاطمة :

— لا أعرف محمدا ولا أبا بكر .

كانت فاطمة ترتجف خشية أن يعرف أخوها عمر بن الخطاب أمر

إسلامها فيأتى ليبطش بها ، فهو جبار لا يطيق الدعوة الجديدة ويقتفى أثر المؤمنين بها ليصب عليهم سوط عذاب ، فلما اطمأنت فاطمة إلى أم أبى بكر قالت لها :

ــ تريدين أن أخرج معك ؟

ــ نعم .

فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا فصاحت وقالت :

ــ إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم .

فقال لها أبو بكر فى لهفة :

ــ ما فعل رسول الله ــ ﷺ ــ ؟

فالتفتت أم جميل ناحية أم أبى بكر وقالت :

ــ هذه أمك تسمع .

ــ فلا عين عليك منها .

ــ سالم .

ــ أين هو ؟

ــ فى دار الأرقم .

ــ والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله ــ ﷺ ــ

وهمَّ أبو بكر بالنهوض فخفت إليه أمه وقالت :

ــ فأمهلنا .

وراحت أم أبى بكرٍ تفكر فى ذلك الدين الذى يتحمل أتباعه فى سبيله كل هذا الاضطهاد فلا يزدادون إلا إيمانا وتسليما . إنها تعرف ابنها عاقلا

رشيدا وتعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة . فهو الأمين الصادق الذى عرف بخلفه القويم . واستمرت تفكر فى الدعوة التى جاء بها فألفتها دعوة يقبلها العقل ويستريح إليها الفؤاد ، حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجت به أمه وأم جميل بنت الخطاب يتكئ على أمه حتى دخل على رسول الله — ﷺ — ، فرق له رقة شديدة وأكب عليه يقبله وأكب عليه المسلمون يقبلونه وقد غامت أعينهم بالدمع ، فقال أبو بكر :

— بأبى وأمى أنت يا رسول الله ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برة بولدها فعسى الله أن ينقذها بك من النار .

فدعا لها رسول الله — ﷺ — ودعاها إلى الإسلام ، فقالت :

— أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فطفق أبو بكر يرنو إليها وليس على وجه الأرض من هو أسعد منه لإسلام أمه البارة بولدها .

ودخل إلى الحرم رسول الله — ﷺ — وبعض صحبه فيهم عبد الله ابن مسعود يمشى أمامه ، وجلس المسلمون وقام رسول الله — ﷺ — يصلى وقد نُحر جزور بين إساف ونائلة وبقى روثه فى كرشه . وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وبعض سادات قريش فى مجلسهم ، فلما رأى أبو جهل محمدا — ﷺ — يصلى — قال لمن عنده :

— أيكم يأخذ سلى الجزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد ؟

فقام أشقى القوم عقبة بن أبى معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى وهو ساجد . فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك . وكان صحابة الرسول — عليه السلام — من المستضعفين فهابوا أن يلقوه عنه — ﷺ — فما كانت لهم منعة ، وإذا بفاطمة قد

أقبلت ورأت الروث بين كتفى أبيها فخفت إليه وألقته عنه ، ثم نظرت إلى أبى جهل وعقبة وأمية بن خلف والذين معهم وفوضت أمرها وأمر أبيها إلى الله ، فلما قضى رسول الله — ﷺ — الصلاة رفع يديه وقال :

— اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام (أبى جهل) . وعتبة بن ربيعة ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأمية بن خلف .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وهابوا دعوته .

وأصبحت العداوة سافرة بين محمد — ﷺ — وسادات قريش الذين كانوا يرتجفون فرقا من أن تذهب الدعوة الجديدة بنفوذهم وسلطانهم ، فكانوا كلما التقوا به آذوه وسخروا منه . فلما دخل — ﷺ — يطوف بالبيت ويده فى يد أبى بكر ، كان فى الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ، فمر رسول الله — ﷺ — فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره . وكان عثمان ابن عفان جالسا فى الحرم فعرف فى وجه النبى — ﷺ — أثر ما قالوا من فحش القول ، فقام فدنا منه حتى جعله وسطا فكان — ﷺ — بين عثمان وبين أبى بكر ، وأدخل أصابعه فى أصابع عثمان فطافوا جميعا ، فلما حاذهم قال أبو جهل :

— والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى إذا كان

الشوط الرابع قاموا له ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه — ﷺ — فدفع عثمان صدره فوقع على إسته ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله — ﷺ — عقبة بن أبي معيط ، ثم انفرجوا عن رسول الله — ﷺ — وهو واقف ثم قال :

— أما والله ما تنتهون حتى يحل بكم عقابه . بئس القوم أنتم لنبيكم .

ثم انصرف إلى بيته وتبعه أبو بكر وعثمان حتى انتهى إلى باب بيته ، ثم أقبل عليهما بوجهه فقال :

— أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا .

٢٦

اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام والعاص بن وائل وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى بن خلف وسهيل بن عمرو وسادات قريش وكبراؤهم فى الحجر وكانوا يحسدون رسول الله — ﷺ — على ما آتاه الله من فضله لخبث نفوسهم وتكبرهم وتعجبهم من أن يتقدم عليهم غلام يتيم ، وخوفهم من أن يقوض سلطانهم بدعوته التى استمالت الضعفاء فأحالت ضعفهم قوة . ولم يخطر لهم على قلب أنه لا يطمع فى مال ولا جاه فقد عود نفسه الفكر فى جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، فصار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، فهو لا يزاحمهم فى دنياهم . فكل ما يبغيه أن يهديهم سبل ربهم ولو اهتدوا ما زاحموه فى لذته ، بل زادوه لذة بمشاركتهم إياه فى الأنس بالله .

إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها ، ولذة لا كدر لها فقد عرف لذة الشوق بعد الذوق ، وهو يحب أن يرفعهم جميعا إلى موائد ربه ليذوقوا . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين .

وقال سادات قريش وكبراؤهم :

— ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط . ولقد سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا . لقد صبرنا على أمر عظيم .

وبدت البغضاء من أفواههم ، فبينا هم فى حديثهم إذ طلع عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر طائفا بالبيت . فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فتغير وجهه ، ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فاحتقن وجهه بالدم ، ثم مر بهم الثالثة فلمزوه فوقف عليهم وقال :

ـ أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح .

فنزل الرعب فى قلوبهم وما تبقى رجل منهم إلا وكأنما على رأسه طائر وقع ، وصاروا يقولون :

ـ يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما كان الغد اجتمعوا فى الحجر فقال بعضهم لبعض :

ـ ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه .

فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون :

ـ أنت الذى تقول : ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم * أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾[1] .

ـ نعم أنا أقول ذلك .

ـ أنت الذى تقول : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم

---

[1] القلم ٣٤ ـ ٣٧

خالدين فيها أبدا ﴾(١) .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذى تقول : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾(٢) .

— نعم أنا أقول ذلك .

فأقبل عليه عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، وتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقيل له :

— أدرك صاحبك .

فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله — ﷺ — والناس مجتمعون عليه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول :

— ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات ؟

وراحوا يجذبون رأسه — ﷺ — ولحيته ، حتى سقط أكثر شعره وأبو بكر يحاول أن يحول بينه وبينهم . فأقبلوا على أبى بكر يضربونه وأبو بكر يجاهد أن يدفعهم عن حبيبه رسول الله — ﷺ — ، وإذا بصوت الرسول يرتفع كالنذير :

— دعهم يا أبا بكر ، فوالله الذى نفسى بيده إنى بعثت إليهم بالذبح .

ففرجوا عنه وخرج رسول الله — ﷺ — ، من المسجد ، وانطلق أبو بكر إلى داره ليغسل ما سال من دمائه وهو يقول :

— تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

وسار رسول الله — ﷺ — إلى داره ، وما تقدم فى الطريق خطوات

---

(١) الجن ٢٣ (٢) النجم ٢٣

حتى سار الصبيان خلفه يهجونه بشعر لقنه إياهم عمرو بن العاص ، فقد كان ابن العاص شاعرا لا هم له إلا هجو محمد ـ ﷺ ـ .

وأفاق أبو لهب والحكم بن أبى العاص وعقبة بن أبى معيط من الرعب الذى نزل بقلوبهم لما توعدهم رسول الله ـ ﷺ ـ ، فانطلقوا إلى داره يطرحون عليه الأذى . فأخذه وخرج به ووقف على بابه يقول :

ـ يا بنى عبد مناف . أى جوار هذا ؟

وصبر واحتمل فهو يعلم أن أشد الناس بلاء الأنبياء .

وخرجت فاطمة الزهراء إلى الحرم فألفت سادات قريش فى الحجر ، وكانوا يتحاورون وقد سمعت نجواهم قالوا :

ـ إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة .

فدخلت على أبيها وقالت وهى تبكى :

ـ تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا فى الحِجر وحلفوا باللات والعزى وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيافهم فيقتلونك .

فقال ـ ﷺ ـ فى حنان :

ـ يا بنية لا تبكى .

وذهب وتوضأ ثم خرج فدخل عليهم المسجد فرفعوا رءوسهم ثم نكسوا ، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال :

ـ شاهت الوجوه .

وراح محمد ـ ﷺ ـ يصلى لله ، وسادات الكفر فى الحجر ينظرون ، فلما ذهب عنهم الروع قام أبو جهل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال :

ـــ ألم أنهك عن هذا ؟

فانصرف إليه النبى ـــ ﷺ ـــ فنهره . فقال أبو جهل :

ـــ والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾(١) .

وجاء العباس بن عبد المطلب وجلس فى المسجد ، فأقبل أبو جهل يرغى ويزبد فقال :

ـــ لله على إن رأيت محمدا ساجدا أن أطأ عنقه .

فخرج العباس إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخبره بقول أبى جهل ، فخرج غضبان حتى دخل المسجد فعجل أن يدخل من الباب ، فاقتحم من الحائط وقرأ :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(٢) .

وكان النبى قد بلغ أبا جهل فاستمر فى القراءة :

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾(٣) .

واستمر يقرأ إلى أن بلغ آخر السورة وسجد ، فقال إنسان لأبى جهل :

ـــ يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد .

---

(١) العلق ١٣ : ١٩ (٢) العلق ١ : ٥ (٣) العلق ٦ ـــ ٧

فأقبل إليه أبو جهل ثم نكص راجعا فقيل له :

— لم تطأ عنقه !

فقال أبو جهل :

— ألا ترون ما أرى ؟ لقد سد أفق السماء علىّ .

وجلس رسول الله — ﷺ — وتأهب ليتلو ما تيسر من القرآن فإذا سادات قريش يسرعون إليه ، تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره وراحوا يصفقون ويصفرون ويروون الأشعار بأصوات عالية حتى تختلط بآيات الله فلا يسمعونها ولا يسمعها أحد ممن فى الحرم .

وراح رسول الله يفكر فى وسيلة يسمع بها هؤلاء الجاحدون كلام الله لعل قلوبهم القاسية تلين . إنه إذا جهر بصلاته قاموا إليه ينشدون أشعارا ماجنة لاستهواء أسماع الناس ، وإذا خافت بها لم تصل إلى الراغبين فى سماع ما جاء به . ونزل عليه من وراء سبع سماوات ، فأوحى الله إليه ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾[1] حتى يستطيع من يهوى أن يلقى إليه السمع فى غفلة من قومه أن يسمع ما يقرأ من آى الذكر .

وراح رسول الله — ﷺ — يصلى لا يجهر بصلاته ولا يخافت بها وقرأ : ﴿ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[2] .

---

(١) الإسراء ١١٠ (٢) الحاقة ١ : ٨

وكان النضر بن الحارث فى سادات قريش الجالسين فى الحجر وقد أعار محمدا — ﷺ — سمعه ، فلما مس القرآن أذنيه أحس الحسد يأكل صدره ولم يطق أن يصبر على نار الغيرة التى تلظت فى جوفه ، فقام إلى ابن خالته محمد — ﷺ — وقال لأصحابه :

— إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة .

وجلس النضر وجعل يروى أحاديث رستم الشديد واسفنديار . والتف حوله الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف وأبى بن خلف وسادات قريش وأظهروا إعجابهم به . فاستخفه الطرب فقال :

— والله ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتها .

وهز السرور كفار قريش ، واستمر النضر يروى ما سمع فى الحيرة وفى بلاط كسرى وأعجب بنفسه فقال فى سخرية :

— سأنزل مثل ما أنزل الله .

فأنزل الله فيه : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾(١) .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾(٢) .

---

(١) لقمان ٦ ، ٧ (٢) الإسراء ٥ ، ٦

﴿ ويل لكم أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾[١] .

وانطلق رسول الله — ﷺ — فالتقى وهو يخرج من باب بنى سهم بالعاص بن وائل . فوقفا يتحدثان وصناديد قريش فى المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له :

— من الذى كنت تحدث ؟

فقال فى سخرية :

— الأبتر .

ولاموه على أن وقف يحدثه فقال :

— دعوه فإنما هو رجل أبتر ، لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحتم منه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾[٢] .

وبلغت السورة كفار قريش فعجبوا ، فالحديث كان يدور بينهم وما كان فيهم أحد من أتباع محمد — ﷺ — وراحوا ينالون من رسول الله — ﷺ — ، فقال قائل منهم :

— أسروا قولكم لئلا يسمع إلـٰه محمد .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وأسرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾[٣] . فلما بلغ ذلك صناديد قريش لاح الدهش فى وجوههم

---

(١) الجاثية ٧ ، ٨ (٢) سورة الكوثر (٣) الملك ١٣

وأطرق الوليد بن المغيرة يفكر فيما يسمع ، فاستشعر رغبة طاغية ليلقى سمعه إلى قرآن محمد .

واجتمع أصحاب رسول الله — ﷺ — ذات يوم فى الحرم فقالوا :

— والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله — ﷺ — ، فمن فيكم يسمعهم القرآن جهرا ؟

فقال عبد الله بن مسعود :

— أنا .

فقالوا فى خوف :

— نخشى عليك منهم وإنما نريد رجلا له عُشيرة يمنعونه من القوم .

فقال ابن مسعود فى إيمان :

— دعونى فإن الله سيمنعنى منهم .

ثم قام عند المقام وقت الشمس وقريش فى أنديتهم فقال :

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ورفع صوته :

— ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾(١) .

وتأملته قريش وقالوا :

— ما بال ابن أم عبد ؟

---

(١) يس ١ : ٧

ـــ يتلو بعض ما جاء به محمد .

واستمر عبد الله بن مسعود فى قراءته :

ـــ ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾(١) .

وقام إليه سادات قريش وفيهم عقبة بن أبى معيط وهو فى دهش وغيظ ، فما كان يدور بخلده يوما أن ابن أم عبد من كان يرعى له غنمه ومن لا يزيد طوله على ذراع ، يقف ذلك الموقف متحديا سادات قريش كلها .

وراحوا يضربون وجهه وهو مستمر فى تلاوة آيات الله :

ـــ ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾(٢) .

وانهالوا ضربا عليه وهو كالطود يستشعر حلاوة الإيمان فلا يزيده الاضطهاد إلا عزما وإصرارا ، واستمر يتلو :

ـــ ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾(٣) .

---

(١) يس ٨ ، ٩ (٢) يس ١٠ : ١٢ (٣) يس ١٣ : ١٦

واستمروا يضربون وجهه وهو مستمر فى قراءته حتى قرأ غالب السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه ، فقال له أصحابه :

ــ هذا الذى خشينا عليك منه .

فقال فى صدق :

ــ والله ما رأيت أعداء الله أهون علىّ مثل اليوم ، ولو شئتم لأُتيتهم بمثلها غدا .

ــ لا . قد أسمعتهم ما يكرهون .

٢٧

الإسلام ينتشر بين الضعفاء والعبيد الذين يتطلعون إلى الحرية ، والأحرار الذين لا يخشون أن يقوض الدين الجديد نفوذهم أو يذيب كنوزهم من ذهب وفضة ، واشتد الحوار فى الحرم بين رسول الله — ﷺ — وبين شيوخ قريش وساداتها ، واشتعل أواره بين ابنى الخالة محمد — عليه السلام — والنضر بن الحارث ، وكان النبى — ﷺ — يفحم النضر على الدوام بتأييد من الله .

وجاء رسول الله — ﷺ — إلى الكعبة فطاف بها ، فلما أتم الطواف ذهب إلى حيث كان الوليد بن المغيرة وأشراف قريش وكان فيهم النضر بن الحارث ، فتكلم رسول الله فعرض له النضر فكلمه رسول الله — ﷺ — حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾[1] .

ثم قام رسول الله — ﷺ — وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى شاعرهم الفصيح فألفاهم واجمين ، فقال وهو يرمقهم فى دهش :

— مالكم ؟

فقال الوليد :

---

(١) الأنبياء ٩٨ : ١٠٠

ــ والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

فقال عبد الله بن الزبعرى فى خيلاء :

ــ ادعوه لى .

وأرسلوا يدعون أبا القاسم فجاء ووجهه يبتسم ، فهو يرحب بكل حوار يدور بينه وبينهم حتى تتاح له فرصة إبلاغ رسالة ربه إليهم ، فقال له ابن الزبعرى :

ــ يا محمد ، هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟

ــ بل لكل من عبد من دون الله .

فصاح ابن الزبعرى صيحة فرح وقال :

ــ خصمت ورب هذه البنية .

أقسم بالكعبة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قد وقع فيما نصب له من فخاخ ، إنه سيلزمه الحجة على الملأ ، فقال وهو يتهلل بالفرح :

ــ ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح ؟ وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى يعبدون عيسى ، وهذه اليهود يعبدون عزيزا .

وصاح أهل مكة فرحين :

ــ ألزمه الحجة .. ألزمه الحجة .

فأنزل الله على عبد : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾(١) .

---

(١) الأنبياء ١٠١ : ١٠٢

ونزل فيمن يعبدون الملائكة ويقولون إنها بنات الله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إلٰه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾(١) .

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون *وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون *إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يَخلفون * وإنه لعِلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾(٢) .

وعجب الوليد من حجته وخصومته ومست آيات الله وترا حساسا فى نفسه ، ولكن الحسد جثم على صدره فعقل لسانه عن أن يشهد بالحق فقال :

— أيُنزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين !

فأنزل الله فيه : ﴿ وقالوا لولا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾(٣) .

وأراد أبو جهل أن يسخر من محمد — ﷺ — على الملأ خشية أن

(١) الأنبياء ٢٦ : ٢٩ (٢) الزخرف ٥٧ : ٦١

(٣) الزخرف ٣١ ، ٣٢

يفتن الناس به فقال :

— يا معشر قريش . هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟

قالوا :

— لا .

فقال وهو يضحك ملء شدقيه :

— عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها (نبتلعها) تزقما .

فأنزل الله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾(١) .

وملأ الحنق فؤاد أبى جهل ، وزاد فى حنقه أنه قال لرسول الله — ﷺ — : أنا العزيز الكريم . فإذا بقرآن محمد يسخر منه ، وإذا بتلك السخرية الأليمة تنتشر فى مكة بين المسلمين والكافرين على السواء .

ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله — ﷺ — بعظم بال قد تحطم وتكسر ، فقال :

— يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم (بلى) ؟

ثم فته فى يده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله — ﷺ — ، فقال رسول الله — ﷺ — :

---

(١) الدخان ٤٣ : ٥٠

— نعم أنا أقول ذلك . يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾(١) .

وكان الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة من أشراف القوم وممن يُستمع منه . فكان يجادل الرسول — ﷺ — ويرد عليه ، وكان الرسول — صلوات الله عليه — يعرف عيب نسبه فما كان يلزمه به ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾(٢) .

كان سادات قريش يحرصون على ألا يسمعوا القرآن وإن كانوا فى شوق إلى أن يلقوا إلى أبى القاسم أسماعهم ، إنهم سمعوا منه آيات متفرقة فى أثناء الحوار الذى كثيرا ما يدور بينه وبينهم ولكنهم يريدون أن يصغوا إليه فى هدوء لولا خشية أن يراهم الناس وهم جالسون إليه ، فيفتحوا بذلك أبواب الفتنة التى بذلوا كل الجهود لتظل مغلقة فى وجه دعوة ابن عبد الله .

وذات ليلة خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليستمعوا من رسول الله — ﷺ — وهو يصلى فى الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض :

---

(١) يس ٧٨ : ٨٠ (٢) القلم ١٠ : ١٣

— لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال :

— أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

— يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها .

— وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنده حتى أتى أبا الحكم بن هشام فدخل عليه فى بيته فقال :

— يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو جهل فى حنق وحسد :

— ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا(١) على الرّكب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

كانوا يتلهفون على سماع القرآن وكانوا ينسلون إلى دار النبى — ﷺ — وقد أرهفوا أسماعهم حتى لا يفوتهم شىء مما يقرأ ، حتى إذا ما خرج رسول الله — عليه السلام — إلى الكعبة وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به :

---

(١) تجاذبنا : أقصينا ، والمشهور تحاذينا على الركب ، وهو تصحيف .

— قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه لا نفقه ما تقول ، وفى آذاننا وقر ولا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك ، فاعمل بما أنت عليه إننا عاملون بما نحن عليه إنا لا نفقه عنك شيئا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا * قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾[1] .

---

(١) الإسراء ٤٥ : ٥١

٢٨

كان العاص بن وائل يتأهب للانطلاق إلى القافلة الخارجة إلى الشام ، وكان لخباب بن الأرت دين عليه فأتاه يتقاضاه . فقال له العاص :

ــ لا والله حتى تكفر بمحمد .

فقال خباب فى قوة :

ــ لا أكفر حتى تموت وتبعث .

فقال العاص فى سخرية :

ــ وإنى لمبعوث بعد الموت ؟ فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مالى .

وكأنما استمرأ العاص الهزء بخباب فقال :

ــ أوَلستم تزعمون أنَ فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟

ــ بلى .

ــ فأخرنى حتى أقضيك فى الجنة ، فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأفضل فيها نصيبا منك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكسب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا * واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا * ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا *

لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[1] .

وخرج العاص بن وائل إلى الطريق لينطلق إلى السوق حيث ترك جاريته للبغاء لتعود إليه بأموال طلاب الشهوة ، وفيما هو يدرج فى زهوه إلى الحرم رأى عبد الرحمن بن عوف وصديقه أمية بن خلف يوسع فى خطوه ليلحق به وهو ينادى :

ــ يا عبد عمرو ... يا عبد عمرو .

وصك صوت أمية أذنى عبد الرحمن فلم يحفل له . فأسرع أمية خلفه فلما لحق به قال له :

ــ أفسدك محمد علينا فتركت دين آبائك ودخلت فيما يدعو إليه ، وأدعوك بعبد عمرو فلا تجيب ، أرغبت عن اسم سماكه أبوك ؟

فقال عبد الرحمن فى هدوء :

ــ أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

ــ إنى لا أعرف الرحمن فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف .

ــ يا أبا على ! اجعل بينى وبينك ما شئت .

ــ فأنت عبد الإلـٰه .

ــ نعم .

وساروا إلى حيث أناخت القافلة ، وكان بنو هاشم فى وداع أبى لهب وابنه معتب ورجال آل عبد المطلب . وكان محمد ــ ﷺ ــ هناك ولم يكن قد أتى لوداع عمه ، فإن المطلبيين جميعا قد استجابوا لدعوة عمه أبى

---

(١) مريم ٧٧ : ٨٧

طالب ونهضوا لحمايته إلا أبا لهب فقد انضم إلى بنى أمية فى عداوتهم بفضل زوجه أم جميل ، بل جاء ليودع عقبة بن أبى معيط ، فعقبة صار يختلف إليه كثيرا بحكم صلة القرابة التى بينهما ، وقد ألقى إليه السمع وفتن بالقرآن وإن رسول الله — ﷺ — بات يطمع فى إسلام عقبة والتفريق بينه وبين حليفه أبى بن خلف ، فيحطم حلقة من حلقات العداوة التى تقف فى وجه انتشار دعوة الإسلام والسلام .

وانفصلت القافلة وانطلقت لتغيب فى الأفق البعيد ، وقد ضمت لأول مرة فى تاريخ قريش قلوبا عامرة باليقين وقلوبا يتجاذبها اليقين والشك وقلوبا أبت أن تفتح نوافذها للنور . وعلى الرغم من ذلك التنافر فقد كانت مشغولة برسول الله — ﷺ — تنبض بحبه أو تخفق ببغضه بعد أن كانت تنشرح للقائه وعذب حديثه وحكمته قبل أن يأتى بما سفه به معتقدات الآباء وسخر به بما وقر فى العقول .

ونزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير فقال لهم :

— هذه الأرض مسبعة .

فأجمعوا متاعهم إلى صومعة الراهب ثم فرشوا لمبيتهم ، ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وسقط الليل وجاء أسد يتشمم فلما دنا من المعسكر وأحست الجمال به رغت . فاستيقظ معتب فلما رأى الأسد كاد يموت من الرعب لما تذكر دعوة محمد — عليه السلام — يوم أن بصق فى وجهه : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . وأراد أن ينهض ليفر من وجه الأسد فإذا بالأسد يثب عليه ويضربه ضربة بذنبه ، فيشق سكون الليل صرخة معتب المفزوعة . فيهب رجال القافلة من نومهم ويدب الذعر بينهم ، فيستشعر الأسد بالخطر فينبسل بعيدا .

والتف الرجال حول معتب فإذا به يجود بأنفاسه بين يدى أبيه وقد لاح فى وجه أبى لهب الرعب والأسى ، إنها دعوة ابن أخيه . ومات معتب ففرح بموته من كان هواه مع أبى القاسم وشق ذلك على الكافرين .

وانطلقت القافلة إلى الشام ولا حديث للرجال إلا عن محمد — ﷺ — . بينما كانت الأحداث تجرى فى مكة على غير هوى الكافرين ، فآيات الله تنزل على قلب الأمين والناس يهمسون بها فتنشرح لها قلوب فيهرع من شرح الله فؤاده للإسلام للقاء رسول الله — ﷺ — خفية من قومه لينطق بالشهادتين وهو سعيد .

وكان الوحى ينزل بردود مفحمة على ما يثيره الكافرون من جدل ، وكان يروى أحداثهم التى كانت تقع بعيدا عن عينى محمد — ﷺ — فيثير دهشتهم ، ويقص ما يجرى فى نجواهم فينظر بعضهم إلى بعض كأنما كل منهم يتهم صاحبه بأنه يحمل إلى رسول الله — ﷺ — سرهم ، فقد أبوا أن يؤمنوا بأن الله يوحى إلى أحد من خلقه .

كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين . فهو وإن كان بخيلا إلا أنه كان يخشى أن يفضل بنو هاشم بنى أمية بالإنفاق . فأتاه ذات يوم يتيم فسأله شيئا من لحم الجزور فغلبه طبعه فلم يعطه عن سماحة نفس بل قرعه بعصا . فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين ﴾[1] .

وراح الوليد بن المغيرة يغشى النبى — ﷺ — وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه يسلم ، فجاءه أبو جهل وقال له :

---

(١) الماعون ١ : ٣

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمدا وابن أبى قحافة تصيب من طعامهما .

فغضب الوليد فأقبل على قريش يؤنبهم ، وفى ثورة غضبه نطق بالحق قال :

— إنهم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإنكم تزعمون أن محمدا مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟

— لا . .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا . فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

فقال له أبو جهل :

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فأطرق الوليد قليلا ثم قال :

— فدعنى حتى أفكر فيه .

ولم يجد الوليد جديدا يقوله فقال :

— هذا سحر يؤثر .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا * إنه فكر وقدّر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا

إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر ﴾(١) .

وكان النضر بن الحارث يستشعر الغيرة تنهش فؤاده إذا ما ذكر القرآن بخير ، فكان يقول :

ــ قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين .

وكانت عداوته للرسول ــ ﷺ ــ تبلغ مداها لما يجد الناس يدخلون فى دين الله ، فكان يقول فى سخرية لينفر الناس عن الحق :

ــ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

فأنزل الله فيه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبرا جميلا * إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريبا ﴾(٢) .

كانت سخرية النضر بن الحارث تستهوى الكافرين ولكنها سرعان ما تذهب أدراج الرياح . إنه قال عما نزل فى عاد وثمود من آيات إنها أساطير الأولين . وحدث عن رستم واسفنديار ولكن ما إن خلا الناس إلى أنفسهم حتى راحوا يتلون بين الدهش والإعجاب : ﴿ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾(٣) .

وصار محمد ــ ﷺ ــ ورب ابن عبد الله وما نزل عليه من قرآن

---

(١) المدثر ١١ : ٢٥ (٢) المعارج ١ : ٧ (٣) الحاقة ١ : ٨

حديث الدور فى مكة ، حتى إن رجلين من قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا فى بيت فقال بعضهم :

— أترون الله يسمع نجوانا ؟

فقال بعضهم :

— قد سمع بعضه ولم يسمع بعضه .

— لئن كان يسمع بعضه لقد سمع كله .

وخرجوا إلى الحرم فإذا برسول الله — ﷺ — يتلو : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾(١) .

فراح الرجلان من قريش وختنهما يتبادلون النظرات وهم يعجبون ، فقد نزل القرآن يرد على ما كان يدور بينهم من حديث وما كان الأمين فيهم وما سمع نجواهم ، وفيما هم فى قمة انفعالهم وبينما أفئدتهم تخفق بالرهبة تكاد أن تنفتح قلوبهم للنور ، إذا بأصوات ترتفع فى الحرم :

— الصابىء .

— الكاهن . لا تصغوا إليه إنه مجنون .

— بل ساحر .

---

(١) فصلت ١٩ : ٢٣

— هذا سحر مبين .

ودنا أبو جهل والنضر بن الحارث من الرسول — ﷺ — وقالا له فى انتصار :

— إنك لتشقى بترك ديننا .

فانصرف النبى — ﷺ — وهو حزين ، فإذا بجبريل الأمين يأتيه بما يطمئن فؤاده : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشىٰ * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إلٰه إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾(١) .

وكان النبى — ﷺ — يلوذ بأبى طالب بين وقت وآخر . فأبو طالب قد عادى قريشا كلها فى سبيل حمايته . فإن كان صناديد الكفار يحجمون عن قتله فما ذلك إلا خوفا من أن يجمع أبو طالب رجال بنى هاشم وينهض للثأر لابن أخيه ؛ وقد هم ذات يوم بأن يشنها حربا شعواء على بنى أمية وبنى مخزوم وبطون قريش الأخرى لما ظن أنهم قد غدروا بالأمين . ولم يضع السلاح إلا بعد أن رأى أبا القاسم واطمأن إلى سلامته .

كان رسول الله — ﷺ — يحاور عمه وكان يطمع فى إسلامه فهو يحبه ويحب هدايته ، وبينا كانت المناقشة بينهما تدور ، تذكر أبو طالب أن محمدا — عليه السلام — قد شغل بالحديث عن الطعام ، فقام وأتى النبى

---

(١) طه ١ : ٨

عليه الصلاة والسلام بخبز ولبن ثم جلس ، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلأ الأفق بنار . ففزع أبو طالب وقال :

ـــ أى شىء هذا ؟

فقال له النبى ـــ ﷺ ـــ :

ـــ هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله .

فعجب أبو طالب وسكن روعه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب * إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعة لقادر * يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر ﴾[1] .

وعجب أبو طالب وراح يسأل نفسه : من أين أوتى ابن أخيه هذه الحكمة ؟ إنه شب فى داره وما كان يروى فى الدار غير شعره وشعر أخيه الزبير بن عبد المطلب وشعر شعراء قريش . وقد فرح بنو هاشم لما ظهر فيهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقد وجد الشاعر الذى يدافع عنهم وينزل الرعب فى قلوب القبائل من حدة لسانه ، أما أن يُكلم إنسان من السماء فما خطر ذلك لهم على قلب . وإن أبا طالب وإن كان يحس راحة لدعوة ابن أخيه إلا أن فكرة أن الله أكبر من أن يخاطب بشرا كانت مستحوذة عليه ووقرت فى عين ضميره .

كان راضيا عن جوهر دعوة محمد ـــ عليه السلام ـــ وما فيها من دعوة إلى مكارم الأخلاق ، وكان إعجابه بابن أخيه لا يحد إلا أنه كان

---

(١) الطارق ١ : ١٠

مخلصا مع نفسه ومع تنزيهه لله عن أن يتصل بالبشر أو يوحى إليهم . وكان كلما جلس إلى ابنه على يزداد حيرة فمن أين لعلى كل ذلك الفهم ومن أين له التفقه فى الدين وهو فى مثل سنه وحداثته ؟ ولو سمع قول رسول الله — ﷺ — لعلى بن أبى طالب : « إن الله أمرنى أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وتعى ، وحق على الله أن تعى » وآمن بما قاله ابن أخيه لزال عجبه ، ولوجد راحة نفسية للقلق الموار بين جنبيه .

ورجعت قافلة قريش من الشام وخف الناس لاستقبال العائدين ، فإذا بأبى لهب باسر الوجه قد نكأت العودة جرح قلبه فهو يعود بعد أن غيب معتبا التراب . وراح أبو طالب والعباس وحمزة وسادات بنى هاشم يرحبون بأبى لهب وهو حزين فى عينيه دموع ، وما كانت دموع الفرح باللقاء بل دموع الواله الحزين على فلذة الكبد وهوى الفؤاد . وفطن الرجال إلى أسى الرجل الذى عرف بينهم بقسوة القلب فلما سألوه عما به وعرفوا أن أسدا قضى على معتب لاح فى وجوههم الحزن ، وتذكر أبو طالب دعوة ابن أخيه أبى القاسم على معتب لما بصق فى وجهه فرنت فى أذنيه كأنما كانت قضاء رهيبا : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . فتقاصرت نفسه ولفه خوف وهو يسأل نفسه : ترى أجاء قتل الأسد لابن أخيه معتب مصادفة أم أن الله رب محمد استجاب لدعوته ؟!

وكان عقبة بن أبى معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه ، فلما قدم من سفره هذا صنع طعاما فدعا الناس ودعا رسول الله — ﷺ — إلى طعامه ، فلما قرب الطعام قال رسول الله — ﷺ — :

— ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأنى رسول الله .

فقال عقبة :

ـــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فأكل رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد انشرح صدره لإسلام من لج فى عداوته ومن كان من أقسى المستهزئين بالدين القويم .

كان أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط متحالفين وكان أبى غائبا ، فلما أخبر بما كان بين عقبة ومحمد ـــ عليه السلام ـــ كاد يطيش لبه ، ففى إيمان عقبة تقويض لركن ركين فى عداوة ابن أبى كبشه الذى جاء بدعوى تجتث سلطانهم من مكة بل من كل أرض العرب . فخرج وشرر الغضب يتطاير من عينيه حتى إذا ما دخل على عقبة قال له :

ـــ صبأت يا عقبة . وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمدا .

وخشى عقبة غضب أبىّ أكثر من خشيته من غضب الله ، فقال معتذرا :

ـــ والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت فطعم .

ولم يقنع ذلك القول أبىَّ بن خلف فقال :

ـــ ما أنا بالذى رضى منك أبدا إلا أن تأتيه فتبزق فى وجهه وتطأ عنقه .

وخرج عقبة إلى المسجد فوجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ ساجدا ، فداس على عنقه حتى كادت عيناه ـــ ﷺ ـــ أن تخرجا من محجريهما ، فقام ـــ عليه السلام ـــ وهو يلتقط أنفاسه فى جهد فبزق فى وجهه ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف .

وضج الكافرون بالضحك فما كان لمحمد ـــ عليه السلام ـــ أنصار يمنعونه ، وما كانت لهم بصائر يرون بها نصر الله الذى وعد به رسوله ،

ولم ينزل الوحى ينهاه عن وعده بقتل عقبة إن لقيه خارجا من مكة بل نزل الروح الأمين بالوعيد : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا * وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا * وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] .

---

(١) الفرقان ٢٧ : ٣٣

٢٩

علم أبو جهل أن أبا سلمة المخزومي قد دخل فى دين محمد — ﷺ — فاستبد به الغضب ، فما كان يحسب أن الفتنة تدخل دور بني مخزوم . إنه يجاهد ليكتم صوت الحق حتي لا يذهب الشرف كله لبنى قُصى فإذا بأبى سلمة يسلم ويقر بنبوة محمد بن عبد الله .

وتذكر أبو جهل ذلك الحديث الذى دار بينه وبين الأخنس بن شريق ، قال له الأخنس :

— يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيرى .

— والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟

وتذكر ما أنزل الله فيه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1] . فلم يلن قلبه ويستجيب للحق بل زاد طغيانا وعزم على أن يعذب أبا سلمة حتى يفتنه عن دينه .

كان أبو سلمة يعلم أن أخا أبى جهل عياش بن أبى ربيعة قد أسلم ،

---

(١) الأنعام ٣٣

وكان يعلم أن أبا جهل يطلبه لينزل به عذابه فلم يقل له : اذهب إلى أخيك قبل أن تأتى إلىّ . بل انطلق إلى خاله أبى طالب ليكون فى جواره فهو ابن برة بنت عبد المطلب ، فكان على أخواله أن يحموه من غضب بنى مخزوم .

وجاء أبو جهل على رأس قوم من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له :

— لقد منعت منا ابن أخيك محمدا فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال أبو طالب فى ثقة :

— إنه استجار بى وهو ابن أختى ، فإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

وكان أبو لهب حاضرا فقال مغضبا :

— يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيء ؟ ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه . والله لتنتهن عنه أو لتقومُنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

وخشى أبو جهل أن ينسلخ أبو لهب عنهم أو تأخذه العصبية فينضم إلى ابن أخيه ، فتشتد دعوة محمد — ﷺ — وتقوى فقال :

— بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

وانصرفوا وسار أبو جهل وهو يستشعر قهرا ، حتى إذا ما بلغ الصفا مرَّ برسول الله — ﷺ — فتحرك غضبه فراح يسب من سفه أحلامهم وفرق جماعتهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن جدعان تسمع وتنظر .

وانصرف أبو جهل إلى نادى قريش وانصرف رسول الله — ﷺ — دون أن ينبس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى إذا

ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها إلى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود إلى أهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبي جهل ومحمد بن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

— يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ! وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو حانق ، وما كاد يقطع فى الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

— إن أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا .

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ثم قال :

— أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك إن استطعت .

فقال أبو جهل فى تضرع :

— سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة إلى القوم وقال فى حدة :

— ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :

ــ ما نراك إلا قد صبأت .

ــ وما يمنعنى وقد استبان لى منه . أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذى يقول حق . والله لا أنزع فامنعونى إن كنتم صادقين .

فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله لقد أسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا .

ورجع حمزة إلى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين أبى جهل : إنه ثار لابن أخيه وأعلن إسلامه فى نوبة من نوبات غضبه فراح الشيطان يوسوس له : « أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » .

واستشعر الرجل الشجاع الذى لا يخشى الردى خوفا يلفه وحيرة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينيه إنه فى قلقه وأرقه . وفى جوف الليل راح يبتهل إلى الله فى حرارة :

ــ اللهم إن كان راشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا .

وراح حمزة يغدو ويروح فى الغرفة يحاول أن يستفتى قلبه مرة ، ويصيخ سمعه إلى همزات الشيطان مرة ، ويبتهل إلى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقى فى عين بصيرته نورا يرى به جوهر الحقيقة . إنه أقر على الملأ بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه ، وقد كان إعلانا حركته عصبية لأبى القاسم أخيه فى الرضاعة وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، إلا أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجمه فى قسوة ، وراح ينقب عن كبد الحقيقة ، فما كان يحب أن يخدع نفسه أو أن يكون منافقا فى عين ذاته . إنه يبغى الحق ولا شىء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها راح فيها يستعرض حياة ابن أخيه فلم يجد فيها مثلبا ، فهو الأمين الذى لم يجرب عليه الكذب قط ، إنه لم يكذب على الناس ، أوّ يكذب على ربه ؟ إنه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه ، قد أوتى الحكمة لا ينطوى إلا على الإخلاص ، قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب للحق . إنها صفات لا تجتمع إلا فى إنسان يعد لرسالة كبيرة ، وإن ابن عبد الله كفء لحمل أعظم رسالة .

وما يكاد يقنع نفسه بصدق ابن أخيه حتى تهب الوساوس لتقتلع بذور اليقين التى تحاول أن تستقر فى أغوار ذاته وتهجس فى نفسه ، إنه يحاول أن يجد تبريرا لتسرعه فى إعلان إسلامه استجابة لغضبه الذى انبعث لما حاق بابن أخيه من مهانة ، حتى إذا ما أسفر الليل عن وجه الصباح غدا إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا بن أخى إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ، أرشد هو أو غى شديد .

وقص على ابن أخيه قصته فراح محمد — ﷺ — يذكره ويعظه ويخوفه ويبشره ويتلو عليه القرآن ، وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن أسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق فى عين ذاته وأن حديث ابن أخيه يرتفع به عن عالمه المحدود إلى عوالم من الرفعة والسمو والنور . وألقى الله فى قلبه الإيمان فقال فى فرح وانفعال :

— أشهد إنك لصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك .

وسر رسول الله — ﷺ — بإسلام أعز فتى فى قريش سرورا كبيرا ، فقد أعز الله الإسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد

الذى تحمله سنين طويلة قد أثمرت خير ثمرة ، فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون .

وأنزل الله تعالى فيما كان من حمزة وأبى جهل : ﴿ أَوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك نبين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾(١) .

---

(١) الأنعام ١٢٢ : ١٢٦

٣٠

كان الحنق يملأ نفوس سادات قريش ، فإسلام حمزة شد أزر دعوة محمد — عليه السلام — ، فما كان حمزة يخشى أبا جهل ولا أبا سفيان ولا أبا لهب ولا الوليد بن المغيرة ولا ابنى خلف ولا العاص بن وائل ولا النضر بن الحارث ولا عقبة بن أبى معيط ولا عتبة بن ربيعة ولا أخاه شيبة ولا أحدا من أهل العداوة والمبادأة لابن أخيه الذين يطلبون الجدل والخصومة . فسيف حمزة أسرع من لسانه ، وما كان أحد من هؤلاء بزاهد فى الدنيا حتى يثير غضب أبى عمارة .

وعز رسول الله — ﷺ — بأن دخل حمزة فى دين الله ، فكف كفار مكة عن بعض ما كانوا ينالون منه ، فلم يعد الرجال يقفون عن يمينه وعن يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن ، ولم يعد أحد يجرؤ على وضع ثوبه على عنقه وخنقه به خنقا شديدا . وكف جيرانه أبو لهب والحكم بن أبى العاص بن أمية وعقبة بن أبى معيط عن طرح الأذى عليه ، ولم يعد أبو جهل يفكر فى صب التراب على رأسه ، فأغلق بإسلام حمزة باب اضطهاد محمد — عليه السلام — الذى ظل مفتوحا على مصراعيه سنوات ، وفتحت أبواب الجدل وطلب المعجزات .

وفى ذات يوم خرج بلال من دور بنى جمح فى البكرة وانطلق إلى الحرم ، فوجد خلوة من الناس فصار يبصق على الأصنام التى وضعت فى جوف الكعبة ومن حولها وراح يقول :

ــ خاب وخسر من عبدكن .

ورآه رجل من قريش فانطلق إلى أمية بن خلف فقال له :

ــ أصبوت ؟

فقال أمية فى غضب :

ــ ومثلى يقال له هذا ؟!.

ــ إن أسودك بصق على الآلهة .

واقشعر بدن أمية وخشي غضب الآلهة فقال لقريش :

ــ خذوا مائة من الإبل وانحروها للآلهة .

ثم انطلق أمية إلى حيث كان بلال وراح يصب عليه جام غضبه وبلال ثابت لا يتزعزع ، يأمره أن يكفر بمحمد وإلٰه محمد وأن يعود لعبادة آلهة قريش وبلال يهزأ بقلبه وبلسانه من الأصنام التى لا تنفع ولا تضر . ودب اليأس فى قلب أمية وزاد فى حنقه عناد عبده الأسود فألبسه أسمالا بالية ووضع فى عنقه حبلا من مسد ثم نادى صبيان القبيلة ودفع به إليهم ، فخرجوا به يتصايحون ويسبون الكافر باللات والعزى وبلال يردد شعاره :

ــ أحد .. أحد .

وراح بنو جمح يعذبون حمامة أم بلال ، فقد كفرت مع ابنها بدين قريش ودخلت فى الإسلام ويسألونها أن تذكر محمدا ــ عليه السلام ــ بسوء وأن تعود إلى عبادة اللات والعزى ، فكانت تحتمل العذاب فى صبر ولا يتحرك لسانها إلا بحمد الله على أن أخرجها من الظلمات إلى النور .

واكتشف أمية بن خلف أن ابنه عليا قد فتن عن دين آبائه فأنزل به سوط عذاب ، فلم يحتمل على بن أمية الآلام المبرحة التى نزلت به فأعطى معذبيه ما يحبون وفتن عن دينه ورجع إلى الشرك والضلال .

وقامت كل قبيلة تعذب من اعتنقوا الإسلام من أبنائهم ومواليهم ليرتدوا إلى دين قريش قبل أن يستفحل الأمر وتنتشر دعوة محمد — عليه السلام — فى القوم فيتزعزع سلطان السادة ويضيع مجد قريش ، فخرج بنو مخزوم بأبنائهم ومواليهم المسلمين وراحوا يعذبونهم على أعين الناس تخويفا لمن تسول له نفسه هجر دين الآباء والدخول فيما يدعو إليه محمد ابن عبد الله ، فكانوا يضربون بالسياط أبا قيس بن الوليد بن المغيرة وعمارا وأمه سمية وأباه ياسرا ضربا تتمزق منه الجلود فتسيل الدماء تروى الرمال .

وراح عمر بن الخطاب يعذب جارية أسلمت يضربها حتى مل ، ثم قال لها :

— إنى أعتذر إليك فإنى لم أتركك حتى مليت .

فقالت له وهى تتلوى من الألم :

— كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم .

ولم يكن عمر يدرى أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت ، ولم يخطر له على بال أن زوج أخته سعيد بن زيد قد دخل فى دين الله . ولو عرف عمر أن الفتنة قد دخلت دور أهله لانطلق حانقا لينزل بالصابئين ألوان العذاب .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار وكان حدادا يعمل طوال النهار ليعود لمولاته بثمرة عرقه ، فلما قامت القبائل على من فتن فيها بالإسلام صارت أم أنمار تأخذ الحديدة وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه وتسأله أن يسب محمدا عليه السلام وأن يكفر بدينه ، ولكنه كان يحتمل النار فى صبر عجيب ولا تتحرك شفتاه إلا بذكر الله .

وضاقت أم أنمار بذلك العناد فدعت رجالا من أهلها ليعاونوها على

تعذيب ذلك العبد الآبق لعله يعود عن غيه . فأوقدوا نارا ووضعوها على ظهره فارتفع أنين خباب ، وراح الرجال يقولون له :

ــ سب محمد وإلـه محمد .

فلم تتحرك شفتاه إلا بالخير ، واستمرت النار تسرى فيه لا يطفئها إلا دهن ظهره .

ومر رسول الله ــ ﷺ ــ على عمار وأمه سمية وأبيه ياسر وبنو مخزوم يعذبونهم بالنار ، فقال :

ــ صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وضاق أبو جهل بثبات سمية فقال لها :

ــ ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله .

ثم طعنها فى قلبها فماتت فكانت أول شهيدة فى الإسلام ، ولم يحتمل ياسر عذاب النار ففاضت روحه والنبى ــ ﷺ ــ يدعو ربه :

ــ اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار .

وراح صفوان بن أمية يعذب مولاه أبا فكيهة فيخرجه نصف النهار فى شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء فيضع على بطنه صخرة حتى يخرج لسانه ، ورجال من قرابة صفوان يقولون له :

ــ زده عذابا حتى يأتى محمد فيخلصه بسحره .

ومرت الأيام والعذاب يترادف على المؤمنين فمنهم من صبر ومنهم من قضى نحبه ومنهم من لم يحتمل العذاب فارتد عن دينه ، فرجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه ابن الحجاج ، فشجع ذلك الكفار على أن يغالوا فى تعذيب المؤمنين لعلهم يرجعون إلى دين الآباء فتموت دعوة الإسلام فى مهدها قبل أن يشتد

عودها وتسمع بها القبائل التى تفد إلى الحرم فى الموسم .

وأتى خباب رسول الله — ﷺ — وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ولقد لقى المسلمون من المشركين شدة شديدة ، فقال :

— يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟!

فقعد — ﷺ — محمرا وجهه فقال :

— إنه كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه . وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

وأطرق خباب وقد تقاصرت نفسه ، ولم يطل إطراقه فقد مس أذنيه صوت الرسول — ﷺ — وهو يدعو له كأنه صوت رحيم آت من السماء :

— اللهم انصر خبابا .

وراح أبو جهل ينفس عن حقده لمحمد — عليه السلام — بتعذيب كل من آمنوا بما جاء به ، لم يدع رجلا ولا امرأة إلا صب عليه سوط عذاب ، إنه رأى أناسا يعذبون امرأة كانت جارية من جواريهم وقد فتنت بالدين الجديد فذهب ليشترك فى صب جام غضبه عليها ، فألفاها قد عذبت حتى عميت فلم يرق لها قلبه ، بل راح يضربها ويقول لها :

— إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين .

فقالت له فى إيمان :

— كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا ، هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد على بصرى .

فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها فقالت قريش :

ـــ إن هذا من سحر محمد

وجيء ببلال مقيدا وكان اليوم قائظا وقد ألبسوه درعا من حديد وأضجعوه على الرمال وتركوه للشمس وانصرفوا ، فأحس كأنه فى أتون نار ولكنه ظل صابرا ولم يعرف الجزع طريقه إلى فؤاده ، وجاء أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون يتفصد العرق منهم من شدة الحر ، وقالوا لبلال :

ـــ سب محمدا .

فقال بلال يردد نشيده :

ـــ أحد .. أحد .

أيسوا من أن يسب العبد الحبشى محمدا أو يذكره بسوء ، فلا أقل من أن يذكر آلهتهم بخير ليطلقوه فقد لاحت الهزيمة لأعينهم بشعة إذا ما استمر بلال على عناده ، فقالوا له :

ـــ اذكر اللات والعزى .

ـــ أحد .. أحد ..

ـــ قل كما نقول .

فيقول بلال فى سخرية .

ـــ إن لسانى لا يحسنه .

فرفسه أبو جهل رفسة شديدة وهو يقول :

ـــ أما زلت على غيك يا ابن السوداء .

وتمادوا فى تعذيبه وبلال ينشد نشيده :

ـــ أحد .. أحد . إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية

القتل ، فيارب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

ذاق بلال حلاوة الطاعة وتعلقت همته بالله وعرف مراقبة أنفاسه وأحب الله من كل قلبه فصبر على الشدة ، فمن ذاق شيئا من خالص محبة الله ألهاه ذلك عمن سواه . إنه أصبح يحتقر جلاديه ، هانوا فى عينيه ، وبات يستشعر عزة تملأ جوانحه فكان الاضطهاد يشعل نار اليقين فى قلبه ويدنيه من ربه ويجعله يحس وهو مكبل بالقيود أنه أكثر حرية من الذين يتوسلون إليه أن يذكر آلهتهم بخير ليحفظوا كرامتهم المزعومة وكبرياءهم الجوفاء .

واشتد البلاء بأصحاب رسول الله — ﷺ — فرأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه فاستبشروا ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين .

ومرت الأيام وإيذاء قريش للمسلمين يزداد والأمر بالهجرة لا ينزل من السماء ، فجاءوا إلى رسول — ﷺ — وقالوا :

— يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التى رأيت ؟

فسكت رسول الله — ﷺ — ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾(١) .

---

(١) الأحقاف ٧ : ٩

فقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— إنما هو شيء رأيته فى منامى ما أتبع إلا ما يوحى إلى .

وضاق أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون بثبات بلال على دينه على الرغم من كل صنوف العذاب التى أنزلوها به ، وخشوا أن يكون عذابه وثباته فتنة للناس عوضا عن أن يكون زجرا وترهيبا فأخرجوه إلى الرمضاء ووضعوا صخرة عظيمة على صدره ، فراح بلال ينشد نشيده مستخفا بالعذاب والأهوال :

— أحد .. أحد ..

— اذكر اللات والعزى ..

— أحد .. أحد ..

— قل كما نقول .. اذكر اللات والعزى بخير .

— أحد .. أحد ..

وراحوا يرفسونه فى حنق ويضربونه فى غضب ثائر وهو يقول :

— إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية القتل ، فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

وخرج أبو بكر من عند النبى — ﷺ — فى الهجيرة وقد تشاور الصاحبان فى أمر بلال وانطلق إلى ساحة التعذيب ، وما إن رأى بلال يئن تحت الصخرة وهو يقول : أحد .. أحد . حتى أحس كأن كبده تكاد أن تتصدع وهرع إلى أمية وقال له :

— حتى متى تعذب هذا العبد ؟ ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبى قحافة ، إنه يعذب بسببك فما أفسده سواك .

وكأنما أرادوا أن يتخلصوا من عار صمود بلال على التعذيب وعدم

النطق بما يحبون ، فقال أمية :

ـ أنقذه مما ترى .

كان أمية بن خلف زاهدا فى عبده الذى وقف كالطود فى وجه سادات قريش يردد نشيده : « أحد .. أحد » مستحقرا كل شيء سوى ربه الذى ثبت فؤاده ، وقد مل أمية تعذيب بلال وما كان يرتجف إلا من أن يضطر أن يعلن على الملأ أنه هزم أمام عبده الذى استخف بأهوال العذاب فى سبيل عقيدته ، فلما عرض عليه أبو بكر أن يشترى بلال بخمس أواق ذهبا قال دون تفكير :

ـ لو أبيت إلا أوقية لبعناكه .

فقال أبو بكر فى صدق :

ـ لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته .

ورفعت الصخرة عن صدر بلال وأخذه أبو بكر وانطلقا إلى حيث كان رسول الله ـ ﷺ ـ ، وفى الطريق التفت بلال إلى أبى بكر وقال :

ـ إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت إنما اشتريتنى لله فدعنى وعمل الله .

ودخلا على النبى ـ ﷺ ـ . فلما رأى بلالا بان السرور فى وجهه فالتفت إلى أبى بكر فقال :

ـ الشركة يا أبا بكر .

ـ لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

وراحت قريش تقول :

ـ إنما أعتق أبو بكر بلالا ليد كانت له عنده فيكافئه بها .

أرادوا بذلك أن يشككوا فى فعل أبى بكر وفى أن عمله لم يكن خالصا

لوجه الله ، ولم يلتفت أبو بكر إلى افتراءات الكافرين بل استمر يشترى جماعة آخرين ممن كان يعذب فى الله ، فاشترى حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة وأبا فكيهة والنهدية وابنتها وكانتا للوليد بن المغيرة وكان يعذبهما عذابا شديدا .

ورأى أبو قحافة ما يفعل ابنه فهرع إليه يقول :

— يا بنى ! أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذا فعلت أعتقت رجالا جلدة يمنعونك ويقومون دونك .

فقال أبو بكر لأبيه الذى لم يشرق اليقين فى قلبه بعد :

— يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .

— يا بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك .

— ما منع ظهرى أريد .

فأنزل الله تعالى قرآنا يرد به على افتراء الكافرين على أبى بكر وزعمهم أنه ما أعتق أبو بكر بلالا إلا ليد له عنده ، وليقارن بين فعل أبى بكر وفعل أمية بن خلف : ﴿ والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسينسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم نارا تلظّى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[١] .

---

(١) سورة الليل .

التــذييل

عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

« أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصالحة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح » .

وإنما ابتدئ رسول الله — ﷺ — بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالرسالة فلا تتحملها القوى البشرية ، فكانت الرؤيا تأنيسا له — ﷺ — ، فأول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل عليهم الوحى فى اليقظة . وقد نزل القرآن كله فى اليقظة تأكيدا لما يقال أو يراد .

وقال بعض الرواة إن بعض السور نزلت والرسول — ﷺ — نائم ، وقد استندوا فى ذلك إلى ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس قال : بينا رسول الله — ﷺ — بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفا سورة . فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾[١] . والحقيقة أن الحالة التى اعترته عند نزول الكوثر لم تكن إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه — ﷺ — عند

---

(١) الكوثر

الوحى ، فقد كان يؤخذ عن الدنيا .

كانت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحى ، وقد أقام رسول الله — ﷺ — بمكة حين بعث ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ، فمدة الوحى إليه فى اليقظة ثلاث وعشرون سنة . وقد قيل : حصل ابتداء الرؤيا فى شهر ربيع الأول وهو مولده — عليه السلام — ثم أوحى إليه فى اليقظة فى رمضان فى أثناء تحنثه فى غار حراء .

وقيل إنه — ﷺ — مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا ، وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك ، وأن المدة التى بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التى هى اثنتان وعشرون سنة ، وعلى الرغم من ذلك الإعداد الطويل فإنه فر فى الأرض مرعوبا لما خاطبه الملك ، لأن رؤيا ملك من الملائكة وسماع صوت من غير أصوات البشر شىء فوق طاقة الإنسان . وقد كان صادقا لما قال لخديجة : لقد أشفقت على نفسى .

وقيل : إن رسول الله — ﷺ — خرج فى شهر رمضان الذى أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته — عليه السلام — إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، ولكنى لم آخذ بهذا الرأى لأنه لو كان قد خرج ومعه خديجة — رضى الله تعالى عنها — لفزع إليها لما فاجأه الملك ، ولما فر هاربا إلى وسط الجبل . ولو كان معه فاطمة وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأم أيمن للاذ بهم من خوفه ولورد ذلك فى أحاديثهم ، وإنه لشرف عظيم يروى أن يكون أحدهم فى صحبة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ليلة أن أنزل عليه

الوحى .

وقيل إن ابتداء الوحى كان فى شهر رمضان : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾(١) ولكن بعض المفسرين قال بأن المراد بنزول القرآن فى رمضان نزوله جملة واحدة فى ليلة القدر إلى بيت العزة فى سماء الدنيا .

وقال بعض المفسرين والإخباريين إن ابتداء الوحى كان فى السابع عشر من رمضان ، مستشهدين بقول الله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾(٢) . وكان التقاء الجمعين : المسلمين والمشركين فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقال آخرون إن ابتداء نزول القرآن كان فى سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان ، مؤيدين قولهم بأن « هى » التى جاءت فى سورة القدر : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾(٣) . هى الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، وقد جاء ذلك لتأكيد أن ليلة القدر كانت فى السابع والعشرين من رمضان !

وقد جزم الإمام أبى حنيفة بأن أول نزول القرآن على الرسول — ﷺ — ، كان فى سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان .

وقد اتفق الرواة فى معنى الحوار الذى دار بين محمد — ﷺ — وجبريل الأمين وإن اختلفوا فى اللفظ ، وقد وجد المستشرقون فى بعض

---

(١) البقرة ١٨٥ (٢) الأنفال ٤١ (٣) سورة القدر

الروايات وهى رواية ابن إسحاق فى السيرة النبوية لابن هشام بالتحديد ، ما يحاولون أن ينكروا به عدم معرفة الرسول — ﷺ — بالقراءة والكتابة ، ولا أقول أمية الرسول ، فقد سبق فى الأجزاء السابقة أن وضحت أن صفة الأمية التى جاءت فى القرآن إنما يقصد بها النسبة إلى الأمم ، أى من لم يكونوا من بنى إسرائيل : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا ﴾(١) .. أى فى الأمم ، ﴿ النبى الأمى ﴾(٢) أى النبى الذى جاء من غير بنى إسرائيل ، أما عدم معرفة الرسول القراءة والكتابة فقد وضحها القرآن الكريم بقوله ﴿ وما كنت تخطه بيمينك ﴾(٣) .

جاء فى البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق(٤) وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى(٥) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم ﴾(٦) فرجع بها رسول الله — ﷺ — يرجف فؤاده ... » .

---

(١) الجمعة ٢ (٢) الأعراف ١٥٨ (٣) العنكبوت ٤٨

(٤) أى الأمر الحق (٥) أى ضمنى وعصرنى (٦) العلق ١ : ٣

أما رواية ابن إسحاق فتقول : ... حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته فى السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله — ﷺ — إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد منها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله — ﷺ — : فجاءنى جبريل وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى[1] به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[2] قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا .

جاء فى رواية البخارى أن الرسول — ﷺ — قال لجبريل : ما أنا بقارئ . أما فى رواية إسحاق ، فقد قال — ﷺ — فى المرة الأولى والثانية « ما أقرأ » . وفى الثالثة « ماذا أقرأ ؟ » ولو أن ما أقرأ وما أنا بقارئ تعنيان معنى واحدا « فما » فى الجملة الأولى كـ « ما » فى الجملة الثانية أداة نفى لا استفهام ، إلا أن بعض المستشرقين رأوا أنها « ما »

---

(١) الغت : حبس النفس (٢) العلق ١ : ٥

استفهامية ، وأن رواية ابن إسحاق وقد جاء فيها أن فى المرة الثالثة قال الرسول — ﷺ — : ماذا أقرأ ؟، تؤكد معنى الاستفهام ، وأغفلوا تدارك ابن إسحق ذلك بقوله على لسان محمد — ﷺ — : ما أقول ذلك إلا افتداء منه لأن يعود لى بمثل ما صنع بى .

وقال المستشرقون لو أن جبريل كان يعلم أن محمدا — ﷺ — لا يعرف القراءة لما جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب ولا قال له : اقرأ . ولما كانت رواية ابن إسحاق تؤكد أن أول ما جاء الوحى إلى محمد — ﷺ — كان وهو نائم . فقد قال بعض المفسرين إن الإنسان فى نومه يستطيع أن يفعل أشياء لا يقوم عليها فى اليقظة ، وأن القراءة فى النوم محتملة لمن لا يعرف القراءة ، ولكنى لا آخذ بهذا الرأى وسأوضح أن الحوار الذى كان بين جبريل وبين محمد — ﷺ — كان فى اليقظة وأن رواية ابن إسحاق محض خيال .

لم يأت نمط الديباج ذكر فى حديث عائشة ، ولم تقل عائشة إن الوحى نزل على الرسول — ﷺ — وهو نائم . ثم إن رواية ابن إسحاق لا يعول عليها لأنه يرويها عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير وهو من التابعين ، وليس فى الحديث صحابى واحد ممن صاحب الرسول — ﷺ — ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ليس فى مرتبة الصحيح ولا يحتج به .

ومما يؤكد أن حديث النمط والديباج والكتاب المكتوب مجرد خيال فإنه لم يثبت أن الوحى نزل يوما على محمد — ﷺ — بقرآن مكتوب —

﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[١] . ولم يفهم محمد — ﷺ — أن جبريل يريد منه أن يقرأ من صحيفة ولكنه فهم أنه يريد منه أن يتلو شيئا ، وما كان محمد — عليه السلام — بقادر أن يتلو من الكتب السابقة على القرآن فإنه كان يتلقى الحكمة من ربه مباشرة بتجلية قلبه وترصد ما يهبط عليه من خزائن الملكوت ، وعلى ذلك ترجح رواية عائشة التى يقول فيها الرسول — ﷺ — « ما أنا بقارئ » . على رواية « ماذا أقرأ » التى أثبتها ابن إسحاق فى السيرة .

والقراءة فى القرآن وفى الحديث استعملت بمعنى التلاوة ، وإن دعوة أبينا إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت وما فى سورة الإسراء يوضح هذا المعنى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. ﴾[٢] . وفى سورة الإسراء : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾[٣] . فتارة يستعمل القرآن الكريم التلاوة وتارة يستعمل القراءة ويقصد فى الحالتين التلاوة ولا شك .

واختلف المفسرون والإخباريون فيما إذا كانت النبوة والرسالة مقترنين أم أن النبوة قد بدأت بنزول ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . ثم كانت فترة الوحى مدة تتراوح بين ثلاث سنين وسنتين ونزول ﴿ يأيها المدثر ﴾ . فكانت الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بيأيها المدثر .

---

(١) الأنعام ٧ (٢) آل عمران ١٦٤ (٣) الإسراء ١٠٦

صرح بعضهم بأن الله سبحانه وتعالى نبأه بقوله ﴿ اقرأ بسم ربك ﴾ وأرسله بقوله ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾[1] وأن بينهما فترة الوحى ، وعليه أكثر الروايات . ولو أن بعضهم أكد أن أكثر الروايات على ذلك فلم آخذ بهذا الرأى ، بل أخذت بالرأى القائل بأن جبريل قال له صراحة : أنا جبريل وأنت محمد رسول الله . وإلا لما دعا خديجة وبناته إلى الإسلام ، ولما دعا على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأبا بكر وأوائل الصحابة قبل أن يؤمر بذلك .

كانت الدعوة سرا مذ قال له جبريل إنه رسول الله ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة لما نزلت : ﴿ واصدع بما تؤمر ﴾[2] .

واختلف المفسرون فى أول ما نزل من القرآن ، فقد رأى بعضهم أن البسملة أول ما نزل ، ويؤيدون ذلك بما كان بين محمد — ﷺ — وبين خديجة يوم أن كان فى الغار وسمع صوتا يناديه فانطلق إليها مرعوبا يقول : إنى إذا خلوت سمعت نداء ! فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت له خديجة : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بكَ ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . فعاد إلى الغار وثبت بعد نصيحة ورقة له ، فلما ناداه الملك : يا محمد . قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين ﴾ . حتى بلغ ﴿ ولا الضالين ﴾ .

قال بهذا القول البيهقى والواحدى والحديث الذى اعتمدا عليه مرسل ، بينا حديث صحيح البخارى يؤكد أن أول ما نزل على الرسول

---

(١) المدثر ١ : ٤ (٢) الحجر ٩٤

ـ ﷺ ـ من القرآن هو مطالع العلق ، ومطالع المدثر . ومما يثبت تأخر نزول فاتحة الكتاب أن بعض المفسرين قالوا إنها مدنية ، أى أنها تأخرت إلى ما بعد الهجرة ، وقال بعضهم إنها مكية ، وأراد بعضهم الآخر أن يوفق بين الرأيين فقال إنها مرتين مرة فى مكة ومرة فى المدينة ، وعند الأكثرين هى مكية من أوائل ما نزل من القرآن وليست أول ما نزل منه ، فهى أنسب للعبادة وصيغة المتكلم الجمع فيها تفيد أنها نزلت فى وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى قلوب جماعة تقول : نعبد ونستعين واهدنا بصيغة الجمع .

وقيل إن أول ما نزل من القرآن سورة ﴿ المدثر ﴾ استنادا إلى ما قاله جابر بن عبد الله الأنصارى لما سأله سلمة بن عبد الرحمن : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : ﴿ أيها المدثر ﴾ قال سلمة : أو « اقرأ باسم ربك ﴾ ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ . قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستنبطت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ثم نظرت فى السماء فإذا هو على الفرس فى الهواء ـ يعنى جبريل ـ فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ثم صبوا على الماء ، فأنزل الله على : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر ﴾ .

وهذا ليس بمخالف للقول بأن ﴿ اقرأ ﴾ أول ما نزل من القرآن ، وذلك أن جابرا سمع من النبى ـ ﷺ ـ القصة الأخيرة ولم يسمع أولها ، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل وليس كذلك ، ولكنها أول

ما نزل عليه بعد سورة اقرأ . والذى يدل على ذلك حديث الزهرى عن جابر قال : سمعت النبى — ﷺ — وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى فى حراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعبا ، فرجعت فقلت : زملونى .. زملونى ، فدثرونى فأنزل الله ﴿ يأيها المدثر ﴾ .

ومن هذا الحديث يتضح أن الوحى كان قد فتر بعد نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ . ثم نزل ﴿ يأيها المدثر ﴾ ، والذى يوضح ما قلنا إخبار النبى — ﷺ — أن الملك الذى جاء بحراء جالس فدل على أن هذه القصة إنما كانت بعد نزول اقرأ .

وعلى ذلك تكون مطالع العلق أول ما نزل من القرآن فى غار حراء ، وتكون المدثر أول ما نزل فى دار خديجة بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، أما الفاتحة فقد تأخر نزولها حتى ذاع الإسلام بين جماعة المسلمين الأوائل ليسألوا الله أن يهديهم الصراط المستقيم فى صلواتهم .

على أى صورة كان الوحى يأتى الرسول — ﷺ — ؟ قال — ﷺ — : إن جبريل يأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه فيكلمه ويبصره من غير حجاب . وفى رواية : كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال .

وقال — ﷺ — : إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب .

وسأل الحارث بن هشام ــ أخو أبى جهل ــ الرسول عليه السلام : كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال . وفى رواية : يأتينى أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

وكان ــ ﷺ ــ يجد ثقلا عند نزول الوحى ويتحور جبينه عرقا فى البرد كأنه الجمان ، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه .

وعن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل الوحى على رسول الله ــ ﷺ ــ ثقل ذلك ، ومرة وقع فخذه على فخذى فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله ــ ﷺ ــ .

وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم ، وربما بركت ، وجاءه أنه لما نزلت سورة المائدة عليه ــ ﷺ ــ كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

وجاء على لسان محمد ــ ﷺ ــ : ما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض منى . وعن أسماء بنت عميس : كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا نزل عليه الوحى يكاد يغشى عليه . وذكر بعض العلماء أنه ــ ﷺ ــ كان يؤخذ عن الدنيا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة : كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا نزل عليه الوحى لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضى الوحى .

وعن يزيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه : كان إذا نزل على رسول الله السور الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السور ، وإذا نزل

عليه السور اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وعن عمر رضى الله عنه : كان إذا نزل على رسول الله — ﷺ — الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل .

وعن عائشة وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما : أن النبى — ﷺ — لم ير جبريل على صورته التى خلقه الله عليها إلا مرتين : حين سأله أن يريه نفسه فقال : وددت أنى رأيتك فى صورتك ، والأخرى ليلة الإسراء .

وعلى ذلك يكون الوحى بأن يرى النبى عليه الصلاة والسلام جبريل فى صورة آدمى ، وقد جاءه فى صورة دحية الكلبى وغيره ، أو بالنفث فى الروع ، أو يأتيه أحيانا بصوت له صلصلة الجرس ، أو يراه على هيئته التى خلقه الله عليها ، وما كان الله يكلم أنبياءه إلا وحيا أو من وراء حجاب : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾[1] .

وقد وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول منذ أقدم العصور ، وقد شاعت الكهانة فى العرب وهى ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب . والأصل فيها استراق الجنى السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن ، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب بالحصى والمنجم .

والعرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهنا . وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية فيهم لانقطاع النبوة فيهم ، وعرف العرب العرافة وصاحبها

---

(١) الشورى ٥١

عراف ، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » .

وقد أطال ابن خلدون فى مقدمته عندما تكلم عن الكهانة فقال : وأما الكهانة فهى أيضا من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أن للنفس البشرية استعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاما أو حركة ، ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر . وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا فى الطبيعة البشرية فيغطى التقسيم العقلى أن هناك صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هناك صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة ، فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة : كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان . فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ويكون كالمشيع له . وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس

مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها بالمخيلة ، وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشىء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه فى تلك الحركة ، والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه عن لسانه ، فربما صدق ووافق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ؛ فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به .

وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويها على السائلين . وأصحاب هذا السجع هم المخصصون باسم الكهان لأنه أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال النبى — ﷺ — فى مثله : هذا من سجع الكهان ، فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد(١) حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق وكاذب . فقال : خلط عليك الأمر . يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى .

---

(١) رجل من اليهود عنده شىء من الكهانة والسحر .

والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصارت مختلطا بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشىء .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررنا ، وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط . ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر ، لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ، لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب . وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك

النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد . وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره وهو غير مسلَّم . فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصا كما قالوه .

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبى ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبيا ، وكذا وقع لابن الصياد ولمسيلمة وغيرهم . فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدى[1] وسواد بن قارب وكان لهما من الفتوحات الإسلامية ما شهد بحسن الإيمان .

وقال الأصفهانى فى كتاب الذريعة : « الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة ، والعرافة بالأمور الماضية » . وعرفها بعضهم بقوله : « العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التى تكون بينهما ، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا

---

(١) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن فضلة الأسدى ، كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم أسلم وحسن إسلامه .

معلولى أمر واحد ، أو أن يكون ما فى الحال علة لما فى الاستقبال ، وشرط كون الارتباط المذكور خفيا لا يطلع عليه إلا الأفراد ، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة » .

وأما الزجر فهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع . وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى فى يقظة فتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا .

قال الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية » : من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح ، أو تنذر بالشر والخيبة .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء .

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم . فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحى منها البشارة أو الإنذار ، فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم فى معابدهم ومحاريبهم مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبادة ليتقرب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه .

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائى » الملهم الذى يختاره الإلـٰه للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الأمر لأن كلام الرائى كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه واضطرابه . إذ كان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصراع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة

والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلٰهى فى الطب القديم .

وكان اليونان يسمون الرائى مانتى Manotos ، ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبي بمعناها المأثور فى الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظا فى الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا فى الأزمنة الغابرة ، فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد ما يقوله والرائى يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان فى هذه الحالة يجمدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى السلطان فى بلادهم ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع ، فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى أمانته وإيمانه ويحدث بينهما ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل و« عاموس » الرائى « أيها الرائى اذهب .. اهرب إلى أرض يهود وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا ، وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك » .

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الأمم ، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى إلا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة .. إذ وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية

غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى .

والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار .. وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس ... وهم : يثرون (شعيب) وبلعام وأيوب .. ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية A Theological Word Book of The Bible, edited by Richardson فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر وشميدت ، فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين .

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل مبعث موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول ، فخلطوا بينها وبين الجنون كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر . وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن

الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد ، فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ما تقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الإلٰهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شيء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى وإقباله بجملته على الله » .

ولعل الكتاب الغربيين الذين تناولوا حياة نبى الإسلام كانوا متأثرين بصورة النبوة فى التوراة وبوصف الأنبياء الذى جاء فى سفر صمويل « إنه يكون عند مجيئك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » . فحسبوا أن محمدا — ﷺ — مثل أنبياء بنى إسرائيل المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج . فاتهموه بالكذب والخداع ، وراحوا يؤكدون أن الوحى الذى ينزل عليه إن هو إلا مرض من الأمراض وصفه أغلبهم بأنه الصرع وقال آخرون إنه الملاريا ، كأنما الصرع والملاريا أو نحوهما من الأمراض ترفع من شأن الإنسان حتى يصير نبيا أو مشرعا ذا سلطان .

وقد انبرى ر . ف . بودلى فى كتابه (الرسول . حياة محمد)(١)

---

(١) ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار .

لدحض افتراءات الغربيين على رسول رب العالمين ـــ ﷺ ـــ ، فقال فى تقديم الكتاب عند الحديث عن سير الرسول التى كتبها الغربيون والشرقيون على السواء :

« جميع هذه السير ينقصها شىء ، إنها غير كاملة وقد أخفقت فى عرض موضوعها من كل الزوايا ، فإن محمد يظهر عادة كصورة محددة على حائط أبيض ، قد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال ، وأيا كانت الصورة فإنها منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة ، وإن الصورة لتبدو صورة باهتة ألصقت على ورق مقوى ملطخ ، وما كان محمد سهلا منبسطا فقد كانت له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شىء لا لون له فى حياته .

قرأت ما كتبه مؤلف عن محمد فكان من الجلى أنه لم يعادر نيو إنجلند أبدا حيث كان يعمل راعى كنيسة ، كانت آسيا وإفريقية أبعد عنه من الجنة والنار ، وبرغم ذلك سود ثلاثمائة صفحة استعرض خلالها حياة الرسول استعراضا وثيقا . كان أسلوبه مشرقا وكان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة ويلم باللغة العربية إلماما سطحيا ولكنه كشف عن جهل فاضح ، فما كان يدرى كيف كان محمد يعيش ولا ما جاء به .

وما كان يدعو محمدا فى كتابه إلا باسم « الدجال » دون أن يوضح لنا كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف أتاح للبشرية حضارة ما زالت حتى اليوم قائمة .

وإن جورج سيل الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر ، والذى كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة أفضل ، صدر ترجمته بالآتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس هوميروس .. وإن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فكر رجال ذلك العصر . ولكن لما فحصت عن شخصية محمد فحصا دقيقا ألفيت الصورة فظيعة معيبة حتى إنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان ، إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير عميقا حتى إنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول ما تنفس يكتنفه ريبة أو غموض .

واستمر هكذا ، وإن التعليق الوحيد على ذلك هو أن تستعير الألفاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيو إنجلند الذى ذكرناه آنفا :

« كيف استطاع مثل هذا المجرم ، مثل هذا المخاتل الكبير أن تأخذ ديانته فى الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم ؟! » .

لم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام الرسول ، بل بدأ فى صورة جدية فى الحروب الصليبية الأولى ، وازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة « محمد » أصبحت بمعنى الكفر بالله . وتطورت لفظة

« المحمدية » فى أذهان معاصرى شكسبير حتى أصبحت بمعنى أية ديانة مزيفة وعلى الأخص الديانة التى تعبد الأصنام ، وأصبحت لفظة « محمد Mammets » تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahomerie ثم كلمة Mummetry بمعنى مجوف من نفس المصدر .

وظهر محمد فى شعر القرن الثانى عشر كأمير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة ، وأنه خلق ليكون كردنالا ، فلما أخفق فى أن ينصب نفسه بابا ثأر لنفسه بأن ابتدع دينا جديدا .

وكانوا يعتقدون حتى زمن قريب أن نعش محمد معلق بين السماء والأرض ، وقال المؤرخون دون خجل إن قبر محمد فى مكة ، وقال آخرون إنه مات من السكر وإن الخنازير أكلت جسمه ، فى حين أن محمدا حرم لحم الخنزير وحرم الخمر على نفسه وعلى أتباعه ، قد رقد رقدته الأخيرة فى المدينة مذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

وقد يصادف المرء أحيانا كتابا من طراز جون سلون الذى أجهد نفسه فى دراسة دين العرب ، فقد قال ذلك الكاتب الذى عاش فى القرن السابع عشر : « إنهم يطلقون على الأوثان لفظة محمد Mammets وعلى عبادة الأوثان « المحمدية Mammetry فصارت محمد والمحمدية أسماء بغيضة ، فى حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) يحرمون الأوثان فى ديانتهم » .

كنت أحسب أن الافتراءات على محمد — ﷺ — قد خفت بعض الشيء بعد أن كتب بعض الكتاب الغربيين السيرة النبوية فى تفهم

وإنصاف ، وكنت أحسب أن الألفاظ النابية والصفات الذميمة للرجال العظام لم تعد تستعمل فى عصر العلم واحترام آراء الأغيار ، ولكننى عندما أقرأ فى كتاب الصرع للدكتور لينوكس الأمريكى :

Epilepsy By Wiliam G. Lonnox

صدمتنى عبارات نابية ما كنت أتوقع أن تصدر عن طبيب المفروض فيه أن يبحث عن الحقيقة للحقيقة فى القرن العشرين . لقد كان الدكتور لينكس أشد ضراوة فى عداوته لنبى الإسلام من راعى كنيسة نيو إنجلند الذى سخر منه بودلى ، بل وأبذأ منه عبارة ، ففى الجزء الثانى من كتابه الفصل ٢١ تحت عنوان « صرع ذوى القدرة والشهرة » راح يربط بين الصرع ومشاهير الرجال ويقرر فى إعجاب أن أرسطو كان أول من اهتدى إلى العلاقة بين الصرع والنبوغ ، وأنه قد وضع قائمة بأسماء النوابغ الذين كانوا مصابين بالصرع ، وقال الطبيب المؤلف بالحرف الواحد ... وإلى هذه القائمة أضيف قيصر وكاليجولا ومحمد البغيض The detestable Mahomets وكأنما أراد أن يؤكد ما وقر فى أذهان شانئى محمد من صلته بالأوثان فلم يكتب اسمه محمدا Mohamed كما فعل فيما بعد ، بل كتبه Mahomets لتثبيت فكرة عبادته للأوثان فى الأذهان !

وبهذا التقديم للبحث أهدر الدكتور نزاهة العلم وكرامة العلماء ، وأظهر حقدا دفينا على نبى الإسلام يبعده عن حياد الباحثين عن جوهر الحقيقة . ومن خطل الرأى أن يصف طبيب رسولا يؤمن به ملايين البشر ويحبونه بكل قلوبهم ذلك الوصف البذىء فى عام ١٩٦٠ ، ومن الأغرب

أن أطباءنا العرب الذين يتخذون هذا الكتاب مرجعا لهم لم يحركوا ساكنا ولم يبعثوا إلى الدكتور الذى استهوته فكرة فيلسوف بما يصححون به وجه الحقيقة ، لا تعصبا لنبى الإسلام بل حبا فى الحقيقة ذاتها .

التقط الدكتور لينوكس فكرة أرسطو القائلة بوجود علاقة بين الصرع والنبوغ فراح يسخر جهوده العلمية لتأكيد الفكرة ، فلم يبدأ محايدا كما يحتم العلم التجريدى بل بدأ مؤمنا بها لوى كل أبحاثه لإثباتها ، فتعلق بأوهى الأحداث وأضعف الروايات لتدعيم ما آمن به مسبقا ، فجاء بحثه مغرضا غير مبرأ عن الهوى وهذا أسوأ ما يوصم به بحث علمى ، فما بالك برأى طبيب يشخص الأمراض على مجموعة من الافتراضات والأوهام .

راح الدكتور لإثبات ما آمن به يعد الفلاسفة والمؤلفين والمعلمين والفنانين والموسيقيين والشعراء والأنبياء الذين ابتدعوا خير ما أنتجوه فى لحظة الصرع ، ولم يعتمد فى نسبة الصرع إلى العباقرة القدماء إلى أبحاث أطباء قدامى بل على ما أورده أفلاطون فى محاوراته ، كأنما كان أفلاطون يقيس بالأجهزة الحديثة ذبذبات المخ ويرسمه رسما كهربيا ، أو لكأنما قد حقن أفلاطون هؤلاء المشاهير حقنة قادرة على إحداث النوبة !

أكد البروفسور أن جميع العباقرة الذين عرفهم التاريخ مصابون بالصرع بناء على أقوال فلاسفة كأرسطو أو مؤرخين كهيرودوت قالوا فى وصف هؤلاء المشاهير إنهم أصيبو ذات يوم بصداع أو بإغماء أو بنشاط غير عادى فى معركة .

وتتراقص الآن على قلمى كلمة نابية أصف بها فعل الطبيب الكبير ولكن يمنعنى عن تسطيرها دينى الذى جاء به محمد — ﷺ — من عند الله ليغرس فى النفوس مكارم الأخلاق ، فقد علمنا رسول الله أن نجادل الناس بالتى هى أحسن ، ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾[١] .

تحدث الدكتور عن القادة الدينيين فأكد أن بولص الرسول كان مصابا بالصرع ، ثم ثنى بمحمد — ﷺ — فقال : « أما عن محمد (٥٦٩ — ٦٣٢) فيقول السير وليم مور « فى حياة محمد » إنه أصيب بإغماء مرتين : الأولى وهو فى الثانية من عمره مما دعا حاضنته إلى ترك رعايته والسهر عليه » . وقرر وودز (١٩١٣) أن محمدا كان يعانى نوبات صرع خفيفة ، وقد ظهرت الأعراض عليه وهو فى الثالثة من عمره واستمرت طوال حياته ، وتبعا لما قاله جابوسينياس Gabuscinius فقد حول محمد قلقه واضطرابه لمصلحته ، فعندما كانت زوجه فى ضيق من مرضه قال لها :

— عندما أنوء بوحى السماء أحس صداعا وترتجف بوادرى وهذا من شدة الوحى على الأنبياء ، وإنى أرجو أن أكون منهم .

فنظرت إليه على أنه مبعوث السماء ووثقت به وأيدته بكل أموالها .

ويقول وودز : وذات يوم بينما كان يتجول بالقرب من مكة وقد خطر له أن يتردى من شواهق الجبال (لانقطاع الوحى عنه) سمع صوتا ونظر

---

(١) الكهف ٥٨

فإذا بجبريل قد ملأ الفضاء يقول له : أنت رسول الله حقا ، فذهب إلى بيته ترتجف بوادره ثم انتابته النوبة ، فصبوا عليه الماء ولما أفاق رتل : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾[1] . وكان يتبع الأعراض أحيانا هبوطا فى الروح المعنوية وصفيرا فى الآذان وصلصلة أجراس أو دويا كدوى النحل عند رأسه ، وارتجافا فى شفتيه ولكن هذه الحركة كانت إرادية ثم تثبت عيناه وتصبح حركة رأسه تلقائية ، وبعد دقائق قليلة تنتهى الغيبوبة وترتجف العضلات وبذلك تنتهى الأزمة . وفى بعض الأحيان عندما تكون النوبة شديدة يسقط مغشيا عليه ويروح فى غيبوبة ويحتقن وجهه ويضطرب نفسه ، ويستمر بعض الوقت على هذا الحال » .

هذا ما أخذه الدكتور لينوكس من مور وووذز ليثبت به أن محمدا — ﷺ — كان مصابا بالصرع ككل العباقرة ومشاهير الرجال ، محاولا أن ينفى الإلهام أو النفث فى الروع أو الوحى ، وقد قصد بحالة الصرع الأولى التى انتابته وهو فى الثانية من عمره على رأى مور أو الثالثة من عمره على رأى وودز حادثة شق الصدر وعودة حليمة به إلى أمه ، وقد ناقشت بإسهاب موضوع شق الصدر فى الجزء السادس من السيرة وخلصت منها إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب رسوله دون حاجة إلى إجراء عملية جراحية ، وقد ضعفت كل الأحاديث التى روت حادثة شق صدره فى صباه أو فى شبابه أو قبل أو يوحى إليه أو قبل أن يسرى به .

---

(١) المدثر ١ : ٧

وقصد بحالة الصرع الثانية لما فتر الوحى فترة حتى حزن النبى ـــ ﷺ ـــ فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا . فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل وقال له مثل ذلك . وهذه رواية الطبرى اعتمد عليها سير وليم مور وتلقفها الدكتور لينوكس ليؤكد بها أن محمدا حاول الانتحار وهو فى نوبة من نوبات الصرع . ورواية الطبرى لا يعول عليها لأن أحد رواتها وهو النعمان بن راشد ـــ ضعيف ، ضعفه القطان والنسائى وابن معين وأدخله البخارى فى كتب الضعفاء وقال عنه إنه مضطرب الحديث روى مناكير .

ولو وضعنا هذا الحديث على مقياس العقل لرفضناه بداهة دون حاجة إلى تضعيف أحد رواته ، فما يعقل أن يهم موعود برسالة السماء ، بل من كلّمه الروح الأمين وأمره بأن يقرأ قرآن ربه أن يحاول الانتحار لا لسبب إلا أن الوحى قد فتر عنه مدة .

وقبل أن أناقش الدكتور لينوكس فى هذا الموضوع سأورد ملخصا عن مرض الصرع كتبه كل من الدكتورين الفاضلين محمد عبد القادر أحمد وسعد الدين حشمت جادو بناء على طلبى :

« الصرع حالة مرضية متكررة تتميز فسيولوجيا باضطراب فى النشاط الكيميائى الكهربائى للمخ ، مما يؤدى إلى إرسال شحنات عصبية

غير طبيعية ، وتظهر هذه الشحنات على شكل أعراض كإغماء المريض أو اضطرابات فى إحساسه أو إتيانه بحركات لا إرادية ومعاناته من اضطرابات عاطفية ونفسية قد تصل إلى حالة الهياج .

وترجع أسبابه إلى عيوب خلقية ، أو أمراض أصابت الجنين أثناء وجوده فى بطن أمه ، أو إصابات أثناء الولادة المتعسرة ، أو إصابته بأمراض معدية بعد ولادته ، أو إصابة المخ بأورام أو اضطرابات فى الدورة الدموية .

وتنقسم نوبات الصرع إلى :

١ ــ نوبات مخية موضعية وينتج عنها : نوبات حركية جسمانية ونوبات حسية ونوبات لا إرادية ونوبات عاطفية أو نفسية .

٢ ــ نوبات مخية نتيجة لإصابة الجزء العلوى لجذر المخ وينتج عنها : نوبة الصرع الخفيفة ونوبة الصرع الشديدة ونوبات نفسية حركية .

وهناك أمراض أخرى ينجم عنها الصرع وأعراضه ، منها الأورام التى تصيب المخ ، وزيادة الضغط فى السائل النخاعى بالمخ ، والالتهاب السحائى ، وبعض الأمراض الخلقية التى تصيب المخ ، والزهرى إذا أصاب المخ ، وإصابات عظام الجمجمة التى تؤثر على المخ ، وحدوث نزيف فى الأوعية الدموية للمخ ، وأمراض تصيب الأعصاب ، وحالات التسمم بالكحول والرصاص ، وبعض الحميات التى تصيب الأطفال ، وتسمم البولينا ، وحالات الاحتباس البولى ، والهبوط المفاجئ لوظائف الكبد ، ونقص وظائف بعض الغدد الصماء .

وتظهر النوبات الحركية الجسمانية على هيئة حركات معينة فى اللسان أو زاوية الفم أو إبهام القدم ، أو تبدأ فى جزء من هذه الأجزاء ثم تنتشر فى الجسم كله ، ثم تنتهى بإصابة عامة للجسم وقد تأخذ صورة شلل عام يستمر زمنا بعد انتهاء النوبة .

وقد يتصلب الجسم والأطراف أحيانا مع فقدان الشعور . أما النوبات الحسية فتصيب حاسة من الحواس الخمس مثل النظر ، فقد يشعر المريض بعدم وضوح الرؤية ، وقد تصل إلى عدم الرؤية إطلاقا . أو يشعر المريض بتخدير فى جزء من جسمه ، أو يشعر بطنين فى أذنيه ، أو إحساس بالدوار ، أو شم رائحة غير موجودة .

أما النوبات اللاإرادية فلا يتحكم فيها المريض ، وقد تصحب النوبات الحركية أو النوبات الحسية وخاصة النوبات النفسية وقد يحدث عنها التبول اللاشعورى أو اضطرابات فى المعدة .

وفى حالة النوبات النفسية يهذى المريض أو يشعر بالغربة وهو بين أهله ، وتصدر عنه تصرفات غريبة ويقول أقوالا لا يعنيها ، ويصاب بحالة نسيان لفترة معينة ، وقد تحدث هذه النوبة أيضا بعد وقوع النوبة العصبية .

نوبة الصرع الخفيفة : تتميز بمفاجأة المريض وتدوم فترة قصيرة ، ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها اللهم إلا اختلاج فى العينين ، وقد تحدث يوميا أو على فترات بين الفترة والأخرى شهور أو سنين ، وقد تختفى فى سن البلوغ .

وعند حدوثها تتحرك الأطراف أو يحدث ارتخاء فى عضلات الجسم ، ويسقط المريض على الأرض فاقد الوعى لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث .

نوبة الصرع الشديدة : وتظهر فجأة فى صورة تشنجات متجانسة ، وهذه مراحلها :

(أ) تخيلات وهمية يشعر بها المريض وحده ، وهى الإنذار بحدوث النوبة وتقع قبل حدوث التشنجات مباشرة أو مصاحبة لها ، وهى على هيئة هذيان أو شم رائحة غير موجودة أو سماع أصوات غريبة كطنين فى الأذن أو آلام فى المعدة .

(ب) ثم تحدث تشنجات وتكون مستمرة ومتجانسة لفترة ثوان ثم متقطعة ، وقد تبدأ بصراخ ثم يروح فى غيبوبة لا يشعر فى أثنائها المريض بنفسه .

(جـ) ثم تأتى فترة ما بعد التشنجات وانتهاء النوبة . فلا يعود المريض إلى حالته الطبيعية مباشرة بل يظل نائما أو فاقد الوعى مدة قد تمتد إلى ساعة من الزمن . وقد يصحبها صداع أو قىء أو آلام بالعضلات .

وقد يبدو أن المريض قد استرد وعيه إلا أنه يأتى بحركات غريبة ينساها تماما بعد أن يسترد وعيه فعلا ، بل ينكر حدوثها ولا يعرف ذلك إلا من هم حوله وقت وقوع النوبة ، وقد تنتاب المريض حالة هياج بعد فترة التشنجات ، أو يقوم بخلع ثيابه أو العبث فيما حوله أو الاعتداء على من حوله ، ولا يتذكر إطلاقا ما حدث من هذه التصرفات .

وقد يصاب المريض بشلل عام نتيجة إرهاق أعصابه ، ويستمر ذلك ٢٤ ساعة يعود بعدها إلى حالته الطبيعية .

ويتأثر وعى المريض فى النوبات النفسية الحركية ، وإن ظهرت منه حركات غريبة يظن أنها متعمدة وهى فى الواقع غير ذلك ، ويقل فيها الإحساس ويصاب المريض بحالة نسيان وتعتريه تأثرات عاطفية مثل الخوف أو الفرح أو البكاء .

هذه هى أسباب المرض وأعراضه ومقدمات النوبة ورواسب ما بعد النوبة ، ولو أن الدكتور لينوكس قد جزم بأن محمدا ـــ ﷺ ـــ كان مصابا بالصرع الخفيف الذى جاء فى أعراضه أن النوبة تدوم فترة قصيرة ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها إلا اختلاج العينين والتى يسقط فيها المريض فاقد الوعى لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث . ولو أن دحض هذا الزعم ميسور بتأكيد أن محمد ـــ ﷺ ـــ كان يتذكر كل ما جاء به الوحى . بل كان يحس كأنما حفر فى قلبه ، كان يملى على كتاب الوحى عقب انفصام الوحى عنه مباشرة ما جاء به جبريل الأمين ، إلا أننى سأناقش كل ما ذكره الدكتور فى كتابه عن أسباب الصرع وأعراضه وسأحاول أن أطبقها على أطوار حياة محمد ـــ ﷺ ـــ منذ أن حملت به أمه آمنة بنت وهب حتى أن لحق بالرفيق الأعلى :

يقول الدكتور لينوكس : إن من أسباب مرض الصرع عيوبا خلقية تصيب الجنين وهو فى بطن أمه أو من أثر ولادة متعسرة وقد روت آمنة بنت وهب أنها لم تجد حملا أيسر من حملها بمحمد ـــ عليه السلام ـــ ،

وكانت ولادته ميسرة على الرغم من أنه ابنها البكر ، فإما أن نصدقها كما صدق الدكتور لينوكس روايات ضعيفة ساقها السير وليم مور فى كتابه « حياة محمد » وودز ، وإما أن نكذبها ونكذب فى نفس الوقت الروايات المتهافتة التى اعتمد عليها فى سوق حججه على إصابة محمد بالصرع .

وشب محمد قويا فى بادية بنى سعد ، وقالت حليمة السعدية إنه كان ينمو ويغلظ أكثر من كل من كانوا فى مثل سنه وأنه مشى ولم يتم من عمره سنة ، وتكلم بلسان فصيح وهو ابن سنتين ، موفور الصحة لم يشك مرضا قط ، بل كان يتسلق الجبال وهو فى الرابعة . وحديث حليمة إن كشف فإنما يكشف عن طفل قوى البنية ، أما حديث شق الصدر الذى جعل الدكتور لينوكس يؤكد إصابة محمد بالصرع فى طفولته فقد سبق أن ضعفته فى الجزء السادس من هذا الكتاب ، وقلت إنه وضع عن حسن نية لتفسير قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ .

قال الدكتور لينوكس إن الصرع الذى أصاب محمدا — ﷺ — من الصرع الخفيف . وقال إن هذا الصرع قد يختفى فى سن البلوغ ، فإذا كان الصرع قد أصابه وهو فى الثانية أو الثالثة من عمره فلماذا لم يختف لما وصل محمد — عليه السلام — إلى سن البلوغ ؟ إن الدكتور لينوكس يفترض أنه استمر معه وأنه هاجمه وهو فى غار حراء ، وراح يعدد صور الوحى ليؤكد ما وصل إليه فقال : إنه أراد أن ينتحر ، وأنه سمع صوتا فإذا بوهمه يصور له أنه رأى جبريل ، وأنه كان يسمع صلصلة أجراس أو دويا

كدوى النحل عند رأسه .

هذه هى الأعراض التى استند إليها لينوكس لتأكيد أن محمدا ــ ﷺ ــ كان مصابا بالصرع ، ولم يأت بجديد فى عام ١٩٦٠ فكل شانئى محمد ــ عليه السلام ــ من الغربيين قالوا بهذا الافتراء . أما أن محمد ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ فكر فى الانتحار لما فتر عنه الوحى وأنه كلما هم بأن يتردى من شواهق الجبال ظهر له جبريل وقال له : أنت رسول الله حقا ، فالحديث الذى روى ذلك منكر ، وقول لينوكس بأن محمدا كان يسمع دويا كدوى النحل عند رأسه قول غير صحيح ، فالذين كانوا يسمعون دوى النحل هم الذين كانوا عند الرسول عندما ينزل عليه الوحى . فقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا نزل على رسول الله ــ ﷺ ــ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل » فهل من أعراض الصرع أن يسمع من حول المريض أصواتا كدوى النحل ؟!

وقال ــ ﷺ ــ إن الوحى يأتيه فى صوت كصلصلة الجرس أحيانا ، فصلصلة الجرس صفة للصوت الذى يوحى إليه ، فيا ترى كيف كان الله يوحى إلى موسى ؟ ألم يكن الصوت من صور الوحى الذى نزل على كليم الله ؟! وبماذا يريد الدكتور لينوكس أن يوحى الله إلى أنبيائه إن لم يكن بصوت من الأصوات أو بإلهام من الإلهامات أو بنفث فى الروع ؟

لو أن الدكتور لينوكس قد أنكر الوحى كلية لما فكرنا فى عتابه ، ولكنه عندما كان يذكر العظماء المصابين بالصرع لم يذكر موسى عليه السلام مع أن التوراة تؤكد أن موسى خر صعقا لما سأل الله أن يتجلى

عليه ، فإن كان الدكتور قد أقر بنزول الوحى على موسى فلماذا ينكر نزوله على محمد — ﷺ — ؟ لو كان الدكتور عالما مجردا عن الهوى وسلم بنزول الوحى على موسى — عليه السلام — ، أو أى من الرسل الذين يؤمن بهم لوجب عليه أن يسلم بنزول الوحى على محمد — ﷺ — . فالحقيقة لا يمكن تجزئتها ولا يعقل أن نعترف بها مرة وننكرها مرة أخرى .

إننا أمام حالة من حالتين : فإما أن الدكتور لينوكس يؤمن بالوحى وبنزوله على موسى — عليه السلام — وفى هذه الحالة لا مفر من اعترافه بنزوله على نبى الإسلام ، وإما أنه لا يؤمن بالوحى ولم يذكر موسى — عليه السلام — بين المصابين بالصرع خشية من يهود أمريكا ، فهو فى كلتا الحالتين أهدر نزاهة العلم وكرامة العلماء .

وأحب أن أسأل الدكتور لينوكس : لماذا لم يتعرض لصور الوحى الأخرى التى ذكرها محمد — ﷺ — ؟ ألأنها لا تخدم غرضه ، وهل من الأمانة العلمية سرد بعض صور الوحى دون بعض ؟ قال — ﷺ — : وإن جبريل ليأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه . إنه كان يكلمه ويبصره بغير حجاب ولا غيبوبة ، وكان يأتيه على صورة دحية الكلبى أو على صورة غيره ، وإن ظهور جبريل بصورة رجل كان تأنيسا لمن يخاطبه .

قال عمر رضى الله عنه : بينا نحن عند رسول الله — ﷺ — ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ... وقد عُرف بعد انصراف الرجل أنه

جبريل . فهل كان كل الجالسين مصابين بالصرع ؟

ويقول بودلى : « وقد أُمليت كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحى ، ويؤكد الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار رائعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد » .

إن محمدا — ﷺ — فى جميع غزواته كان القوى الذى يقرع الخطوب لا المتهافت الذى يسقط على الأرض مغشيا عليه ، وإنه فى غزوة تبوك وقد تجاوز الخمسين وكانت فى الحر الشديد تحمل متاعب الطريق والحر والعطش وكان أكثر حيوية من كثير من الشباب الذين كانوا فى الجيش ، فهل يحتمل أن يكون ذلك الذى تخفق الصحة بين جنبيه مصابا بالصرع ؟!

ويقول بودلى : « ما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا ، وما رفع الصرع أحدا إلى مراكز التقدير والسلطان يوما . وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجنون ، وإن كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد : « لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال إن لم يكن من مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب .

فهل كان محمد — عليه السلام — سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟

إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لوضع هذا الظن ، فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان .

وقد سأل أناس من كتاب العرب هذا السؤال وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه وأيسرها أنه كان — عليه السلام — يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين فى حال واحدة : حين يتلقى الوحى ، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال .

ولكن ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنا ما كان قوام البدن الذى تغشاه .

ولا نعلم أن أحدا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد — عليه السلام — فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته وفى يقظته ورقاده وفى حديثه وصمته وفى جلوسه وسيره وفى ركوبه وارتحاله ، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم .

كان باتفاق واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم

الكراديس — أى ملتقى العظام — ولم يكن بالمطهَّم ولا بالمكلثم[١] ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة سائل الأطراف .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبى بشىء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبئ عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع الفم يتكلم بكلام بين فَصل مفسر ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها — أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها — وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه . جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مسانح اشتباه فى عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم » .

وفترة انقطاع الوحى عن رسول الله — ﷺ — خير دليل على صدق الرجل ، فلو كان الرسول الكريم غير صادق مع نفسه لأخفى عن الناس جميعا هذه الحقيقة ، ولو كان القرآن من عنده فما الذى جعله يفزع لغياب جبريل عنه ! ولماذا احتمل سخرية شانئيه ؟ لو كان الأمر بالبساطة التى

---

(١) المطهم : المنتفخ الوجه ، والمكلثم : المدور ، والأهدب : طويل أهداب العين مع انعطاف .

يصورها الكتاب الغربيون لعكف محمد — عليه السلام — فى داره ليلة أو بعض ليلة وألف قرآنة ، ولوفر على نفسه المحنة التى احتملها لما غاب عنه الوحى .

وقيل إن مدة فترة انقطاع الوحى كانت أربعين يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل اثنى عشر يوما ، وجزم ابن إسحاق بأنها ثلاث سنين ، وقال السهيلى : إن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصف سنة . وقد أخذت بالقول الذى حددها بأربعين يوما لا لأن ذلك هو المشهور وحسب بل لأن أبا سفيان قد خرج إلى اليمن فى تجارة قريش قبل البعثة وعاد منها بعد خمسة أشهر فوجد أصحاب محمد — ﷺ — يعذبون ، فلو كان حديث أبى سفيان صحيحا فلا يجوز أن تطول مدة انقطاع الوحى عن المدة التى استغرقها أبو سفيان فى دهابه إلى اليمن وعودته منها .

وتعود بعض المؤرخين الغربيين الذين يقرءون التوراة فلا يجدون فيها ذكرا للجنة والنار أن يسخروا من الجنة التى وعد الله بها المتقين فى الإسلام ومن النار التى أعدت للمجرمين ، ونسوا أن التوراة التى بين أيديهم قد كتبها اليهود فى المنفى بعد أن أحرق بختنصر جميع نسخ التوراة الأصلية . وكانوا متأثرين بالديانة البابلية التى تقول إن الذين يموتون يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها .

قالوا إن النعيم السماوى كما وصفه القرآن من النقائص التى تقدح فى العبادة النزيهة ، متناسين أنه ما من دين سماوى خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، بل وما من دين من أديان الوثنيين إلا وقد وعد المؤمنين براحة

بعد الموت أو بحياة دنيوية سعيدة أو بعذاب حتى فى الأرض التى لا رجعة منها أو بعذاب فى الدنيا ، فليس من العدل ولا من النزاهة التسوية بين الصالحين والطالحين والمصلحين والمفسدين .

إن العبادة النزيهة هى عبادة الله وحده ، إلـٰه عادل لا فرق عنده بين أمة وأمة ، ليس إلـٰه شعب دون شعب ، ولا فرق بين أسود وأبيض أمام عدالته فهو رب الناس جميعا ، إلـٰه الناس جميعا ، لا ينظر إلى ألوان عباده ولا إلى عصبية عباده ، فهو إلـٰه البشر جميعا يحاسبهم على أعمالهم . وهذا هو الإلـٰه الذى دعا محمد ـ ﷺ ـ إلى عبادته ، وهذا هو دين الإنسانية الذى أنزله الله جل شأنه على رسوله ـ عليه السلام ـ ، وهذه هى نزاهة العبادة فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا * إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(١) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾(٢) . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣) .

وحاولت أن أهتدى فى ترتيب أحداث السيرة بعد الرسالة بترتيب نزول الآيات ، فلما عدت إلى المصحف الشريف الذى بين أيدينا ورتبت السور حسب نزولها اعتمادا على ما ورد فيه وجدت أن أول سورة نزلت هى اقرأ ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم ن والقلم ، فالفاتحة ، فالمسد ، فالتكوير ، فالأعلى ، فالليل ، فالفجر ، فالضحى ، فالشرح ، فالعصر ،

---

(١) الحجرات ١٢ (٢) سبأ ٢٨ (٣) الأنبياء ١٠٧

فالعاديات ، فالماعون ، فالكافرون ، فالفيل ، فالناس ، فالإخلاص ، فالنجم ، فعبس ، فالقدر ، فالشمس ، فالبروج ، فالتين ، فقريش ، فالقارعة ، فالقيامة ، فالهمزة ، فالمرسلات ...

فلما اتبعت ذلك الترتيب وجدت أن الضحى تأخرت كثيرا عن زمنها التاريخى ، فقد قال الناس : إن ربه — ﷺ — قد قلاه لما فتر الوحى عنه ، فلما نزل الوحى عليه — ﷺ — بعد فترة الوحى قال كتاب السيرة إنه نزل عليه بسورة الضحى بعد المزمل والمدثر لتأكيد أن ربه ما ودعه وما قلاه . ورأيت أن كتاب السيرة على حق فى ذلك القول فرجعت إلى مصحف ابن عباس فوجدته قد رتب السور فى مصحفه على النحو الآتى : اقرأ ، ن والقلم ، والضحى ، المزمل ، المدثر ، الفاتحة ، تبت ، كُوِّرت ، الأعلى ، والليل ، والفجر ، ألم نشرح ، الرحمن ، والعصر ، الكوثر ، التكاثر ، الدين ، الفيل ، الكافرون ، الإخلاص ، النحل ، الأعمى ، القدر ... فاسترحت إلى ترتيب ابن عباس ، فلما نزلت آية الإنذار ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] وهى فى سورة الشعراء رجعت إلى ترتيب النزول فى المصحف ، فوجدت أن ترتيب نزولها متأخر جدا عن أحداث السيرة ، فهى بعد ق ، والبلد ، والقمر ، وص ، والأعراف ، والجن ، ويس ، والفرقان ، وفاطر ، ومريم ، وطه ، والواقعة ، وعدت إلى مصحف ابن عباس فوجدت أن ترتيب

---

(١) الشعراء ٢١٤

« الشعراء » بعد والشمس ، البروج ، التين ، قريش ، القارعة ، القيامة ، الهمزة ، والمرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ، الأعراف ، الجن ، يس ، الفرقان ، الملائكة ، مريم ، طه ، الشعراء ، فأكدت أن ترتيب السور حسب النزول فى المصحف أو فى مصحف ابن عباس لن يفيدنى فى ترتيب أحداث السيرة ، فإن أردت أن يكون نزول القرآن مرشدى فى سرد وقائع السيرة العطرة ، فعلى أن أرتب الآيات حسب نزولها ولكن ذلك شيء عسير ، فالقرآن نزل منجما ولم ينزل جملة واحدة ، يشرع للناس ويتابع الأحداث : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾[1] . ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[2] .

وقد استنكر أعداء الإسلام أن ينزل القرآن منجما وقالوا : « لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وكان جواب الله تبارك وتعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾[3] أى جعلناه بعضه فى إثر بعض .

وكان النضر بن الحارث يستهزئ القرآن ، وكلما جاء فيه ذكر عاد وثمود قال : أساطير الأولين ، قاصدا بذلك أن ما يروى عن عاد وثمود إنما هو حديث خرافة كالأحاديث التى يرويها عن رستم واسفنديار التى جاء بها من الحيرة وبلاد الفرس . وعدم تصديق ما جاء به القرآن عن عاد وثمود قد يعود إلى أن التوراة التى بين أيدى الناس سكتت عن الحديث عن هؤلاء

---

(١) الفرقان ٣٣ (٢) الإسراء ١٠٦ (٣) الفرقان ٣٢

الأقوام ، وسبب سكوتها قد يرجع إلى المنافسة الشديدة التى كانت بين بنى إسرائيل وبنى إسماعيل فى الوقت الذى أعاد اليهود فيه كتابة التوراة فى المنفى ، فاليهود كانوا مشردين بينا كانت دولة بنى إسماعيل مزدهرة فى أرض النبط . وكانت عاصمتهم البتراء تنافس بابل ودمشق ومنف بل وروما ، فلا يعقل أن اليهود لم يعرفوا العرب قوم عاد وثمود . وقد ذكر بطليموس فى أطلسه مواقع عاد وثمود . إن الحاقدين على الإسلام حاولوا بكل ما وسعهم الجهد أن ينكروا أن عادا وثمودا كانتا حقيقة واقعة لتجريح القرآن والتشكيك فيه ، ولكن عادا وثمودا قد أقر بوجودهما التاريخ القديم والتاريخ الحديث على السواء والأطالس التى وضعت قبل الإسلام بمئات السنين ، وإن كل المحاولات التى بذلت والتى ستبذل لأهون من أن تنال من الكتاب المبين .

القاهرة فى ١٩٦٨/٣/٥

المراجـــع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية — لابن هشام
أسباب النزول — للواحدى
الطبقات الكبرى — لابن سعد
الروض الآنف — للسهيلى
تاريخ الأمم والملوك — للطبرى
العقد الفريد — لابن عبد ربه
الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى
بلوغ الأرب — للألوسى
نهاية الأرب — للنويرى
الملل والنحل — للشهر ستانى
السيرة الحلبية — لعلى برهان الدين الحلبى
إحياء علوم الدين — للغزالى
الشفا فى تعريف حقوق المصطفى — للقاضى عياض
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى — للسمهودى
الرسول . حياة محمد ـــ لبودلى — ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار
مطلع النور — لعباس محمود العقاد
البداية والنهاية — لابن كثير
إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة يحيى الخشاب

معاوية إبراهيم الإبيارى
أخبار قريش الزبير بن بكار
تفسير سورة العلق
مقدمة ابن خلدون

Epilepsy, by William G. Lonnox.

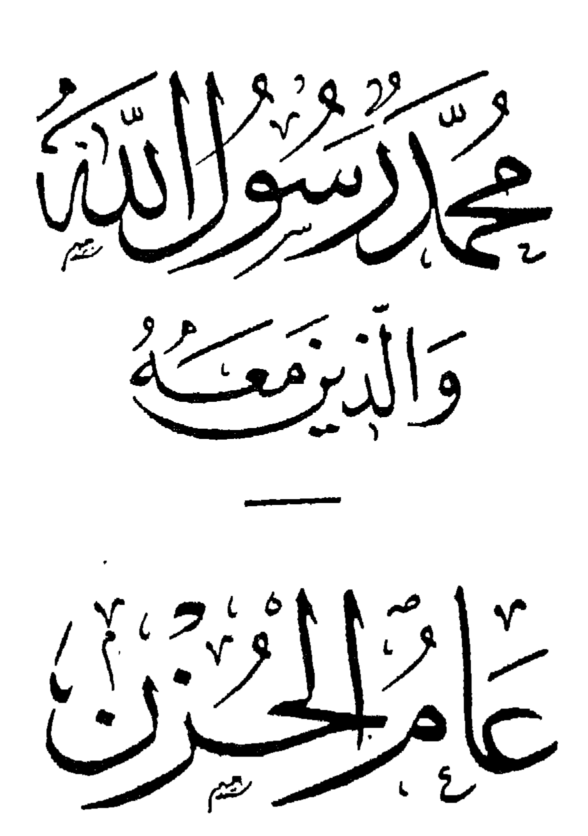
A Theological Word Book of the Bible, by Richardson.

Islam and Theory of Interest, by Anwar Eqbal Quershi.

الدكتور م . جمال الدين عياد

رقم الإيداع ٣٥٥٩
الترقيم الدولى × ــ ١٤٨ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية



عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أوَمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتَى مثل ما أوتىَ رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانت الجزيرة العربية غارقة فى الظلمات قد ران عليها عقم روحى ، فأغلب القبائل تتعبد لآلهة نحتت من حجارة أو حفرت من خشب أو صنعت من نحاس . تعدد فيها الأرباب وقام بعض الكهنة ورجال الدين لحماية المصالح الموروثة وبث روح التعصب للدين فى نفوس المؤمنين بالأصنام والأوثان . حفظا لمكانتهم وتوطيدا لسلطانهم وعملا على تغلغل نفوذهم إلى سويداء القلوب .

ومارس رجال الدين رياء كرياء الفريسيين اليهود . تركوا جوهر الدين وتشبثوا بالقشور ، فما أفزعتهم الوثنية التى كانوا يمارسونها فى عباداتهم ولكن كان يثير حنقهم أن يدخل الحجاج البيوت من أبوابها أو أن يأكل الحمس فى مواسم الحج شيئا من الدهن أو أن يطوف الناس بالبيت الحرام بثياب اقترفوا فيها المعاصى والآثام !

وكان سكان الجزيرة العربية متخلفين عن سير الزمن يمارسون كل ألوان الحرية المدمرة ، حرية جنسية لا ضابط لها ، حتى إن إلصاق ولد بوالده كان يترك أمره للبغايا أنفسهن أو إلى القافة إذا ما ادعى أكثر من رجل نسبة المولود إليه ، أو إغارة قبيلة على قبيلة وانتزاع الزوجات من أحضان الأزواج أو الفتيات من دور السادات الذين يكرهونهن على البغاء أو البنات من كنف الآباء . ثم فخر بما حاق السبايا من عار يمشى به الشعراء فى القبائل والأمصار . وكان للرجل أن يتزوج من النساء ما يشاء دون تحديد ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان الابن الأكبر يرث نساء أبيه يحتفظ

لنفسه بمن يشتهي منهن ويخلع بعضهن على الراغبين فيهن لقاء مبلغ من المال ويبيع بعضهن فى الأسواق بيع العبيد دون أن يكون لهن أى حق فى الاعتراض ، فما كانت المرأة إلا لعبة الرجل إذا أرادها ، أو سلعته التى تجلب له المال إذا ما احتاج إلى الأموال .

وحرية فى سلب أرواح الأغيار دون ذنب أو جريرة ، فقد كانت الثارات بين القبائل والبطون والأحياء مشتعلة لا يخمد لها أوار ، إذا قتل سفيه رجلا فى مشادة أو فى مجال فخر أو بسبب تافه من الأسباب فأهل المقتول لا يتربصون بالقاتل بل يضعون أعينهم على ذوى المكانة والشرف فى أهله ، حتى إذا ما عثروا على أحدهم فى غفلة من قومه اغتالوه بدم قتيلهم ، فيصبح ساداتهم مطلوبين بعد أن كانوا طالبين ، وتسيل الدماء البريئة على الرمال لتكون وقودا لقتل نفس بغير نفس وسيطرة الظلم على الناس .

وكانت الغارات تشن على القوافل للسلب والنهب . فقطع الطرق مهنة لا يزدريها المجتمع ، وقد زهقت فى تلك الغارات أرواح وسلبت أموال وفقدت أنفس حريتها فى لمحة عين . وطالما تغنى الشعراء بشجاعة قطاع الطرق وشبهوهم بالأسود إذا ما انقضت على فريستها وأنشبت فيها مخالبها !

ولم تكن هناك حكومة القوى عندها ضعيف حتى تأخذ الحق منه والضعيف عندها قوى حتى تأخذ الحق له ، بل قبائل تنصر كل فرد فيها ظالما أو مظلوما ، فمن لم تكن له قبيلة تمنعه التمس الجوار من قبيلة قوية خشية أن يتخطفه الناس فى ذلك المجتمع الذى لا يحترم العدل لذاته ، بل يحترم كل ما تسانده قوة أو يتستر بالغدر :

وكان الناس على الرغم من تعصبهم لآلهتهم يفتقرون إلى دين صحيح

يقوم اعوجاج نفوسهم ، تعبدوا ذواتهم و لم يحترموا إلا قوتهم وسلطان أموالهم وبطش عشيرتهم ، وكانت حاجتهم إلى دين قويم تدفعهم إلى حالة من اليأس الروحى تضطرهم إلى التماس فتات العزاء الدينى على موائد الكهنة والصوفة الذين وهبهم آباؤهم لخدمة المعابد ، والحمس من أهل مكة الذين تنطعوا فى أمر الدين فأحالوا جوهره إلى نواهى ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلى أوامر فى المأكل والملبس والمظهر لم تعرف طريقها إلى القلوب .

ونزل اليهود فى يثرب وكانوا أهل كتاب ولكنهم كانوا يعيشون فى مجتمع مغلق بعد أن وقر فى نفوسهم أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وأنهم وحدهم الموعودون بحضن إبراهيم عليه السلام بعد الممات . فكانوا يضنون بدينهم . و لم يحاولوا أن يشركوا جيرانهم العرب فى النعمة التى أنعم الله عليهم بها ولا أن يرفعوهم إلى النبع الروحي الذى يزداد ثراء كلما ازداد أخذ الناس منه ، أنانية منهم واستجابة لغرورهم الذى وسوس لهم أنهم شعب الله المختار .

و لم يكن اليهود فى مجتمعهم المغلق جميعا بل كانت قلوبهم شتى بعد أن انقسموا إلى طوائف متناحرة عقب أن حملهم بختنصر إلى بابل أسرى وأخذوا من أساطير البابليين ما دسوه فى دينهم ، فإذا بإلههم الرحيم ينقلب إلى إله غيور ، متعطش للدماء ، وإذا بالخلافات تنشب بين السامريين وبين العائدين من المنفى حول التوراة التى جاءوا بها وقد أضافوا إليها تاريخ اليهود من بعد موسى ، حتى إستر التى لعبت برأس إمبراطور الفرس وجعلته يصدر أمرا بالعفو عن بنى إسرائيل بعد أن كان قد أصدر أمرا بقتل كل من كان منهم فى إمبراطوريته .

وعرفت اليمن اليهودية بكل ما فيها من خلافات ، ودخل بعض الحميريين فى دين النصارى واشتركوا فى العداوة التى كانت بين النسطوريين واليعقوبيين ، وتحيرت عقولهم لما فكروا فى مئات المذاهب التى تفرعت عن المسيحية السمحة ، والنظريات الفلسفية التى أثيرت لإثبات لاهوت المسيح وناسوته ، أو وحدة طبيعة المسيح ، أو الأقانيم الثلاثة ، وكان الشىء الوحيد الذى أخذوه عن الكنيسة دون احتدام جدال أو مناقشة شرب الخمر ، فقد قيل لهم إن السيد المسيح كان شريب خمر !.

واعتنقت قبيلة تميم المجوسية ، فكانت تعبد النار وتصلى لأهورا مزدا وتستعيذ من أهريمان ، وأخذت عن الفرس الزواج من المحارم فكان الأب يتزوج ابنته والأخ يتزوج أخته والرجل يبنى بعمته أو خالته . ولم يكد يربط بين هؤلاء العرب المختلفين فى الديانات والمذاهب والأهواء غير بيت أبيهم إبراهيم يحجون إليه فى الموسم سواء أكانوا وثنيين أم على دين اليهود أم النصارى أم المجوس أم الصابئة أم الحنفاء .

وكان لقريش شرف الولاية على الحرم ، فكان منهم صاحب الرفادة والسقاية ، وصاحب السدانة والحجابة ، وصاحب الأزلام ، والعِدْل الذى يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش كلها سنة . وقد ذهب صيت ساداتهم فى القبائل فالشعراء يحتكمون إليهم تداعبهم أعذب الآمال بأن يرضى أشراف قريش عن شعرهم وأن يعلقوه بهبل إله الشعر فى جوف الكعبة ، وذلك غاية التكريم الذى يطمح إليه فحول شعراء العرب .

وكان فريق من قريش يؤمن بالله فى السماء وآلهة فى الأرض ، وفريق آخر لا يؤمن بأية آلهة ويقول : لا يهلكنا إلا الدهر ، بينا فريق يعبد

الكواكب والنجوم ، وفريق يؤمن بالبعث بعد الموت،وآخر يسخر من فكرة القيامة . وكانت الصفة التى رانت على الجميع الجهل والخرافات ، قد خبت فيهم الاستنارة الدينية وإن تعصبوا لآلهة آبائهم وما كانوا يعبدون .

كانت بلاد العرب أرض الضياع ووادى الدموع ، أهدرت فيها كرامة الإنسان بعد أن ظهر الفساد فى جنباتها ، وكانت تندفع إلى الهاوية فما كان لها ماض مشرق يلح على المصلحين أن يعملوا على بعثه ، أو إمبراطورية دارسة يدعون الناس إلى إحيائها ، وما كانت هناك آمال عريضة تثير حماس الراغبين فى تأليف القلوب المتنافرة لتحقيقها ، فقد كان كل عربى سعيدا بالحرية المدمرة التى ينعم بها ، حرية الشهوات وفوضى المعتقدات وتحصيل كل لذة قبل الفوات :

وفى ذلك الظلام الدامس كان الله يرعى عبده محمد بن عبد الله ليصنعه على عينه ، فحبب إليه العزلة وألقى من فيض كرمه فى قلبه الأنوار وآتاه الحكمة ، فعرف السعادة فى القرب من الله ، ففتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته فإذا بشرف المعلومات تحصل لقلبه بإلهام من ربه فتنكشف له الحقائق بكشف إلهى ، وإذا بالحجب التى كانت بينه وبين ملكوت السموات ترتفع وإذا هو على نور من ربه .

وفى غار حراء أقبل بكنه الهمة على الله ، فإذا بأنوار ربانية تغشى المكان ، وإذا برحمة إلهية تتنزل على من اصطفاه ربه ليكون رسوله إلى الناس ، وإذا بالروح الأمين يكلفه برسالة تنوء بحملها الجبال ، رسالة هداية البشرية جمعاء ودعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

كان وحده لا سيف فى يده ولا أنصار ينصرونه من دون الله ، قد بعث

إلى أقوام شداد غلاظ الأكباد يقدسون دين الآباء ولا يحتملون أن يمس إنسان بسوء ما كان آباؤهم يعبدون ، لا وزن لحياة الأغيار عندهم فيسفكون الدماء لأتفه الأسباب ، لكلمة عابرة يظن أنها حطت من شأنهم أو خدشت كرامتهم ، أو لغمزة أو لمزة أو فعلة عارضة أسيء فهمها . أفيرضون أن يأتي يتيم قريش لينفي الألوهية عن الآلهة جميعا ويثبتها لله وحده لا شريك له ؟! أو يصدقون أنه يكلم من السماء ؟!

انقلب محمد — ﷺ — إلى أهله ليس له عون إلا عون ربه وإيمان بإلهه ، ترتجف بوادره من هول ما كان بينه وبين رسول ربه فى غار حراء ، وقد أشفق على نفسه من ضخامة المسئولية التى وضعت على كاهله ، فقد أمر وهو الأعزل من كل سلاح أن يقف فى وجه الفساد الذى استشرى فى الأرض ، وأن يتحدى الجبابرة والعتاة والمفسدين حتى يتم الله نوره . ولم يخفف من حدة الهلع الذى نزل بقلبه إلا أنه وعد بنصر من عند الله .

كان محمد — عليه السلام — طوال حياته التى انقضت قبل الرسالة يعيش مع الله وبالله وفى الله ، وكان سعيدا غاية السعادة بالأنس بربه والحياة فى رحابه ، حتى إذا ما نزل عليه الوحى وكلف بإنذار الناس انتابه خوف شديد . فلم تعد الأسباب التى تربط بينه وبين دنياه تلك الصلة المباركة التى كانت بينه وبين ربه الرحمن الرحيم ، والمحبة التى كانت ترفرف على بيته السعيد ، ولا السلام الذى كان بينه وبين صفوة صحبه وجيرانه وعشيرته ، بل أصبح عليه أن يواجه العالمين ، وأن يقول فى وجوه المشركين : الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

وكان على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان متلهفا على رؤية بزوغ شمس رسالته . فلو استجاب أحد من البشر إلى دعوته لألقى بذور

الأمل فى نفسه ، فلما قص على زوجه الحبيبة ما جاء به الروح الأمين إذا بخديجة التى اصطفاها الله لرسوله تواسيه وتذهب عنه روعه وتؤمن به ، بل وتحضه على الثبات ثم تهيىء له سبل تبليغ رسالات ربه ، مضحية بأموالها ، مستهينة بكل الصعاب ، متحملة كل شدة وهى راضية النفس فى سبيل الحق وإعلاء كلمته ، و لم تكتف بأن تكون أول المسلمين بل كانت سيدة نساء قريش راعية الرسول الكريم وحاضنة الدين القويم .

وراح محمد — ﷺ — يدعو إلى دين الله سرا ، فاستجاب إلى دعوته أناس كانت عقولهم تواقة إلى المعرفة . فما إن قال لهم إنهم يتعبدون لأصنام ينحتونها بأيديهم لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا حتى انزاحت الغشاوة عن أفئدتهم ، وما أن دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار حتى أشرقت قلوبهم بالأنوار واستشعروا عزة وحرية مطلقة بعد أن تحرروا من كل شر ومن عبودية الأهواء والغرائز والجهل والنزوات ، وسموا بأنفسهم فوق كل رغبة حسية رخيصة .

واكتشف المؤمنون جوهر نفوسهم التقية فى نور الله ، واهتدوا إلى أن الحياة دون الله لا معنى لها فاجتهدوا فى نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه ، وجاهدوا فى تحطيم الحواجز النفسية بينهم وبين ربهم فإذا بهم يذوقون لذة روحية سرمدية ، لذة الأنس بالله ، فهانت الدنيا فى أعينهم وصغرت شدائدها ، وصارت لهم رسالة فى الدنيا يعملون على تحقيقها ويحتملون المكاره فى سبيلها ، فأصبحت نبضات قلوبهم المشرقة بالضياء الربانى رحلة أنفسهم فى طريق الهداية إلى محبة الجنس البشرى .

وراح رسول الله — ﷺ — والفئة القليلة المؤمنة يصلون لله خفية فى

شعاب مكة ، حتى إذا ما أمر عليه السلام بإنذار عشيرته الأقربين صدع بما أمر به ، فكان لا بد من صدام بين الإرادة المؤمنة والإرادة المتشبثة بدين الآباء ، بين الفكر الجديد والمعتقدات البالية ، بين النور والظلام ، بين الراغبين فى الحقيقة المطلقة والخائفين من زوال كل نفوذ وسلطان .

ومشى سادات قريش إلى أبى طالب يؤذنونه بحرب إذا لم يكف ابن أخيه عن دعوته وسب آلهتهم وتسفيه أحلام آبائهم ، وأبى أبو طالب أن يسلم ابن أخيه لشانئيه وإن لم يؤمن برسالته . بل جمع بنى هاشم ودعاهم لحماية الأمين ، فهو منهم وله عليهم حقوق وإن خرج عن دين قومه ، فاستجابوا له جميعا إلا عمه أبا لهب الذى انضم صراحة إلى معسكر أعداء دين الله .

وأصبح محمد — ﷺ — هدف سخرية الساخرين من الذى يُكلَّم من السماء ! وقطعت العداوة شوطا أبعد من الهزء والهجاء بعد أن امتدت الأيدى بالأذى إلى رسول الله ، فربما فيض حنان خديجة عليه يمسح عنه ما قاساه ، واجتهد فى الابتهال إلى الله فكان الروح الأمين يثبت قلبه بما ينزل به من القرآن .

وآمن عمه حمزة بدين ابن أخيه ، وقد شرح الله قلبه للإسلام ليعز به دينه وكان أعز فتى فى قريش ، فلما علم المشركون من سادات قريش بإسلامه الذى أعلنه على الملأ هابوا إيقاع الأذى برسول الله ؛ خشية سيف حمزة البتار ، وحولوا غضبهم إلى المستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم من يمنعهم ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين لتجد فيهم منفسا لمرض القلوب وحقد الأحقاد !

وكان المستضعفون قد دخلوا فى دين الله بعد نظر وتدبر وروية

وانشراح صدورهم لليقين وإشراق قلوبهم بالنور ، وكانت نفوسهم حرة لما اختاروا الإسلام وإرادتهم مطلقة لما فضلوه على دين الآباء ، فكانوا يشعرون بحرية حقة وإن كانوا مكبلين بالأغلال وإن كانت أجسادهم تمزق بالسياط أو تكوى بالنار ، فقد أشرق وجودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم ، والاتصال بمن فوق الوجود بانجذاب أنوار أرواحهم إلى نور السموات والأرض ، فغمرهم وهم فى محنتهم الأرضية نور على نور .

كانوا على يقين من أنهم على الصراط المستقيم ، بينا كان جلادوهم متعصبين لعقائد بالية ورثوها عن الآباء فلم يكونوا على مثل يقين ضحاياهم الذى لا يقبل جدالا ولا نقاشا ، فكان الاضطهاد معركة بين اليقين المبصر والتعصب الأعمى ، بين النور والظلام ، بين الذين ينشدون حرية الفكر والعقيدة والذين يريدون الحجر على العقول والقوامة على ميدان نشاط الفكر بأسره وإهاضة جناح كل الراغبين فى التحليق إلى الملكوت السماوى والارتفاع إلى النبع الروحى ليكتسبوا حرية الكمال ، حرية التحرر من الشرور والآثام والنزوات والبرء من أمراض الفؤاد .

ولم يكونوا على درجة واحدة من اليقين والصلابة والاحتمال ، ولم يكن نزوعهم الوجدانى لنشدان الحرية الأخلاقية فى مرتبة واحدة من القوة ، ولما كان الإنسان يملك من الحرية على قدر ما يستحق فقد اختلفوا فى الاحتمال وثبات الجنان .

كان أناس منهم أكثر حرية ممن قيدوهم بالقيود وصبوا عليهم سوط عذاب ، وكانت الأرض تحتهم أثبت منها تحت أقدام العتاة ، بل كان بعضهم يبتهج بوجوده ويتهلل بالفرح الروحى لقوة الإرادة التى أمده الله بها فجعلته يستخف بالعذاب ويستهزئ بالمتلهفين على سماع كلمة سوء تخرج

من بين شفتيه ولو قهرا تصيب الدين الجديد ومن جاء يفرق بين الأهل والخلان. وقد كان بلال صابرا على ما نزل به من اضطهاد، وما كان يجرى على لسانه إلا ذكر ربه . طلبوا منه أن يذكر محمدا — ﷺ — بسوء فأبى ، فطلبوا منه أن يذكر آلهتهم بخير وأن يقول كما يقولون ليشترى نفسه التى كانت هدفا لأقسى ألوان الاضطهاد بكلمات طيبة فى حق اللات والعزى فأبى ، واستمر يردد : أحد .. أحد ، فكان نشيده منسجما مع شعوره بحرية إرادته ، فكان بحق إمام المعذبين الصابرين الذين أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين .

وعجزت أبدان عن احتمال آلام العذاب الرهيب ، فالروح قوى والجسد ضعيف ، فارتفعت أصوات أصحابها بالأنين ، ولم يستطيعوا الصبر على البلاء العظيم فأعطوا المشركين بلسانهم ما يرفع عنهم العذاب الأليم وإن كانت قلوبهم عامرة باليقين ، واضطروا لتحريك اللسان بما يكرهون للفرار مما نزل بهم من آلام يشيب من هولها الوليد ، فلما أطلق الكافرون سراحهم تقاصرت نفوسهم واستشعروا هوان موقفهم فانقلبوا إلى رسول الله — ﷺ — يعتذرون وهم يذرفون الدموع .

رأى عمار أمه وقد ربطت بين بعيرين ، وقد صوب أبو جهل حربة إلى قلبها ففاضت روحها . ورأى أباه وهو يجود بأنفاسه فى أثناء العذاب ، فأعطى معذبية ما أرادوا بلسانه مكرها ، فهرع المسلمون إلى رسول الله — ﷺ — فقالوا :

— كفر عمار .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كلا . إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه

ودمه .

فأتى عمار رسول الله — ﷺ — وهو يبكى ، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه وقال :

— إن عادوا لك فعد لهم بما قلت .

فهدأت نفوس من أعطوا معذبيهم بألسنتهم ما أرادوا مكرهين .

وفزع أناس من العذاب ولم تكن ذواتهم قد تحررت من رواسب معتقدات الآباء ، فما شعروا بحريتهم الحقة وما كانوا يعرفون فى وضوح ما يريدون ولماذا هجروا دين الآباء ودخلوا فى الدين الجديد . فلما رأوا سوط العذاب فى أيدى ساداتهم انخلعت أفئدتهم رعبا وارتدوا مهرولين إلى الكفر بعد الإيمان ، فأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان * ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون »[1] .

---

(١) النحل : ١٠٦ — ١٠٩ .

٢

عرف محمد — ﷺ — ربه قبل أن يبعث ، وأشرق قلبه بأنوار يسرت له مشاهدة ما وراء حواسه ، فاستوى بصره وبصيرته وأرشد إلى طريق الحق ، حتى إذا ما أتم الله تدريبه وإعداده لتحمل نزول الوحى عليه كلف بالرسالة ، فكان عليه وحده بتأييد من ربه أن يخلع الشرك وعبادة الأوثان من رقاب الناس .

كان دين زرادشت قد فسد فى فارس وطمرته الأساطير وعبد الناس هناك النار بعد أن أقنعوا أنفسهم بأنها من نفس طبيعة أهورا مزدا إله النور . وتفتت الدين الزرادشتى تحت تأثير الأفكار الجديدة التى وردت إليه من الهند بل ومن الدولة الرومانية التى كانت العدو اللدود لإمبراطورية الساسانيين ، فعادت فارس إلى الوثنية البغيضة بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وكانت الدولة الرومانية تعتنق المسيحية ولكن رعاياها انقسموا فيما بينهم فى طبيعة المسيح ، طائفة تقول بوحدة طبيعة المسيح وطائفة تقول بالأقانيم الثلاثة. وتأرجح الناس بين لا هوت المسيح وناسوته ، وقامت العداوات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية ، والكنائس الأخرى التى كانت ترجو أن تتحرر من سيطرة الكنيسة التى كانت تؤيد الأباطرة فى نظراتهم الدينية وتقرضهم الأموال بالربا لاستمرار الحرب بين فارس والدولة البيزنطية .

كانت المسيحية قد انقسمت إلى مئات المذاهب ، وكانت الصور

والتماثيل منتشرة فى كل الكنائس . وكانت المجامع الدينية التى كانت تجتمع لتقر هوى الإمبراطور فى مسألة من مسائل اللاهوت قد أفسدت دين المسيح بما أدخلته فيه من فلسفات وأساطير ، وقد ظهر بين رجال الدين المسيحى الحسد والغرور والخسة وبيع الأشياء وشراؤها ، وأصبح الدين مطية لتحقيق المغانم وإشباع الشهوات المادية .

كانت المسيحية السمحة قد تلاشت من الأرض ، وقد ارتدت الوثنية رداءها بعد أن أدخل فيها بولص أساطير بعل والفلسفات الوثنية القديمة ، واستطاع بحماسته أن يصبغ الغرب بأفكار وثنية شرقية ، أو كما قيل يجعل نهر العاص يصب فى نهر التيبر .

وكانت الجزيرة العربية غارقة فى الشرك حتى الآذان ، تسيطر عليها الخرافات ويخفق فى جنباتها الفساد ، ونهب الأموال فضيلة يتغنى بها الشعراء ، والسادات يكرهون فتياتهم على البغاء ، والقبائل ترى فى سفك الدماء البريئة للأخذ بالثأر عملا من أعمال الزهو والشموخ بالأنوف ورفع الجباه . قد شاع فيهم الجهل وفشى فيهم المنكر وكثرت فيهم البدع والأهواء ، وقد تكدس فى الحرم منارة التوحيد ثلاثمائة وثلاثون من الأصنام والأوثان !

كان الفساد يغمر وجه الأرض قد زاغت قلوب الناس عن الحق ونزل فيها الشرك بخالق السموات والأرض ، رب الناس إله الناس رب العالمين . وكانت الحضارة البشرية تنزلق إلى الهاوية حتى أشرفت على شفا جرف هار ، فأراد الله بفيض كرمه ورحمته أن ينتشل البشر من الهوان وأن يعيد للناس كرامتهم وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فجعل يصنع محمد ابن عبد الله على عينه ، فاستودع قلبه الإخلاص وفجر فؤاده ينابيع الحكمة

ورفع الحجاب بين بصيرته والملكوت ، فصار الله هو المتولى لقلبه والمتكفل له بتنويره بأنوار اليقين .

وعرف محمد عبادة الله حق عبادته وصار أتقى رجل على وجه الأرض على نور من ربه ، حتى إذا ما كان الله خفق قلبه وقرة عينه وروح روحه اصطفاه ربه لرسالته وأمره أن ينذر الناس ، فإذا به وحده أمام العالم كله بلا سلاح إلا سلاح الإيمان ، وبلا قوة إلا ما يمده بها ربه ، وبلا ناصر غير الله .

وشرح الله قلوب فئة من المستضعفين فى الأرض للإسلام ، أمدهم بقوة من عنده فإذا بهم يثبتون للاضطهاد ويستهزئون بالعذاب وقام فى مكة صراع حول الحقيقة أهى وحى السماء أم أساطير النضر بن الحارث وأجزاء الحكمة التى استوردها من فارس وقصر الخورنق بالحيرة ؟ أهى الآلهة المجسدة المنحوتة من الحجارة أو المنقورة فى الخشب أو المصبوبة من الذهب والبرونز والنحاس ، أم الحقيقة المتعالية ؟ الله الذى لا إله إلا هو له ما فى السموات والأرض وله غيب السموات والأرض ؟

ونشب الصراع بين أناس على ربهم يتوكلون يحسنون التعامل مع الله ومع ذواتهم ومع الأغيار ، وأناس يحسنون الظن بأنفسهم وإن كانوا فى الضلال يعمهون ، ويعتمدون على أنسابهم وشعرائهم وسفهائهم فى إطفاء نور الله .

كان الشعراء ينظمون القريض فى هجو محمد — ﷺ ، وكان الله يوحى إليه بقرآن يقص عليهم ما كان بينه وبينهم وما كان يجرى فى نجواهم ويلزمهم الحجة ، فيشرح بعض الصدور للإسلام ويزيد الكافرين كفرا على كفرهم .

كانوا فى حيرة من أمره وأمر قرآنه ، فما يقول ليس بشعر ولا سجع

بالكهان وإن له لحلاوة وإنهم ليخشون أثره فى نفوس أناس تستهويهم البلاغة والبيان ، فلا بد من إلصاق نقيصة به تنفر الناس منه وتجعلهم يعرضون عنه ، فقالوا : ساحر كذاب .

ونزل القرآن يفند مزاعمهم : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر * بل الذين كفروا فى عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد * ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كلٌّ إلا كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق * وقالوا ربنا عجل لنا قِطَّنا قبل يوم الحساب * اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾(١) .

وكانوا فى عجب من أمر يتيم قريش ، وكانوا يتساءلون من أين جاء ابن عبد الله هذا العلم وتلك الحكمة ؟ لو سكتوا على هذه الآيات البينات

---

(١) من ١ — ٢٠ .

لشرحت الصدور للدعوة الجديدة ولوجدت طريقها إلى المتطلعين إلى النزاهة المطلقة ولاستجاب السادة والعبيد إلى صوت العقل ، فراح النضر ابن الحارث يجلس إلى القوم يروى الأساطير ويسخر مما يقصه محمد عليه السلام عن عاد وثمود ، ثم يقول : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٢) .

كان النضر بن الحارث أكثر المستهزئين بابن خالته محمد عليه السلام ، وكانت عداوته تزداد اشتعالا كلما نزل القرآن بآيات تلزمه الحجة . ولولا العناد والحسد لأسلس لابن الخالة القياد ليأخذ بيده إلى ينابيع الحكمة الحقة .

كان يقول لسادات قريش كلما أظهروا ميلا للقرآن :

ــ لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وماهم ألا يعذبهم الله وهم يصدُّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾(٢) .

---

(١) الأنفال ٣٢

(٢)الأنفال ٣١ ــ ٣٦ .

كانت جلود سادات قريش تقشعر من الرهبة كلما نزل القـرآن بالوعيد ، فكان النضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبى معيط وأبى بن خلف يسخرون فى ضراوة من يتيم قريش ويقولون للتهوين من شأنه :

ــ الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد .

فإذا بالقرآن ينزل مقوضا هذه الحجة : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانـوا يكفرون ﴾[1] .

واستمر الكافرون فى التهوين من شأن محمد عليه السلام ، فالمعركة بينه وبينهم مستمرة ، فإن وهنوا كان ذلك نهاية نفوذهم والقضاء على سلطانهم وسيطرة الدين الجديد على المسجد الحرام ، فقالوا مستمرين فى هزئهم :

ــ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟

ــ لولا أرسل إليه ملك فيكون معه نذيرا !

ــ إن هذا إلا إفك افتراه .

---

(١) يونس ٤٤ ــ ٥٨ .

— إنما يعلمه بشر ، إنه يمر بالنصرانيين يسار وخير ، ويسمع قراءتهما ويتعلم منهما .

— بل يجلس إلى جبر يتعلم منه .

— لو كان رسول الله حقا لألقى الله إليه كنزا أو تكون له جنة يأكل منها .

فنزل القرآن يفند مزاعمهم : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزّبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون * أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾[١] .

﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾[٢] .

﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاء ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما * وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا * بل كذبوا

---

(١) النحل ٤٣ — ٥٨ .

(٢) النحل ١٠٣ .

بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴾(١) .

واجتمع سادات قريش فى ناديهم وقد انتابهم خوف من وعيد القرآن ومن أن أتباع محمد ـ ﷺ ـ يزيدون ولا ينقصون ، واستولت عليهم أمنية مصالحة سليل هاشم فقالوا :

ـ ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيه .

وكان محمد ـ ﷺ ـ جالسا فى المسجد وحده ، فامتدت إليه أبصارهم ثم قالوا :

ـ انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يريد .

ـ لا نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة .

فقال عتبة :

ـ أنا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا .

فقالوا مستبشرين :

ـ يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال :

ـ يابن أخى إنك منا حيث قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من

---

(١) الفرقان ٤ ـ ١٤ .

مضى من آبائهم .

وصمت رسول الله — ﷺ — ليعطى السيد المطاع فى قريش فرصة إنهاء حديثه ، فقال عتبة :

— أنت خير أم عبد الله ؟! أنت خير أم عبد المطلب ؟! إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك . لقد أفضحتنا فى العرب حتى طار فيهم أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهنا ، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

— قل يا أبا الوليد أسمع .

— يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى .

كان عتبة بن ربيعة ملتصقا بالأرض محصورا فى دنياه لما كان يحدث ربيب السماء ، إنه يعرض على رسول الله ﷺ عرض الدنيا الزائلة ، يعرض عليه الأموال دون أن يدرى أن محمدا عليه السلام قد زهد فى الثروة ، فهو يرى أن الكنوز مثقلة بدموع العبيد ، وأن الثروات التى تجمع عن طريق استغلال الناس تناقض روح الإنسانية الخيرة التى يدعو إليها ، إنه يعرض عليه الملك ! إنه يفتح أمامه أبواب دار الندوة لا ليكون سيدا من

سادتها بل ليكون صاحب الرأى الأخير فيما يقررونه . إن مقاييس عتبة بن ربيعة الذى نيف على المائة عام مقاييس هابطة لا تتجاوز دنياه المادية التى لا تعرف من اللذات إلا اللذائذ الحسية ، و لم يستطع أن يفهم أن دعوة رسول الله ﷺ إنما تستهدف أول ما تستهدف أن ترفع الإنسان من الأرض إلى عالم الملكوت ، وأن تعيد إليه كرامته بانتشاله من الحيوانية التى تردى فيها ، وأن كنوز الأرض وملك الدنيا الفانية لا تساوى لحظة أنس بربه أو النظر إلى وجهه الكريم .

ما قدر الشيخ عتبة رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — حق قدره لما قال له : أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فما خطر له على قلب أنه جالس إلى خير خلق الله .

انتظر — ﷺ — حتى فرغ عتبة فقال :

— لقد فرغت يا أبا الوليد ؟

— نعم .

— فاسمع منى :

— فأفعل .

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروهِ وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أإنكم لتكفرون بالذى

خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾[1] .

أنصت عتبة وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله ـــ ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك وهو يرتجف من الرأس إلى القدم ، ولكنه عليه الصلاة والسلام استمر فى القراءة : ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون * فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون * وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون * ويوم يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا

---

(١) فصلت ١ ـــ ١٣ .

قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين * وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون * فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون * ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين * إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم * ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم * ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾[1] .

---

(١) فصلت ١٤ ـــ ٣٧ .

فسجد رسول الله — ﷺ — ثم قال :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة بن ربيعة مأخوذا بما سمع ، إنه ينيف على المائة ، وقد سمع أشعار فحول الشعراء واشترك فى تشريف بعض روائع الأشعار وسمح بتعليقها فى الكعبة ، ولكن ما سمعه من الأمين يفوق كل ما سمع طوال حياته من نشيد ، وإنه قد جاب الأسواق وألقى سمعه إلى كل حكماء العرب فى عكاظ ومجنة وذى مجاز وفى أسواق الشام واليمن فما بلغ أحدهم ما بلغه قرآن ابن عبد الله ، وقد سمع قصص النضر بن الحارث وأمية بن أبى الصلت وأحاديث الكهان فما بلغ قصص ولا أحاديث روعة ما شنف به محمد — عليه السلام — أذنيه ؛ فرقة القرآن تسرى فى روحه فتملؤه نشوة على الرغم مما استبد به من خوف .

ودنا عتبة من أصحابه فرأوا فى وجهه شرودا وحيرة ، فقال بعضهم لبعض :

— واللات والعزى لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فجلس إليهم فقالوا له :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟

— ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها إلىَّ . خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

— هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

٣

راح الملأ من قريش يفكرون فيما قال عتبة بن ربيعة . إنه ينصحهم بأن يخلوا بين محمد — ﷺ — وبين الناس فإما أن يقتله العرب فيريحوهم منه ومن ثأر بنى هاشم ، وإما أن يظهر على العرب فيصبح ملكه ملكهم وعزه عزهم ، فلم يعجبهم ذلك المنطق فقد كانوا جميعا إما حاسدين أو خائفين على ما فى أيديهم من نفوذ .

وكان حديث عتبة نذير اشتداد خطر الدين الجديد ، فإن كان قرآن محمد قد سحر ببيانه شيخا من فرسان البيان فإنه سيلعب بألباب الناس إذا ألقوا إليه سمعهم ، فقامت القبائل تعذب من أسلم فيها لعل المؤمنين بدعوة ابن عبد الله يعودون إلى دين الآباء ، ولعل الأصوات التى ترتل ما أتى به محمد تصمت قبل أن تشتد الفتنة وتغمر كل الدور .

كان العذاب ينزل بالمسلمين ، وكان الحوار دائرا بين رسول الله عليه السلام وبين سادات قريش . وذات يوم اجتمع على ظهر الكعبة شيبة بن ربيعة وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأبو البحترى والوليد بن المغيرة وأبو جهل وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش ، فقال بعضهم لبعض :

— ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به .

فبعثوا إليه :

— إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك .

فجاءهم سريعا وهو يظن أن الله قد شرح صدورهم للإسلام وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه تعنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا :

— يا محمد ، إنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة ، وما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الرئى الذى يأتيك تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

إنها نفس مقالة عتبة ما زادوا عليها شيئا ، أفيضيق رسول الله — ﷺ — بهم فيقول : أف لكم ، ثم يوليهم ظهره ؟! ما كان صلوات الله عليه ليضيق بذلك الحوار بل كان يجد فيه خير فرصة لنشر دعوته بين الناس ، فقال :

— ما بى ما تقولون . ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله عز وجل بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم .

— يا محمد فإن كنت غير قابل من ما عرضنا فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا ، سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك فليسير عنا هذه الجبال اللتى ضيقت علينا ، ويبسط لنا

بلادنا ، ويجرى فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن ممن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول حق هو ؟ فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول :

ـــ ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله سبحانه بما بعثنى به ، فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوا فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله .

ـــ فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ، وسله فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك ، فإنك تقوم فى الأسواق وتلتمس المعاش .

ـــ ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا .

ـــ فأسقط علينا كسفا من السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل .

ـــ ذلك إلى الله إن شاء فعل .

فقال قائل منهم :

ـــ لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

وقال عبد الله بن أمية المخزومى ابن عاتكة بنت عبد المطلب عمته ـــ ﷺ ـــ :

ـــ لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما وترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتى بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول .

فانصرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى أهله حزينا ، فابن خالته النضر بن

الحارث يسخر منه ، وها هو ذا ابن عمته يناصبه العداء ، وعمه أبو لهب قد انضم إلى الكافرين برسالته ، ويساليته نصره كعمه أبي طالب دون أن يدخل فى دين الله . بل إنه يسير خلفه حتى إذا ما وقف ينذر الناس نصحهم عمه بأن ينفضوا من حوله لأنه مجنون !

إن من اتبعوه يعذبون ليفتنوا عن دينهم ، وهو يرى ما ينزل بهم من اضطهاد فيعتصر قلبه حزنا عليهم دون أن يستطيع أن يرفع عنهم آلام العذاب . إنه يأمرهم بالصبر حتى يأتى الفرج من عند الله ، وإنه ليصبر على ما يقول قومه وإن كان ليحزنه ما يقول فهم يتهمونه بالسحر والكهانة والجنون بعد أن لبث فيهم سنين وعرف بينهم بالأمين .

كان الأسى يلفه ، وكانت خديجة الطاهرة وسيدة نساء قريش تبذل كل ما فى طاقتها من حنان لتمسح عنه الأحزان ، وكانت تواسيه لا تبخل بمالها ولا بعواطفها بل تنفق كل شيء بسخاء لتأييد زوجها الكريم فى إنذار الناس وتبليغ رسالات ربه ، كانت خديجة البلسم لجراح نفسه ، الملاذ بعد الله إذا ما ضاقت الدنيا واشتد الكرب وانهمرت الدموع .

وكان دائم الأحزان فابنته زينب قد آمنت بالله ولكنها تعيش فى كنف ابن خالتها هالة بنت خويلد الذى لم يشرح الله قلبه للإسلام ، فلو أن زوجها أبا العاص بن الربيع يحبها فهى تعيش بين أناس كافرين ما أكثر ما يلمزونها ويحيلون حياتها التى كانت هادئة هانئة إلى عذاب أليم ، وابنتاه العزيزتان رقية وأم كلثوم قد طردتا من بيت عمه أبى لهب بعد أن نزل القرآن بهجاء عمه وامرأته أم جميل . ولو أن عثمان بن عفان قد تزوج رقية وحقق حلمه الذى كان يهفو إليه إلا أنهما لم ينعما بما كانا يرجوان من سعادة واستقرار ، فقد صارا هدفا لسخرية بنى أمية وتحقيرهم ، وابن عمه

أبو سفيان بن الحارث شاعر بنى هاشم ، بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب من كان يحبه من كل قلبه ولا يطيق فراقه ، قد وقع الجفاء بينهما ، بل إن ابن عمه لم يكتف بالقطيعة بل أعلن عداوته كما أعلنها من قبل النضر بن خالته وعبد الله بن أبى أمية ابن عمته عاتكة .

وراح يفكر فيما نزل بأتباعه من ألوان الاضطهاد . فاضت روح ياسر وزوجته سمية ، وعذب خباب بالنار ، وعذب الزبير بن العوام بالدخان ، وقرن أبو بكر وطلحة وضربا ضربا مبرحا ، وذاق بلال الأهوال ، واضطر عمار بن ياسر أن يعطى معذبيه ما يريدون بلسانه وقلبه عامر بالإيمان ، ولم يحتمل ضعاف النفوس العذاب فارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان .

إنه رأى فى منامه أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل ولا يحسبها إلا يثرب ، وقد قص على أتباعه رؤياه فكانوا يهرعون إليه بعد ما ينزل بهم من عذاب ويقولون متى نخرج ؟ فيقول لهم فى أسى وصدق إنها رؤيا رآها وأنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه .

إن سادات قريش قاسية قلوبهم ، وإنهم ليتفننون كل يوم فى ألوان الاضطهاد الذى ينزلونه بمن شقوا عصا الطاعة وخرجوا على الجماعة ، وقد صارت العداوة ضارية بينهم وبين المسلمين فى مكة خشية أن تنتقل دعوة أبى القاسم إلى القبائل فيصعب عليهم إخمادها ، فكانوا ينتشرون فى مكة كلها ليشوهوا دعوته ، وإنهم لينظمون هجاءه ويحفظونه للصبية لينشدوه خلفه أينما سار .

وفكر فى عمه حمزة بعد أن شرح الله قلبه للإسلام ، إنه فتى قريش وأعز فرسانها ، وقد امتنعت قريش عن إنزال الأذى به بعد أن أعلن عمه على الملأ أنه على دينه . ولكن ماذا يستطيع حمزة أن يفعل وحده ليرغم القبائل على

أن تكف عن إنزال العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وطاف بذهنه عمر بن الخطاب . إنه قوى وهو عدو لدود للإسلام ولكن معدنه طيب . فلو شرح الله قلبه للإسلام لكان ذلك نصرا لدين الله ، فراح عليه السلام يبتهل إلى الله فى حرارة أن يؤيد الإسلام بعمر .

ورن فى أذنيه بعض ما قال له الكافرون : سل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك ... سل ربك فيجعل لك جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة .. ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ فأطرق عليه السلام أسيفا ، وإذا بالروح الأمين ينزل عليه بآيات من ربه : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[1] .

وغسل الوحى ما كان فى نفس رسول الله ــ ﷺ ــ من أحزان ، وربا

---

(١) الإسراء ٩٠ ــ ٩٦ .

فى قلبه إشراق الأنوار وزاده إيمانا على إيمان ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الهدى بعزم جديد فإذا بهم لا ينفكون عن ترديد ما قالوه كلما أنذرهم :

ـ يا محمد ، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله .

وإذا بالقرآن ينزل على رسول الله عليه السلام ليدحض حجتهم : ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون * ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين * قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾(١) .

وكانوا يصغون إلى القرآن وهم فى عجب من أمره ، وكانوا يستشعرون نفس ما أحسه عتبة بن ربيعة لما ألقى سمعه إلى رسول الله عليه السلام ، ولكنهم كانوا يستكبرون ويرتجفون فرقا من ظهور الإسلام خشية زوال سلطانهم على الأرض وشفقة من أن تذهب مكانة مكة الدينية فيذهب ريحهم ويذوب شرفهم ، فمجدهم كله مستمد من أنهم خدام بيت الله ، فلا جرم أنهم ظلوا ألد الخصام لرسول الله وإن سحرهم بيان الذكر العظيم .

ولم يتركوا أى مظهر من مظاهر ما خيل إليهم أنه ضعف دون أن

---

(١) الأنعام ٧ ـ ١٢ .

يسددوا إليه سهامهم . كان محمد عليه السلام قد هجر التجارة وأعرض عن جمع المال لما سلك سبل ربه ، وكانت خديجة قد أنفقت أموالها حبا لله ، وقد زهد فى كنوز الأرض من اصطفاه ربه لرسالته وزوجه الطاهرة سيدة نساء قريش بعد أن عرفا كنوز السماء وذاقا لذة النهل من خزائن الملكوت ، ولم يهتد كفار قريش المشدودون إلى الأرض الذين يعبدون الذهب والفضة إلى تلك الرفعة التى سما إليها رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ، فجاءوا إليه فقالوا :

ـ يا محمد ، إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة ، فنحن نجعل لك نصيبا فى أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه .

كانوا لا يرون إلا ملكوت الأرض وكانوا بعيدين كل البعد عن ملكوت السماء ، فكانوا يحسبون أن النفس لا تتهلل إلا للقوة والمال واللذة الجسدية ، فكانوا يحاولون أن يغروه بالملك والسيادة والسلطان والأموال الممدودة . وقد عرضوا عليه أن يزوجوه ما يشاء من النساء وكانوا يعجبون لرفضه كل ما قدموه إليه من مغريات ولا يفقهون سبب إصراره على أن يسير فى دعوة لن تجلب له إلا المتاعب والعداوات .

فى سبيل أى شيء يضحى بهناءة الدنيا ؟! إنهم لا يرون ما يستحق كل هذه التضحيات لأن قلوبهم التى فى الصدور قد عميت ، أعماها الحسد والاستكبار . وقد نزل القرآن يوضح الأمر لقوم يعقلون : ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم * قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين * قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم

عظيم * من يُصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين * وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[1] .

ودخل رسول الله — ﷺ — الحرم فرأى خمسة نفر من سادات قريش جالسين ؛ كانوا عبد الله بن أبى أمية المخزومى ابن عمته والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى والعاص بن عامر ، فذهب إليهم يدعوهم إلى الهدى وقد شجعه أنه كان يطمع فى إسلام الوليد بعد أن جلس إليه كثيرا واستمع منه كثيرا ورق للقرآن قلبه حتى قال كفار قريش : قد صبأ الوليد .

وجلس عليه السلام يحدثهم ويعرض عليهم الإسلام ثم قرأ عليهم القرآن فإذا بهم يخشعون ، وكأنما خشوا الاستسلام لذلك السحر فقالوا مستهزئين :

— ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى .

فقام عنهم رسول الله — ﷺ — وقد أحزنه الذى يقولون ، فحتى متى يقول لهم إنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وحتى متى يقولون له عن اللات والعزى ومناة وأصنامهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . إنهم لم يكتفوا بذلك اللغو بل إنهم يطلبون منه فى سخرية أن يأتى بقرآن فيه ما يسألونه كأنما القرآن من عنده وليس من عند العليم الخبير .

ولم يطل أساه فقد نزلت آيات فى المستهزئين تقرأ فى المجالس : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو

---

(١) الأنعام ١٢ — ١٨ .

بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون * ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[1] .

٤

السنون تمر ورسول الله — ﷺ — يدور على مجالس قريش يدعوهم إلى الإسلام فيلقون إليه أسماعهم مرة ويعرضون عنه مستهزئين مرات ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه صابر يصدع لأمر الله ويلقى من عطف خديجة ورعايتها وتشجيعها ما ينسيه قسوة ما يتحمل من آلام .

كان المسلمون يزيدون بيد أنهم يزيدون بالآحاد ، لم يدخل الناس فى دين الله أفواجا . وكان المستضعفون منهم يقاسون الاضطهاد وينزل بهم العذاب ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريش يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابهم إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبى لهب فقد انضم إلى بنى أمية

---

(١) يونس ١٥ — ١٨ .

رهط زوجه أم جميل فى عداوتهم لابن أخيه .

فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره فى جهدهم معه وحدبهم عليه ، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشدَّ لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره ، فقال :

إذا اجتمعت يوما قريشٌ لمفخر
فعبد مناف سرها وصميمُها
وإن حُصِّلت أشراف عبد منافها
ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا
هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها
علينا فلم تظفَر وطاشت حلومها
وكنا قديما لا نُقر ظلامة
إذا ما ثَنوْا صُفر الخدود نُقيمها
ونحمى حماها كلَّ يوم كريهة
ونضرب من أجحارها من يرومها(١)
بنا انتعش العود الذواء وإنما
باكنافنا تندى وتنمى أرومها(٢)

وراح رسول الله — ﷺ — يدعو قومه وهو فى منعة من بنى هاشم وبنى المطلب وإن لم يتبعوه على دينه ، فقد كان له على عشيرته حق الحماية

---

(١) بقصد : من يريدها بشر .
(٢) أصولها العريقة .

وإن سفه الأحلام وخالف دين الآباء .

وكان أعداؤه فى حيرة من أمره ، وأمر ذلك القرآن الذى ينزل عليه من السماء فما كانوا بقادرين على أن يتهموه بالكذب بعد أن مكث فيهم عمرا من قبل وعرفوه بالصادق والأمين ، فكانوا يقولون مرة إنه شاعر على الرغم من علمهم بأن ما أوحى إليه ليس بالشعر ، ويقولون تارة أخرى كاهن وإن لم يكن فى القرآن سجع الكهان . ويقولون أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليهم بكرة وأصيلا . فكان القرآن الكريم يرد كيدهم إلى نحورهم : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾(١) .

واستمر رسول الله يدور على نوادى قومه . برتل آيات ربه : ﴿ ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴾(٢) .

وفيما هو فى غدوه ورواحه فى الحرم رأى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر ، فجلس إليه عليه السلام وجعل يعظه

---

(١) الحاقة ٣٨ — ٥٢ .

(٢) هود ١ — ٤ .

والأخنس يصغي فى اهتمام ويظهر لرسول الله — ﷺ — ما يسره وإن كان يضمر فى قلبه خلاف ما يظهر ، فلما قام عليه السلام عنه نزل عليه الوحى يفضح أمر الأخنس : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾(١) .

وكان عذاب المستضعفين لا يخبو له أوار ، وكان الجدل شديدا بين الرسول صلوات الله عليه وبين الكافرين ، فما من آية من آيات القرآن تنزل عليه إلا ويجادلونه فيها محاولين أن يجدوا ثغرة ينفذون منها للطعن فى ذلك الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

جاءوا إليه يقولون :

— تزعم أنك نبى يوحى إليك وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيى الموتى ، فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث ومزارع ونأكل ، وإلا فادع الله تعالى أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلموننا ، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التى تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم .

فبينا هم حوله والمسلمون يرمقونه فى ثقة إذ نزل عليه الوحى فتهللت وجوهم بالبشر ، فقد كانوا على يقين من أن ربهم يوحى إلى رسوله الكريم فصل الخطاب ، فلما سرى عنه راح يتلو : ﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييأس

---

(١) هود .

الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دراهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد * ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾(١) .

كان الوحى ينزل عليه وهو بين الناس وهو على راحلته وهو فى بيته ، فما كان ينطق عن الهوى ، فبينا كان رسول الله — ﷺ — بفناء بيته بمكة جالسا إذ مر به عثمان بن مظعون فعرج إلى النبى — ﷺ — فقال له :

— ألا تجلس ؟

— بلى .

فجلس عثمان بن مظعون إليه مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص بصره إلى السماء فنظر ساعة وأخذ يضع بصره حتى وضع على عتبة فى الأرض ، ثم تحرف عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستنقه ما يقال له ، ثم شخص بصره إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى فى السماء ، وأقبل على عثمان كجلسته الأولى فقال عثمان :

— يا محمد ، فيما كنت أجالسك وآتيك ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة .

— ما رأيتنى فعلت ؟

— رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حتى وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتنى فأخذت تنفض رأسك كأنك تستنقه شيئا

---

(١) الرعد ٣١ — ٣٢ .

يقال لك .

ـــ أو فطنت إلى ذلك ؟

ـــ نعم .

ـــ أتانى رسول الله جبريل عليه السلام آنفا وأنت جالس .

فماذا قال لك ؟

ـــ قال لى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[1] .

فأحس عثمان بن مظعون الإيمان يستقر فى قلبه ، وحب محمد ﷺ يملأ أقطار نفسه .

كان إسلام فرد يدخل السرور على قلبه عليه السلام ، وكان يفرح لخروج إنسان من الظلمات إلى النور ويرجو من كل قلبه أن ينتشل قومه من الجهالة التى يضربون فيها وأن يقودهم إلى الصراط المستقيم . وكان يحزن أشد الحزن لإعراض الناس عنه حتى إن الله أنزل عليه : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾[2] .

وكانت المناقشات محتدمة بين الرسول عليه السلام وسادات قريش ، كان يطمع فى أن يشرح الله قلوبهم للإسلام وكانوا يطمعون فى أن يثنوه عن دعوته التى سفهت أحلامهم وعابت دينهم وكادت أن تطوى الأرض من تحت أقدامهم ، وكانوا متأهبين للتنازل عن غلوائهم وأن يسيروا معه شوطا على أن يسير معهم شوطا ويكف عن صلابته فى دعوته ويجعل لآلهتهم نصيبا مع إلهه ، فكانوا يلينون له لعله يركن إليهم ويجنح للمهادنة

---

(١) النحل ٩٠ .　　　(٢) الشعراء ٣٠ .

والسلام .

وذات يوم جلس مجلسا فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة ، وجعل يقرأ عليهم القرآن ويعرض عليهم الإسلام ثم يقول لهم :

— هل ترون بما أقول بأس ؟

فقالوا :

— لا .

ورأى منهم مؤانسة وطمع فى إسلامهم فراح يحدثهم ، فجاء عبد الله ابن أم مكتوم ابن خالة خديجة سيدة نساء قريش يقوده غلام ، فقد كان أعمى ، فصار يقول :

— يا رسول الله علمنى مما علمك الله .

فشق عليه — ﷺ — ذلك وأشار إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه ، فكفه القائد ، فدفعه ابن أم مكتوم وقال :

— استدننى يا محمد .. أرشدنى يا محمد .

فعبس — ﷺ — وأعرض عنه مقبلا على وجوه قريش ، فعاتبه الله تعالى فى ذلك : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ﴾(١) .

وهرع رسول الله — ﷺ — إلى من عاتبه فيه ربه وأقبل عليه يعلمه مما

---

(١) عبسى ١ — ١٠

علمه الله ، ويرشده إلى الحق حتى أضاءت بالأنوار بصيرته : وأسلم ابن خالة خديجة ، وقد فرحت الطاهرة لإسلامه وإن كانت تتمنى أن يشرح الله إلى الإسلام صدر ابن أخيها حكيم بن حزام .

كانت دار الندوة بيد حكيم وكان يفعل المعروف ويصل الرحم ويتصدق ويعالج البر ، وكان رجلا تاجرا يخرج إلى اليمن وإلى الشام فى الرحلتين فكان يربح أرباحا كثيرة فيعود على فقراء قومه ، وما كان يعبد شيئا ، يريد بذلك ثراء الأموال والمحبة فى العشيرة . وكان يحضر الأسواق ، وكان مجدودا فى التجارة ما باع شيئا قط إلا ربح فيه ، وكان من المطعمين وكان راجح العقل فدخل دار الندوة وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولم يدخل دار الندوة للرأى أحد حتى يبلغ أربعين سنة ، فلو أن حكيم بن حزام قد دخل فى دين الله لتبعه ناس كثيرون ولخضد[1] ذلك من شوكة سادات قريش الحانقين على الدعوة الجديدة .

كانت خديجة ترجو إسلام حكيم ابن أخيها فهى تحبه حبا صادقا وتتمنى أن تزحزحه عن النار ، وكان رسول الله — ﷺ — يرجو إسلام عمر ابن الخطاب فهو وإن كان يبدو قاسيا فى اضطهاد المسلمين فما ذلك إلا لانه قوى جبار معتد بشخصيته مؤمن بدينه ، فلو أن الله شرح صدره للإسلام لساند دين الله بشجاعة المؤمنين ، فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

كان عمر بن الخطاب وشباب بيوت شرف قريش ينزلون صنوف العذاب بالمسلمين ، وكان الحوار حارا بين رسول الله (ﷺ) وبين

---

(١) خضد الشجر : قطع شوكه .

وجوه قريش ، فكثيرا ما كانوا يجتمعون به فى الحرم يصغون إلى القرآن ويسخرون منه ويستهزئون به ، حتى إذا نزل الوحى بالحجج الدامغة وضيق عليهم الخناق كانوا يهرعون إلى دار أبى طالب يسألونه أن يحضر لهم ابن أخيه ، حتى إذا ما حضر شكوه إليه وسألوه أن يجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح .

وكانوا يعاتبون الرسول (صلوات الله وسلامه عليه) على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم ويعرضون عليه المال والشرف والملك والطب ، فما كان ذلك كله ليغرى رسول الله — ﷺ — فقد أمر أن يكون لهم بشيرا ونذيرا .

إنه صامد صابر لا يتزحزح عن دعوته لا يثنيه عنها وعيد ولا يفلح فيه تهديد ولا يسيل لعابه للأموال ولا للملك والسلطان ، فأيس أشراف قريش من أن يردوه إلى دينهم فرأوا أن يدخلوا معه فى مساومة ، أن يقبل أن يلتقى بهم فى منتصف الطريق . فانطلق الأسود بن زمعة والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبو جهل إلى منزل أبى طالب وسألوه أن يحضر لهم ابن أخيه ، فأرسل إليه فجاء عليه الصلاة والسلام مسرعا طمعا فى هدايتهم ، حتى جلس إليهم فعادوا يعرضون عليه الأموال والشرف والملك فقال :

— ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا .

فقال عتبة بن ربيعة :

— إن كان ما بك الباه فاختر أى نساء قريش فنزوجك عشرا .

— ارجع إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل بكل ما تحتاج إليه فى دنياك وآخرتك .

كفار قريش يتكفلون لرسول رب العالمين بكل ما يحتاج إليه فى آخرته ، لم تكن لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، فقال رسول الله عليه السلام :

— بلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، وإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بينى وبينكم .

رفض الأموال والملك ولذات الأرض ، رفض أن يعود إلى الظلمات بعد أن أشرق قلبه بنور ربه ، فقالوا له :

— إن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح .

— وما هى ؟

— تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ونعبد إلهك سنة ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبده خيرا مما نعبده كنت قد أخذت منه بحظك ، وإن كان الذى نعبد خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا .

وأصبح محمد — ﷺ — سيد الموقف ، صارت له الكلمة العليا ، فقد قبلوا أن يشركوا الله مع آلهتهم ولكنه لم يقبل أن يشرك آلهتهم مع الله ، ارتضوا المساومة فكان ذلك بداية الانهيار وإن ركبوا رءوسهم وحاربوا الإسلام فى ضراوة ، وقد تمادوا فى التنازل فقالوا :

— اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا

لنعبد معك إلهك سنة .

وأبى رسول الله — ﷺ — أن يقبل ذلك الشرك وقد جاء ليمحق الشرك . وغادر دار عمه أبى طالب وهو الأعلى لم يتزحزح عن دعوة ربه قيد شعرة ، فهو على هدى من ربه وعلى يقين من أن حزب الله هم الغالبون .

وانطلق سادات قريش يرهق وجوههم قتر وذلة كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما وضل عنهم ما كانوا يفترون ، جاءوا يلتمسون من يتيم قريش أن يكف عن عيب آلهتهم لقاء الأموال والملك والنساء وليعود إلى ملة آبائه ، فلما أعرض عنهم عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه شهرا على أن يعبد آلهتهم يوما وكانوا يحسبون أن سيشكر لهم ذلك الكرم ، فإذا به يذلهم بالرفض بعد أن أذلوا آلهتهم وأنفسهم بالعرض المهين .

وعادوا إلى مجالسهم فى الحرم وقد أطرقوا برءوسهم يفكرون فيما قرأ عليهم سليل بنى هاشم : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنَّى تصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون * قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنَّى تؤفكون * قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمَّن لا يهدى إلا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون * وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى عن الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون * وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب

العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين * وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون * ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

كان القرآن يرن فى أغوارهم رهيبا يحرك العجب فى نفوسهم ، وكانوا يستشعرون ضآلة شأنهم كلما ألقوا سمعهم إلى آى الذكر الحكيم . ولكن سرعان ما يثور حقدهم وتتحرك كبرياؤهم ويستولى عليهم غرورهم فيلجُّوا فى النكران البغيض .

ودخل رسول الله — ﷺ — الحرم ثابت الخطو مرفوع الرأس وجلس يقرأ فى شجاعة منقطعة النظير : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾[2] .

واربدت وجوه الكافرين وانتقع لونهم وهم يتميزون غيظا من ذلك الأعزل من كل سلاح الذى يلقى فى وجوههم بذلك القول الغليظ . ولم يفطنوا إلى سر تلك القوة فما كانوا يتصورون أن فردا واحدا مهما منعته عشيرته بمستطيع أن يقف فى وجه قومه ، إنه أعلنها حربا لا هوادة فيها فى

---

(١) يونس ٣١ — ٤٤ . (٢) سورة الكافرون .

سبيل الله حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو خير الحاكمين .

إنه لم يكتف بأن يقول : لا أعبد ما تعبدون . بل راح يكرر فى توكيد أنهم لن يعبدوا ما يعبد لأنه لن يعبد أبدا آلهتهم لا شهرا ولا يوما ولا طرفة عين . إنه تحداهم على الملأ فلن تكون مهادنة بعد اليوم ، ولن يرحموه ولن تأخذهم رأفة فى أصحابه بل غلظة وقسوة وعذاب وإسراف فى الطغيان والتنكيل حتى يعود الصابئون إلى دين الآباء صاغرين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

٥

كان القمر فى السماء هلالا والمشاعل تنير طرقات مكة فتحيل الليل نهارا ، والناس فى غدو ورواح بين الدور والحرم حيث أناخت الرواحل فقد وافى الموسم وراح المكيون يتأهبون للخروج إلى الأسواق .

كان العبيد يحملون التجارة من مخازن التجار إلى ظهور الجمال ، والرجال والنساء والصبيان يتدفقون كالروافد من شعاب أم القرى وفجاجها ليصبوا فى البيت العتيق حيث اجتمع الناس ، وراح بعضهم يموج فى بعض جادين وعابثين قد انعكس فى الأعين فيض القلوب ، وراح أناس يتدافعون بالمناكب ليدخلوا إلى جوف الكعبة ليضربوا بالقداح عند هبل لاستشارته فى الخروج ، وراح آخرون يتمسحون بأصنام الآلهة ، بينا الأيسار الذين تأهبوا لتمضية الليل فى لعب القمار كانوا يذبحون الجزور بين إساف ونائلة .

وخارج الحرم بائعات اللذة ، وكن فتيات سادات قريش يجمعن

الأموال من البغاء ثم يحملنه إلى صناديق الرجال المتعطشين إلى الأموال الذين ما كانوا يحفلون من أين جاء الذهب والفضة والورق ما دامت الثروات تتدفق إلى خزائنهم .

وفى خيام البغايا قدمت الخمور التى جلبت من الشام ، ومنها جلجلت ضحكات الماجنين حتى غطت على أنين الأرقاء الذين كانوا غادين رائحين كالدواب يحملون تجارة السادة والسياط تلهب ظهورهم ، وأصوات الزجر تمزق آذانهم وتنزل الرهبة فى قلوبهم :

ويمم وجوه قريش إلى حى بنى مخزوم وقد لاح الهم فى العيون ، فقد تواعدوا على أن يجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة ليتشاوروا فيما يفعلونه فى الموسم ، ولم يكن ذلك الموسم كغيره من المواسم بل كان ذا شأن جليل ، فمحمد بن عبد الله سيعرض ما جاء به على القبائل فإن خلوا بينه وبين العرب فقد يسحر الناس بقرآنه فيؤمنوا به ويجد بينهم أنصارا ينصرونه فيخرج الأمر من بين أيديهم وفى ذلك خطر عليهم عظيم .

واكتمل عقدهم فقام الوليد فقال :

ـــ يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستفد عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا :

ـــ فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به .

ـــ بل أنتم فقولوا أسمع .

ـــ نقول كاهن .

ـــ لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا

سجعه .

— فنقول مجنون .

— ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوته .

— فنقول شاعر .

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

— فنقول ساحر .

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فلا هو بنفثه ولا عقده .

— فما تقول يا أبا عبد شمس ؟

— والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق(١) وإن فرعه لجناه ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته .

وذهب أبو بكر وعثمان وطلحة وعمار بن ياسر وبلال وسعد بن أبى وقاص والأرقم بن أبى الأرقم وعثمان بن مظعون وعبد الله بن مسعود والمسلمون إلى دار خديجة وقد عزموا على أن يحرسوا رسول الله — ﷺ — خشية أن يغتاله أعداؤه فى الموسم فى سوق من الأسواق ، فقد بدت العداوة من أفواههم وما تخفى صدورهم أعظم .

---

(١) العذق : النخلة ، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

وخرجت قريش إلى سوق مجنة وكانت قريبة من مكة وأشياخها يختلسون النظر إلى محمد عليه السلام وصحبه كأنما يعدون عليه أنفاسه ، وكان عمه أبو لهب أكثرهم مراقبة له فهو قد بيت العزم على أن يفض الناس عنه إذا ما التفوا حوله وتأهبوا للإصغاء إليه . وانطلقت القافلة تحمل الكافرين الذين اتفقوا على أن يرموا رسول الله — ﷺ — بالسحر والذين أنزل الله فيهم : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾[1] . وتحمل فئة قليلة مؤمنة بربها وضعت كل آمالها فى رسوله الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور :

كانت قريش غنية بأموالها غنية برجالها معتزة بمكانتها فى العرب ، بينما كان محمد — ﷺ — وصحبه فقراء فى المال أغنياء بنور الله الذى أشرق فى قلوبهم أقوياء بالله رب العالمين ، فكان أشراف قريش شامخين بأنوفهم شأن الجاهلين ، وكان عليه السلام وصحبه من المؤمنين متواضعين لله شأن المتقين .

ونزلت قريش فى مجنة وقد أقيمت الخيام وراح الناس يردون الماء تأهبا لأيام السوق العشرة ، ودخل رسول الله — ﷺ — القبة وقد أحاط بها صحبه يحرسونها فقد كانوا يخشون قريش وما أكثر من اغتالهم الغدر فى الأشهر الحرم .

وأمست السوق غاصة بأهل العداوة والمبادأة لرسول الله — ﷺ ،

---

(١) الحجر ٩٠ — ٩٣ عضين : أجزاء ، فقالوا بعضه حق لموافقته للتوراة والإنجيل . وبعضه باطل .

وأصحابه الذين يطلبون الجدل والخصومة ، فراح أبو جهل بن هشام وأبو لهب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدى والوليد بن المغيرة وأمية وأبى ابنا خلف وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وزهير بن أبى أمية وعقبة ابن أبى معيط والحكم بن العاص يرصدون قبة أبى القاسم ، حتى إذا ما خرج منها ليدعو الناس إلى ما جاء به خفوا إليهم لينفروهم عنه .

كان رسول الله — ﷺ — يفكر فيما ينبغى عليه أن يفعله من أجل الدعوة فى الموسم ، فالقبائل ستفد من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب إلى الأسواق ثم تتدفق إلى البيت العتيق لتأدية مناسك الحج ، وإنها لفرصة طيبة أن يعرض نفسه ودين الله على القبائل لعل الله يجعل أفئدة من الناس تشرق بأنوار الإسلام فيأتى النصر المبين .

إنه ليحس أن فى هذه الأسواق ستتألق دعوته ، وأن فيها ستهفو قلوب إلى الحق وتؤمن بالله وحده وتعز الدين ، ولكنه تذكر أنه وحده ليس معه إلا فئة قليلة من المؤمنين ، وأن أعداءه يتربصون به فماذا يستطيع هو والمستضعفون الذين معه أن يفعلوا أمام ذلك البحر الزاخر من العرب المشركين ؟!

أشفق على نفسه وعلى المستضعفين الذين ذاقوا صنوف العذاب صابرين فى سبيل نصرة دين الله . وفيما هو فى تدبره وتقديره إذ نزل عليه الوحى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[1] فأخرج رسول الله — ﷺ — رأسه من القبة فقال

---

(١) المائدة ٦٧ .

لصحبه الذين كانوا يحرسونه :

— أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله .

ثم خرج من القبة مطمئن الفؤاد لا يخشى غدرا ولا غيلة بل يستشعر سكينة بعد أن أوحى إليه أن الله كتب على نفسه أن يحفظه ، ووقف ليدعو الملأ فى السوق إلى الإسلام ويتلو عليهم آيات الله البينات ، وإذا بشياطين قريش يهرعون إلى من تجمعوا حوله ليفضوهم عنه . فقال أبو لهب :

— هذا ابن أخى .. إنه ساحر كذاب .

فقال عليه السلام :

— ما أنا إلا نذير مبين .

فقال أبو جهل :

— إنه لمجنون .

— إن أتبع إلا ما يوحى إلى .

— بل شاعر نتربص به ريب المنون .

وارتفع صوت الرسول عليه صلوات الله وسلامه ببعض آى الذكر الحكيم فارتفعت أصوات الكافرين من قريش حتى غطت على صوته :

— هذا سحر مبين

— افتراه .

— إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه ، وكفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم .

وحاول المؤمنون أن يوضحوا للناس حقيقة الدين القويم فإذا بالملأ الذين استكبروا من قريش يقولون :

— لو كان خيرا ما سبقونا إليه . هذا إفك قديم .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

وارتفعت أصوات المكذبين :

ــ لو شاء ربنا لأرسل ملائكة .

واستمر أعداء رسول الله ــ ﷺ ــ يجاهدون فى فض الناس من حوله حتى نجحوا فى إعراض الذين جاءوا إلى سوق مجنة عن الهادى الراشد بعد أن رموه بالجنون وبالسحر وبالكهانة وبالكذب وبكل بهتان وزور . ولم يستطيعوا أن يثبتوا على رميه بالسحر وحده كما اتفقوا مع الوليد بن المغيرة فما كان وصفه بالساحر ليجعل الناس يعرضون عن سماع قوله الذى يسحر الألباب ويأخذ بمجامع القلوب .

وانقضت أيام مجنة العشرة ولم يخل كفار قريش بين رسول الله ــ ﷺ ــ وبين الملأ ليبلغ رسالات ربه ، فقد استطاعوا بباطلهم أن يقنعوا الناس بكذب البشر أصدق البشر أجمعين .

وحملت قريش خيامها وتجارتها وانطلقت إلى سوق عكاظ لتجتمع مع القبائل هناك ، وسار عليه السلام وصحبه وقد ضاق صدره بما قال الكافرون وحزن حزنا شديدا لعدم استجابة أحد من الناس لدعوته الصادقة ، وراح يمنى النفس بأن تتاح له فرصة مخاطبة القبائل فى حرية فى عكاظ ثم لهم بعد ذلك أن يقبلوا ما جاءهم به أو يرفضوه .

كان كل ما يريده أن يخلى قومه بينه وبين الناس وأن يمنحوه نفس الحق الذى يمنح لذوى الرأى والشعراء الجادين والماجنين ورواة الأخبار. فحرية القول مكفولة فى أشهر سوق عرفها العرب .

وفى صبح هلال ذى القعدة كان الناس على مراعيهم وراياتهم منحازين

فى المنازل يضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويحكم بين الناس فى القضايا حكم تقر بسلطانه القبيلة . وكان لكل حى من أحياء قريش حكم ، فأبو طالب فى بنى هاشم وأبو سفيان فى بنى أمية والوليد بن المغيرة فى بنى مخزوم والعاص بن وائل فى بنى سهم وعتبة بن ربيعة فى بنى عبد شمس وعمر بن الخطاب فى بنى عدى ، وقد عزل ولا ريب عن الحكومة فى بنى تيم أبو بكر فما كان الكافرون يرتضون أن يفصل بينهم من عاب الآلهة وسفه الأحلام وسخر من معتقدات الآباء .

وتحت راية قريش كان الانقسام : فئة قليلة مؤمنة قد أسلمت وجهها لله ليس لها مطمع فى الحياة إلا أن تخرج البشرية من ظلمات الجهالة إلى نور الله ، وفئة كثيرة كافرة أبت كبرياؤها أن تلقى السمع إلى بشر يوحى إليه بل أعرض أكثرهم وقالوا :

ـــ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون .

وذهب الناس إلى العبلات يطوفون بها وينحرون عندها بينا راح محمد عليه السلام وصحبه يصلون لله رب العالمين وراء الرابية التى كانت تطل على السهل المنبسط الفسيح الذى كان يخفق بقبائل العرب .

وماجت السوق بالتجار والشعراء والنصارى واليهود والمجوس والمشركين وطلاب اللهو وتجار الرقيق وبائعى الخمر وبائعات الهوى من صاحبات الرايات الحمر والنخاسين والدلالين ، وضربت فى السوق حلقات كل حلقة منها بمثابة سوق قائمة بذاتها : حلقة لبيع الإماء والعبيد ، وحلقة للعطارين ، وحلقة للبزازين ، وحلقة للطرف الفارسية والسجاجيد ، وحلقة لحرير الشام ، وأخرى لمنسوجات منف ، وما

غابت سلعة عن السوق .

وضربت للنابغة الذبيانى قبة ، إنها حلقة الشعر التى يهرع إليها الناس ويصغون إلى النشيد منتشين فالبلاغة تعمل فى نفوسهم عمل السحر المبين ، وجلس سادات قريش الذين يجيزون تعليق جيد الشعر بالكعبة فى صدر المكان فقد بيتوا النية على أن يجعلوا من أيام عكاظ مهرجانا للشعر حتى يحولوا به الأنظار عن محمد بن عبد الله وقرآنه .

وقام شعراء القبائل يتنافسون ، يتنابذون بالألقاب ويتفاضلون بالحقائق ويتفاضلون بالأساطير ويتفاخرون ويتعاظمون ، وتقاطر الناس يسمعون فطاحل شعراء القبائل ويرهفون آذانهم للاستمتاع بشعر شعراء قريش الرقيق ، فقد حشدت قريش من الشعراء من يستطيعون أن يجذبوا الناس طوال أيام السوق العشرين .

وبينا الكافرون فى قمة النشوة جلس رسول الله — ﷺ — ومن حوله صحبه الأبرار وراح يتلو بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين * وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[1] .

---

(١) الأعراف ٥٩ — ٦٥ .

وجاء الناس إليه يستمعون ، ورأى كفار قريش إقبال الملأ من القبائل عليه فقاموا إليهم مسرعين ليفضوهم من حوله قبل أن يستولى على أفئدتهم بسحره المبين ، فلما بلغوهم اندسوا بينهم فقال النضر بن الحارث :

ـــ ما هذا إلا أساطير الأولين .

وقال أبو لهب :

ـــ إن هذا ابن أخى ، إنه لمجنون .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنما أنا نذير والله على كل شىء وكيل .

وتفرق بين الناس الأسود بن عبد يغوث وأمية بن خلف وأخوه أبىّ والحارث بن قيس والوليد بن المغيرة ومنبه بن الحجاج وزهير بن أمية وأبو سفيان بن حرب وعقبة بن أبى معيط وأهل عداوة رسول الله ليجادلوه ويخذلوه ، وجلس عتبة بن ربيعة بعيدا ينظر وهو يستشعر ضيقا فقد سبق له أن عرض على قومه أن يخلوا بين أبى القاسم وبين العرب فإن قتلوه فقد أراحوهم من عداوة بنى هاشم وطلبهم بثأره لو أن قرشيا قد قتله ، وإن ظهر فعزه عزهم ومجده مجدهم ولكنهم رفضوا رأى الأريب .

وقال قائل منهم فى سخرية :

ـــ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم .

ـــ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .

فسرت زمجرة بين الجموع ، ورأى كفار قريش أن يوقدوها نارا فقالوا :

ـــ إنه يسب آلهتنا وآلهتكم ويسفه أحلامنا وأحلامكم .

ـــ إلهكم إله واحد لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه .

— واللات والعزى ومناة ؟!

— أتدعون من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا .

— أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون !

— يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل .

فقال النضر بن الحارث :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

— فليأتنا بآية كما أرسل الأولون .

— إنما الآيات من عند الله إنما أنا نذير مبين .

— لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

— لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى .

وارتفعت الأصوات تطلب آية ، فراح رسول الله عليه الصلاة والسلام يتلو :

— ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[1] .

---

(١) الأنعام ١٠٩ — ١١١ .

وأصغى الناس وخشى كفار قريش أن يسحرهم القرآن بحلاوتــه فراحوا يتصايحون :

ـــ إن هذا إلا إفك افتراه .

ـــ إنما أنذركم بالوحى .

ـــ افتراه .. إنما أنت مفتر .

ـــ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

ـــ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !

ـــ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم .

ـــ أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا لفى ضلال وسُعُر .

ـــ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وتولوا وهو ينظر إليهم وقد ضاق صدره بما يقولون ، وما لبث أن همس فى جوفه هامس يتلو آيات ربه : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[1] ، فقال :

ـــ حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وجاء الليل ومدت الموائد فى السوق بعد أن طهيت الجزور ودار الشراب ، وراحت الفتيات يوزعن على الرجال الضحكات وكشفت

---

(١) الحجر ٩٧ ـــ ٩٩ .

أضواء المشاعل خائنة الأعين ، ثم استجاب الناس إلى نفوسهم الأمارة بالسوء فإذا بسوق عكاظ تنقلب إلى مذبح للشهوات تقدم إليه الأجساد البضة دون حياء وتراق الفضيلة على أعين الناس ، وقد ذهب النسوة إلى أخدانهن فى خطا ثابتة فالأزواج كانوا على علم بالعلاقات المقيتة التى كانت بين أزواجهم وبين رفقائهن وما كان لهم أن يرفعوا صوت الاعتراض ، فذلك شيء تقره تقاليد الجاهلية !

وذهب نسوة للاستبضاع من شاعر نابه أو شريف ذى رأى أو فارس لا يشق له غبار أو حكيم من حكماء القبائل ، استجابة لأزواج يحبون أن يأتوا بذرية نابهة لها شأن ! وراح محمد ـ ﷺ ـ ينظر وهو حزين ، فقومه يتخبطون فى الظلمات ويرفضون يده التى يمدها إليهم ليخرجهم إلى النور ، وفاض أساه حتى بللت عينيه الدموع ، ثم راح يتلو قول الله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ .

وراح يذكر ربه فى نفسه تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول فى الغدو والآصال حتى لا يكون من الغافلين .

٦

انتهت أيام عكاظ وما خلى المشركون من قريش بين رسول الله ﷺ وبين القبائل ، إذا قام ليعظ الناس ويدعوهم إلى الإسلام أسرع أبو لهب ليقول للملأ الذين تأهبوا لسماعه : « هذا ابن أخى انفضوا عنه إنه لمجنون » . واندس أبو جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأمية ابن خلف وأخوه أبىّ وشياطين قريش بين الناس يغرونهم على ألا ينصتوا إلى

من سب الآلهة وسفه عقول العرب أجمعين ، ويؤلبونهم على من جمع السفهاء حوله والعبيد ليقوض سلطان ذوى المكانة والشرف بعد أن يزعزع عقائد المؤمنين بآلهتهم الذين وجدوا آباءهم لها عابدين .

وانطلقت القوافل من سوق عكاظ إلى سوق ذى المجاز وقد سار رسول الله — ﷺ — وصحبه تحت راية قريش ، وكان رسول الله عليه السلام حزينا ، فهو يريد لقومه الهداية فأبوا إلا كفورا ، وعصوه واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وهو يرجو أن يبلغ رسالات ربه حتى يشرق الكون بنور اليقين ، فكان يضيق صدره بما يقولون ويكتنفه أسى عميق لإعراض الكافرين عن منابع النور .

كان الذين معه فئة قليلة ولكنها فئة من صفوة أحياء قريش ، فمن بنى هاشم جعفر وعلى ، ومن بنى أمية عثمان بن عفان وأم حبيبة بنت أبى سفيان زوجة أبى سلمى المخزومى ، ومن بنى تيم أبو بكر وطلحة ومن بنى أسد الزبير بن العوام ، ومن البطون الأخرى فتية آمنوا بربهم وازدادوا هدى .

ولكنه يريد أن ينتشل عمه الحبيب أبا طالب من أن يتردى فى نار جهنم وأن يشرح الله قلب عمه أبى لهب للإسلام وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، فهو لا يستطيع أن ينسى أن أبا لهب قد أعتق جاريته ثويبة لما بشرته بمولده .

وابن عمه أبو سفيان بن الحارث تربه وشبيهه ومن كان يألفه إلفا شديدا عاداه وهجره وهجا أصحابه وقام فى الأسواق يلقى أشعاره مستهزئا بما جاء به ، إنه يحب ابن عمه من كل قلبه ، يحب أن يلقى الله أنوار اليقين فى فؤاده ليسلك سبل ربه ويفوز بالهداية والفوز العظيم .

وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ، وابن خالته النضر بن الحارث ، وابن عمته المخزومى وزوج ابنته زينب ، وابن

أخت خديجة حكيم بن حزام ، والرجل القوى عمر بن الخطاب ، وفارس بنى مخزوم خالد بن الوليد ، والشاعر الذى يلقن الصبيان أناشيد هجوه عمرو بن العاص ، وطاغية بنى مخزوم أبو جهل ، وأمية وأبّى ابنا خلف ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هشام ، والحكم بن أبى العاص : جيرانه الذين لم ينفكوا عن إيذائه ، لماذا أغلقوا جميعا قلوبهم دون دعوة الحق المبين ؟

إن الصراط مستقيم فلماذا لا يؤمنون ؟ ولماذا تضيق صدورهم حرجا بدعوته وما فيها إلا الهدى والرشاد ؟ إنه حزين حتى الموت يحز فى نفسه إصرار قومه على أن يتقاحموا فى النار وهو ينظر لا يملك أن يأخذ بحجزهم ، كلما حاول أن يحول بينهم وبين العذاب استهزءوا به ونحوه عن طريقهم ليندفعوا فى طريق الضلالة فى إصرار عجيب !

إنه كلما رأى إعراضهم كان يمتلئ أسفا عليهم وينزل بقلبه حزن ثقيل وألم ممض ، حتى أنزل الله عليه : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾(١) .

وبلغت قوافل العرب سوق ذى المجاز فحطت فيها الرحال ، وما وافت مطالع اليوم الأول من ذى الحجة حتى التجت السوق بالناس وقامت كل

---

(١) الشعراء ١ — ٦ .

قبيلة تصلى لإلهها وتدعوه أن يبارك لها فى تجارتها ، فما كانت الصلة بين الأرباب وعبادها إلا صلة منفعة عاجلة : إطالة الأعمار وبسط الرزق وملء خزائن السادة الذين نصبوا من أنفسهم حماة للأوثان والأصنام .

رأى رسول الله — ﷺ — الناس يسجدون لما لا ينفعهم ولا يضرهم ولما لا يملكون لأنفسهم شيئا فلم يستطع أن يسكت على ذلك الضلال ، فقام فى السوق فقال :

— يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تعقلون !

فذهب إليه ناس وقالوا :

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم .

فارتفعت أصوات تعترض :

— لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء .. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟! لو ما أتيتنا بالملائكة إن كنت من الصادقين .

— إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا .

وهرع أبو لهب وشياطين قريش إلى حيث التف الناس بالرسول عليه السلام وراحوا يتصايحون :

— يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .

— إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

ثم راح يرتل : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم

تبصرون * قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم * بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[1] .

وأنصتوا حتى كفار قريش ألقوا إليه سمعهم وما لبثوا أن أفاقوا لأنفسهم ، فذلك الإصغاء قد يجعل قلوب العرب تتعاطف مع أبى القاسم فقال قائل منهم :

ــ افتريته .

فقال رسول الله ﷺ فى هدوء :

ــ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

ــ بل افترى على الله الكذب .

ــ إن افتريته فعلّى إجرامي وأنا برىء مما تجرمون .

والتف وجوه الكفار حوله وقالوا :

ــ يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشترى فتربح ؟ وبالأرض التى يريدأن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصب ؟

أف لهم ! أيقول لهم إن الذهب وتراب الأرض قد تساويا عنده ! أيقول لهم إن ما عند الله خير وأبقى وأن نظرة إلى وجه ربه الكريم بالدنيا وما فيها ؟! أوَ يفقه المتكالبون على الأموال واللذات المادية أنه زهد فى الحياة الدنيا وزينتها وأنه ما جاء إلا ليعيد للبشرية كرامتها وأن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ؟ وفيما هو يفكر إذ نزل عليه الوحى فراح يقرأ على الملأ :

---

(١) الأنبياء ١ ــ ٧ .

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[١] .

وأعرضوا عنه ، وطلبوا منه آية فقال : إنما الآيات عند الله ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له فقال لهم : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم. ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[٢] .

كانوا يعجبون أن جعل الآلهة إلها واحدا وأن الله بعث بشرا رسولا ، وكانوا ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربهم وما قدروا الله حق قدره وقد عجزوا عن أن يحرروا ذواتهم من ماديتهم الطاغية وأن ينزعوا بوجدانهم إلى منابع النور .

وتقضت أيام ذى المجاز الثمانية كما تقضت من قبل أيام مجنة وأيام عكاظ . رسول الله يعرض نفسه على القبائل ويتلو عليهم بعض آى الذكر الحكيم وشياطين قريش يجادلونه ويؤكدون للناس أنه ساحر ومجنون ، ويتحدونه أن يأتى بآية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله .

وانقلب الناس إلى الحرم ليؤدوا مناسك الحج فإذا بالعباس بن عبد المطلب قد وضع أحواض من الأدم فيها ماء قد بث فيه الزبيب تشبها بعبد

---

(١) الأعراف ١٨٨ .   (٢) الإسراء ٩٠ — ٩٤ .

المطلب ، وإذا بالدقيق واللحوم توزع على فقراء الحجاج ، وإذا بقريش قد نصبوا فى الحرم أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف وراحوا يسجدون لها ، فوقف النبى صلوات الله وسلامه عليه وقال :

ـــ يا معشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل ولقد كانا على الإسلام .

فقالت قريش :

ـــ يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى .

ودار الحوار بين رسول الله عليه السلام وقريش ، ورأى سيد منهم الحارث بن عبد العزى زوج حليمة السعدية وكان يعلم مقدار حب ابن عبد الله لأمه حليمة وأبيه الحارث وأخواته الشيماء ونفيسة وعبد الله ، فهو لا يفتأ يذكرهم بالخير ولا ينسى أيام رضاعته التى أمضاها فى بنى سعد ، فخطر له أن يستعين به فى إقناع أبى القاسم بالكف عما هو فيه ويقبل ما عرضه عليه قومه من أموال ونساء وسلطان ، فذهب إليه وقال له :

ـــ أو تسمع يا حارث ما يقول ابنك ؟

ـــ وما يقول ؟

ـــ يزعم أن الله يبعث من فى القبور ، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم فيهما من أطاعه ، فقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا .

فانطلق الحارث إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فلما رآه استقبله بالبشر والترحاب ودعاه أن يجلس وراح يسأله عن أمه حليمة وعن الشيماء ونفيسة وعبد الله بل وعن الجيران ، وبعد أن انتهيا من حديث بنى سعد قال الحارث :

ـــ أى بنى ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى رقة :

ـــ نعم أنا أقول ذلك . ولو كان ذلك اليوم يا أبت فلآخذن بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

واستمر الحارث يصغى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يعرض عليه القرآن ، ولكن الله لم يشرح قلبه للإسلام فقام وهو يرنو إلى ابنه فى إشفاق ومحمد عليه السلام يستشعر أعمق الأسى لأن الحارث لم يصدقه .

وكان الحمس من أهل مكة يقيمون فى قباب من أدم وقد صاموا عن أكل الدسم إجلالا للشهر الحرام ، فراح المسلمون يرقبونهم وهم بهم معجبون ، ثم قالوا لرسول الله عليه السلام :

ـــ نحن أحق بذلك منهم .

ولم ينبس عليه السلام برأى بل انتظر وحى الله فما ينطق عن الهوى . وراح الحمس يكرون للأغنياء الثياب الطاهرة فقد أذاعوا بين الناس أن الطواف بالحرم لا يجوز فى ثياب اقترفوا فيها الآثام ، فكان الأغنياء يلقون ثيابهم ويلبسون ثياب الحمس ، وكان الفقراء من رجال ونساء يطوفون عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة فتعلق على سفلاها سيورا مثل السيور التى تكون على وجوه الحمر من الذباب .

ونزل عليه الوحى فراح يقرأ على المسلمين . وكتاب الوحى على بن أبى طالب وأبو بكر وعثمان والزبير بن العوّام يكتبون : ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين

آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[1] .

وتدفقت جموع الناس إلى عرفة ، وبقى أهل مكة فيها لا يغادرونها بحجة أنهم أهل الحرم ولا ينبغى لهم أن يتركوا الحرم إلى الحل ، بيد أن رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — والذين معه من المسلمين انطلقوا إلى عرفة فقد ألقى فى روع الرسول حتى قبل أن يبعث أن الحج عرفة ، وارتفعت أصوات المشركين بالتلبية :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وراح رسول الله يلبى والفئة القليلة من المسلمين يرددون تلبية التوحيد خلفه :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن النعمة والحمد لك والملك . لا شريك لك .

وضاعت تلبية التوحيد فى تلبية الإشراك التى تجاوبت بها جنبات عرفات ، ورسول الله — عليه الصلاة والسلام — ضيق الصدر بذلك الظلم العظيم . فكيف قبلت عقول البشر تلك الفكرة الظالمة التى جعلت مع الله إلها آخر ؟ وكيف تتحرك ألسنة الناس بذلك البهتان والزور ؟ وراح يقلب وجهه فى السماء كأنما يتطلع إلى ذلك اليوم الذى تتردد فيه تلبية

---

(١) الأعراف ٣١ — ٣٣ .

التوحيد وحدها خالصة لوجه الله الكريم فتتجاوب لها الجبال والوديان والصحارى والسهول . وإذا بآيات الله البينات تسرى فى ضميره : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا * تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[1] .

وغابت شمس يوم عرفة فى الأفق الغربى فراح كرب بن صفوان يدفع بالناس من عرفة . فقد ورث آل صفوان الإجازة بالناس فى الحج من صوفة . وجاء يوم النفر فأتى الناس لرمى الجمار وما كانوا يرمون قبل أن يرمى كرب بن صفوان ، فجاء ذوو الحاجات المتعجلون وقالوا له :

ـــ قم فارم حتى نرمى معك .

ـــ لا والله حتى تميل الشمس .

فراح ذوو الحاجات الذين يحبون التعجل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له :

ـــ ويلك ! قم فارم .

فأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه .

وفرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى ، فأخذ آل صفوان بجانبى العقبة فحبسوا الناس وقالوا :

ـــ أجيزوا آل صفوان .

فلم يجز أحد من الناس حتى يمروا ، فلما نفر آل صفوان ومضوا خُلِّىَ

(١) الإسراء ٤٢ ـــ ٤٤ .

سبيل الناس فانطلقوا بعدهم .

وانتهت أيام الموسم وقد حاول رسول الله — ﷺ — أن يعرض نفسه على القبائل وأن يشرح لهم ما جاء به فى هدوء ، ولكن عمه أبا لهب وكفار قريش بذلوا كل جهد ليفضوا الناس عنه ، وقد هزهم الفرح لما نجحوا فى صد القبائل عن دعوة الرسول عليه السلام ، ولم يخطر لهم على قلب أن ذكر النذير الذى يوحى إليه من السماء قد انتشر فى القبائل ، وأن أمره قد ذاع بين الناس ، فإن كانوا أفلحوا فى حصر الإسلام فى الدائرة الضيقة التى انتشر فيها طوال السنوات الطويلة التى مرت مذ نزل الوحى على محمد — عليه صلوات الله وسلامه ، فإن الفرصة أمام انتشار الإسلام لا تزال قائمة مادام محمد — عليه الصلاة والسلام — ، والذين معه مؤمنين بما أنزل إليهم من ربهم ، صابرين حتى يحكم الله بينهم وبين الكافرين ، معتصمين بحبل الله ، واثقين بتحقيق ما وعد الله المتقين .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى خديجة وهو حزين ، فما أمن رجل واحد طوال الموسم برسالته ، فراحت حاضنة الإسلام تمسح عن قلبه لوعة الأسى ، وتنفث فيه من روحها القوية ما يزيده إيمانا على إيمان وتهون عليه ما قاساه من عذاب واضطهاد ، وتزوده بثقة فى نفسه ، وتؤيده بكل ما تملك من قوة مادية وروحية ، فما يزال الطريق أمامه طويلا .. وما أكثر العقبات التى عليه أن يجتازها حتى يأخذ بيد البشرية إلى ينابيع النور .

٧

كانت منازل أهل مكة تحيط بالكعبة تقترب منها أو تبتعد عنها تبعا لما لكل أسرة وفخذ من أهمية ومقام ، فكان القرشيون أقرب أهل مكة إلى الكعبة وكان كل سبط يقيم فى أحد الأحياء : بنو هاشم فى حيهم وبنو أمية فى حيهم وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد الدار وباقى بيوتات شرف قريش العشرة فى أحيائهم . وكانت دار الندوة تجمع صفوة هذه الأحياء للتشاور فيما يهمهم من أمر الدنيا والدين ، أما الحرم فقد كان مكان عبادتهم ومجمع نواديهم .

وكان التنافس على السيادة شديدا بين بنى هاشم وبنى أمية وبنى مخزوم ، وكان بنو هاشم أصحاب الكلمة فى قريش مذ استطاع هاشم بكرمه أن يأسر قومه وبعد أن وفق الله عبد المطلب إلى إعادة حفر بئر زمزم وجعله يحرص على حل كل مشاكل أهل مكة بالطرق السلمية ؛ طريق التحكيم طريق السلام .

وبعد موت عبد المطلب بدا لكل ذى عينين أن نفوذ بنى هاشم أوشك أن يأفل ، فأبو طالب سيد بنى هاشم كان جوادا وكان كثير العيال وقد ذابت جل أمواله فى الكرم وإعالة أهله . ولما كان المال هو صاحب الكلمة العليا فى مكة فلم يعد لأبى طالب إلا أمجاد آبائه وكلمته المسموعة فى آل عبد المطلب ، وفقد الهاشميون حجر الزاوية الذى قامت عليه قوتهم بموت الزبير ابن عبد المطلب فقد كان الزبير شاعرا هجاء تخشى القبائل لسانه . فإن كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد حمل لواء شعراء بنى هاشم

بعدها فما كان شعره ينزل الرعب فى قلوب منافسى بنى هاشم على السيادة كما كان يفعل شعر الزبير وهجاؤه .

وأثرى العباس بن عبد المطلب من التجارة ودخل دار الندوة ، ولكن العباس انطوى تحت ذراع أبى سفيان بن حرب فقد كان نديمه وقلما يفترق الرجلان ، وكان انضواء العباس تحت سلطان سيد بنى أمية تقوية للأمويين وتدعيما لسلطانهم .

وكان أبو لهب ألعوبة فى يد زوجه أم جميل ، ولما كانت أخت أبى سفيان ابن حرب فقد كان فى عواطفه مع بنى أمية يميل معهم حيث يميلون ، وقد تفرغ للشراب ولعب الميسر والانغماس فى اللذات .

وكان حمزة بن عبد المطلب فارسا يمضى أوقاته فى القنص والإصغاء إلى جيد الشعر والشراب ونجدة كل ملهوف يقصده ، وما كان يتطلع إلى سيادة قومه أو أن يكون من سادات دار الندوة .

وعرف بنو أمية وبنو مخزوم هذه الحقيقة فطمعوا فى أن تئول إليهم سيادة مكة ، ولا غرو فأبو سفيان سيد بنى أمية يذهب إلى الحيرة ويدخل على ملوكها ، وينطلق إلى فارس ويعقد محالفات مع أباطرتها ، ويرحل فى رحلة الصيف إلى الشام ويوطد الصداقات مع الغساسنة ، ويسير على رأس قوافل قريش فى رحلة الشتاء إلى اليمن فيرحب به الحميريون وساداتهم ووالى اليمن من قبل كسرى ؛ والوليد بن المغيرة كان يضرب بعزه المثل ؛ وعبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى كانت قريش تلقبه « العدل » لأن قريشا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ويكسوها هو من ماله سنة ، فأرادوا بذلك أنه وحده عِدل لهم جميعا ، وكان لعبد الله بن أبى ربيعة عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن .

كان بنو أمية وبنو مخزوم ينافسون بني هاشم على الزعامة فلما أوشكت أن تتحقق آمالهم بأفول نجم الهاشميين قام فى بنى هاشم محمد بن عبد الله — عليه الصلاة والسلام — يعلن على الملأ أنه رسول الله وأنه بشير ونذير وأن الوحى ينزل عليه من السماء ، فغاظ ذلك الأمويين والمخزوميين غيظا شديدا ، فقد أطعم الهاشميون فأطعموا وتصدق الهاشميون فتصدقوا وها هو ذا ابن عبد الله يزعم أنه رسول رب العالمين ، فمتى يكون لهم مثل هذا الشرف وهذا المقام ؟

وحارب الرجال والنساء فى مكة دعوة الإسلام والسلام ، وكان رجال بنى أمية ونساؤهم ورجال بنى مخزوم ونساؤهم أكثر الناس عداوة لأبى القاسم فما كانوا يرون فى دعوته إلا توطيد سلطان بنى هاشم فى الحرم ، وجعل السلطة فى أيديهم إلى الأبد .

كانت أم جميل زوجة أبى لهب أخت أبى سفيان بن حرب من ألد أعداء نبى الإسلام ، فهى وإن كانت قد تزوجت فى بنى هاشم إلا أن أمنيتها الغالية كانت أن يسود أخوها قومه ، وقد سخرت زوجها أبا لهب لتحقيق مأربها . وكانت أسماء بنت مخربة سيدة بنى مخزوم تمقت الدعوة الجديدة أشد المقت فهى تقف حائلا منيعا دون تحقيق أحلامها .

كانت أسماء عطارة يأتيها العطر من اليمن تزوجت أبا ربيعة المخزومى فأنجبت منه عبد الله بن أبى ربيعة وعياش ، وقد تزوجها هشام بن المغيرة من بعده فولدت له أبا جهل والحارث ، فكانت تعيش على أمل أن يكون أحد أبنائها عبد الله أو عياش أو أبو جهل أو الحارث سيدا لقومه ، وقد أخرجت الحارث من دائرة أمانيها بعد أن عكف على الشراب والقمار وباع حريته لأبى لهب أثناء لعبهما الميسر فصار له عبدا .

وراحت أسماء بنت مخربة تحرض بني مخزوم على رسول الله ـ ﷺ ـ حتى لا يبزغ نجمه فتتقوض كل آمالها ، فكان ابنها أبو جهل بن هشام ألد خصومه . وكانت أسماء ترقب الأحداث الدائرة فى مكة بين الفئة القليلة المؤمنة وبين الكافرين وهى ترجو أن يتمكن كفار قريش من إخماد ما كانت تحسبه فتنة عارضة ولكن مخاوفها زادت لما تسربت بعض آيات الذكر الحكيم إلى دارها ، فقد وجمت وخشيت أن يستولى ذلك السحر على أفئدة من ليست لهم أطماع فى السيادة ومن لا يخشون على زوال ما فى أيديهم .

واستولى عليها حنق شديد لما أكثر الوليد بن المغيرة شيخ بنى مخزوم من الجلوس إلى أبى القاسم والإصغاء إليه ، وربما حنقها لما ذاع فى مكة أن الوليد قد صبأ . فلو أن الوليد قد دخل فى الدين الجديد لكان ذلك إيذانا بزوال آمال بنى مخزوم فى السيادة ، ولكن غضبها لم يدم طويلا فقد عاتب أشياخ قريش شيخ بنى مخزوم على أن ألقى سمعه إلى من جاء يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويفرق جماعتهم ، وقد أنكر الوليد إشراق قلبه بأنوار اليقين وإن أبدى إعجابه بحلاوة ما جاء به أبو القاسم .

وهدأت نفس أسماء بعد أن بلغها ثبات الوليد بن المغيرة على دينه ، وراحت تؤكد أن ما من عاقل رشيد فى بنى مخزوم يرضى أن يدخل فيما يدعو إليه محمد ، فدخوله فى ذلك الدين إقرار منه بزعامة بنى هاشم ، وما من مخزومى عنده بعض الوفاء لعشيرته يقبل ذلك الهوان .

كانت أسماء بنت مخربة تنظر إلى الإسلام الذى يدعو إليه رسول الله ـ ﷺ ـ نظرة كلها عصبية وجاهلية ، وقد عبر أبو جهل عن وجهة نظر أمه خير تعبير لما قال للأخنس بن شريق : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا

ما تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

وحزنت أسماء لما أعلن أبو سلمة المخزومى إسلامه وراحت تعزى نفسها أن أمه برة بنت عبد المطلب هاشمية ، فسواء عليه أكانت الزعامة فى بنى مخزوم أم كانت فى بنى هاشم ، وعجبت فى نفسها كيف انقادت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب إلى زوجها وآمنت بالدين الذى جاء به ابن عبد الله لينتزع الزعامة من براثن أبيها !

كانت أسماء لا ترى فى الإسلام أكثر من أنه وسيلة لتثبت زعامة بنى هاشم على مكة ، وكانت فى قرارة نفسها تعجب من الهاشميين والمطلبيين الذين يناوئون أبا القاسم فى سبيل آلهتهم أو غضبا لتسفيه أحلام آبائهم ، فلو أن الذى نزل عليه الذكر ابن من أبنائها لأيدته فى دعوته بكل ما تملك ، ولحملت بنى مخزوم على تأييده .

وأحست سيدة بنى مخزوم ، وإن لم تكن مخزومية الأصل ، غضبا مزمجرا فى جوفها يكاد أن ينثرها أشلاء لما سمعت أن الوليد بن الوليد وابنها عياش بن أبى ربيعة قد آمنا بما جاء به محمد ؛ فقد رأت فى انضوائهما تحت لواء سليل بنى هاشم تقويضا لكل آمالها وأحلامها ، بل كانت تعد ما أقدما عليه خيانة لقضية العشيرة المتطلعة بحق إلى زعامة قريش .

واندلعت نار الثورة فى بنى مخزوم على الصابئين اللذين خذلا قومهما ، فراح خالد بن الوليد يؤنب أخاه أشد تأنيب ويهدده بعذاب الهون ، والوليد ثابت الجنان مطمئن البال قد تهلل فؤاده بالفرح بعد أن أشرق بنور ربه وعرف الحرية الحقة ، حرية التحرر من كل شر وحرية التحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل وحرية السمو فوق الأهواء وحرية عبادة الله وحده بإرادة مطلقة .

واندفعت أسماء بنت مخربة فى ثورة عارمة تسب ابنها عياشا وتنذره بالويل والثبور وتهدده أحيانا وتتوسل إليه أحيانا أن يعود إلى دين آبائه وأن يهجر ما جاء به محمد ليفرق بين الأم وابنها والمرء وزوجه والصاحب وصاحبه ، فيقول لها عياش إن محمد — عليه صلوات الله وسلامه — قد جاءنا بخير الدنيا وهناءة الأبد ، ثم يروح يدعوها إلى الإسلام وهى تحذره غضبها وعذابها . فيجلس ويقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * ألم * تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم * .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم * خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم * خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين * .

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم

تعملون ﴾[1] :

كانت أسماء تغدو وتروح وتصيح فيه أن يكف عن تلاوته وإلا دعت أحابيش أبيه وأمرتهم بتعذيبه عذابا لم يعذبه أحد من العالمين . واستمرت تهدده بأنها ستخلى بينه وبين قومه ليقتلوه ، وأن بنى مخزوم لن يمنعوه كما منعت بنو هاشم محمد بن عبد الله فشتان بين من يحاول أن يرفع عشيرته فوق العشائر كلها وبين من جلب لرهطه العار والهوان المبين .

وجاء رجال من بنى مخزوم إلى هشام بن الوليد ليأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا منهم الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة ، فقالوا له :

ــ إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على هذا الدين الذى أحدثوا .

كانوا يرون تعذيبهم ليخوفوا غيرهم ، فإن كان أبناء بنى مخزوم يضطهدون للدخول فى دين الله فلماذا ينزل بغيرهم إذا ما صبأوا ، فأخذ هشام بن الوليد أخاه الوليد وقدمه إليهم وهو يقول :

ــ هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم ونفسه ، وأنشأ يقول :

ألا يُقتلن أخى عُبيس ... فيبقى بيننا أبدا تلاحى

احذروا على نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا .

فقالوا وقد تقاصرت أنفسهم :

ــ اللهم العنه من يغرر بهذا الحديث ، فوالله لو أصيب فى أيدينا لقُتل أشرفنا رجلا .

فتركوه ونزعوا عنه .

(١) لقمان ١٢ ــ ١٥ .

إن الله يدافع عن الذين آمنوا وأسلموا له وجوههم وخرجوا على معتقدات العشيرة ، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

٨

راح رسول الله — ﷺ — يفكر فى أمر رسالته بعد أن مضت بضع سنين مذ نزل عليه الوحى أول مرة فى غار حراء ، إنه دعا أهل بيته إلى الإسلام فلبوا الدعوة مستبشرين ، واستمر يدعو صحابته سرا إلى أن أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين فصدع بما أمر وشبت العداوات بينه وبين سادات قومه المتكبرين . وقد كان أشد الناس عداوة له عمه أبو لهب وابن خالته النضر بن الحارث وسادات بنى مخزوم وعقبة بن أبى معيط .

ومضت سنون و لم يدخل فى الدين القويم أكثر من أربعين من المؤمنين والمؤمنات الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين ، وكان رسول الله — ﷺ — ينتظر الموسم بصبر نافد ليعرض نفسه على القبائل الوافدة للتجارة والحج وهو يرجو أن يصغى الناس لدعوته إصغاءهم إلى الشعراء وأصحاب المجون ، ولكن الموسم انقضى وما خلى قومه بينه وبين الناس بل بذلوا كل الجهود لينفروا الناس منه ويفضوهم من حوله .

وراح الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يرى بخياله ما كان يفعله عمر بن الخطاب فى الأسواق . إنه كان يتيه بقوته الجسمانية ويستعرض بأسه ، فكان يصارع الرجال ويصرع الأبطال وما صُرع مرة واحدة . وكان هدفه من المصارعة أن يلفت أنظار الغوانى والنساء وأن يثير

إعجابهن ، وكان دائما يحقق هدفه فقد كان النسوة يهرعن إليه ويستجبن لرغباته ويشتركن معه فى معاقرة الخمر ، وكان يشرب القدح الكبير بينا يشرب سائر السمار بالقدح الصغير .

وكان ينزل ألوان العذاب بالمستضعفين من المسلمين ، وما كان يلقى السمع إلى القرآن كما كان يفعل الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان ابن حرب والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام ، بل كان يصم أذنيه عما جاء به ابن عبد الله فإنه متعصب لدينه على الرغم من حياة المجون التى يحياها ، وما كان بقادر على السكوت عن أن يسفه فرد أيا كان ذلك الفرد عقائد الآباء التى وقرت فى النفوس .

إن عمه زيد بن عمرو بن نفيل عاب دين الآباء فاضطهده الخطاب واضطره إلى الالتجاء إلى شعاب الجبال ، وقد خاف الخطاب أن يصبأ ابنه ذات يوم كما صبأ عمه من قبل ، فراح يلقنه محبة آلهته والتعصب لها ، ويغرس فيه الولاء للأصنام والغضب لها والبطش بكل من ينالها بسوء .

وما كان دين قريش ينهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فكان عمر ككل شباب مكة يعتز بشبابه ويزهو بقوته ويتيه على أقرانه بقدرته على عب قداح الخمر عبا وافتتان النساء به ، وكان فى الحق جبارا ينزل الرهبة بقلوب أشد الفتية قوة وجرأة .

وكان عمر يحس أن كل مواهبه فى قوته الجسمانية الخارقة ، ولكن رسول الله — ﷺ — كان يرى بثاقب بصره نفاسة معدنه ويتمنى لو أن عمر يجلس إليه كما يجلس وجوه قريش ويعيره سمعه بعض الوقت يعرض عليه الإسلام ويقرأ عليه القرآن . ولكن عمر كان يعرض عن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ويبطش بطشا شديدا بالصابئين الذين تركوا

دين الآباء وكفروا بالآلهة .

وكان رسول الله عليه السلام على ثقة من أن عمر لو أصغى دون عصبية إلى القرآن فإن الله سيشرح صدره للإسلام ، فهو على الرغم من تعصبه الأعمى لدينه يملك نفسا نزاعة إلى جوهر الحقيقة ، ولكن أحدا ما كان بقادر على أن يسمعه ما يكره فإن رؤية مسلم كانت تجعل دماءه تثور فى عروقه ويده ترتفع لتنزل بالبطش والأذى .

وراح رسول الله عليه السلام يعجم رجال قريش ، فوجد أن أبا الحكم ابن هشام (أبا جهل) أعزهم نفرا ، فلو أن الوليد بن المغيرة كان سيد بنى مخزوم ، ولو أن ابنه خالد بن الوليد قائد فرسان قريش ، فإن نفوذ أبى الحكم فى بنى مخزوم وفى قريش أعظم من نفوذ أى من سادات دار الندوة ، فهو يحارب الإسلام فى ضراوة ويؤلب بيوت شرف قريش العشرة على المسلمين ، وما أكثر الراغبين فى الدخول فى دين الله لولا خشيتهم من بطش أبى الحكم وسطوته ، فلو شرح الله صدره للإسلام لكان فى إسلامه عزة للمستضعفين الذين آمنوا بالله وأصبحوا هدفا للاضطهاد والعذاب والتنكيل .

كان إسلام عمر أو إسلام أبى الحكم بن هشام أمنية تراود نفس الرسول عليه السلام ، فلما أفاق من تفكيره راح يدعو ربه :

— اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى الحرم فطاف به سبعا ، ثم راح يعرض على أهل مكة الإسلام ولم يكونوا على مذهب واحد وإن كان الغالب عليهم الفطرة والطبع ، وعلى الرغم من تشتت معتقداتهم فقد كان

البيت العتيق قبلتهم ومستقر آلهتهم ومحور آمالهم وأمانيهم .

وكان عباد الكواكب منهم يزعمون أن بيت الله الحرام إنما هو بيت زحل بناه البانى الأول على طوالع معلومة واتصالات مقبولة وسماه بيت زحل ، فاقترن الدوام به والتعظيم له لأن زحل يدل على البقاء وطول العمر أكثر مما يدل عليه سائر الكواكب ؛ بينا كان الحنفاء والوثنيون يقولون إنه بيت أبيهم إبراهيم ، وكان الحنفاء يعتقدون أنه بنى على أيدى أصحاب الوحى ، أما الوثنيون فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم و لم يبق للحرم فى نفوسهم إلا التوقير والتعظيم .

وكان رسول الله يحاور منهم أصنافا ، والقرآن يدحض معتقداتهم ويرد عليهم ، فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار

ومالكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها وهم لا يستعتبون ﴾[١] .

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والإبداع وأنكروا البعث والإعادة : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٢] .

وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة . وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ، وهم الدهماء من العرب : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾[٣] .

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾[٤] .

ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة ويعبدهم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين

---

(١) الجاثية ٢٤ — ٣٥ .
(٢) يس ٧٨ — ٨٣ .
(٣) الفرقان — ٧ .
(٤) الفرقان ٢٠ .

هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[1] .

ومنهم من كان يصبو إلى الكواكب ويعبدها : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾[2] .

وكانت عبادة كوكب الشعرى قد انتشرت فى بعض قبائل العرب بعد أن دعا أبو كبشة أحد أجداد الرسول عليه السلام من جهة أمه إلى الانسلاخ عن عبادة الأصنام وعبادة الكواكب ، فكان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى قومه عن هذه العبادة ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾[3] .

ومنهم من كان يصبو إلى الجن فيعبدهم ، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد

---

(١) الزخرف ٢٠ — ٢٤ .   (٢) فصلت ٣٧ — ٣٨ .

(٣) النجم ٤٩ .

و لم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

ومنهم من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، وكان رسول الله — ﷺ — يناقش كل هؤلاء الذين تباينت مذاهبهم ويلزمهم الحجة ويدعوهم إلى الله وحده ويتلو عليهم : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون * اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين *ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾[2] .

٩

كانوا فى عجب من أمره ، إنه يقص عليهم نبأ نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ويحدثهم عن عاد وثمود ، فإن كان النضر بن الحارث يزعم أن ما يرويه إن هو إلا أساطير الأولين كأحاديث

---

(١) الأنعام ١٠٠ — ١٠٣ .　　(٢) الأنعام ١٠٤ — ١٠٨ .

رستم واسفنديار التى يقصها عليهم فقد كانوا فى حيرة من آيات قرآنه البينات . وراحوا يتساءلون من أين جاءت ابن عبد الله هذه الحكمة وقد مكث فيهم من قبل عمرا وما عرف عنه الانكباب على تحصيل المعارف أو مجاورة حلقات الدارسين للديانات والتاريخ ، وما كان فى مكة كلها من يعرف عن التاريخ أكثر من تلك القشبور التى يحصلها تجار قريش فى أثناء تجوالهم فى أرض فارس أو أرض الروم .

كان النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة طبيب قريش يتيهان على رجال عصرهما غرورا لأنهما قد عرفا أجزاء الحكمة وما كان ما يعرفانه يزيد على بعض أساطير فارس وعلومها . وكان أمية بن أبى الصلت يقرأ فى الكتب وكان يحسب أن اطلاعه على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين يؤهله للرسالة التى أرهصت بها البشارات قبل مبعث النبى الأمى الذى بشر به الأنبياء فلبس مسوح الرهبان ترصدا للنبوة المرتقبة ، فلو أن النضر قد زعم أنه رسول رب العالمين فما أيسر أن تدحض دعوته وأن يقال إنه تلقى فى بلاط الحيرة ما يقصه ، ولو أن الحارث بن كلدة قال إنه بشير ونذير لقيل إنه قد أتى إليهم بما التقطه من بلاط فارس ، ولو أن أمية بن أبى الصلت ادعى أنه يكلم من السماء لكذب بحجة أنه قد أخذ عن التوراة والإنجيل وتعلم من رهبان الصوامع الذين ينزل بهم ويخاطبهم الليالى والأيام ، أما محمد بن عبد الله فمن أين جاءه هذا العلم وهذه الحكمة ؟

كانوا فى حيرة من أمره فهو يحاور عبدة الأصنام وعبدة الكواكب والنجوم وعبدة الملائكة وعبدة الجن ومنكرى الخالق ومنكرى البعث والحساب فيلزمهم جميعا الحجة الدامغة ، وكانت حجج الشعراء والذين يجادلونه من أصحاب الآراء داحضة أمام بيانه ، فمن أين لحليف الوحدة

ذلك البيان المبين ؟ واستمروا فى حيرة من أمره . ولو شاء الله لهم الهداية لجعلهم يلقون أسماعهم إلى قوله الكريم : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(١) . إلا أن الله ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون .

آمنت بما جاءهم به من عند الله فئة قليلة مستضعفة ، بينا كان أشراف قومه يصدون الناس عنه فى الأسواق وهم يحسبون أنهم بذبهم القبائل عن الإصغاء إليه يخنقون دعوته فى مهدها ، وما دار بخلدهم أن حجاج البيت سيروون بعد عودتهم ما كان من أمر أبى القاسم وأهله وأن ذكره سينتشر فى القبائل .

وانتشر أمر رسول الله — ﷺ — فى الأوس والخزرج وراح الناس يتحدثون بما بين ابن عبد الله وقريش من اختلاف ، وبلغ أبا قيس بن الأسلت ما فعلت قريش برسول الله — ﷺ — وكان أبو قيس يحب قريشا وكان لهم صهرا ، كانت عنده أرنب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وكان يقيم عندهم السنين بامرأته ، فخشى أن تقع العداوة بين المؤمنين والكافرين وأن تنقلب مكة إلى مسرح للقتال كما هو الحال فى يثرب ، فبعث إلى قريش بقصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريشا فيها عن الحرب ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض ويذكر فضلهم وأحلامهم ، ويأمرهم بالكف عن رسول الله — ﷺ — ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل

---

(١) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

وكيده فقال :

يـا راكبـا إمَّـا عـرضت فبلغَّـن
مغلغلـة عنـى لـؤى بـن غـالب

رسول امرئ قـد راعـه ذات بينكـم
على النـأى محزون بـذلك نـاصب[١]

وقد كان عندى للهموم معـرَّسٌ[٢]
فلـم أقض منها حاجتـى ومـآربى

نبيتكـم شرجين[٣] كل قبيلـة
لها أزمـل مـن بين مـذك وحـاطب

أعيـذكم بـالله مـن شر صُنعكـم
وشرٍّ تباغيكـم ودس العقـارب

وأظهـار أخـلاق ونجوى سقيمـة
كوخز الأشافى[٤] وقعها حق صائب

فذكرهـم بـالله أول وهلـة
وإحلال أحرام الظبـاء الشواذب[٥]

---

(١) الناصب : المعيى التعب .

(٢) معرس : المكان ينزل فيه المسافرون فى آخر الليل يقعون فيه وقعة الاستراحة ثم يرحلون .

(٣) شرجين-: نوعين . أزمل : الصوت المختلط .

(٤) الأشافى : جمع أشفى وهى التى يخرز بها .

(٥) الشواذب : الضامرة البطون .

متـــى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمـــة
هى الغـول لـلأقصَين أو للأقـــارب
تقطِّـــع أرحامـــا وتهلكُ أمَّـــةً
وتبرى السديف من سَنام وغـارب
وتستبدلوهـــا بالأتحميَّـــة بعدهـــا
شليـــلا وأصداء[1] ثيـــاب المحارب
وبـالمسك والكافـــور غيرا سوابغـــا
كـأن قـتيريها[2] عيـون الجنـــادب
فإيـــاكم والحربَ لا تعلقنكـــم
وحـــوضا وخيم الماء مـــرٌّ المشارب
تَزيَّـــن للأقـــوام ثم يـــرونها
بعاقبـــة إذ بيـــنت ، أم صاحب[3]
تحرق لا تُشوى ضعيفـــا وتنتحـــى
ذوى العز منكـم بالحتـوف الصوائب
ألم تعلموا مـا كان فى حـرب داحس
فتعتبروا أو كان فى حرب حـــاطب
وكم قـد أصابت مـن شريـــف مسوَّد
طويـل العمـاد ضيفُـه غير خـائب

---

(١) الشليل : درع قصير .
(٢) القتير : حلق الدرع .
(٣) أى عجوز .

عظيم رماد النار يحمد أمره
وذى شيمة محض كريم المضارب
وماء هريق فى الضلال كأنما
أذاعت به ريح الصبا والجنائب
يخبركم عنها امرؤ حق عالم
بأيامها والعلم علم التجارب
فبيعوا الحراب للمحارب واذكروا
حسابكم والله خير محاسب
ولِيّ امرئ فاختار دينا فلا يكن
عليكم رقيبا غير رب الثواقب
أقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم
لنا غايةٌ قد يهتدى بالذوائب[1]
وأنتم لهذا الناس نورٌ وعصمة
تؤمّون ، والأحلام غير عوازب
وأنتم إذا ما حصّل الناس جوهرٌ
لكم سُرَّة البطحاء وشم الأرانب
تصونون أجسادا كراما عتيقةً
مهذبة الأنساب غيرَ أشائب
ترى طالب الحاجات نحو بيوتكم
عصائب هلكى تهتدى بعصائب

---

(١) الأعالى .

لقــد علــم الأقــوام أن سراتكـــم
على كل حال خير أهل الحبـاجب[(١)]
وأفضلــه رأيــا وأعــلاه سنـــة
وأقولـــه للحـــق وسط المواكب
فقومــوا فصلــوا ربكـم وتمسحــوا
بأركان هذا البيت بين الأخـاشب[(٢)]
فعنـــدكم منـــه بـــلاء ومصدق
غـداة أبى يـكسوم هـادى الكتـائب
كتيبتـــه بالسهـــل تمسى ورَجْلـــه
على القاذفـات[(٣)] فى رءوس المنـاقب
فلمـا أتـاكم نصر ذى العـرش ردهـم
جنـود المليـك بين ساف وحـاصب
فولــوا سراعــا هــاربين ولم يــؤب
إلى أهلــه مِلْحـــبش[(٤)] غير عصائب
فـإن يهلكـوا نَهلِك وتهلك مــواسم
يعـاش بها ، قـول امـرئ غير كاذب

وأطرق وجوه قريش يفكرون ، فأبو قيس بن الأسلت يحذرهم الحرب

---

(١) الحباجب : المنازل .

(٢) أراد الأخشبين وهما جبلا مكة ، فجمعهما مع ما حولهما .

(٣) القاذفات : أعالى الجبال . والمناقب : الطرق فى أعالى الجبال .

(٤) من الحبش .

ويخوفهم الفرقة التي وقعت بين الأوس والخزرج ويذكرهم بأيام داحس وحرب حاطب ، فداحس كان فرسا لقيس بن زهير أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر يقال لها الغبراء ، فدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر ، فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمل بن بدر فلطم مالكا . ثم إن أبا الجنيدب العبسي لقي عوف بن حذيفة فقتله ، ثم لقي رجل من بني فزارة مالكا فقتله ، فكانت حرب داحس بين الحيين .

وتذكروا حرب حاطب فقد قتل حاطب الأوسي يهوديا كان جارا للخزرج ، فخرج إليه ابن فَسْحم الخزرجي ليلا فى نفر من بنى الحارث بن الخزرج فقتلوه ، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا . وإن أبا قيس بن الأسلت يخوفهم أن تنقلب عداوتهم لسليل بنى هاشم إلى حروب فى الحرم الذى يأمن فيه الطير ، وقد كان لقصيدة من كان لهم صهرا وقع شديد فى نفوسهم جعلتهم يديرون قداح الرأى بينهم ويفكرون فى هدوء فى ابن عبد الله ودعوته .

وقام حكيم بن أمية بن حارثة السلمى حليف بنيأمية ، وقد أسلم ، يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله — ﷺ ، وكان فيهم شريفا مطاعا :

هل قائل قولا هو الحق قاعد
عليه وهل غضبانُ للرشد سامع
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه
لأقصى الموالى والأقارب جامع

تبرأت إلا وجـه مـن يملك الصبـا
وأهجـركم مـا دام مـدل ونـازع
وأسلـم وجهـى للإلـه ومنطقـى
ولـو راعنـى مـن الصديـق روائـع

وحركت قصيدة أبى قيس وقصيدة حكيم بن أمية جانب التعقل فى نفوس الكافرين ، فراحوا يفكرون فيما يتلوه عليهم الأمين ، فإذا بهم يستشعرون أن صليل القرآن فى أعماق نفوسهم له سحر مبين ، وحتى إن ابن خالته النضر بن الحارث ألد الخصوم وقال :

ـــ يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا ما رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر لقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ؛ وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وراحوا يفكرون ، أينطلقون إلى محمد عليه السلام ويعلنون إسلامهم ويدخلون فى دين الله أفواجا فتصبح مكة منارة التوحيد ويعود إليها الوئام والسلام ؟ أيبعثون إليه ويستأنفون جداله حتى يزدادوا توثقا مما جاءهم به ؟ ولكن ما فائدة ذلك الجدال وما قام أحد منهم له ولا قعد فى مناقشة فحجته دامغة ، وما من حوار بينه وبينهم إلا كان النصر فيه حليفه .

وخشى المتكبرون والحاسدون أن تنقاد مكة لدين الله فتصبح كلمة أبى القاسم هى العليا فى أم القرى فقالوا :

ــ نبعث رسلنا إلى أحبار اليهود فى يثرب نسألهم عنه .

وأعجب ذلك الرأى المترددين فقرروا أن يبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بيثرب وقالوا لهما :

ــ اسألاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا .

وانطلق النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى يثرب وبعض آيات القرآن البينات ترن فى أغوارهما فتهزهما من الأعماق وتثير دهشتهما . وكان النضر أكبر الرجلين حيرة فهو يزعم أنه على علم وأنه أوتى الحكمة ، إلا أنه إذا ما فكر صادقا فيما جاء به كان يستشعر تضاؤلا . فشتان بين الأساطير التى يرويها وليس له فضل إنشائها وبين ذلك القول الحكيم الذى يتلوه أبو القاسم ، فمن أين جاء ابن خالته ذلك العلم الغزير وما اختلف إلى الرهبان والأحبار وما جلس إلى حكماء فارس وفلاسفة الإغريق ؟

وراح الرجلان يفكران فى سفارتهما وقد غابا فى نفسيهما عن الركب ، ولم يعودا يسمعان صوت الحادى الذى ارتفع ليحث الإبل على الإسراع بعد أن شم من فى القافلة عبير الواحة ، ورأوا فى الأفق البعيد أشباح النخيل .

أحسا أن سفارتهما أخطر سفارة خرجت من مكة ، طالما خرج منها سفراء إلى اليمن والحبشة وإلى الحيرة وفارس وإلى الشام والقسطنطينية وروما وإلى منف لخطب ود أقيالها ونجاشييها وملوكها وأكاسرتها وقياصرتها وأباطرتها وفراعينها طمعا فى توطيد أواصر الصداقة وعقد معاهدات

حسن الجوار لاستتباب الأمن والسلام لفتح الطرق أمام قوافل التجارة كسبا للأموال ؛ أما سفارتهما فهى بعيدة عن اللهو والتجارة ، إنها تتعلق بعقائدهم مصدر طمأنينة النفوس وراحة القلوب ، وما أهون الماديات إن كان الأمر يتعلق بالدين .

اختارت قريش رجلين من أشد الرجال عداوة لرسول الله ﷺ ، لا لضمان الحيدة فما كانوا فى حاجة إلى رسل محايدين . بل كانوا فى حاجة إلى رسل معاندين لكيلا يكون هناك ظل من شك فى ممالأتهما لأبى القاسم . ترى ماذا يكون موقف كفار قريش المتشددين فى اختيار سفيريهما لو جاء إليهم الرجلان بما لا تهوى أنفسهم ؟

وحطت القافلة فى يثرب فهرع شبابها وشيوخها المجان إلى سقيفة البغايا وكان يديرها يهود يثرب أهل العلم والكتاب الأول ، وانطلق النضر وعقبة إلى أحبار اليهود الذين أطلقوا لحاهم البيضاء وغطوا رءوسهم بعمائمهم السود وجلسوا للفتيا ليسألاهم عن محمد بن عبد الله وعما يعرفونه عنه إن كانت صفته قد جاءت فى التوراة ، ولو كانا يعلمان الغيب أو أراد الله لقومهم الهداية لخلفا صوامع الأحبار وراءهما ووليا وجهيهما شطر الحائط الذى يعمل به عبد من عباد الله الصالحين، عبد يتلهف على النور الذى سيغمر العالمين ، فقد كان سلمان الفارسى على بعد خطوات منهما يتنسم أخبار النبى العربى فى أرض هجرته .

كان سلمان قد خرج من أصفهان بحثا عن الحقيقة ، وجاب الأرض حتى نزل بعمورية من أرض الروم وفيها أرشد إلى أرض العرب مبعث النبى الأمى ، فشد الرحال ليكون فى منبع النور ، ولكن سوء طالعه أوقعه فى الأسر فبيع بضاعة واشتراه يهودى حمله إلى يثرب وصار من رقيق الأرض ،

وما كان يعيش إلا على أمل واحد أن يلقى رسول رب العالمين وأن يؤمن به ويصدقه وأن يتبعه كظاه حتى يأخذ بيده إلى جنات النعيم ، فلو أن النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط جاءا إليه وسألاه عن بن عبد الله لخر ساجدا لله ولضمهما إلى صدره وهو يذرف الدموع ، ولحدثهما عن النبى الذى أنفق زهرة شبابه فى البحث عنه حديث صدق ، ولروى لهما حديث الأمل الذى يحيا من أجله . ولكنهما قصدا من عندهم قشور العلم ولب الغرور .

ودخلا على أحبار اليهود وقد لفتهما رهبة ما أحسا مثلها من قبل وقد دخلا على ملوك الأرض ، فقد أصبح دينهما وما عبد الآباء معلقا بكلمات تخرج من بين شفاه هؤلاء الأحبار . فلو قالوا إن محمد بن عبد الله رسول الله وأن الوحى ينزل عليه من السماء بآيات الله البينات فسيصبح النضر سخرية القوم بعد أن كان من المستهزئين بابن الخالة وقرآنه ، بينا سيستريح عقبة من ذلك التهديد الذى هدده به محمد عليه السلام يوم أن داس على عنقه لما وجده ساجدا فى الحرم ، فتوعده بالقتل إذا ما التقى به خارج مكة .

وقال النضر وهو يقلب بصره فى أهل الكتاب الأول :

ـــ أتينا لأمر حدث فينا ، منا غلام يتيم يقول قولا عظيما يزعم أنه رسول الله .

ـــ صفا لنا صفته .

فراح النضر وعقبة يصفان رسول الله عليه السلام ، ولو أراد الله لهما الرشد لجعلهما ينطقان نبوءة أشعيا : أثر سلطانه على كتفيه . ولأسهبا فى وصف خاتم نبوته ، ولكنهما وصفاه وصفا مجردا وقرآ بعض ما أنزل الله من

القرآن ، فقال حبر من الأحبار :

ـــ فمن يتبعه منكم ؟

ـــ سفلتنا .

فراح الأحبار ينظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا :

ـــ سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول .

ـــ سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ، فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى .

ورجع النضر وعقبة إلى قريش وقالا لهم :

ـــ لقد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

وأخبراهم الخبر ، فجاءوا إلى النبى ـــ ﷺ ـــ فقالوا :

ـــ يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ماهى .

فقال لهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أخبركم بما سألتم غدا .

و لم يقل « إن شاء الله » ، فانصرفوا عنه ، وراح النبى عليه الصلاة والسلام يترقب الوحى والله لا يحدث إليه فى ذلك وحيا ، ومرت ليلة تم ليلة و لم يخبرهم محمد عليه السلام بما سألوا ، فراح الناس يسخرون منه ويستهزئون بصحابته الذين صدقوه ، وراحت أم جميل زوجة عمه أبى

لهب تدور على البيوت وتقول :

ـــ أبطأ عليه شيطانه .

و لم تكتف بذلك بل انطلقت إلى دار النبى عليه الصلاة والسلام وقالت له فى سخرية :

ـــ قلاك ربك .

ورمقت خديجة بنظرات شماتة فشق ذلك على رسول الله ـــ ﷺ ، فقامت إليه خديجة تواسيه وتشجعه حتى نهض وخرج يتجول فى جبال مكة لعل الوحي يأتيه بما سألوه عنه .

وراحت الأيام تمر وسخرية الكافرين تزداد على الأيام . وأحـزان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وصحبه.مكث الوحى عنه وشق عليه ما يرجف به أهل مكة ، وفيما هو فى قمة حزنه جاءه جبريل فقال له الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا .

فقال له جبريل :

ـــ ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾(١) .

ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال :

ـــ ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا * فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا * ثم بعثناهم لنعلم أى

---

(١) مريم ٦٤ .

الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا * نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا * هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا * وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا * وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا * وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا * وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا * وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾[1] .

وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى الحرم ونادى معاشر قريش وجاء صحبه ليلقوا أسماعهم إلى وحى الله وقد تهللت وجوههم بالبشر ، فلما اجتمع الناس راح عليه السلام يتلو ما أوحى إليه :

---

(١) الكهف ٩ — ٢١ .

ـــ ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا * ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا * ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا * واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾(١) .

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا * فأتبع سببا * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا * قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا * قال ما مكنى فيه ربى خيرا فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما * آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال

---

(١) الكهف ٢٢ ـــ ٢٧ ملتحدا : ملجأ .

آتونى أفرغ عليه قطرا * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾(١) .

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(٢) .

وماج بعضهم فى بعض ، قال ناس أخبرنا عما سألناه ، وقال آخرون إنه متقول لم يخبرنا عما سألناه ، لم يقل لنا ماهى الروح . وحال الحسد من وجوه قريش له بينهم وبين أتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

ـــ ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

وراح أبو جهل يهزأ برسول الله ـــ ﷺ ـــ وما جاء به من الحق فقال :

ـــ يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فأنزل الله تعالى على رسوله فى ذلك من قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا

---

(١) الكهف ٨٣ ـــ ٩٨ زبر الحديد : قطع الحديد .

(٢) الإسراء ٨٥ .

هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾[١] .

وعادت العداوة بين الكافرين والمؤمنين أشد ضراوة مما كانت ، وقامت القبائل على من أسلم فيهم يعذبونهم ليفتنوهم عن دينهم .

١٠

خمس سنوات انقضت منذ نزل الوحى على رسول الله عليه السلام أول مرة فى غار حراء ولم تخمد عداوة وجوه قريش لأبى القاسم ومن دخل فى دين الله ، بل كان الاضطهاد يزداد على مر الأيام ، وكان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — بين شر جارين : أبى لهب وعقبة بن أبى معيط ، فكان أبو لهب يطرح القذر على بابه . وذات يوم مر حمزة رضى الله تعالى عنه فرأى أبا لهب يطرح القذر كما اعتاد أن يفعل كل يوم ، فأخذه وطرحه على رأس أخيه ، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول :

— صابئ .. أحمق .

وكان عقبة يشترك مع أبى لهب فى إيذاء الرسول عليه السلام ، كانا يأتيان بالفروث فيطرحانها على بابه ، وكان إذا خرج بصق عقبة احتقارا ، وما كان يكتفى بالبزق بل كان يسمعه ما يكره . وكان رسول الله يصبر على إيذائهما وما كان يحزنه إلا أن السنين مضت وهو لا يكل ولا يتعب من دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومع ذلك لم يدخل فى دين الله إلا قلة صابرة على العذاب تنتظر نصر الله واليسر بعد العسر .

---

(١) المدثر ٣١ .

وخرج رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يحف به صحابته فانطلقوا إلى الحرم ، فلما رآهم الأسود بن عبد يغوث ابن خال النبى قال مستهزئا :

ـــ قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر .

كان صحابة الرسول متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن ، فكان المستهزئون يسخرون من رقة حالهم ، فراح العاص بن وائل يقول :

ـــ غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت ، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث .

وتقدم الأسود بن عبد يغوث من ابن عمته وقال ساخرا :

ـــ أما كلمت اليوم من السماء يا محمد ؟!

وأراد نبيه ومنبه ابنا الحجاج أن يشتركا مع الكافرين فى سخريتهم فقالا لرسول الله ـــ صلوات الله عليه :

ـــ أما وجد الله من يبعثه غيرك ؟ إن ههنا من هو أسن منك وأيسر ، فإن كنت صادقا فأتنا بملك يشهد لك ويكون معك .

وراح الأسود بن عبد المطلب هو وأصحابه يتغامزون بالنبى ـــ ﷺ ـــ وأصحابه ويصفرون ، وسار الحكم بن العاص خلف أبى القاسم يخلج بفمه وأنفه يسخر بالنبى ـــ ﷺ ـــ فنزل الوحى على الرسول ، فالتفت عليه السلام إلى الحكم فقرأ :

ـــ ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين * هماز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عُتلّ بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين ﴾[1] .

---

(١) القلم ١٠ ـــ ١٤ .

فساد الصمت لحظات ، فقام رسول الله — ﷺ — يصلى وخلفه صحابته ، فلما سجد سجدوا . وكان سادات قريش قد ذهب عنهم الروع الذى نزل بهم لما سمعوا ما نزل فى الحكم فذهبوا إلى الساجدين ووقفوا على رءوسهم يصفقون ويصفرون ويسخرون، حتى إذا ما أتم عليه السلام الصلاة التفت إليهم وبان الغضب فى وجهه ، فإذا بهم ينسحبون إلى مجالسهم يستشعرون بالرعب فى أفئدتهم .

وجلس رسول الله ومن حوله أبو بكر وعلى وعثمان والزبير وبلال وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبو سلمة المخزومى وعامر بن ربيعة ومن أسلم من المستضعفين ، فراح يفقههم فى الدين ، وإذا برجل يقف على نادى قريش فيقول :

— يا معشر قريش ، من يعيننى على أبى الحكم بن هشام ؟

— وماذا فعل أبو الحكم بك ؟

فقال الإراشى :

— ابتاع منى جمالا فمطلنى بأثمانها .

والتفت بعضهم إلى بعض وكأنما فهم كل منهم ما يريدون ، فارتسمت على وجوههم ابتسامات ساخرة فقالوا له :

— أترى ذلك الرجل ؟ اذهب إليه فهو يعينك عليه .

وأشاروا إلى حيث جلس رسول الله — عليه الصلاة والسلام — استهزاء برسول الله ، لعلمهم بأنه لا قدرة له على أبى جهل ، فجاء إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا أبا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبنى على حق لى قبله وأنا غريب وابن سبيل . وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى بحقى منه

فأشاروا إليك ، فخذ حقى منه يرحمك الله .

فخرج النبى مع الرجل إلى أبى جهل ، وأرسل المستهزئون رجلا ممن كان معهم خلف النبى ـــ ﷺ ـــ وقالوا له :

ـــ انظر ماذا يصنع .

وراحوا يرقبون عودة الرجل ليضحكوا ملء الأشداق على ما سيفعله أبو جهل بابن عبد الله ، ومر الوقت وعاد إليهم الرجل فقالوا له :

ـــ ماذا رأيت ؟

ـــ رأيت عجبا من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه . فقال : أعط هذا حقه ، فقال : نعم ، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه . فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه .

وأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس ، فقال وهو ينظر إلى حيث عاد رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى أصحابه :

ـــ جزاه الله خيرا ! فقد والله أخذ لى بحقى .

وجاء أبو جهل فقالوا له :

ـــ ويلك ! ما رأينا مثل ما صنعت .

ـــ ويحكم ! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا .

قام رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقام صحابته لينصرفوا إلى دورهم ، وفيما كان عامر بن ربيعة منطلقا فى طرقات مكة الضيقة إذا به يلمح شابا طويلا يعلو فوق رءوس كل الناس ، فخفق قلبه رهبة . إنه عمر بن الخطاب صاحب الشراب والنساء عدو المسلمين الجبار من يزهو بقوته وبطشه ، ولا جرم فقد صارع أبطال القبائل فى حلقات المصارعة فى أسواق مكة

وعكاظ وذى المجاز فهزمهم جميعا .

كان عمر يبطش بعامر بن ربيعة وزوجته ليلى كلما وقع بصره عليهما ، فهو جارهما وما كان يطيق أن يسمع همهمتهما كلما قاما للصلاة أو راحا يتلوان القرآن ، فكان يصرخ فيهما أن يكفا عن رفع صوتهما قبل أن يكتم أنفاسهما . فكانا يخافتان بصلاتهما خوفا من قسوته ، فإذا وقعا فى يده بعد ذلك أنزل بهما العذاب ألوانا .

وما كان عامر وزوجته يحسان طمأنينة وأمنا إلا إذا خرج عمر فى تجارته ، وكانا يرجوان أن تطول غيبته حتى يستريحا من أذاه وحتى يرحم الله المسلمين من بطشه وقسوته ، فقد كانت فيه غلظة تكونت فى نفسه من قسوة أبيه عليه مذ كان يرعى له إبله .

وكان معتدا بنفسه حتى خيل إليه أنه قد وكل إليه أمر المحافظة على وحدة وطنه ، فكان حاقدا على النبى صلوات الله وسلامه عليه لأنه فرق الجماعة ، ولولا خشيته من ثورة بنى هاشم لو قُتل أبو القاسم ونشوب القتال بين أحياء قريش لما أحجم لحظة واحدة عن قتله . وقد دفعته ثقته بقضيته أن يصم أذنيه عن سماع قرآن محمد ، فإن كان الوليد بن المغيرة وأبو الحكم بن هشام وعقبة بن أبى معيط وأمية وأبى ابنا خلف وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والأخنس بن شريق وشيوخ قريش قد استمعوا إلى القرآن وقالوا رأيهم فيه ، فإن عمر قد سد كل المسالك الموصلة إلى عقله وقلبه فى وجه ما جاء به من فرق شمل قومه .

وانسل عامر بن ربيعة من جوار عمر وهو يرجو أن يمر بسلام ، ولكن عمر رآه فجذبه من كتفه وطفق يسخر منه ويؤذيه بلسانه ويده وعامر يحتمل أذاه فى ضيق . وما زاد فى ألم نفسه أنه أعجز من أن يرد أذى ذلك

الجبار .

والتقى سفهاء بنى أمية بعثمان بن عفان وهو فى طريقه إلى داره فجعلوا يسخرون منه ويؤذونه ، والتف به الصبيان ينشدون بعض قصائد الهجو التى نظمها عمرو بن العاص وشعراء قريش الهازلين الساخرين بالرسول عليه السلام وصحبه ، فإذا بوجه عثمان الجميل ينتقع ويظهر فيه الأسى والحزن فيدفعهم فى صدورهم ليشق لنفسه طريقا بينهم ، فيستقبلونه بأقذع الشتائم والسباب والأذى . وسرعان ما خف شيوخ قريش إلى المكان لا ليفضوا عنه أسافلهم بل ليشاركوهم فى اضطهاده والنيل منه ومن أبى زوجه رقية ، من سفه أحلام الآباء وسخر من الآلهة على أعين الناس وقال : إن إلهكم لواحد .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ فى طريقه إلى داره وفى رفقته بلال وعمار وصهيب وخباب والمستضعفين من المؤمنين ، من كانوا يلوذون بالنبى عليه السلام ، ويمضون الليل والنهار معه فى دار خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإذا بقرشى قوى شديد البأس بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه ، يعترض طريق رسول الله ـ ﷺ ـ ويقول له :

ـ يا محمد ، إن صرعتنى آمنت بك .

إنه يدعو النبى إلى المصارعة كأنما الدعوة قوة بدنية ، وراح المؤمنون ينظر بعضهم إلى بعض فى دهش ، ولكن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قبل التحدى فهو فارس لا يشق له غبار يجيد الرماية ، وقد دأب على تدريب الفتى على بن أبى طالب ليكون فارس الإسلام . وكان على الرغم من وداعته ومسالمته يحسن المصارعة ويحض شباب المسلمين على

ممارستها ، فهو يرى أن المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف .

وانطلق أبو القاسم والرجل إلى حيث يتصارعان، والتف النـاس ينظرون، واحتبست أنفاس المؤمنين وطاف بهم طائف من خوف، وهجم الرسول ـــ عليه السلام ـــ على من غرته قوته فحمله فجلد به الأرض، وفى مثل لمح البصر صرعه النبى فتهللت أسارير المسلمين وانتظروا أن يقوم الرجل ليعلن على الملأ إيمانه، ولكنه قام يتحدى ويصر على أن يصارعه أبو القاسم مرة ثانية، وقبل الرسول ـــ عليه السلام ـــ ذلك التحدى وبدأت المصارعة فراح الرجل يدور حول محمد عليه السلام فى حذر، ولكن النبى انقض عليه انقضاض النسر وسرعان ما صرعه. وقام الرجل يتحدى مرة ثالثة فصرعه الرسول ـــ عليه السلام ـــ مرارا فقال له المسلمون:

ـــ قل لا إله إلا الله .

فاستكبر وأعرض عنهم ثم انصرف يجر أذيال الهزيمة وهو أسيف ، فما دار بخلده أن يصرعه أبو القاسم الذى يبدو فى وداعة الحمامة !

واستمر كفار قريش يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، وكانوا يستعينون بيهود يثرب وبالمجوس من أهل فارس ، فلما حرم الإسلام أكل الميتة بعثوا إلى أوليائهم الفرس يسألونهم فى ذلك فكتبوا إليهم : (إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله فهو حرام) . فانطلق وجوه قريش إلى محمد عليه السلام وكان مع ناس من المسلمين فقالوا :

ـــ يا محمد ، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟

ـــ الله قتلها .

ـــ فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الكلب والصقر

حلال وما قتله الله حرام ؟

فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾(١) .

وانسل الحارث بن عثمان بن عبد مناف إلى حيث كان الرسول عليه السلام فقال له :

ــ إنا لنعلم أن الذى تقول حق ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٢) .

وكان النضر بن الحارث فى ضيق من ذلك القرآن الذى يدحض حججهم كلما جادلوا الرسول ، وفى عجب من الرعب الذى ينزل بقلب أبى الحكم بن هشام كلما هم بايذاء ابن عبد الله ، وفى دهشة من صبرهم ذلك الصبر المهين على من سخر منهم ومن آلهتهم ، وفيما هو فى تجواله رأى النبى ــ ﷺ ــ منفردا أسفل ثنية الحجون فقال :

ــ لا أجده أبدا أخلى منه الساعة فأغتاله .

ومشى النضر وقد وضع يده على مقبض سيفه ، إن هى إلا ضربة واحدة وينتهى ذلك الجدل الذى فصم وحدة الأمة ، ويقتل الخطر الذى يهدد كل سلطان إلا سلطان ابن أبى كبشة بالزوال . فدنا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ليغتاله ، فإذا برعب شديد يهزه من الرأس إلى القدم ، وإذا به

---

(١) الأنعام ١٢١ .

(٢) القصص ٥٧ .

يستشعر كأنما سيموت من الخوف ، وإذا به ينكص على عقبيه مفزوعا ، حتى إذا ما أفرخ روعه لقى أبا جهل فراح يقص عليه أمر ذلك الذى اعتراه وما يدرى له سببا ، فقال أبو جهل :

ـــ هذا بعض سحره .

وما كان فى الأمر سحر ، بل لقد أوقع الله الرعب فى أفئدة كل من وسوست لهم نفوسهم أن يقتلوا رسول الله عليه السلام، تحقيقا لوعد كتبه الله على نفسه لما أنزل : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[(١)] .

١١

كان المسلمون فى كرب عظيم ، فكفار قريش لا ينفكون ينزلون بهم صنوف العذاب ، وما كان رسول الله عليه السلام بقادر على إنقاذهم مما هم فيه من البلاء المبين . وجاء إليه عثمان بن عفان وزوجه رقية يشكوان مما يقاسيان من الكافرين ، ويقرران أنهما قد ضاقا باضطهاد قومهما وأذاهم وبما يسكبون فى آذانهما من قذع السباب وفحش الأقوال ، فتغير وجه الرسول الكريم ، وراح يرنو إلى ابنته وزوجها فى إشفاق ورثاء وقلق . وسرعان ما جاء عامر بن ربيعة وزوجته ليلى يشكوان إلى نبيهما الكريم ما يلاقيان من اضطهاد ابن الخطاب وبطشه الشديد . وجاء أبو سلمة

---

(١) المائدة ٦٧ .

وزوجه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة وفى أعينهما الدموع مما قاسيا من الكرب العظيم على أيدى بنى مخزوم . وتوافد المسلمون : أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وأبو سبرة بن أبى رهم بن عبد العزى ، وسهيل بن وهب بن ربيعة ، وراحوا يقصون على الرسول ما نالهم من أذى على أيدى الكافرين ، والرسول عليه السلام يصغى إليهم وقد بان الألم فى وجهه ، وخديجة أم المؤمنين ترنو إليه تنتظر أن تتحرك شفتاه بما يخفف عن هؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ما هم فيه من الكرب والبلاء .

وأطرق النبى عليه السلام هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ونبيه محمد .

وصمت قليلا ثم قال :

— تفرقوا فى الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم .

قالوا فى حيرة :

— إلى أين نذهب ؟

— اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

والتفتت خديجة إلى ابنتها رقية وهى تتجلد وإن كانت الدموع تبلل روحها ، إنها ضحت بأموالها وراحتها فى سبيل الله وإعلاء كلمته وهى على استعداد لأن تجود بكل شىء لكى تكون كلمة الله هى العليا ويشرق نوره على الوجود ، ففراق الأحبة يهون مرضاة لوجهه الكريم . وما أخف لوعة

بعاد فلذات الأكباد إذا ما قيست بلذة القرب من الحق المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ذى الجلال والإكرام .

وراح بصرها ينتقل بين رقية وعثمان لتتزود منهما بآخر النظرات قبل الرحيل ، كانت رقية ذات جمال بارع ، وكان عثمان حسن الصورة ، فإذا بما كان يتغنى به النساء يهمس فى وجدانها :

أحسن شىء قد يرى إنسان　　　رقيــــة وبعدهــــا عثمان

فخفق قلبها رهبة : فماذا يستطيع عثمان والفئة القليلة من المؤمنين الذين معه أن يصنعوا فى أرض الغربة لو أدار حسن رقية البارع رءوس بعض الأحباش ؟! واستولى عليها خوف وهمس فى جوفها هامس أن تطلب من رسول الله عليه السلام أن يثنى رقية عن الهجرة ، ولكن متى كان الرسول يضن بنفسه أو بأولاده عن التضحية فى سبيل ربه وهو أول المعذبين وإمام المجاهدين ؟ وقد بلغ ما أنزل إليه من ربه فى شجاعة منقطعة النظير دون أن يفكر فى عواقبه وما قد يناله من أذى مبين .

قال لأبى لهب على الملأ : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾(١) وهو على يقين من أن ذلك القول سيدمر زواج ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم . إنه صادق مع ربه ، صادق مع قومه ، صادق مع نفسه ، فلن يخطر له على قلب أن يضن بابنته ويدع بنات المسلمين يهاجرن ، ولن يقبل إلا أن تكون ابنته رقية أول المهاجرات إلى ربها فى الإسلام ، كما كانت سارة أول المهاجرات إلى ربها أيام إبراهيم الخليل .

ورأت خديجة أن تنطلق أم أيمن مع الخارجين لترعى رقية العزيزة ،

---

(١) المسد ١ .

فرحبت السيدة التى كانت تحب أهل البيت بالخروج ، فقد تعلمت فى مدرسة الرسول عليه السلام لذة الذل وحلاوة التضحية ونشوة ابتغاء الوسيلة إلى ربها ورجاء رحمته .

وساد كل من فى الدار وجوم ، كان على بن أبى طالب باسر الوجه وإن كان على ثقة من أن الله تعالى سيجمع المسلمين تارة أخرى ما دام ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد قال ما قال . وكان زيد بن حارثة شارد اللب يتألم لألم رسول الله ، فهو عليه السلام إن كان يبدو ثابت الجنان إلا أن قلبه الكبير كان يفيض بالأحزان لاضطرار المسلمين لهجرة الأهل والخلان والأوطان .

وكان هند بن أبى هالة ابن الطاهرة سيدة نساء قريش مشتت العواطف ، فدموعه تريد أن تنهمر لفراق أخته رقية بينا كان يغالبها حتى لا يحرك أشجان أمه الوالهة ، وأحس رغبة عارمة فى أن يرتمى فى أحضان أبيه العظيم ليطفئ النار التى تتلظى فى جوفه ولكنه كبح عواطفه حتى لا تنفجر المشاعر المكبوتة التى ران عليها وجوم .

أما فاطمة الزهراء فلم تستطع أن تتحكم فى عواطفها فانسلت إلى غرفتها فألفت أم كلثوم تبكى فى صمت ، فسالت عبراتها ثم أجهشت بالبكاء .

وفى تلك اللحظات المفعمة بالأسى لم ينس عليه السلام سننه ، إنه يقول لصحابته على الدوام إذا خرج ثلاثة فليؤمروا أحدهم . وها هم أولاء صفوة المسلمين الأوائل يتأهبون لأول هجرة فى تاريخ الإسلام ، فليؤمر عليهم أميرا يرجعون إليه فى شئونهم ويكون قوله الفصل إذا ما تحزبت الأمور ، فأمر عليهم عثمان بن مظعون .

وراح المسلمون يتأهبون للفرار بدينهم إلى الحبشة خوفا من الفتنة ، و لم يفكر أبو بكر فى الخروج فهو يتحمل الأذى راضيا ما دام يسعد بلقاء صاحبه الذى ينزل عليه الوحى من السماء .

وانطلق عثمان بن عفان وعامر بن ربيعة وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة المخزومى والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وباقى الرجال الذين عقدوا العزم على الرحيل ليصفوا أعمالهم ، ويعطوا أصحاب الحقوق حقوقهم ، ويغسلوا ضمائرهم لتكون هجرتهم خالصة لوجه الله الكريم .

وراح النسوة يجمعن ما سيحمله المهاجرون معهم ، وإذا بهمس يسرى فى مكة بأن بعض أتباع محمد سيغادرون البلاد إلى الحبشة ، وبلغ الهمس مسامع عمر بن الخطاب فانطلق يوسع من خطوه إلى دار عامر بن ربيعة ، فرأى امرأته ليلى على باب الدار وقد تجهزت للرحيل تنتظر أوبة زوجها ، فإذا بغضبه يسكن وإذا برقة تلفه فيقول لها فى إشفاق :

ــ إلى أين يا أم عبد الله ؟

ــ قد آذيتمونا فى ديننا ، نذهب فى أرض الله حيث لا تؤذى .

فقال عمر وقد أطرق برأسه :

ــ صحبكم الله .

ثم ذهب وليلى ترمقه فى دهش ، فجاء زوجها عامر فأخبرته بما رأت من رقة عمر فقال :

ــ ترجين أن يسلم عمر ! والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .

وودع رسول الله عثمان ورقية ، ووقفت خديجة ومن فى الدار ينظرون إليهما وهما يركبان بعيرهما وفى العيون دموع وفى القلوب لوعة وفى الصدور حنق على غلاظ الأكباد الذين اضطروا الأحبة إلى الخروج من

الديار فرارا من الاضطهاد ، وفى سكون الليل انطلق عثمان بن عفان ورقية بنت محمد عليه السلام إلى شاطئ البحر وهما يرجوان أن يصلا إلى مرسى سفن مكة بسلام .

ومن دور بنى مخزوم خرج أبو سلمة وزوجه وأخوه أبو سبرة فقد كانت أمهما برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله عليه السلام ؛ وخرج من بنى عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة وحاطب بن عمرو ؛ ومن بنى أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام ؛ ومن بنى عبد الدار مصعب ابن عمير بن هاشم ؛ ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ؛ ومن بنى جمح عثمان بن مظعون ؛ ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن وهب ابن ربيعة .

كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، خرجوا متسللين حتى انتهوا إلى الشعيبة مرسى سفن مكة منهم الراكب والماشى ، فألفوا سفينتين للتجار حملوهم فيها بنصف دينار . وأقلعت السفينتان وكان القمر بدرا فقد كان مخرجهم فى نصف رجب من السنة الخامسة من حين تنبأ رسول الله — ﷺ — ، وكان الهمس قد بلغ مسامع قريش فخرجوا فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوهم .

وذهب عمر بن الخطاب إلى حيث يجتمع برجال من قريش فلم يجد من جلسائه أحدا فقال : لو أنى جئت الخمار لعلى أجد عنده خمرا فأشرب منها .

فخرج إليه وهو يفكر فى قتل محمد لينقذ أهله منه . فلولاه ما رحل بنو قومه عن وطنهم ، ولولاه ما وقعت الفرقة بين الرجل وزوجه والأخ وأخيه والصاحب وصاحبته . حتى إذا بلغ الخمار لم يجده فقال : فلو أنى جئت

الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجاء المسجد فطاف به ولكن ثورته لم تهدأ ، فتوشح سيفه وذهب يريد رسول الله ورهطا من صحابته . وفيما هو فى طريقه لقيه نعيم بن عبد الله فقال له :

ـــ أين تريد ؟

ـــ أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

ـــ والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ! ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

ـــ وأى أهل بيتى ؟

ـــ خَتَنك[١] وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة يقرئهما فيها ، فلما سمعوا حس عمر اختفى خباب فى مخدع لهم وأخفت فاطمة الصحيفة . ودنا عمر من البيت وقد سمع قراءة خباب فقال حين دخل :

ـــ ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

قالت فاطمة :

ـــ ما سمعت شيئا .

ـــ بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

---

(١) الختن : كل ما كان من قبل المرأة .

وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتفكه عن زوجها فضربها فشجها . فلما رأت الدم قالت :

ـــ يابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل ، فقد أسلمت .

فدخل عمر وجلس على السرير ، فنظر فإذا بالصحيفة فى ناحية من البيت فقال :

ـــ ما هذا الكتاب ؟ أعطينيه .

ـــ لا أعطيكه . لست من أهله .

فنظر إليها فى دهش فقالت فى ثبات :

ـــ يا أخى إنك نجس على شركك ، فإنه لا يمسه إلا المطهرون .

فقام عمر واغتسل ثم قال :

ـــ أعطينى الصحيفة .

ـــ إنا نخشاك عليها .

ـــ واللات والعزى لأردنها إذا قرأتها .

وطمعت فى إسلامه فدفعتها له ، فراح يقرأ بعينيه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فذعر ورمى بالصحيفة من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها فإذا فيها : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى ﴾[١] . فذعر ورمى بالصحيفة من يده ، ثم رجع لنفسه فأخذها وراح يقرأ : ﴿ الرحمن على العرش استوى * له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء

---

(١) طه ١ ـــ ٤ .

الحسنى * وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾[١] :

واغرورقت عينا عمر بالدموع وطافت به رقة ، وأحس كأن فؤاده قد أشرق بنور اليقين فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فخرج خباب من مخدعه يكبر ، وكبرت فاطمة ، وكبر سعيد بن زيد استبشارا بما سمعوا منه وحمدوا الله . وقال خباب :

— يابن الخطاب أبشر ، فإن رسول الله دعا فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبى الحكم عمرو بن هشام وعمر ابن الخطاب » .

والتفت عمر إليهم وقال :

— أخبرونى بمكان رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعرفوا منه الصدق فقالوا :

— هو فى بيت بأسفل الصفا .

ووصفوا له دار الأرقم فانطلق إليه ، فلما قرع الباب قال بلال :

— من هذا ؟

---

(١) طه ٤ — ١٦ .

— ابن الخطاب .

فما اجترأ أحد أن يفتح له الباب لما عرفوه من شدته على رسول الله ، وراح بلال يقول وهو فى فزع :

— يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا سيفه نعوذ بالله من شره .

فقال حمزة بن عبد المطلب :

— فأذن له فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله عليه السلام :

— ائذن له .

فأذن له بلال ، ونهض إليه رسول الله عليه السلام حتى لقيه فى صحن الدار فأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال :

— ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة .

فقال عمر فى رقة :

— يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فكبر رسول الله — ﷺ — تكبيرة سمعها أهل المسجد ، فقد كان سروره عظيما لأن الله استجاب دعوته وأعز الإسلام بعمر بن الخطاب أحب الرجلين إليه .

وراح عمر يفكر فى أى أهل مكة أشد لرسول الله — ﷺ — عداوة حتى يأتيه فيخبره أنه قد أسلم ، فتذكر أبا جهل فانطلق إليه فدق عليه

الباب ، فقال :

ـــ من بالباب ؟

ـــ عمر بن الخطاب .

فخرج إليه فقال :

ـــ الرُّحبا وأهلا بابن أختى ، ما جاء بك ؟

ـــ جئت لأبشرك ببشارة .

ـــ وما هي يابن أختى ؟

ـــ إنى قد آمنت بالله ورسوله محمد ـــ ﷺ ـــ ، وصدقت ما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

ـــ قبحك الله وقبح ما جئت به .

وجاء رجل آخر من عظماء قريش وأعلم ابن الخطاب أنه صبأ فلم يصبه منه شيء ، فقال له رجل :

ـــ تحب أن يعلم إسلامك ؟

ـــ نعم .

ـــ إذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا فأت جميل بن معمر فقل له فيما بينك وبينه إنى قد صبوت .

كان جميل لا يكتم السر ، فلما اجتمعت قريش فى الحجر جاءه عمر فدنا منه وأخبره بإسلامه ، فرفع جميل صوته بأعلاه فقال :

ـــ ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

فما زال الناس يضربون عمر ويضربهم ، فقام خاله أبو جهل على الحجر فأشار بكمه وقال :

ـــ ألا إنى أجرت ابن أختى .

فانكشف الناس عنه ومرت الأيام وصار عمر يرى المسلمين يضربون وهو لا يضرب فحز ذلك فى نفسه وقال : ما هذابشيء حتى يصيبنى ما يصيب المسلمين .

فتريث حتى جلس الناس فى الحجر ووصل إلى خاله فقال له :

ــ جوارك عليك رد .

فقال أبو جهل :

ــ لا تفعل يابن أختى .

ــ بل هو ذاك .

فقام الناس إليه يضربونه ، ووثب عليه عتبة بن ربيعة فألقاه عمر إلى الأرض وبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعيه فى عينيه فجعل عتبة يصيح ، واستمر القوم يقاتلونه ويقاتلهم حتى أقبل العاص بن وائل عليه حلة حبرة وقميص موشى ووقف عليهم فقال :

ــ ويلكم ما شأنكم ؟

ــ صبأ عمر .

ــ فمه ! رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب مسلمين لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

فانفرجوا عنه كأنه ثوب كشط عنه .

وضاق الكافرون بإسلامه وبصموده برد عدوان المعتدين فقرروا قتله ، فتدفقوا إلى داره يتصايحون ، فبينا هو فى داره خائفا إذ جاءه العاص ابن وائل فقال له :

ــ مالك ؟

ــ زعم قومك أنهم سيقتلونى .

— أمنت . لا سبيل إليك .

فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادى فقال :

— أين تريدون ؟

— نريد هذا عمر بن الخطاب الذى صبأ .

— لا سبيل إليه فأنا له جار .

كان المسلمون لا يستطيعون أن يصلوا بالكعبة آمنين حتى أسلم عمر ، فقال لرسول الله — ﷺ — :

— يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

— بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم .

— ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف . والذى بعثك بالحق لنخرجن . والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم .

وخرج المسلمون فى صفين : حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر ، فثار الغبار من الأرض لشدة وطء أقدام المسلمين ، وقد شهر عمر سيفه وراح ينادى :

— لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

حتى دخل المسجد ، ثم صاح مسمعا قريش :

— كل من تحرك منكم لأمكنن سيفى منه .

ثم تقدم أمام رسول الله — ﷺ — وهو يطوف والمسلمون ، فنظرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، وراح المسلمون يصلون مطمئنين . ثم رجع النبى عليه السلام ومن معه إلى دار الأرقم ، فنظر إلى عمر الذى فرق الله به بين الحق والباطل وقال فى رضا واستبشار :

— الفاروق .

١٢

كان هوى قريش مع الفرس فالبلاط الفارسى يفتح أبوابه للعرب ، وكانت الحيرة ملتقى شعراء العرب وأشرافهم ، ومن الحيرة كان أصحاب الأطماع يشدون الرحال إلى المدائن ، وقد نجح سادات الحرم فى عقد أواصر الصداقة مع الأكاسرة .

و لم تكتف بعض قبائل العرب بصداقة الفرس ، بل دخلت قبيلة تميم فى دينها وعبدت النار وقدمت الصلوات لأهورا مزدا إله النور ، وقد بعث كسرى مهندسيه لبناء بعض الحصون فى أرض العرب حماية للقبائل التى أظهرت له ولاء ومحبة .

وقد اتفق العرب والفرس فى الرمز إلى آلهتهم بأصنام وأوثان ، وكانت الآلهة فى الديانتين غالبا من المجموعة الشمسية فقد كنت آلهة الفرس الشمس والقمر والكواكب السيارة بعد أن طال على الناس العهد وفسد دين التوحيد الذى جاءهم به زرادشت ، وكانت آلهة العرب الشمس والكواكب والنجوم : فاللات الشمس وأم الآلهة ، والعزى كوكب الصباح وقد عبدت بعض القبائل كوكب الشعرى .

وكان العرب يعتقدون فى تعدد الآلهة مثلهم فى ذلك مثل الفرس ، وكانوا يجدون فى عبادة الدولة العظمى للأصنام دليلا على صحة معتقداتهم ، بل كانوا يرون تماثيل السيد المسيح والسيدة العذراء فى الدولة الرومانية والدول التى تدور فى فلكها فكانوا يزدادون يقينا فى صدق عبادتهم لآلهتهم ، فالدنيا بأسرها تسجد لأصنام الآلهة . فلما جاء محمد —

ﷺ — ودعاهم إلى عبادة إله واحد قهار قالوا .. أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ! وقاوموا دعوته واعتبروا التوحيد بدعة ينبغى مقاومتها .

وكان هوى النبى — ﷺ — مع الروم فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ورسله وملائكته ، ويعترفون بالوحى وإرسال الله رسلا من البشر مبشرين ومنذرين يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . وقد كان رسول الله عليه السلام وصحبه يتحاورون كثيرا فيما يجرى بين الروم والفرس من أحداث فكان المسلمون يستبشرون بنصر الروم ، وكان يشق على الكافرين أن ينزل بالفرس أية هزيمة أو تطوف بهم ضائقة أو ينتاب سلطانهم وهن أو ضعف ، فقد كان كل فريق منهما يرى صورة مستقبله فى واقع حياة الإمبراطورية التى يتحمس لها . فالمسلمون والكافرون كانوا يعتبرون ما بين الروم والفرس مرآة صادقة تتنبأ بما سيتمخض عنه الصراع الدائر فى مكة بين الإيمان والكفر ، بين القائلين أن لا إله إلا الله والقائلين بتعدد الأرباب .

* * *

كان كسرى الثانى يسير فى قصره العظيم إلى قاعة العرش لاستقبال سفراء الدول الأجنبية ، وكان القصر غارقا فى الصمت وإن كان به ثلاثة آلاف امرأة ، غير ألوف من الجوارى اتخذهن للخدمة والغناء . وثلاثة آلاف رجل يقومون بخدمته ، وثمانية آلاف وخمسمائة دابة لمركبه ، وسبعمائة وستين فيلا واثنى عشر ألف بغل لنقله . وكان كسرى قد وضع التاج فوق رأسه ، وهو تاج عال يتدلى منه رباطان من اللؤلؤ ، وفى قمته عمود عليه جناحا نسر يحمل هلالا فوق كرة الشمس .

وكانت ملابس الملك تتكون من ثوب ذى أكمام يتدلى إلى ما تحت الركبتين ، وسروال واسع ومثنى ، وكلاهما مرصعان بالجواهر . وأطراف الثوب وحمالة السيف وغمده وكذلك السروال مزينة بصفوف كثيرة من اللؤلؤ وقد زين الملك رقبته بعقود من اللؤلؤ ، وقد تهدل شعره من تحت التاج فى أربع ضفائر على صدره وكتفيه .

ودخل كسرى تحت طاق الديس أى التخت الذى يشبه القبة . وهو سرير من العاج والساج وصفائحه ودرابزيناته من الفضة والذهب ، وطوله مائة وثمانون ذراعا وعرضه مائة وثلاثون ذراعا وارتفاعه خمس عشرة ذراعا ، وفى مراقيه سرر من السيز والأبنوس مضببة بالذهب ، وعليه طاق من الذهب واللازورد .

وفى السقف الذى يشبه القبة وضع تمثال كسرى على عرش كأنه فى السماء وحوله الشمس والقمر والنجوم آلهة الفرس ، وقد جلس من حوله رسله وفى أيديهم الصوالجة ، وقد وضعت آلات لتنزل الماء رذاذا كأنه المطر وتأتى بصوت كأنه الرعد .

واتجه كسرى إلى عرشه فإذا برجال الدولة وكبار القواد يخرون له سجدا ، وما استوى الملك على إيوانه حتى فتحت الأبواب ليدخل سفراء الدول .

وعلم كسرى أن فوكاس قد قتل موريق إمبراطور الروم فاربد وجهه ، فالإمبراطور المقتول قد أعانه على استرداد عرش آبائه ، بعث إليه بثيادوس أخيه ومعه ستون ألف مقاتل . ولم يكتف بذلك بل زوجه مريم ابنته وحملها إليه ، فلولا معاونة موريق ما دخل المدائن ولما جلس على عرش فارس .

وجمع كسرى برويز (المظفر) مجلس حربه وراح يتشاور مع قائده شهر براز ، وما انتهى الاجتماع حتى كان كسرى قد أعلن الحرب على الدولة البيزنطية انتقاما للرجل الذى عاونه على استرداد ملكه وزوجه ابنته .

وخرج كسرى من قصر دستكرد ليلقى نظرة على جيوشه المتأهبة للخروج لغزو الروم ، وكان القصر يقع على الطريق الحربى الواسع الذى يذهب من المدائن إلى همدان ، فكسرى قد هجر المدائن لأن المنجمين والعافة نبئوه بأنها شؤم عليه .

كان كسرى ممتطيا جوادا وقد لبس لباس الحرب . فوضع فوق رأسه خوذة علاها التاج المجنح والكرة والهلال ، وكان عليه درع من حلق الحديد يصل حتى الخوذة ويخفى وجه الملك ويغطى فى مرونة جسده حتى الفخذين ، وظهرت من تحته الملابس الحريرية التى رسم عليها الهيوكامب (سمكة على شكل فرس) ، ومد بيمينه الحربة التى استندت إلى كتفه وأمسك فى يساره حلقة مستديرة ، وشد حزاما مزينا وجعبة مملوءة بالسهام ، وما إن وقف الملك أمام جيشه حتى أخرج الدرافس كاويان راية الفرس العظيمة التى كانوا يخرجونها للأمر العظيم .

وانطلقت هتافات الشعب لتبلغ عنان السماء ، وتقدم الجيش للقتال وهو يحيى كسرى العظيم . وما غاب الجيش عن العيون حتى عاد كسرى إلى القصر ليلعب الشطرنج مع ندمائه وكان من الياقوت الأحمر وقصب الزمرد ، وليمضى ليله فى أحضان النساء اللاتى بلغ عددهن ثلاثة آلاف امرأة من بلاده وبلاد الروم .

كانت الأنباء قد جاءت قبل أن يتحرك الجيش بأن هرقل طرد فوكاس

وأنه توج إمبراطورا على الدولة الرومانية ، فلم يعد هناك مبرر لانطلاق الجيوش الفارسية إلى الغرب بعد أن تم الانتقام لموريق. ولكن كسرى كان يريد حرب بيزنطة ، وما كان مقتل موريق إلا ذريعة لذلك ، فراح يؤكد أن هرقل اشترك فى دم صديقه وحليفه ، وأن جيوشه ستقوم بتأديب كل من اشترك فى المؤامرة التى أطاحت بموريق وانتهت بسفك دمه الغالى البرىء .

وتقدمت الجيوش الفارسية لتخوض معارك رهيبة مع جيوش الروم المرابطة فى الشام ؛ وبعد قتال مرير سقطت الرها وأنطاكية ودمشق ، وراحت جيوش كسرى المظفرة تتقدم إلى أرض فلسطين . وسرعان ما ضربت حصارا على بيت المقدس ، فأخذ أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى الصليب المقدس ، وكان قد وضع فى تابوت من ذهب ، وطمروه فى بستان وزرعوا فوقه مبقلة .

واشتد الكرب على سكان بيت المقدس، وزاد فى ضيقهم أن اغتنم يهود القدس الفرصة للانتقام من النصارى فأشعلوا النار فى الكنائس واغتالوا من استطاعوا قتلهم فى غفلة منهم ، ولم يكتفوا بذلك بل دلوا الفرس على عورات أعدائهم ، فما نسى اليهود ما نزل بهم من اضطهاد الروم وما حاق بهم من عذاب لما قال المنجمون إن دولة الروم ستزول على أيدى شعب مختون .

وتدفقت الجيوش الفارسية على القدس ، وهرع القائد إلى كنيسة القيامة لينتزع منها الصليب المقدس ولكنه لم يجده فجاء بأسقفها ومن كان فيها من القسيسين وراح يعذبهم عذابا رهيبا حتى دلوه على موضعه ، فاحتفر عنه بيده واستخرجه وبعث به إلى كسرى وهو يكاد يطير فرحا

فقد استولى على قدس أقداس المسيحيين .

وراحت جيوش فارس تتقدم إلى مصر وما لبثت أن حاصرت الإسكندرية .. فحاول البيزنطيون أن ينقذوا نفائس المملكة فجمعوا خزائنهم وذخائرهم فى سفن كثيرة ، فلما لججت فى البحر عصفت الرياح فسيرتها إلى صفوف الفرس حتى ظفر بها شهربراز وقبض عليها كلها وبعثها إلى المدائن ، فعجب منها كسرى وسر بها وسميت كنج بادآ ورد (فئ الريح) .

واستولى الفرس على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة ، وبعث شهربراز إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية فهز الفرح كسرى فسمى نفسه : « الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل » .

وتقدم شهربراز ليغزو القسطنطينية فإذا بجيوش الروم تحاول أن تصده ولكنه انتصر عليها ، واستمر فى تقدمه حتى أناخ على ضفة الخليج القريب منها وخيم هنالك بعد أن خرب جنود فارس بلاد الروم وقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وأموالهم ، وقد عجز شهربراز عن أن ينقل عسكره إلى الساحل الأوربى للبسفور فلم يكن يملك الوسائل ، فاستقر فى مكانه مكتفيا بتهديد بيزنطة .

وبلغت أنباء انتصارات الفرس مكة فشق ذلك على النبى — ﷺ — وأصحابه ، وفرح كفار مكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب الرسول عليه السلام فقالوا :

— إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم إن قاتلتمونا

لنظهرن عليكم .

وجاء أصحاب النبى — ﷺ — إلى رسول الله عليه السلام ، فراح يقرأ عليهم ما أنزل عليه من القرآن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * ألم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١] .

فخرج أبو بكر إلى الكفار فقال :

— أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يقرن الله عليكم أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا .

فقام إليه أبّى بن خلف الجمحى فقال :

— كذبت يا أبا فضيل .

— أنت أكذب يا عدو الله .

— أنا حبك (أراهنك) عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين .

وقبل أبو بكر الرهان ، قبِل أن يدفع عشرة من الإبل إذا لم تغلب الروم والفرس فى ثلاث سنين ، وجاء أبو بكر إلى النبى — ﷺ — فأخبره بما كان بينه وبين أبّى بن خلف ، فقال عليه السلام :

— ما هكذا ذكرت . إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده فى

---

(١) الروم : ١ — ٦ .

الخطر وماده فى الأجل .

فخرج أبو بكر إلى مجلس قريش فلقى أبيا فقال :

ــ لعلك ندمت .

فقال أبو بكر :

ــ لا . تعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين .

فقال أبيّ بن خلف فى زهو :

ــ قد فعلت .

ترى أين يكون أبيّ بن خلف وأمية بن خلف وأبو جهل والمستهزئون بابن أبى قحافة يوم يأتى البشير بانتصار الروم على الفرس وتحقيق ما وعد الله به المؤمنين ؟!

١٣

كان النجاشى جالسا على عرشه يحكم بين الناس وكان راضى النفس مطمئن البال ، فقد كان له ولد أريب سيرث ملكه ذات يوم ويحكم بالعدل بين الناس بعد بذله كل جهد فى تأديب وريثه ليكون من أفضل حكام الأرض .

وفى جنبات القصر كان همس وتدبير وحوار ، قال قائل :

ــ لو أنا قتلنا الملك ، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام ، وملكنا أخاه وإن له من صلبه اثنى عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده ، بقيت الحبشة بعده دهرا .

واطمأن المتآمرون إلى ذلك المنطق الحائر ، كانوا يخشون أن يموت الملك و لم يكن له إلا ولد واحد يرثه ، فإن مات أو قتل قامت الثورات فى البلاد طمعا فى العرش بعد أن انقطع نسل أهل بيت مملكة الحبشة .

وغدا المتآمرون على الملك فقتلوه وملكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا ، ونشأ الفتى الأريب مع عمه وراح يشب لبيبا حازما من الرجال فغلب على أمر عمه ونزل منه منزلة . فلما رأى المتآمرون مكانه منه قالوا فيما بينهم :

ـــ والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملكه علينا وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين ، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه .

فمشوا إلى عمه فقالوا :

ـــ إما أن تقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفناه على أنفسنا .

ـــ ويلكم ! قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم ! بل أخرجه من بلادكم .

فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم فقذفه فى سفينة فانطلق به ، حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابته صاعقة ، ففزع رجال القصر إلى ولده فإذا هو محمق ليس فى ولده خير .

وثارت القلاقل فى البلاد وساد القلق واختلط الأمر وكثر الطامعون فى العرش وأطلت الفتن بخطمها ، وراح عقلاء المملكة يتشاورون فقالوا :

ـــ تعلمون والله أن ملككم الذى لا يقيم أمركم غيره للذى بعتم غدوة ، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن .

وانطلق الرسل فى طلبه وطلب الرجل الذى باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه ثم جاءوا به ، وفى كنيسة يكسوم عقدوا عليه التاج وأجراس الكنائس تدق وقلوب الناس تخفق فرحا ، فقد عاد الرجل الحكيم ليجلس

على سرير ملكه ويقضى على القلاقل والفتن ويسود أرض الحبشة السلام .

وجاء التاجر الذى كانوا باعوه منه فقال للمتآمرين :

— إما أن تعطونى مالى وإما أن أكلمه فى ذلك .

وكان المتآمرون فى ضيق فقالوا :

— لا نعطيك شيئا .

— إذا والله أكلمه .

— فدونك وإياه .

فدخل عليه التاجر فسجد وقبل الأرض بين يديه ، فلما أمره أن يرفع رأسه قال :

— أيها الملك ، ابتعت غلاما من قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرت بغلامى أدركونى فأخذوا غلامى ومنعونى دراهمى .

فنظر إليهم النجاشى وقال :

— لتُعطنَّه دراهمه أو ليضعنَّ غلامه يده فى يده فليذهبنَّ به حيث شاء .

ونظر بعضهم لبعض يتلاومون فهم يعرفون صلابته فى دينه وعدله فى حكمه وإنه لن يحجم عن أن يضع يده فى يد التاجر ليذهب به حيث يشاء ، فقالوا :

— بل نعطيه دراهمه .

وجاء إلى الحبشة أول المهاجرين إليها من المسلمين ودخلوا على النجاشى ، فقام عثمان بن مظعون يقص اضطهاد قومهم لهم لإيمانهم بعبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام مما دفعهم إلى الهجرة إليه ، فقد قال لهم نبيهم

عليه السلام :

ـــ اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فأكرم النجاشى وفادتهم وكان يستقبل كل من هاجر إليه بالترحاب ، وقد تقاطر المسلمون الذين فروا بدينهم إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثلاثين رجلا كانوا فى خير جوار ، يؤدون شعائر دينهم فى أمن وسلام .

كانت رقية فى شوق إلى أبيها عليه السلام وإلى أمها الطاهرة سيدة نساء قريش ، وكان المسلمون جميعا يحنون إلى مكة ، فعشائرهم وإن جاروا أحب إليهم من هؤلاء الغرباء الذين يعيشون بينهم ، فالنجاشى رجل كريم على خلق ودين ، أما من فى القصر من سادات الأحباش فقد كانوا يمدون أعينهم إلى رقية مأخوذين بجمالها الباهر ، وكان ذلك يؤذيها ويجعلها تتلهف إلى العودة إلى أهلها .

وجاء من مكة أحد صحاب الرسول فاجتمع به المسلمون وألقوا إليه أسماعهم ، فراح يقص عليهم نبأ إسلام عمر وكيف أن الله أعز به الإسلام وكيف أنه قاتل الكافرين حتى تركوهم يصلون بالكعبة ظاهرين ويجهرون بقراءة القرآن ، وكيف أسماه رسول الله ﷺ « الفاروق » لأنه فرق بين الحق والباطل لما دخل على رأس المسلمين إلى الحرم شاهرا سيفه مهددا بقتل كل من تسول له نفسه الإساءة إلى المسلمين .

واستبشروا بإسلام عمر وعاودهم الحنين إلى الوطن الغالى فقالوا :

ـــ عشائرنا أحب إلينا .

وخرجوا راجعين إلى مكة وقلوبهم تخفق بالأمل والرجاء قد هفت نفوسهم إلى مراتع الصبا ومدارج الشباب ومهوى الفؤاد ، إلى الأهل

والخلان والصحاب ، إلى أم القرى والحرم والصفا والمروة والحجون وأخشبى مكة وعرفة والمزدلفة ومنى وجبل ثبير وأسواق الحجاز .

واغرورقت العيون بالدموع ومارت الصدور بلوعة الهوى واحتلت الرءوس صور الأحبة ، فودوا لو أن المراكب تطير بأجنحة الشوق إلى الأرض المباركة ، إلى أول بيت وضع للناس ليسعدوا بالطواف به، ويشكروا رب البيت على أن شرح صدورهم للإيمان .

وتعلقت أفئدة العائدين جميعا ببيت نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فقد كانوا يرون بأخيلتهم أنفسهم وهم يهرعون إليه ليقرئوه السلام ويعيرون سمعهم ليسمعوا فى استبشار ما أنزل الله عليه من محكم آياته فيرن فى ضمائرهم صدى صوته العميق الذى حرموا عذب ترجيعه ثلاثة أشهر ، ففاضت أفئدتهم رقة وبللت العبرات مآقيهم .

وراحت المراكب تدنو من مرفأ مكة فخفقت القلوب رهبة وطاف برءوس العائدين أطياف أبى جهل وأبىّ بن خلف وأخيه أمية وأبى سفيان ابن حرب والوليد بن المغيرة وشيبة وعتبة ابنى ربيعة والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط والأخنس بن شريق والعاص بن وائل وشياطين قريش ، فإذا بسؤال يتراقص على أطراف ألسنتهم : ترى كيف الحال الآن بين إخوانهم المسلمين وبين قريش ؟

كانوا يتلهفون على سلام بين من شرح الله صدورهم لأنوار اليقين وبين قومهم ، ولكنهم فى ذلك الوقت الذى كانوا يحلمون فيه بوئام بين إخوانهم وبين الكافرين كانت فاطمة الزهراء تمر بأبى جهل فيرميها الرجل بنظرة قاسية ثم يلطمها لطمة قوية يودعها كل بغضه لأبيها ، فتتألم فاطمة ألما شديدا وتريد أن تصرخ إلا أنها تغالب دموعها وما تقاسى من ألم حتى لا

تشفى غليل عدوهم الموتور . ورأت فاطمة أبا سفيان وكان حاكما فى قريش فشكت إليه ما فعل أبو جهل ، فإذا به يرجع بفاطمة إلى حيث يجلس أبو جهل ويقول لها :

— الطميه قبحه الله .

وتلطم فاطمة أبا جهل كما لطمها وتقتص لنفسها ، ثم تذهب إلى رسول الله — ﷺ — وتقص عليه ما كان فيقول عليه السلام :

— اللهم لا تنسها لأبى سفيان .

ورست المراكب عند السبيعية مرفأ مكة فنزلوا إلى أحب أرض الله إليهم ، وسرعان ما خروا ساجدين شكرا لله يبللون الثرى بدموعهم ، ثم أغذوا فى السير إلى الوادى المقدس حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من نهار لقوا ركبا فسألوهم عن قريش فقالوا :

— ازدادت العداوة بين قريش والمسلمين ضراما .

فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة ولكن من ذا الذى يطاوعه قلبه على العودة وعلى بعد ساعة من نهار الأهل والخلان والأحباب ؟ لا ، لن تكون عودة قبل أن تطفأ نيران الأشواق المضطرمة بين الضلوع فقالوا :

— قد بلغنا مكة فندخل ننظر ما فيه قريش ، ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

ودخلوا مستخفين يترقبون خشية أن يراهم الناس ، وانطلق كل منهم إلى الأحباب . ومشى عثمان ورقية والزبير وأم أيمن إلى دار الطاهرة سيدة نساء قريش ودقوا الباب ، فما إن فتح حتى ندت من بين شفتى الجارية التى فتحت صرخة فرح تجاوبت فى جنبات الدار بأجمل بشرى :

— مولاى عثمان .. ومولاتى رقية .. سيدى الزبير .. أم أيمن .

وراح كل من فى الدار يستبقون إلى الباب لاستقبال العائدين وبين الضلوع وجيب أفئدة واجفة مستبشرة زاد فى انفعالها وقع المفاجأة .

والتصقت الصدور بالصدور وامتزجت الدموع بالعبرات وتبادل الجميع أنبل القبلات وتدفقت من كنوز الأفئدة أرق المشاعر وأطيب الإحساسات .

وفى هجعة الليل كان النبى عليه السلام وخديجة أم المؤمنين وعلى بن أبى طالب وفاطمة الزهراء وزيد بن حارثة وأهل البيت يصغون فى اهتمام إلى ما كان بين المسلمين ونجاشي الحبشة من كريم الحفاوة وحسن الاستقبال .

وذهب عثمان بن مظعون إلى دار الوليد بن المغيرة ليجيره ، فأخذه الوليد من يده وانطلق به إلى الحرم فأعلن على الملأ أن عثمان بن مظعون فى جواره . ومرت الأيام والأذى ينزل بالمسلمين ، ولقى العائدون المشركين أشد ما عهدوا . ولما رأى عثمان بن مظعون ما يلحق بالمسلمين من أذى قال :

ـــ والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير .

فمشى إلى الوليد فقال :

ـــ يا أبا عبد شمس وفت ذمتك ، رددت إليك جوارك .

ـــ يابن أخى لعله آذاك أحد قومى وأنت فى ذمتى فأكفيك ذلك .

ـــ والله ما اعترض لى أحد ولا آذانى ، ولكن أرضى بجوار الله عز وجل وأريد ألا أستجير بغيره .

ـــ انطلق إلى المسجد فاردد جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، قال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكن لا أستجير بغير الله عز وجل . قد رددت عليه جواره .

— أشهدكم أنى برىء من جواره إلا أن يشاء .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس عثمان معهم فقال لبيد :

— ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

فقال عثمان :

— صدقت .

فقال لبيد :

— وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان :

— كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد فى حنق :

— يا معشر قريش ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟!

فقال رجل من القوم :

— إن هذا سفيه ، فمن سفاهته فارق ديننا فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، فقام ذلك الرجل فلطم عينه والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

— أما والله يابن أخى كانت عينك عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة منيعة فخرجت منها وكنت عن الذى لقيت غنيا .

— بل كنت إلى الذى لقيت فقيرا . والله إن عينى الصحيحة التى لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله عز وجل ، ولى فيمن هو أحب إلى منكم أسوة . وإنى لفى جوار من هو أعز منك .

١٤

اجتمع كفار قريش فى الكعبة وجوههم باسرة وعيونهم حائرة وألبابهم مشتتة وقلوبهم تنزف حقدا وغضبا ، فأمر ابن عبد الله يشتد وأتباعه يزيدون ولا ينقصون ، وينزل بهم أقصى ألوان العذاب فيتحملونه فى صبر عجيب ، وإن ذلك الصبر على الاضطهاد حتى الموت يفتن شباب مكة ويجعل أفئدتهم تهوى إلى ذلك الدين الذى تهون فى سبيله الروح .

أسلم حمزة ثم عمر بن الخطاب فقوى بهما المسلمون وأصبحوا يصلون فى الحرم جهارا على أعين الناس متحدين شعور السادة الذين يغص بهم البيت و لم يؤمنوا بذلك الدين ، بل راحوا يقرءون القرآن معلنين فى وجوه الأصنام التى تملأ جوف الكعبة ونصبت من حولها أن لا إله إلا الله وحده ، فكانت تنشب بين الفريقين مشادات لا تضع حدا لذلك التحدى السافر من قلة شقت عصا الطاعة وخرجت على الجماعة ، وعبدت ما لم يعبد آباؤهم الأولون .

وأطار عقول وجوه الكافرين أن بعض هؤلاء المسلمين تمكنوا من أن ينسلوا إلى الحبشة وأن ينزلوا بلدا أصابوا به أمنا ، فمن يدريهم أن يهاجروا مرة أخرى إلى قوم يؤمنون بما جاء به محمد فيشتد بهم ساعد المسلمين فيصبحون خطرا يهدد الحرم ويقوض قداسة مكة ، فتذهب ريحهم التى

استقرت فى الوادى المقدس مذ أقام أبوهم إبراهيم قواعد أول بيت وضع للناس وجعله الله لهم مثابة وأمنا ؟

كانوا يرتجفون فرقا كلما خطر على قلوبهم زوال مجد البيت يوما ، ولو أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد قرأ عليهم : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1] . فذلك لم ينزل السكينة على قلوبهم . فقد استقر فى وجدانهم أن البيت وما فيه من أصنام شيء واحد لا يمكن الفصل بينهما ، فما كانوا قادرين على أن يتصوروا بيتا مقدسا قد خلا من الآلهة .

وراح رءوس الكفر يتشاورون فرأوا أن هناك حلا واحدا لا بديل له لإخماد هذه الفتنة ، أن يقتل محمد . وجاء الرأى من النضر بن الحارث وأيده عقبة بن أبى معيط وأبو جهل بن هشام وأعداء محمد عليه السلام جميعا . ولكن من ذا الذى يقتله ليصبح هدفا لسهام بنى هاشم وبنى المطلب وسيوفهم ؟ فلو أن رجلا أقدم على قتله فلن يمشى فى الأرض بعدها ساعة من نهار ، سينقض عليه رجال بنى هاشم وبنى المطلب من آمن منهم بمحمد ومن لم يصدقه . فلم يعد الأمر مسألة رجل أفسد عليهم أبناءهم ونساءهم ، بل أصبح ثأرا يحمل الهاشميون والمطلبيون عاره حتى يسفكوا دم قاتله .

ورأوا أن يمشوا إلى قومه يحدثونهم فى أمره ، فانطلقوا إلى بنى هاشم ومعهم أبو لهب عمه . وفيما هم فى طريقهم لقى أبو لهب هند بنت عتبة

---

(١) قريش ١ — ٤ .

فقال :

ـــ يا بنت عتبة ، هلا نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟

فقالت هند مشجعة أبا لهب على المضى فى عداوة ابن أخيه ، لا نصرا للات والعزى بل لتقضى على محمد عليه السلام ؛ ليخلو لزوجها أبى سفيان زعامة قومه :

ـــ نعم ، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة .

وانطلق الرجل الأحمق مع كفار قومه حتى أتوا بنى هاشم وبنى المطلب فقالوا :

ـــ خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم .

فثار الهاشميون والمطلبيون على ذلك العرض المهين ، وكان أبو طالب أكثرهم ثورة فهو وإن كان لم يؤمن بما جاء به ابن أخيه لأنه يعتقد أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا إلا أن أبناءه قد دخلوا فى دين ابن عمهم وآزروه ونصروه ، ولم يحاول أبو طالب أن يثنى أبناءه عن الإيمان والتصديق فقد دعاهم محمد الحبيب إلى خير ، دعاهم إلى مكارم الأخلاق والخلق العظيم .

وعاد كفار قريش إلى مجالسهم يتشاورون وفيهم أبو لهب قد فارق قومه وظاهر عليهم قريشا . وانتشر فى بيوت مكة ما كان بين سادات قريش وبين بنى هاشم وبنى المطلب فانقسم الناس فى الدور بين مؤيدين لرفض بنى هاشم وبنى المطلب تسليم محمد عليه السلام ومعارضين لذلك الرفض الذى سيوسع شقة الخلاف فى مكة ، فلم يعد الأمر أمر محمد وفئة قليلة

مستضعفة آمنت به ، بل صارت المنابذة بين بنى هاشم وبنى المطلب أجمعين وبين أعداء الرسول عليه السلام من أمويين ومخزوميين وجمحيين وتيميين وبيوت شرف قريش العشرة ومن دار فى فلكهم .

وبلغ خديجة أم المؤمنين ما أجمع عليه كفار قريش من قتل زوجها الحبيب فنز قلبها أسى ، وهى تعجب من قوم يفكرون فى سفك دم من جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم تجزع فقد كانت على يقين من أن نور الإسلام سينتشر ويغمر العالمين مذ رأت رؤياها الصادقة قبل أن تتزوج الرسول الكريم ، يوم رأت الشمس تهبط لتستقر فى سقف دارها وترسل ضياءها إلى الكون كله ، فهى منذ تلك الرؤيا لم يخالجها أدنى شك أن النصر للمؤمنين وأن كل ما ينزل بهم من أذى إن هو إلا شحذ لهمم المسلمين .

وطافت بها سحابة من حزن لما فكرت فى ابن أخيها حكيم بن حزام فهى تحب له الرشد والصراط المستقيم ، ولكنه تنكب الطريق وسلك سبل الضلال على الرغم من معدنه النفيس ، وقد شجعه على السير فى الظلمات أنه صاحب دار الندوة وأنه مرموق فى قومه غرته العاجلة ففضلها على الآجلة وما أعد للمتقين .

لم يشترك حكيم بن حزام فى إيذاء المسلمين إكراما لعمته الطاهرة وسيدة نساء قريش ، ولكنه ما كان يعارض قراراتهم الظالمة خشية أن يقال إنه صبأ واتبع ما جاء به زوج عمته الأمين . وكان يتألم أحيانا لذلك الظلم الذى ينزل بالمستضعفين ولكنه كان يكتم ما فى نفسه لكيلا يغضب شيوخ دار الندوة .

وعاد كفار قريش يتحاورون وقد أهمهم قيام بنى هاشم دون الرسول ـ ﷺ ـ ، وإن لم يكونوا جميعا على دينه، فاقترح النضر بن الحارث منابذة

بنى هاشم وبنى المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق ، وأن لا يناكحوهم ، وأن لا يقبلوا لهم صلحا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ـ ﷺ ـ للقتل ، وارتفعت الأصوات مؤيدة مرددة ما قاله النضر كأنما قد وضع كلامه فى أفواههم :

ـ لا تناكحوهم ولا تنكحوا إليهم .

ـ ولا تبيعوهم شيئا ولا تبتاعوا منهم شيئا .

ـ ولا تقبلوا منهم صلحا .

كانوا مجتمعين فى خيف بنى كنانة بالأبطح بأعلى مكة عند المقابر ، وقد اتفقوا على أن يكتبوا بذلك صحيفة ويعلقوها فى الكعبة توكيدا على أنفسهم وأنهم قد قطعوا أواصر بنى هاشم وبنى المطلب بعد المودة والقربى ، فانطلقوا إلى دار خالة أبى جهل وراح النضر بن الحارث يكتب الصحيفة الظالمة .

كانت عداوة النضر لابن خالته مريرة يؤججها نار الحسد التى ترعى بين ضلوعه ، فكيف يؤتى محمد عليه السلام الحكمة وما جلس إلى الحكماء وهو الذى طاف بالأرض لم يعد إلا بأجزاء الحكمة ! إنه يستجلب حربا عوانا على كل من آمن برسول الله عليه الصلاة والسلام أو قام لنصرته ولن يهدأ له بال حتى يرى ابن خالته مسفوك الدماء .

وذهب الذين اتبعوا أمر الوشاة إلى الكعبة وعلقوا الصحيفة فيها ، فرأى أبو طالب أن الحرب قد أعلنت على قومه ، فجمع بنى هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم وأمرهم أن يدخلوا برسول الله ـ ﷺ ـ الشعب ويمنعوه ، فانطلقوا جميعا إلى الشعب ورسول الله ـ ﷺ ـ فيهم ،

وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ، فقال أبو طالب فى قصيدته التى عاتب فيها من استمعوا إلى الوشاة ، ومن انخذلوا عنه :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا

عقد به شرعا عاجلا غير آجل

وكان دخول النبى عليه السلام والذين معه الشعب هلال المحرم سنة سبع من النبوة ، فضرب كفار قريش حول شعب أبى طالب نطاقا من الحراس يمنعون من فيه من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بمن قبلوا الدخول لحماية رسول الله عليه السلام تطوعا . ومرت الأيام ودار الحول فانقضت سنة وبنو هاشم والمطلب فى ضيق ، فقد نفد ما كان عندهم وخوت بطونهم وزاغت عيونهم وتفككت أوصالهم وأنت نساؤهم وبكى صغارهم وراحوا يصرخون يطلبون الطعام ، فكانت دموع النساء تنهمر وأكباد الرجال تتفتت .

وجاءت الأشهر الحرم وقامت الأسواق ، فاستطاع بعض المسلمين الفرار من الحراس وورود السوق ، وقد عرفهم أبو لهب ، فكان إذا ذهب أحدهم ليشترى شيئا من الطعام يقتاته يقوم أبو لهب فيقول :

— يا معشر التجار غالوا محمدا وأصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا معكم فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى .

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يده شىء يعللهم به .

وراح الجوع يطارد بنى هاشم والمطلب ، مؤمنهم وكافرهم ، ولكن لم ينل ذلك منهم بل ازدادوا إصرارا على مناصرة محمد عليه السلام ! وعدم تسليمه لأعدائه ، وراحوا يربطون حجارة يشدونها على بطونهم تخفيفا

لآلام الجوع ، وانقضت سنة ثانية أكلوا فيها أوراق الشجر وقد استبد بهم الجوع وأضناهم وعذبهم وأضعف أبدانهم وغير ألوانهم . وقد زاد فى أسى رسول الله — ﷺ — أن العيون جميعا تعلقت به كأنما تسأله أن يدعو ربه أن يرحمهم مما هم فيه من ضنى وعذاب .

كان هشام بن عمرو بن ربيعة ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف ، وكان هشام لبنى هاشم واصلا ، وكان ذا شرف فى قومه فأتى ببعير ليلا وقد أوقره طعاما ، حتى إذا أقبله فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب يعدو نحو الذين نال منهم الجوع حتى استلقوا على الأرض من شدة الجهد .

وهمس الريح فى آذان القوم بصوت كصوت البعير ففتح الجائعون أعينهم الواهنة ، فإذا بهم يلمحون فى الظلام بعيرا محملا بأحمال قادما نحوهم فانجفلوا جميعا إليه حتى بلغوه ، فساقوه مستبشرين إلى رسول الله عليه السلام ، فأناخه فألفاه محملا بطعام طيب ، فراح النبى يعطى كلا طعامه فأكلوا وشبعوا وتيقنوا من أن فى قريش أناسا يعطفون عليهم ويرجون لهم النجاة ، فاستراحت نفوسهم وقرت أعينهم .

وعاد الجوع ليجمع فلوله ويستعد لشن هجوم آخر أقسى وأوجع ، ولكن رجالا من قريش كانوا يرون أن قرارهم الذى اتخذوه قرار جائر. وأنهم ظلموا أرحامهم فكانوا يبعثون إلى المحصورين بالطعام فى غفلة من الحراس ، وذات يوم لقى أبو جهل حكيم بن حزام معه غلاما يحمل قمحا يريد به عمته خديجة أم المؤمنين ، فتعلق به وقال :

— أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

فجاءه أبو البخترى بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال :

ـ مالك وله ؟

فقال أبو جهل فى غضب :

ـ يحمل الطعام إلى بنى هاشم .

فقال له أبو البخترى :

ـ طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل فقامت مشادة بينه وبين حكيم عند مداخل الشعب ، فنال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البخترى لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه فيشمتوا بهم ، وقد كان الخلاف بين أبى جهل وبين حكيم بن حزام وأبى البخترى إيذانا بتمزق كلمة وجوه الكافرين .

ودارت عجلة الزمن وجاءت الأشهر الحرم التى يأمن فيها الناس والطير ، وأقبل الحجيج إلى مكة من كل فج عميق ليطوفوا بالكعبة ، فخرج النبى ـ ﷺ ـ من الشعب يعرض نفسه على القبائل ويقول :

ـ إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين ما بعثنى به .

وظهر خلفه عمه أبو لهب أحول له غديرتان عليه حلة عدنية فقال :

ـ إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

وانفض الناس من حوله فسار مطرق الرأس وفى قلبه أسى وفى فمه مرارة ، وخرج بنو هاشم والمطلب إلى السوق وحاولوا أن يبتاعوا طعاما للأيام العجاف ولكنهم لم يجدوا من يبيعهم شيئا . وانقضت الأشهر الحرم وعاد الهاشميون والمطلبيون إلى الشعب واستؤنف الحصار ورجعت أيام الشدة والضيق ، وطفق النبى ينظر إلى فاطمة الزهراء وإلى على بن أبى طالب وإلى زيد بن حارثة وإلى هند بن أبى هالة وإلى أم أيمن وإلى شيوخ بنى هاشم وبنى المطلب وهم يتضورون جوعا فيستشعر نياط قلبه تتمزق ، وحزنا ثقيلا ينزل بفؤاده ، فكل هؤلاء الشيوخ والرجال والنساء والصبيان من كان منهم على دينه ومن لم يؤمن برسالته يتحملون العذاب بسبب دعوته ، وهو لا يستطيع أن يفعل إلا أن يمتثل لأمر ربه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وذات يوم نظر العباس بن عبد المطلب إلى زوجه أم الفضل وهى تتلوى من الألم فاربد وجهه وانتقع لونه ، كانت تضع ابنها فى خيمة من خيام المحصورين فى شعب أبى طالب وهو الرجل الغنى الذى ينهض بسقاية الحجيج ورفادتهم وتجوب قوافله التجارية اليمن وغزة وبصرى ويغص داره بالطرف الغالية وفاخر الرياش والسرر المجلوبة من فارس والشام ومصر . ولم يطل شروده فقد هرع إلى حيث كان أخوه أبو طالب ، فإذا برسول الله ﷺ عنده فاستبشر فقال :

— إن أم الفضل تضع ما فى بطنها .

فهرعت فاطمة بنت أسد وخديجة أم المؤمنين وأم عمارة زوج حمزة بن عبد المطلب إلى حيث كانت أم الفضل ،وجلسن لاستقبال الوليد ، وجاء رسول الله — ﷺ — إلى خيمة امرأة عمه التى كانت ثانى امرأة آمنت

برسالته بعد الطاهرة لينتظر مع عمه العباس ما تضع السيدة البارة الفاضلة .

وارتفع صراخ الوليد فى بطن جبل من جبال شعب أبى طالب ، فمسح عويله ما كان العباس يستشعر من أسى ، وراح ينظر فى قلق ولهفة ناحية مدخل الخيمة فإذا بجارية تطل منها وتعلن المترقبين أن أم الفضل قد جاءت بولد ، ومر بعض الوقت ثم أذن للعباس ولرسول الله عليه السلام بالدخول ، فلما تقدما من أم الفضل أشرق وجه العباس بابتسامة راضية وتألق فى عينى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بريق سرور ، ورفعت النسوة المولود إلى العباس فتناوله على كفيه وقد تحرك حنانه فمال عليه وقبله ثم ناوله لابن أخيه ، فضمه محمد عليه السلام إلى صدره فى عطف سابغ ثم راح يلثمه ويدعو له ، وكل من فى الخيمة يرنو إليه وقد تحركت فى الصدور أنبل العواطف وأرق الإحساسات .

ومشى رسول الله — ﷺ — بالمولود هونا ثم وضعه إلى جوار أمه ، فالتفتت إلى النبى وقالت فى إيمان عميق :

— سمه يا رسول الله .

ولم تظهر الدهشة فى وجه العباس ، كان على علم بأن زوجه على دين ابن أخيه وكانت كل عواطفه مع ذلك الدين ، وما أحر الحوار الذى كان ينشب بينه وبين نديمه أبى سفيان بن حرب حول ما جاء به ابن أخيه ، فقد كان يدافع عن الأمين ويحاول أن يكسر على شاطئ لباقته وحسن منطقه موجات الغضب الهادرة التى تحركها قريش بين الحين والحين ، آمن قلب العباس وإن لم يتحرك بالشهادة لسانه .

وتعلقت أعين خديجة وفاطمة بنت أسد وأم الفضل والعباس بالرسول

الكريم ، فلما تحركت شفتاه عليه السلام باسم الوليد وقال :

— عبد الله .

طاف بخديجة طائف من حزن ، تذكرت ابنها الذى ذهب ولما يتم رضاعه مخلفا اللوعة والحسرة والأسى ، وسرعان ما أفاقت من إطراقها وطردت ما همز الشيطان فى وجدانها فابتسمت أم المؤمنين وحاضنة الإسلام ابتسامة مشرقة من قلب سليم .

وذاع فى قريش أن عبد الله بن عباس قد ولد فى شعب أبى طالب ، ففرح أناس لذلك الهوان الذى نزل بالعباس صاحب السقاية والرفادة والصيت العريض ، وشق ذلك على من كان هواهم مع بنى هاشم والمطلب فأطرقوا يفكرون فى الظلم الذى نزل بأحفاد هاشم العظيم ؛ وعبد المطلب بذل نفسه لخير قريش والحرم .

ومشى أبو طالب إلى ابن أخيه وقد هده الجوع وتغير لونه ، فلما رآه النبى — ﷺ — أحس رثاء لحالة وشفقة تملأ جوانحه ، وقبل أن تتحرك شفتا شيخ بنى هاشم بكلمة قال رسول الله — ﷺ — :

— يا عم ، إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها إلا اسما هو « الله » ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال أبو طالب وهو يرنو إليه بعينين واهنتين :

— أربك أخبرك بهذا ؟

— نعم .

وراح أبو طالب وبعض شيوخ بنى هاشم يتأهبون للانطلاق إلى قريش . وفى ذلك الوقت كان هشام بن عمرو بن ربيعة يمشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة المخزومى وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال :

— يا زهير وقد رضيت أنا نأكل الطعام ونلبس الثياب وننكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، ألا إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام (أبو جهل) ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا .

— ويحك يا هشام فما أصنع ؟ أنا رجل واحد . والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها .

— قد وجدت رجلا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له :

— يا مطعم ، أوَ قد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك ؟ موافق لقريش فيه ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

— ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد .

— قد وجدت ثانيا .

— من هو ؟

— أنا .

— ابغنا ثالثا .

— لقد فعلت .

— من هو ؟

— زهير .

— ابغنا رابعا .

فذهب إلى أبى البخترى بن هشام فقال له نحوا مما قال لمطعم فقال :

— وهل من أحد يعين على هذا ؟

— نعم .

— فمن هو ؟

— زهير والمطعم وأنا معك .

— ابغنا خامسا .

فذهب إلى أبى زمعة بن الأسود فاتعدوا خطم الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وانطلق أبو طالب وبعض رجال بنى هاشم إلى الحرم ليخبر قريش عما أنبأه رسول الله ، فإذا بزهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ثم أقبل على الناس فقال :

— يأهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فقال أبو جهل وكان فى ناحية المسجد وقد جلس إليه أبو طالب وبعض رجال بنى هاشم :

— كذبت ، والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود :

— أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

وقال أبو البخترى :

— صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقره .

قال المطعم :

ــ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها وما كتب فيها .

فقال أبو جهل :

ــ هذا أمر قضى بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان .

ورأى أبو طالب أن يحسم الأمر فقال :

ــ إن ابن أخى قد أخبرنى ــ ولم يكذبنى قط ــ أن الله سلط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقى فيها ما ذكر به الله ، فإن كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذبا دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه .

ــ قد أنصفتنا .

وانطلق النضر بن الحارث مستبشرا ليأتى بالصحيفة ، فقد حانت ساعة أن يدفع بنو هاشم والمطلب إليهم من يمتلئ قلبه بالحقد عليه ليقتلوه ولن يستحيوه أبدا ، وعاد بها وهو متفرح فقد كان على يقين أن ما يزعم ابن عبد الله إن هو إلا وهم من أوهامه .

وامتدت العيون إلى الصحيفة واشرأبت الأعناق وفتحت فى حرص شديد ، فإذا بالأرضة قد لحست ما كان فيها من جور وظلم ولم يبق فيها إلا اسم الله ، فسقط فى أيديهم ونكسوا على رءوسهم وسرى همس بين الكافرين قائلين :

ــ هذا سحر مبين .

وقال أبو طالب :

ــ علام نحبس ونحصر وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة ، فقال :

— اللهم انصرنا على من ظلمنا وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا .

وانطلق أناس فيهم مطعم بن عدى وعدى بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البخترى وزهير بن أمية ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى شعب أبى طالب ليقولوا للمحاصرين إنهم فى حمايتهم ، ودخل أبو طالب الشعب وقال :

— مزقت الصحيفة .

وهرع المسلمون إلى رسول الله — ﷺ — ، وهم يكبرون : « الله أكبر .. الله أكبر » . وخرج بنو هاشم وبنو المطلب إلى مساكنهم فى حماية زهير والذين معه وخر المسلمون ساجدين لله رب العالمين .

١٥

كان القلق مخيما على مكة ، على المسلمين والكافرين على السواء ، فقد انقضت سبع سنوات على نزول الوحى أول مرة على رسول الله — ﷺ — فى غار حراء ، وعلى دعوة الناس إلى دين الله سرا وجهرا ، ولم يؤمن برسالته إلا فئة قليلة ممن شرح الله صدورهم لأنوار اليقين . وكان النبى عليه السلام حزينا لتكذيب قومه لدعوته ، وكان ما يزيد فى أساه أن عمه الحبيب أبا طالب لم يؤمن به وإن قام مدافعا عنه ، وأن أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ظل على دين قومه وإن عرف عنه أمانته وحسن خلقه ورجاحة عقله ، وأن عمه أبا لهب قد ذهب فى عداوته شوطا بعيدا حتى إنه

ظاهر أعداء المسلمين على بنى هاشم والمطلب ، وأن ابن خالته النضر بن الحارث يؤلب عليه قريش ويحثهم على قتله لإخماد نيران الفتنة فى زعمه، ولو استفتى قلبه بعيدا عن أحقاده وحسده وهواه لأفتاه أن أبا القاسم ما بعث إلا بالحق ليجدد شباب البشرية ويفجر ينابيع الخير فى الإنسان .

وظل رسول الله — ﷺ — يتأ لم طوال تلك السنين لما ينزل بالمسلمين من عذاب ، وهو لا يستطيع أن يدفع عنهم اضطهاد وجوه الكفار الذين قست قلوبهم فأنزلوا نقمتهم وسوء العذاب بإخوانهم وأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم الذين اختاروا الهدى والرشاد . وقد شق على رسول الله عليه الصلاة والسلام ما يعانى المسلمون من شدة ، وإن كانت تلك الشدة هى النيران التى تنصهر فيها أنفسهم لتتهيأ لنفوذ سر الله إليهم وحمل أعباء رسالة السماء .

وكانت خديجة أم المؤمنين تكابد ألوانا من الأسى لأن سادات بنى أسد لم يسارعوا إلى رحمة من ربهم ويعتنقوا دين الله ، فحكيم بن حزام يدور فى فلك رءوس الكفر أبى جهل وأبى بن خلف وأخيه أمية وعقبة بن أبى معيط وسادات دار الندوة ، فهو وإن كان لا يقسو على المسلمين فهو معرض عن الحق ، فعمته تجادله ليفتح نوافذ قلبه لنور الله وهو يغلق كل مسالك الخير المؤدية إلى نفسه فى وجه دعوتها . مؤكدا فى إصرار أنه سيظل وفيا لذين آبائه عابدا لما كانوا يعبدون .

ونوفل بن خويلد وأبو البخترى وأبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد وسادات بنى أسد ، لماذا وضعوا أصابعهم فى آذانهم و لم يلقوا أسماعهم إلى رسول الله عليه السلام ولجوا فى الخصام ؟ مع أن ما جاءهم به المصطفى عليه السلام يرضى الفطرة السليمة وكل نفس نقية من التعصب الأعمى

لأحجار ما أنزل الله بها من سلطان . إنهم أبوا أن يقتبسوا من نور الله ، وفتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا وغرتهم الأمانى ، والطاهرة سيدة نساء قريش تريد بكل عواطفها أن يهديهم الله قبل أن يأتى أمره ويجعلهم أحاديث ، فقلبها الكبير يتمنى لهم الفوز العظيم وإن أضمروا العداوة والبغضاء لمن عمرت قلوبهم بالإيمان .

وكان أصحاب الرسول فى قلق وإن كانوا على نور من ربهم وإن كان القرآن الذى ينزل على رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، فاضطهاد قريش لهم كان فوق طاقة البشر ، فجلودهم تتمزق من وقع السياط وأنفاسهم تضيق وعيونهم تذرف الدموع من عذاب الدخان وأناتهم ترتفع إلى السماء من وقع النار وأرزاقهم تصادر حتى يتضور عيالهم جوعا وهم ينظرون ، ونفوسهم تتعذب من الأناشيد البذيئة التى ينشدها وراءهم الصبيان ، ومن الصفق والصفير واللغو إذا ما قاموا للصلاة ، ومن هزء الجاهلين وسخرية المستهزئين . ويزيد فى أساهم أنهم يرون أحباءهم يتقاحمون فى النار دون أن يستطيعوا أن يأخذوا بحجزهم أو أن ينتشلوهم من وادى الضلال .

وكان كفار قريش فى قلق ، فأبو جهل قد بذل كل طاقته لإخماد دعوة سليل بنى هاشم ، ولكنه باء بالإخفاق فقد زاد الاضطهاد المسلمين إيمانا وتسليما . ولم يعرف اليأس سبيله إلى قلبه فراح يجاهد حتى أقنع بيوت قريش بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا محمدا ويكفوا عن نصرته والمطالبة بدمه ، وقد كادت المقاطعة أن تؤتى ثمارها لولا أن قام هشام بن عمرو بن ربيعة وزهير بن أمية وزمعة بن الأسود والمطعم بن عدى وأبو البخترى يعارضون المقاطعة ويؤمنون بنى هاشم وبنى المطلب على

حياتهم .

إن ما قام به هؤلاء النفر نذير التصدع فى صفوف المشركين ، وزاد ما قاموا به فى قلق سادات قريش ، كان أقسى على قلوبهم من إسلام أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو وأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وفراس بن النضر ابن الحارث وخالد بن سعيد بن العاص الذى هجر أباه ليعيش فى كنف أبى القاسم ، وأبنائهم وبناتهم وإخوانهم الذين بهرهم الدين الجديد فدخلوا فيه وآمنوا به وقلوبهم تطمئن بذكر الله .

وزاد فى قلق المشركين أن عمر بن الخطاب راح يدعو إلى الإسلام فى ناحية ، وراح أبو بكر يدعو فى ناحية وعثمان فى ناحية والزبير بن العوام فى ناحية وعبيد الله بن طلحة فى ناحية وجعفر بن أبى طالب فى ناحية وكل مسلم يدعو إلى دين الله كل من يصادفه أو يحاوره أو يناظره . فلو سكت سادات قريش على ذلك فسرعان ما تعم الفتنة مكة كلها ويحتويها الإسلام بين جناحيه بل يلتهمها التهاما ، فاجتمع رءوس الكفر فى الحرم واتفقوا على خنق دعوة ابن عبد الله قبل أن يستفحل أمرها .

وراح الكافرون يعذبون المسلمين فى ضراوة حتى ضاقت عليهم مكة فذهبوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يستأذنونه فى الهجرة إلى الحبشة ، فأذن لهم . فقال عثمان بن عفان :

ـــ يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ، ولست معنا .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعا .

قال عثمان :

ـــ فحسبنا يا رسول الله .

فهاجر من بني هاشم جعفر بن أبي طالب مع امرأته أسماء بنت عميس ، ومن بني أمية عثمان بن عفان معه امرأته رقية ابنة رسول الله وعمرو بن سعيد ابن العاص معه امرأته فاطمة بنت صفوان وأخوه خالد بن سعيد بن العاص معه امرأته أمينة بنت خلف ، ومن حلفائهم من بني أسد بن خزيمة عبد الله ابن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش معه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ومن بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومن بني أسد ابن عبد العزى الزبير بن العوام والأسود بن نوفل ويزيد بن زمعة وعمرو ابن أمية ، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير وفراس بن النضر بن الحارث ابن كلدة ، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف وعامر بن أبي وقاص وأبو وقاص مالك بن أهيب خال حمزة بن عبد المطلب ، ومن حلفائهم من هذيل عبد الله بن مسعود وأخوه عتبة بن مسعود ، ومن بهراء المقداد بن عمرو ، ومن بني تيم الحارث بن خالد ، ومن بني مخزوم أبو سلمة ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة . ومن بني جمح عثمان بن مظعون ، ومن بني سهم هشام بن العاص بن وائل ، ومن بني الحارث بن فهر أبو عبيدة بن الجراح .

كان الذين خرجوا إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا فيهم أبناء ألد أعداء محمد ـ ﷺ : أبي سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والعاص بن وائل وسعيد بن العاص وسهيل بن عمرو وعتبة بن ربيعة وزهرة شباب بني مخزوم رهط أبي جهل ، فإن لم يكن ما جاء به محمد ـــ ﷺ ـــ هو الحق من ربه أكان ورثة مجد قريش يتركون آباءهم سادات قومهم ويتحملون أقسى ألوان العذاب في سبيل وهم ؟ أكانوا يتركـون المجد والسؤدد

والسلطان ليهيموا على وجوههم فى الأرض ؟!

وضاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها ما أصابه من الأذى فاستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة ، فأذن له وإن كان فى النفس لوعة فهو صديق الصبا وصديق الشباب وصاحبه الذى لم يتردد لحظة لما عرض عليه الإسلام ، فما كان فراق أبى بكر لنبيه ورسوله شيئا هينا على نفس الصديقين ، ولكن محمدا عليه السلام رأى فى هجرة صاحبه الأمن له فأذن له لعله ينعم بالسلام إلى أن يأتى الفرج .

وودع أبو بكر زوجه أم رومان وأولاده عبد الرحمن وعبد الله وأسماء وعائشة وانطلق ليهاجر إلى الله ، ليفر بدينه من الاضطهاد ، وقد هان عليه الوطن والأهل والخلان والأموال فقد تجاوز فى نموه الروحى زخرف الدنيا وتعلق فؤاده بملكوت الله .

وخرج أبو بكر مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما لقيهابن الدغنة سيد الأحابيش ، فقد تحالف بنو الحارث بن بكر والهون بن خزيمة وبنو المصطلق من خزاعة عند جبل يقال له حبشى فسموا الأحابيش للحلف ، فقال :

— أين تريد يا أبا بكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على .

— ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم ، وارجع وأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير .

فكفوا عنه . وسار أبو بكر يجوس خلال مكة آمنا وكان له مسجد على باب داره فى بنى جمح ، فراح يصلى فيه ويقرأ القرآن فتنهمر من عينيه الدموع ، ووقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يصغون ويعجبون لما يرون من هيئته . ورأى بعض كفار بنى جمح تزاحم الناس على دار أبى بكر إذا ما صلى أو جلس يقرأ القرآن فخاف أن تميل القلوب إلى ذلك الدين الذى يستعبر من يؤمن به إذا مارتل القرآن ترتيلا أو وقف بين يدى ربه خاشعا للصلاة ، فاندفع إلى أندية قريش يقص عليهم مخاوفه .

ومشى من قريش إلى ابن الدغنة رجال فقالوا :

— إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا . إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ، ونحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء .

فمشى ابن الدغنة إليه فقال :

— يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم :

١٦

هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة فوجدوا الأمن والاستقرار وحمدوا جوار النجاشي وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحدا ، وكانوا صفوة شباب قريش فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله . وراح شعراؤهم يبعثون إلى قريش بقصائد تعبر عن صدق إحساساتهم ، فبعث عبد الله بن الحارث قصيدة تلو قصيدة يقول فى إحداها إنهم وجدوا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والخزى والهوان ، ويذكر فى أخرى نفى قريش إياهم من بلادهم ويعاتب بعض قومه ، وقال فى ثالثة :

وتـلك قـريش تجحـد الله حقـه
كما جحـدت عـادٌ ومديـنٌ والحجـر
فـإن أنـا لم أُبـرِق[1] فـلا يسعننى
مـن الأرض بَـرٌّ ذو فضاء ولا بحر
بـأرض بها عبـد الإلـهَ محمـدٌ
أُبيِّن مـا فى النـفس إذ بلـغ النَّقْـر[2]

فسمى عبد الله بن الحارث المُبْرِق .

وراح عثمان بن مظعون يفكر فى ابن عمه أمية بن خلف فيتذكر إيذاءه إياه أيام أن كان فى مكة ، فقد هاجر عثمان الهجرتين إلى الحبشة فرارا من ضراوة عداوة ابن عمه وشراسته ، فقال يعاتب أمية :

---

(١) أبرق : أهدد .   (٢) النقر : البحث من الشيء .

أثيم بن عمرو للذى جاء بِبغضةً
ومن دونه الشرَّمان والبَرْك أكتع[١]
أأخرجتني من بطن مكة آمنا
وأسكنتني فى صرح بيضاء[٢] تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشُها
وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراما أعزة
وأهلكت أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم إن نابتك يوما ملمةٌ
وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

ورأت قريش أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا دارا وقرارا ، فائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها ، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته وقالوا لهما :

ـ ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

ورأى أبو طالب كيد قريش لمن هاجروا إلى الحبشة فاستبد به القلق ، إنه هنا فى مكة يسبل حمايته على ابن أخيه محمد عليه السلام ، فمن ذا الذى سيحمى ابنه جعفرا من عداوة عمرو ؟ فبعث إلى النجاشي أبياتا يحضه على

---

(١) الشرمان : موضع .. والبرك : جماعة الأبل للباركة . (٢) يقصد الحبشة

حسن جوار من لا ذوا به والدفع عنهم ، قال :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر
وعمـرو وأعـداء العـدو الأقـارب

وهـل نـالت افعـال النجـاشى جعفـرا
وأصحابـه أو عـاق ذلك شاغب

تعلّـم ، أبيت اللعـن ، أنك ماجـدٌ
كـريم فـلا يشقـى لـديك المجانب

تعلّـم بـأن الله زادك بسطـةً
وأسبـاب خير كلهـا بك لاذب

وأنك فـيض ذو سجـال غزيـرة
ينـال الأعـادى نفعهـا والأقـارب

وركب عمرو بن العاص وامرأته وعمارة بن الوليد السفينة وحملوا الهدايا ، وكانت فرسا وجبة وأدما ، وكان عمرو قصيرا دميما وكان عمارة رجلا جميلا فكانت امرأة عمرو تراه طوال النهار وطرفا الليل ففتنت به وهوته ، واحتسى عمارة ذات ليلة خمرا لعبت برأسه فقال لعمرو :

ـ مر امرأتك فلتقبلنى .

فنظر إليه عمرو فى دهش وقال :

ـ ألا تستحى ؟

فأخذ عمارة عمرا ورمى به فى البحر .

فجعل عمرو يصيح وينادى أصحاب السفينة ويناشد عمارة جتى أدخله السفينة ، فقال لامرأته :

ـ قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وأصرها عمرو فى نفسه وراح يتحين الفرص ليمكر بمن أرغمه على أن يسمح له بأن يقبل امرأته وهو ينظر .

ونزلا أرض الحبشة فانطلقا إلى بطارقة النجاشى، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم:

ــ إنه قد ضوى إلى بلد الملك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم و لم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لنردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

فقالوا :

ــ نعم .

كان أعداء النجاشى قد باعوه لرجل من العرب فمكث عنده مدة تعلم فيها من لسان العرب ، ثم لما مرج أمر الحبشة وضاق عليهم ما هم فيه خرجوا فى طلبه وأتوا به من عند سيده ووضعوا التاج على رأسه . وكان أعلم النصارى بما أنزل على عيسى ، وكان قيصر يرسل إليه علماء النصارى لتأخذ عنه العلم ، وكانت الصلات بينه وبين هرقل طيبة فقد كان هرقل يرى أن لا خير فى الإمبراطورية الرومانية إلا إذا عادت إلى الله وعبدته حق عبادته .

وكان النجاشى يألف عثمان بن عفان وكثيرا ما كان يبعث فى طلبه ليحاوره ، وكان يعجب من غزارة علم ذلك الوافد من أرض الأصنام وما كان يدرى منبع الحكمة التى نهل منها ، فما حدثه عثمان عن الإسلام خشية أن يوغر صدر الرجل الذى أكرمهم وأحسن استقبالهم .

وانطلق عمارة بن الوليد بن المغيرة فى طرقات قصر النجاشى فإذا

بالصلبان قد ارتفعت فى كل مكان ، وإذا بالحراس ينتشرون فى ممراته ، حتى إذا ما بلغا قاعة العرش صاح صائح :

— إن عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد سفيرى قريش بالباب .

فأمر النجاشي بدخولهما عليه ، فما إن دلفا إلى قاعة العرش حتى خرا ساجدين للملك ، فأمرهما النجاشى أن يرفعا رأسيهما . ثم أقعد عمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن شماله ، وقدما إلى النجاشى فرسا وجبة ديباج فقبل هديتهما فقالا :

— إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك فرغبوا عنا وعن آلهتنا و لم يدخلوا فى دينكم ، بل جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قريش لتردوهم إليهم .

فقال الملك :

— وأين هم ؟

— بأرضك فأرسل فى طلبهم .

ورمق عمرو بن العاص عظماء الحبشة الذين قدم إليهم الهدايا بنظرة فقالوا :

— ادفعهم إليهما فهما أعرف بحالهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى بلادهم وخدمتهم .

فقال النجاشى فى غضب :

— لا والله حتى أعلم أى شيء هم . ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

وأرسل إلى أصحاب النبى — ﷺ — فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض :

— ما تقولون للرجل إذا أجبتموه ؟

— نقول والله ما علمنا وأمرنا نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

وانطلقوا إلى قصر النجاشى ، وفيما هم يمشون فى ممرات القصر قال جعفر بن أبى طالب :

— أنا خطيبكم اليوم .

وبلغوا باب قاعة العرش فصاح جعفر :

— جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوت جعفر مسامع النجاشى فقال :

— نعم ، يدخل بأمان الله وذمته .

وأحس عمرو طلائع الهزيمة ، فهمس فى أذن عمارة بن الوليد :

— ألا ترى كيف يكتنون بحزب الله وما أجابهم به ؟

وتقدم المسلمون ودخلوا قاعة العرش مرفوعى الرءوس دون أن يسجدوا للملك ، بل ألقوا عليه السلام .

فرأى عمرو أن يوغر صدر النجاشى عليهم فقال :

— ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون و لم يحيوك بتحيتك ؟

فقال النجاشى غاضبا :

— ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أُحيَّا بها ؟

فقال جعفر فى ثبات :

— إنا لا نسجد إلا لله عز وجل ، أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار

ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقـذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشى لجعفر :

— هل عندك مما جاء به شىء ؟

— نعم .

— فاقرأه على .

— بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم مـن شىء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون * ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها

آية للعالمين * وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذّب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون * وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾[1] .

وبان التأثر العميق فى وجوه عثمان بن عفان ورقية ابنة رسول الله ــ ﷺ ــ والزبير وأبى سلمة وأم سلمة وأم حبيبة بنت أبى سفيان وكل المسلمين . بينا كان عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة شاردا فقد أمضى ليله يعب الخمر المعتقة فى دير من أديرة النصارى ، فقد وطد عبيد الله

(١) العنكبوت ١٢ ــ ٢٧ .

صداقة متينة مع الرهبان وقد يسر له الأمر أنه كان اعتنق النصرانية أيام أن خرج مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل للبحث عن دين الحنيفية القويم ، وفاضت أعين النجاشي وأعين أصحابه بالدمع وقال النجاشي :

— هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد وقال :

— انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون .

وأو لم النجاشي لسفيرى قريش وليمة فاخرة ، فهو وإن كان قد رفض سفارتهما إلا أنه يحب أن تظل أواصر الصداقة بينه وبين سادات الحرم الذى يحج إليه العرب جميعا موصولة ، وحضرت الوليمة الملكة فراعها حسن عمارة بن الوليد فراحت تختلس إليه النظرات . وفطن عمرو بن العاص إلى ما فى أعين المرأة من إعجاب بسليل بنى مخزوم فقد سبق له أن رأى مثل ذلك البريق الذى يشع من عينى الملكة يتألق فى عينى امرأته ، فوطن النفس على أن يثأر لكرامته من عمارة الذى طعن كبرياءه أمام بحارة السفينة أجمعين .

وانتهت حفلة التكريم ، ولما انصرف عمرو بن العاص وزوجه وعمارة قال عمرو :

— والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا عليه من الغد فقال :

— يأيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون .

فأرسل إليهم رسوله ، وعلموا من الرسول أن عمرو بن العاص أنبأ النجاشي بما يقولون فى عيسى عليه السلام ، فأحسوا ضيقًا لم ينزل بهم

مثله ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض :

ـــ ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟

ـــ نقول والله كما قال الله وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

وسار المسلمون جميعا فى ردهات القصر بين حراس من الأحباش فى أيديهم الرماح ، كانوا ثلاثة وثمانين بين رجل وامرأة وقد أنزل الله على قلوبهم السكينة ، حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح جعفر بن أبى طالب :

ـــ جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

وبلغ صوته مسامع النجاشي فأذن له ، فدخل المسلمون وأخذوا أماكنهم وقد أطرقت رقية ابنة رسول الله ـــ ﷺ ـــ برأسها ، فجمالها الآسر كان يجذب إليها الأبصار وكانت نظرات الرجال تؤذيها .

واتخذ المسلمون مجالسهم فالتفت إليهم النجاشي وقال :

ـــ ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبى طالب :

ـــ نقول فيه الذى جاءنا به نبينا .

واعتدل جعفر ثم راح يقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد

خلقتك من قبل و لم تك شيئا * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة و كان تقيا * وبرا بوالديه و لم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا * واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لى غلام و لم يمسسنى بشر و لم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى و لم يجعلنى جبارا شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾(١) .

---

(١) مريم ١ — ٣٣ .

وتعلقت أعين المسلمين بشفتي جعفر ، أيصمت جعفر وينتهى من قراءته أم يستمر فى التلاوة ويوغر صدور الرهبان الذين جلسوا يصغون وقد فتحوا كتبهم أمامهم كأنما كانوا يقارنون ما فيها بما يرتله ابن عم النبى الأمى الذى قال فى المسيح قولا عظيما ، واستمر جعفر فى التلاوة فبانت الراحة فى وجوه عثمان بن عفان ورقية والزبير والمسلمين جميعا إلا عبيد الله ابن جحش فقد نظر إلى زوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان نظرة كلها ضيق بجعفر وبما يقرأه . كان وجهه باسرا كوجوه قسيسى الحبشة : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون * وإن ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[١] .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ثم أخذ منها عودا ثم قال :

ــ ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

فراح الأساقفة يتحدثون بلغتهم فى غضب ، وراح عبيد الله بن جحش يحدث من حوله منهم كأنما كان يعطف عليهم وعلى قضيتهم ، ونهر النجاشي أساقفته ثم التفت إلى المسلمين وقال :

ــ والله أنتم آمنون بأرضى . من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم . وما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم .

---

(١) مريم ٣٤ ــ ٤٠ .

والتفت إلى كاتم سره ومن عنده من خدمه وقال :

ـــ ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى فآخذ الرشوة فيها ، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه .

فخرجا من عنده مقبوحَين مردودا عليهما ما جاءا به ، فالتفت عمرو إلى عمارة وقال له :

ـــ أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجة النجاشى لعلها أن تشفع لنا عنده .

وملأ ذلك القول عمارة غرورا فراح يتغنى بشعر خولة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت الذى قالته فيه :

يا خليلى نابنى سُهدى ... لم تنم عينى و لم تَكَدِ
فشرابى ما أُسيغ وما ... أشتكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل ... آنس تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر صورته ... ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا ... خامل نِكس ولا جَحِد
نظرتُ يوما فلا نظرت ... بعده عينى إلى أحد

ثم راح يترنم بشعره الذى قاله فيها :

تناهى فيكم وجدى ... وصدَّع حبُّكم كبدى
فقلبى مسعَرٌ حزنا ... بنات الخال فى الخد
فما لاقى أخو عشق ... عشير العشر فى جَهدى

وانسل عمارة إلى حيث كانت زوجة النجاشى ، ولعب بعقل الملكة الرجل الجميل الذى أرادت قريش يوما دفعه إلى أبى طالب بدلا عن النبى

عليه السلام إذا قتلوه ، وتكرر تردده عليها حتى أهدت إليه من عطرها وذات يوم دخل عندها فانسل عمرو بن العاص إلى النجاشي فقال له :

— إن صاحبىَ هذا صاحب نساء ، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن .

فاربد وجه النجاشي وتدفقت الدماء حارة فى عروقه و لم يستطع صبرا ، فانطلق كعاصفة مزمجرة إلى جناح زوجه فألفى ألوان الحراس تغيض والجوارى يرتجفن من هول المفاجاة وقد عقدت الدهشة ألسنتهن . وفتح باب مخدع الملكة فى ثورة فإذا بعمارة عندها ، فأمر بإلقاء القبض عليه وهم بقتله لولا خشية أن تلوك ألسنة الشعب قصة الخيانة البشعة فقال :

— لولا أنه جارى لقتلته ، ولكنى سأفعل به ما هو شر من القتل .

وأمر بحمله ليلقى فى البرارى يهيم على وجهه بين الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت ، يغالب الموت والموت يغلبه حتى آخر الأنفاس .

وعاد عمرو بن العاص وزوجه إلى مكة بعد أن أخفقت سفارته وانتقم ممن أهدر كرامته على أعين الناس شر انتقام ، وبقى المسلمون فى خير جوار وفى خير دار يعملون فى التجارة آمنين ويقيمون شعائر دينهم فى سلام .

وبلغ أبا موسى الأشعرى أن نبيا قام فى مكة يدعو إلى الله ، واستمع هو ونفر من اليمن إلى ما أنزل إليه من القرآن فانشرحت صدورهم للإيمان ، فخرج هو ونحو خمسين رجلا فى سفينة مهاجرين إليه — ﷺ — ، فألقتهم السفينة إلى أرض الحبشة فوجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالإقامة فاشتد بهم ساعد المسلمين فى أرض الهجرة .

وضاق رجال الدين فى الحبشة بما قرأ جعفر بن أبى طالب وزاد فى

ضيقهم موافقة النجاشي على أن المسيح رسول الله ، فراحوا يؤلبون النّاس عليه حتى مشى الناس إلى القصر وقالوا للنجاشي :

ــ إنك فارقت ديننا .

وخرجوا عليه . ونشب القتال بين النجاشي ومن ثاروا عليه فانضم المسلمون إلى الرجل الذى أكرم مثواهم ، وقد حزنوا حزنا شديدا تخوفا أن يظهر الرجل الذى يقود الثورة على النجاشي فلا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل بعد أن هيأ لجعفر وأصحابه سفنا وقال :

ــ اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هزمت فامضوا إلى حيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا .

ودارت المعركة بين الفريقين والمسلمون فى سفنهم يرقبون القتال الناشب وقلوبهم واجفة ، يدعون الله فى حرارة أن يؤيد النجاشي بنصره ، وماج الجنود بعضهم فى بعض فلم يعد من اليسير تمييز قوات النجاشي ، فقال أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخير ؟

فقال الزبير بن العوام :

ــ أنا .

ــ فأنت .

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . وراح أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ يبتهلون إلى الله تعالى أن يظهر النجاشي على عدوه

والتمكين له فى بلاده .

وبينا هم يمدون أبصارهم ناحية المعركة متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى فيحرك ثوبه ليروه وهو يقول :

— ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده .

وتهللت أسارير أصحاب رسول الله — ﷺ — وغمر الفرح أفئدتهم واستبشروا بنصر الله للنجاشى ، ورجع النجاشى إلى عرشه وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكان أصحاب رسول الله — ﷺ — عنده فى خير منزل .

ومرت الأيام والمسلمون جميعا يمارسون شعائر دينهم راضين مستبشرين إلا عبيد الله بن جحش فقد كان يختلف إلى الرهبان ويمارس معهم صلواتهم ، فقد كان حديث عهد بالنصرانية قبل أن يدخل فى الإسلام ، وكانت فكرة تجسيد الآلهة تستهويه أكثر من فكرة الإله المجرد الذى ليس كمثله شىء ، وكانت خمور الكنائس المعتقة تبعث النشوة فى نفسه .

ودخلت أم حبيبة بنت أبى سفيان ونامت فإذا بها ترى عبيد الله بن جحش زوجها بأسوأ حال ، وقد راعها تغير صورته حتى إنها أنكرته ، وهبت من نومها مفزوعة تعوذ بالله من الشيطان ، واستمر قلبها كجناح حمامة بين جنبيها من شدة الخوف ، وظلت الرؤيا تلح عليها حتى أشرق الصباح .

وراحت تنظر إليه وهى فى قلق ، وهمت بأن تقص عليه رؤياها فإذا به يقول :

— يا أم حبيبة إنى نظرت فى هذا الدين فلم أر دينا خيرا من دين النصرانية ، وقد كنت دنت بها ثم دخلت فى دين محمد ثم خرجت إلى دين النصرانية .

فقالت أم حبيبة فى قلق وخوف :

— والله ما خير لك .

واستمرت تقص عليه ما رأت فى منامها وتحاول أن تثنيه فلم يحفل بذلك ، وأكب على الخمر يشربها حتى مات . وبقيت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب على دينها ، بل جعلتها ردة زوجها تجتهد فى العبادة والتقرب إلى ربها وتمضية وقتها فى قراءة القرآن ، وذات ليلة بينا كانت غارقة فى نومها رأت فى المنام كأن آتيا يقول لها :

— يا أم المؤمنين .

ففزعت وراحت تفكر فى ذلك الهاتف : أيتزوجها رسول الله ﷺ ؟ إنها لن تكون أما للمؤمنين إلا إذا تزوجها عليه السلام . ترى أتتحقق رؤياها ذات يوم ؟

١٧

كان أصحاب رسول الله — ﷺ — الذين هاجروا إلى الحبشة يشتغلون بالتجارة ، فكانوا ينطلقون إلى اليمن يحضرون أسواقها ثم يعودون إلى الحبشة بما اشتروا من أسواق صنعاء ونجران من سلع يبيعونها فى أكسوم عاصمة أرض النجاشى أو فيما جاورها من البلاد .

وكان خروجهم إلى اليمن فى الشتاء ليلتقوا بالخارجين من قريش

ليتنسموا أخبار نبيهم عليه الصلاة والسلام ، أو ليختلوا ببعض المسلمين الذين خرجوا فى قافلة قومهم ليسمعوا منهم ما أنزل على الرسول — ﷺ — من آيات الله البينات حتى يحفظوه فى صدورهم فيتلوه على إخوانهم المتعطشين إلى قرآن الله فى أرض الغربة والحنين والأشواق .

وكان اجتماعهم بأهل الحرم يحرك فيهم الشوق إلى أول بيت وضع للناس ، فكانوا يقرءون غالبا فى صلواتهم التى كانوا يقومون بها عند شروق الشمس وعند الغروب : ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾(١) . كانت تلك السورة تثير فى نفوسهم أعمق الآلام ، فقريش الذين منَّ الله عليهم بحرم آمن يأمن فيه الطير بينا يتخطف الناس من حولهم ، قد اضطهدوهم حتى فروا بدينهم من سوء العذاب .

وكانوا يمرون بكنيسة أبرهة التى بناها أفخم ما يكون البناء وجلب لها الرخام من أرض الروم والصناع المهرة من كل مكان ، والتى كنت يوم أن بناها لنجاشى الحبشة : « إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد ، ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن الكعبة إليها » فكانوا يستشعرون عزا ، بل كانت تسرى فيهم قوة روحية تزيدهم إيمانا وصبرا على احتمال ما هم فيه من تشريد . فأبرهة قد ساق الفيلة والجيوش ليدك الحرم ، ولكن الله صان بيته لأنه كان سبحانه وتعالى يعده لتشرق منه رسالة النور لتغمر العالمين .

كانوا يمدون أعينهم إلى كنيسة أبرهة ويتلون : ﴿ ألم تر كيف فعل

---

(١) قريش ١ — ٤ .

ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾[١] .

فكانت أفئدتهم تشرق بالأمل واليقين والإيمان بأن نصر الله قريب .

إن نجاشى الحبشة الذى بنى أبرهة كنيسته كسبا لوده ، والذى قرر أن يسير بجيشه شمالا باسمه حتى تلتقى جيوش نصارى الجنوب بجيوش نصارى الشمال ، مقوضا مراكز عبادة العرب جميعا وهو فى طريقه إلى منبع ديانة النصارى ، رافعا الصليب على كعبات الوثنيين ، قد آواهم وأمنهم ، بل سمع ما يقولون فى السيد المسيح ونصرهم على رهبانه وقساوسته ورجال الدين فى أكسوم .

كانوا يمشون فى الأسواق يبيعون ويبتاعون ، وكانوا يجلسون إلى من يأنس إليهم من النصارى والوثنيين يعرضون عليهم الإسلام ويقرءون عليهم القرآن ، وكان الجدل يشتد بينهم وبين النصارى والرهبان ، وكان الحوار يحتدم أحيانا ، ولكن الرهبان كانوا على الدوام يعجبون من أين جاء هؤلاء العرب المسلمين العلم والحكمة وقد كانوا لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان وما جوهر الدين !

وكانوا إذا ما انتهت أيام أسواق صنعاء شدوا الرحال إلى نجران وكانت تبعد عن صنعاء عشر مراحل . إنها أرض ذات نخل وأشجار بها جبل من حديد ، وكان يضرب منه سيوف كثيرة وكانت الكنائس منتشرة فيها ، فكانوا يشترون السيوف ليبيعوها فى الحبشة ويحاورون النصارى والرهبان فى الدين ، وينبئون الناس أن الله قد بعث محمدا عليه الصلاة والسلام بشيرا ونذيرا .

---

(١) الفيل ١ ــ ٥ .

وكانوا يقرءون على الرهبان القرآن فيلقون إليهم أسماعهم وهم فى دهشة مما يسمعون ، وذات ليلة راح رجل من أصحاب محمد — ﷺ — يتلو : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السماوات والأرض والله على كل شىء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ ﴾(١) . وما انتهى من تلاوته حتى استبدت الحيرة بالسامعين ، فمن أين لأهل مكة هذا العلم وعهدهم بهم شعراء كل همهم التفاخر أو الهجاء أو التشبيب ؟ وكان لشعرهم جرس ورنين ولكن لم تكن له حلاوة ما يقرأ أصحاب النبى عليه السلام ولا سحره ولا عمقه ولا إعجازه .

وذاع فى نجران أمر الرسول الذى يزعم أنه يكلم من السماء وأنه بعث فى مكة ، وانتشر نبؤه فى اليمن . ودار الجدل حول صدق رسالته فقال فريق منهم إنه النبى الذى بشر به موسى وعيسى وأنه الفراقليط ، وراح فريق ينكر ذلك القول ، واشتد الحوار بينهم ثم رأوا أن يبعثوا عشرين رجلا منهم

---

(١) البروج ١ — ٢٢ .

يكلموه ويسألوه .

وخرج القسيسون والرهبان إلى مكة وسألوا عن النبى — ﷺ — ، فقيل لهم إنه فى المسجد ، فانطلقوا إلى الحرم وأرشدوا إليه فإذا هم أمام رجل فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار عليه مهابة ووقار ، يكاد أن يشع من وجهه النور ، ما أسرع أن تقع محبته فى القلوب ؛ فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ينظرون إلى أبى القاسم والرهبان والقسس من حوله يصغون إلى صوته الرصين .

وراح يتكلم بكلام بين فصل ، ثم قرأ عليهم القرآن فاستشعروا كأنما قد تعرضوا لنفحات رحمة الله ، فانشرحت صدورهم بأنوار اليقين ، فإذا بهم على نور من ربهم وإذا بألسنتهم تتعجل أن تنطق شهادة الحق المبين .

وفاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا إلى الله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . ورأى أبو جهل توقيرهم لأبى القاسم فتحرك غضبه وكاد ينفجر غيظا لما عرف أنهم قد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فلما قاموا عنه اعترضهم فى نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ! ما نعلم ركبا أحمق منكم .

فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

لو كان الأمر أمر الدين فها هم هؤلاء رهبان النصارى وقسيسوهم يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى الإنجيل وما كانوا أعلم منهم بأمر الرسالة والرسول ، ولكن لم تكن العداوة بسبب الآلهة بل كانت خوفا من أن يذهب بنو هاشم وبنو المطلب بالمجد كله وأن يصبح سادات بنى أمية وبنى مخزوم وبنى تيم ورجال بيوت شرف قريش العشرة اتباعا ليتيم قريش الذى تغلغل نفوذه فى الحبشة وفى اليمن .

أصبح شأن أبى القاسم أخطر مما كانوا يتصورون ، فنجاشى الحبشة قد رفض طلب قريش وأبى أن يسلم المسلمين الذين لاذوا به ، ولم يكتف بذلك بل رد هداياهم ردا مهينا . ونصارى اليمن قد شدوا الرحال إليه وما كادوا يجلسون إليه حتى آمنوا بصدق رسالته واستجابوا له ، فبات القضاء على هذه الفتنة شيئا لا مفر منه إن أرادوا أن يبقوا على سلطانهم فى مكة .

اضطهدوه وعذبوه ولكنه صبر على الاضطهاد والتعذيب ، أغروا به سفهاءهم فاحتمل الأذى واستمر فى دعوته دون أن يدب اليأس فى قلبه . وأرادوا قتله ولكن عشيرته وأهله قاموا دونه ، وحوصروا فى شعب أبى طالب ونزل بهم أقسى ألوان العذاب فما وهنوا ولا فكروا فى أن يسلموه .

إنه أبو طالب الذى يحميه ، إنه هو الذى يحول بينه وبين طالبيه ، فلو ذهب أبو طالب لأصبح القضاء على أبى القاسم وعلى دعوته أمرا ميسورا . وما دار بخلدهم أنه فى رعاية الله . ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1] .

---

(١) الصف ٨ .

١٨

كان النضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وعتبة بن أبى معيط وأبو سفيان بن حرب وأعداء محمد جالسين فى دار الندوة يسخرون من ابن أبى كبشة الذى سحر أتباعه بقرآنه ، فقال قائل منهم :

ــ إن محمدا سخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾[١] .

كانوا يستهزئون بمحمد عليه السلام ، ويحاولون أن ينالوا من القرآن المجيد ، فكان الحوار محتدما بينهم وبين الرسول الكريم ، وكان القرآن يلزمهم الحجة ولكنهم كانوا يستكبرون ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٢] .

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾[٣] .

﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ، فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾[٤] .

---

(١) النحل ١٠١ ــ ١٠٢   (٢) الأنفال ٣١ ــ ٣٢ .

(٣) النحل ٢٤ .   (٤) الشورى ٢٤ .

﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) .

كانوا يسخرون إذا ما قال لهم رسول الله — ﷺ — إنهم لمبعوثون ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾(٢) . ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾(٣) .

وقالوا إن محمدا قد سخر بأصحابه لما جعلهم يهاجرون إلى الحبشة فى سبيل وهم كبير ، فجاء القرآن الكريم يوضح لهم ما أعد الله للمهاجرين لو كانوا يعقلون : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٤) .

كانوا يجادلون بألسنتهم ولكنهم كانوا فى حيرة من أمر ابن عبد الله، فمن أين له ذلك العلم وتلك الحكمة التى تتدفق من بين شفتيه وقد لبث فيهم من قبل عمرا وما اشتغل بأمور الدين ؟! وكان القرآن يوضح لهم ما غاب عنهم : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٥) ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر

---

(١) الجاثية ٢٤ — ٢٦ .

(٢) النحل ٣٨ .

(٣) الجاثية ٣٢ .

(٤) النحل ٤١ .

(٥) الشورى ٥٢ — ٥٣ .

ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

وكانت تقشعر جلودهم إذا ما نزل فيهم قول شديد ، ولكنهم كانوا يحاولون أن يبدوا هادئين: ﴿ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾(٢) .

وكان رسول الله — ﷺ — يضيق بما يقولون ولكن الله عز وجل قد أنزل عليه : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾(٣) .

كانوا يتخذون آيات الله هزوا ولكنهم كانوا يرتجفون فرقا من أن يصغى الناس إلى القرآن المبين ، فلا جرم أنهم كانوا يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقد ذاع صيته فى اليمن ، فخشيت قريش أن يلتقى بالنبى — صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يجلس إليه ويلقى إليه السمع فيستولى على فؤاده بسحر قرآنه . فهرعوا إليه وقالوا :

---

(١) النحل ٣٣ . (٢) الجاثية ٧ — ١١ .
(٣) الأحقاف ٣٥ .

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر .. يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وأخيه وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا ، فرقا من أن يبلغه شىء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه .

فغدا إلى المسجد فإذا رسول الله — ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فإذا بسمعه يرهف وإذا بأذنيه تلتقطان ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، وإذا به يحس حلاوة ما مس أذنيه من كلام حسن فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته

وجلس يرقب رسول الله — ﷺ — من طرف خفى ، فلما نهض لينصرف إلى بيته قام الطفيل فاتبعه ، حتى إذا ما دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قالوا لى إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف[1] لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى

---

(١) الكرسف : القطن .

قولك فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه — ﷺ — الإسلام ثم راح يتلو عليه القرآن :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا * فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم فى خوض يلعبون * يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون * إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم * فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم

سُلَّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين * أم له البنات ولكم البنون * أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون * أم عندهم الغيب فهم يكتبون * أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون * أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون * وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم * فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون * يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم يُنصرون * وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون * واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾(١) .

واستمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ يتلو عليه القرآن والشاعر اللبيب يصغى إليه وهو مأخوذ يستشعر كأن الحجاب الذى كان بينه وبين ملكوت السماء يرتفع بلطف خفى من الله تعالى ، وأن شيئا غريبا يلمع فى قلبه من وراء ستر الغيب كالبرق الخاطف ، كان نور الله ينسكب فى نفسه لتتلألأ فى فؤاده حقائق الأمور ، فانكشف له الأمر وفاضت على صدره أضواء اليقين ، فقد كان يطلب الحق فهداه الله السبيل ، فقال وهو يتهلل بالبشر والتسليم :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وسادت لحظة صمت ملؤها انفعالات تفجرت من كنوز البر جعلت الدمع من أعين الرجلين يفيض . واختلجت الخواطر فى نفس الطفيل فقال :

ـــ يا نبى الله إنى إمرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام .

---

(١) سورة الطور .

وانطلق الطفيل إلى اليمن يحس أنه قد خلق خلقا آخر ، جاء إلى مكة وهو من عباد ذى الكفين « مزهوا بمكانته فى قومه » فإذا به يعود وهو من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . خرج من قبيلة دوس وهو معجب بأشعاره تنتفخ أو داجه غرورا إذا ما سمع المترنمون ينشدون قصائده ، فإذا به بعد أن سمع كلام الله وشرح الله صدره للإسلام قد جعل دبر أذنيه كل ما نظم من قريض وأصبحت أمنيته أن يقرأ القرآن فى دوس ، بل أن تتردد تلاوته فى جبال اليمن وسهولها ووديانها بله فى العالمين .

وخرج إلى قومه حتى إذا كان بفرجة بين جبلين تطلعه على القوم النازلين على الماء ، راح يتهيأ ليعلن قومه بالنبأ العظيم ، ليقول لهم : إن ربكم واحد لا إله إلا هو فاعبدوه ، وراح يهبط إليهم من الثنية حتى جاءهم فأصبح فيهم .

فلما نزل أتاه أبوه وكان شيخا كبيرا فراح يضمه إلى صدره ويقبله فى شوق شديد ، فقال له الطفيل :

— إليك عنى يا أبت فلست منك ولست منى .

فقال الشيخ فى دهش :

— ولم يابنى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد — ﷺ — .

وراح الطفيل يدعو أباه إلى الإسلام ويتلو عليه بعض آيات الذكر المبين ، فإذا بالشيخ يحس كأنما ما يسمع يرفعه إلى السماء ليقرع أبواب الملكوت ، إنه كان يستمع بسر قلبه فإذا به يشاهد ما وراء حواسه ، وإذا به فى لحظة يكشف عن جوهر وجوده الإنسانى وينزع إلى السمو إلى النبع

الروحى الفياض الذى يهدى إليه القرآن المجيد ، كانت حياة الشيخ عبثا قبل أن يأتيه ابنه باليقين ، كان يخبط فى الظلمات حتى أشرق عليه النور من مكة ، كان يسجد لذى الكفين ويحج إلى الطائف ليتمسح باللات ثم يشد الرحال إلى الحرم ليقدم إلى العزى ومناة وهبل والأصنام الأخرى القرابين ، مع أن الله معه أقرب إليه من حبل الوريد .

وملأت الدموع عينى الشيخ وقال فى انفعال شديد :

ــ أى بنى ، فدينى دينك .

ــ فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما علمت .

وانطلق الشيخ فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء ، فراح الطفيل بعرض عليه الإسلام ، فأحس الشيخ كأن قوة رحيمة تمحق الزائف من وجدانه وتثبت الحق وتحرره من العبودية والذلة والمسكنة ؛ وتمنحه حرية السمو إلى ما فوق الأهواء وما عاش فيه من خرافات .

كان ما يقوله ابنه يعبر عن صوت العقل ، إنه النزاهة الحقة ، إنه اليقين الذى ما بعده يقين ، إنه الصراط المستقيم ، إنه كشف حقيقة نفسه فى نور الله ، فإذا به يفطن إلى أن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن لا سعادة أبدية إلا بالله ، فقال وهو يتقد حماسة :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وأتته صاحبته متطلقة الوجه يلوح عليها الشوق الشديد ، فما إن رأته حتى ارتمت عليه فقال لها :

ــ إليك عنى ، فلست منك ولست منى .

ــ لم ؟ بأبى أنت وأمى .

ــ قد فرق بينى وبينك الإسلام ، وتابعت دين محمد ــ ﷺ ــ .

وراح يصف لها ما كان بينه وبين قريش وكيف أن الله أبى إلا أن يسمعه قراءة محمد عليه السلام ، ثم قال :

— فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق .

فقالت وهى ترنو إليه فى حب :

— فدينى دينك .

— فاذهبى إلى حمى ذى الشرى فتطهرى منه .

كان ذو الشرى إله النبط العظيم وكان له بعد هائل فى البتراء ، كان عرب الجنوب يحجون إليه وكانوا يطلقون عليه « ذا الشرى ورب البيت » ، وقد اتخذت قبيلة دوس ذا الشرى إلها ووضعوه فى مكان فى بطن جبل يهبط منه ماء قليل ، وقد اندثرت عبادة ذى الشرى فى الشمال بعد أن قضى الرومان على مملكة أحفاد إسماعيل وبقيت فى بعض قبائل اليمن .

ووقفت امرأته مترددة وأحس أنها تخشى غضبه وأن ينزل بأبنائها السوء ، فقال لها :

— بأبى أنت وأمى، أتخشين على الصبية من ذى الشرى شيئا ؟

ولم تنبس بكلمة فقال لها :

— لا ، أنا ضامن لذلك .

فذهبت فاغتسلت ثم جاءت ، فعرض عليها الإسلام وقرأ القرآن فإذا بها يستشعر لذة لا كدر لها ، وذاقت حلاوة الإيمان فاشتاقت إلى سماع المزيد من آيات الله البينات ، فالشوق بعد الذوق ، ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقى مع المحرومين من نعمة الله .

وألبسها الله لباس الإيمان فصفا قلبها ، وانكشف فيه فى لحظة من أسرار الله فى ملكوت السماوات والأرض ما لا تقدر عليه فى عشرات السنين ، فإذا بها تنجذب إلى السماء ، وإذا بها تحس قربا حقيقيا من الله ، وإذا بأنوار المعرفة تشرق فى فؤادها فهى على نور من ربها ، فقالت والعبرات تسيل على خديها :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقام إليها الطفيل يضمها إليه فى قوة كأنه وجدها بعد طول غياب .

وخرج الطفيل بن عمرو الدوسى إلى قومه فرحبوا به ، وألقوا إليه سمعهم ، فقد حسبوا أنه سينشدهم بعض شعره ، فإذا به ينهاهم عن عبادة ذى الكفين والآلهة الأخرى ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويأمرهم أن يهجروا ما وجدوا عليه آباءهم ، فإذا بهم يقولون كما قال كفار قريش :

ــ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون .

وكان بين قومه رجل آدم ، بعيد ما بين المنكبين ، ذو ضفيرتين أفرق الثنيتين ، أبيض لين ، لحيته حمراء ، يصغى إلى الطفيل فى اهتمام شديد ، وقد استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه ، فتعرض لنفحات رحمة ربه ، وافتتح الله عليه من مزايا لطفه ، فإذا فى فؤاده سراج يزهر ، وإذا بباب الفوز الأكبر يفتح على مصراعية ، وإذا به ينطلق فى طريق الوصول إلى الله .

وأبطأ قوم الطفيل عليه فانصرف مطرقا حزينا ، فقد ساءه وهو المطاع فى قومه أن يغلقوا أفئدتهم دون الحق ، واتبعه ذلك الرجل ذو اللحية الحمراء ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

ــ اعرض على الإسلام .

فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ، فقال الرجل بعد أن أنار الله بصيرته :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله.

كان الرجل أبا هريرة و لم يكن أكثر من راعى غنم ، ولكن الطفيل بن عمرو قد سر بإسلامه سرورا عظيما ، فقد كان أول من استجاب لدعوته من غير أهله . ولو عرف الطفيل فى ذلك الوقت مدى ما سيرفع الإسلام من شأن أبى هريرة لكان سروره أعظم وأشد .

١٩

رد أبو بكر جوار سيد الأحابيش ورضى بجوار الله لما طلب منه ابن الدغنة أن يدخل بيته يصنع فيه ما يحب ، وألا يصلى عند باب داره لأنه يستبكى إذا ما قرأ القرآن فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، وقريش يخشون أن تفتن رقته صبيانهم ونساءهم وضعفاءهم .

وخرج أبو بكر إلى الكعبة فلقيه سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأسه ترابا ، وكان العاص بن وائل يمر إلى جواره يرفل فى حلته ، فالتفت إليه أبو بكر وقال :

ـــ ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

ـــ أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر بصره إلى السماء وقال :

ـــ أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك !

ومشى أبو بكر إلى الكعبة فإذا بقريش فى أنديتهم ، وإذا بأبى طالب جالس فى ظل الكعبة حيث كان يجلس أبوه عبد المطلب ومن حوله رجال بنى هاشم والمطلب ، وإذا بالشيخ الذى وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبا يشرد بذهنه يفكر فى ابنه الحبيب جعفر الذى هاجر إلى الحبشة مع من هاجروا إليها من المسلمين قبل أن يدخل بنو هاشم والمطلب الشعب ويحاصرهم فيه كفار مكة .

ورن فى ضمير الشيخ قول ابن أخيه : « يا عم إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها إلا اسما هو الله ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان » . ورأى بعين خياله الرجال الخمسة الذين اعتزموا تمزيق الصحيفة ، فود لو أن جعفرا قد رأى ما كان من هؤلاء الرجال ، فأبو طالب وإن كان لم يسلم فقد كان هواه مع المسلمين ، وكان حبه لبنيه الذين دخلوا فى دين الله يجعله يفرح لما يفرحهم ويشتهى أن لو سعدوا بلحظات الانتصار التى غابوا عنها .

كان لحس الأرضة للصحيفة الظالمة عملا هز وجدان كل المسلمين ، وكان أبو طالب يحب أن يشهد جعفر والذين معه فى الحبشة ذلك الحدث الجليل ، وكان ما صنعه الرهط من قريش فى نقض الصحيفة دليلا على تصدع جبهة المعادين لدين الله ، وعلى أن بين الكافرين بما جاء به محمد عليه السلام من يأبى الظلم والقطيعة والبهتان ، وملأت الانفعالات صدر أبى طالب فراح ينشد :

ألا هـل أتى تجْرِيِّنـا[1] صنـع ربنـا
على نـأيهم والله بالنـاس أرود[2]

---

(١) من كان قد هاجر من المسلمين فى البحر إلى الحبشة . (٢) أرفق .

فيخبرهـــم أن الصحيفــة مـــزقت
وأن كل مــا لم يــرضه الله مــفسد
تراوحهــا إفك وسحــر مجمـــع
ولم يُلف سحر آخر الدهر يصعـد
تداعــى لها مــن لــيس فيها بقرقــر
فطائرهـــا فى رأسهـــا يتـــردد
وكانت كفــاءً وقعــةٌ بأثيمـــة
ليقطـــع منها ساعــد ومقلَّـــد[1]
ويظعــن أهــل المكــتين فيهرُبـــوا
فرائصُهـم مــن خشيـة الشر تُرعَــد
ويُتـــرك حـــراثٌ يقــلب أمـــره
أيتهم فيهم عنـــد ذاك وينجـــدُ
وتصعـــد بين الأخشبين كتيبـــةٌ
لها حـدج سهـم وقـوس ومرهـــد[2]
فمـن ينشَ مـن حضار مكــة عــزه
فعزتنـــا فى بطـــن مكـــة أتلـــد
نشأنـــا بها والنـــاس فيها قلائـــل
فلــم ننـــفك نـــزداد خيرا ونحمـــد
ونُطعم حتـى يترك النـاس فضلهـــم
إذا جعلت أيـدى المفــيضين تُرعـــد

---

(١) عنق .

(٢) رهده : سحقه سحقا شديدا .

جـزى الله رهطـا بالحجـون تبايعــوا
على مـــلأ يهدى لجزم ويُـــرشد
قعـودا لـدى خَطـم الحجـون كـأنهم
مقاولـة[١] بـل هـم أعــز وأمجد
أعــان عــليها كل صقــر كأنــه
إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد[٢]
جـرى على جُلَّـى الخطـوب كأنــه
شهــاب بكفــى قــابس يتوقــد
من الأكـرمين مـن لـؤى بـن غــالب
إذا سيم خسفــا وجهــه يتربــد
طويـل النجاد خـارج نصف ساقــه
على وجهـه يُسقـى الغمــام ويُسعــد
عــظيم الرمـاد سيــد وابــن سيــد
يحض على مَقــرى الضيــوف ويحشِد
ويبنــى لأبنــاء الــعشيرة صالحا
إذا نحن طفنــا فى البــلاد ويمُهــد
ألــظَّ[٣] بهذا الصلـــح كل مبرأ
عــظيم اللــواء أمـــره ثم يُحمـــد

---

(١) ملوك .
(٢) الحرد : أن تثقل الدرع على الفارس .
(٣) لزم وألح .

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا
على مهَل وسائر الناس زقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا
وسُرَّ أبو بكر بها ومحمد
متى شُرِّك الأقوام فى جل أمرنا
وكنا قديما قبلها نتودد
وكنا قديما لا نُقَرُّ ظلامة
وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيالقصى هل لكم فى نفوسكم
وهل لكم فيما يجىء به غدُ
فإنى وإياكم كما قال قائل
لديك البيان لو تكلمت أسود[1]

وراح أبو بكر يقلب عينيه فى الجالسين حول الكعبة ، فرأى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد جلس عنده عمر بن الخطاب وبعض أصحابه فذهب إليهم وألقى عليهم السلام ثم قعد يصغى إلى حديث النبى الكريم ، فأحس كأن كل أوصاب نفسه قد انقشعت وغمرته سعادة روحية طاغية ، فما ألقى سمعه إلى حديث نبيه عليه السلام إلا أشرق النور فى قلبه وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت .

كان السيد المسيح يقول للناس توبوا فقد اقترب الملكوت ، وكان يحيى

---

(١) أسود : اسم جبل كان قتل فيه قتيل فلم يعرف قاتله ، فقال أولياء المقتول هذه المقالة ، فذهبت مثلا .

ابن زكريا عليه السلام يقول توبوا فقد اقترب الملكوت ، وقد قال السيد المسيح لحوارييه ذات يوم إن الملكوت كلام الله على الأرض ، وقد أوحى الله إلى عبده قرآنه ، فكان أبو بكر وعمر والمسلمون إذا ما قرىء عليهما كلام الله أو إذا ما تلوا كلام الله تنشرح صدورهم وتفيض بالدمع أعينهم وترفع الأحجبة بين أفئدتهم والملكوت .

كانوا يرون بنور الله ، وكانوا يتبرون من علائق الدنيا ويزهدون فيها ويفرغون قلوبهم من شواغلها ، ويستعدون بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليهم من الرحمة ، فانكشف لهم الأمر ونظروا إلى الملكوت وفازوا الفوز الأكبر .

وبينا هم يتحدثون إذ نزل الوحى على رسول الله — ﷺ — فأطرقوا جميعا ، ولم يقو أحدهم أن يرفع إليه بصره ، وسمعوا عند وجهه دويا كدوى النحل ، فمكثوا ساعة حتى إذا ما فصم الوحى عنه استقبل القبلة ورفع يديه فقال :

— اللهم زدنا ولا تنقصا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

— لقد أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة .

ثم قرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون *والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون *

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون ﴾(١) .

كانوا يتحدثون فى الصلاة ، فإذا جاء أحدهم بعد أن يبدأ الإمام فى الصلاة ، يسأل : أهذه الركعة الأولى أم الثانية ؟ فكان أحد المصلين يرد عليه ثم يستأنف صلاته ، فلما نزلت هذه الآيات البينات بطل الكلام فى الصلاة ، ليفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون .

وكانوا يعرضون عن اللغو وينفقون فى سبيل الله قد سدوا فى وجه المعاصى كل المسالك المؤدية إلى أهوائهم ، ولكن الله تبارك وتعالى أراد أن يرشدهم إلى طريق الرفعة ، طريق الملكوت ، طريق الجنة التى أعدت للمتقين ، طريق الخلود .

ومر سادات قريش بالرسول عليه السلام فإذا بالمستضعفين من أصحابه جالسين إليه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث وصهيب ، فقالوا مستهزئين :

— هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهو منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا .

وجاء إلى النبى عليه السلام بعض سادات العرب ونظروا إلى المستضعفين من أصحابه فى تأفف ، فقالوا :

— نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك

---

(١) المؤمنون ١ — ١٠ .

فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

كان النبى ﷺ يتلهف على انتشار دين الله وكان يرى فى اعتناق هؤلاء الأقوام الإسلام نصرا للدين ، وكان على ثقة من أن أصحابه الذين من الله عليهم بالهداية سيقدرون الحافز إلى استجابة دعوة هؤلاء السادة الأمجاد ، فقبل عليه السلام وهو كاره ما طلبوه ، فقام عنه أصحابه الفقراء ، وأراد المتكبرون أن يستوثقوا من دوام هذا التفضيل فقالوا :

ـــ اكتب لنا كتابا .

فدعا بصحيفة وقدمها إلى على بن أبى طالب ليتكب لهم كتابا ، فإذا بالعرق يتفصد من جبين الرسول عليه السلام ، وإذا بالجهد ينزل به ، ولم يستطع أحد أن يرفع إليه بصره ، كان يوحى إليه ، حتى إذا ما انتهى الوحى رفض أن يكتب ما طلبوه ، وطلب دعوة المستضعفين من أصحابه ، واستمر فى قلق حتى إذا أقبلوا عليه بش لهم وقال :

ـــ سلام عليكم . كتب ربكم على نفسه الرحمة .

ثم راح يرتل ما أنزل عليه : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾[1] .

---

(١) الأنعام ٥٢ ـــ ٥٤ .

٢٠

لم تعرف يثرب الاستقرار فالحروب مشبوبة بين الأوس والخزرج وقد هرع الناس إلى الحصون خشية القتل ، واليهود يمشون بين الحيين بالوقيعة حتى لا يتم بينهما صلح ، فما تصالحا إلا كانت الدائرة على اليهود .

وكان الظفر فى أكثر الحروب للخزرج على الأوس ، وكان الشعراء يلعبون دورا خطيرا فى تلك الحروب فحسان بن ثابت شاعر الخزرج يفخر بعشيرته وما تأتى من ضروب البطولة ، وقيس بن الخطيم يجاوبه بقصائد أقسى من وقع السهام ، وقد ذهبت الأوس لتحالف يهود بنى قريظة فبعثت الخزرج إلى اليهود :

ـــ لئن فعلتم فأذنوا بحرب .

فوقع الرعب فى قلب اليهود فأرسلوا إلى الخزرج :

ـــ إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم .

فقالت الخزرج لليهود :

ـــ فأعطونا رهائن وإلا فلا نأمنكم .

فأعطوهم أربعين غلاما من بينهم ففرقهم الخزرج فى دورهم ، فلما أيست الأوس من نصرة اليهود راحوا يتشاورون فى أن يحالفوا قريشا فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بين الأوس والخزرج أن من أراد حجا أو عمرة لم يعرض له فأجار أموالهم من بعدهم البراء بن معرور .

وخرج قيس بن الخطيم مع الأوس يطلبون الحلف من قريش ، فمر حسان بن ثابت بليلى بنت الخطيم فقال لها حسان :

ـــ اظعنى فالحقى فالحى فقد ظعنوا ، وليت شعرى ما خلَّفك وما

شأنك : أقل ناصرك أم راث رافدك ؟

فلم تكلمه وشتمه نساؤها ، فراح يذكرها بشعره الذى قاله فى يوم الربيع :

لقد هاج نفسك أشجانها ... وعاودها اليوم أديانها
تذكرت ليلى وأنى بها ... إذا قطعت منك أقرانها
وحجَّل فى الدار غربانها ... وخفت من الدار سكانها
وغيرها معصرات الرياح ... وسح الجنوب وتهتانها
مَهاة من العين تمشى بها ... وتتبعها ثم غزلانها
وقفت عليها فساءلتها ... وقد ظعن الحى : ما شأنها
فعيَّت وجاوبنى دونها ... بما راع قلبى أعوانها

وأتى الأوس مكة ودخلوا دار الندوة وما خرجوا منها حتى كانوا قد حالفوا قريشا وخرجوا يطوفون حول البيت مستبشرين . وأقبل الوليد بن المغيرة على سادات قريش فلما علم بالحلف الذى كان بينهم وبين الأوس اربد وجهه وقال :

ـــ والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس بأى شىء :

قولوا لهم إنا نسينا شيئا لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده .

فلما قالوا ذلك للأوس نفروا وقالوا :

ـــ اقطعوا الحلف بيننا وبينكم .

فقطعوه وعاد الأوس إلى يثرب مكفهرة وجوههم فما وجدوا حليفا يقف إلى جوارهم فى قتال الخزرج ، فلما لم يتم لهم الحلف ذهب بنو حارثة

إلى خيبر فأقاموا بها سنة لم يمت منهم فيها عجوز ، فقالوا :

— أهون حادث موت عجوز فى سنة .

ورأى الخزرج ذهاب بنى حارثة إلى خيبر وهوان الأوس فراحوا يفتخرون عليهم فى أشعارهم ، وملأ الغرور زعيمهم عمرو بن النعمان البياضى فقال :

— والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رهنهم .

كان ليهود بنى قريظة والنضير غزار المياه وكرام النخل ، وقد بلغهم ذلك التحدى وبلغ من كان فى يثرب من الأوس فمشوا إلى كعب بن أسعد القرظى فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير فأصبح الأوس واليهود قوة قادرة على مناوأة الخزرج ، ثم أرسلوا بذلك إلى بنى حارثة الذين كانوا قد خرجوا إلى خيبر فقدموا ليضموا إلى الحلف ، فراح شعراء الخزرج يتغنون بجلاء بنى الحارثة إلى خيبر وأخذهن الرهن من اليهود فقال قائلهم :

هلم إلى الأحلاف إذ رق عظمهم
وإذ أصلحوا ما لا جذمان ضائعا

إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة
بعثنا عليهم من بنى العير جادعا

فأما الصريح منهم فتحملوا
وأما اليهود فاتخذنا بضائعا

وذاك بأنا حين نلقى عدوّنا
نصول بضرب يترك العز خاشعا

وأخذت الخزرج فى قتل الرهن فقد نقض اليهود اتفاقهم ودخلوا بينهم وبين الأوس وحالفوهم ، فقال كعب بن أسد القرظى :

— إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف .

وأرسل بنو قريظة وبنى النضير وهم الذين عرفوا بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون إلى الأوس وقالوا لهم :

— انهضوا إلينا فنأتيهم بأجمعنا .

فجاءت الخزرج إلى عبد الله بن أبى بن سلول فقالوا :

— مالك لا تقبل الرهن ؟

فقال عبد الله بن أبى :

— لا أغدرهم أبدا وأنتم البغاة وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت . ووالله ما يموتون أو تهلكون عامتكم .

فقال له عمرو بن النعمان :

— انتفخ والله سحرك .

فقال عبد الله بن أبى وهو ينظر إلى عمرو فى ضيق :

— إنى لا أحضركم وكفانى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء .

كان عبد الله بن أبى بن سلول يطمع فى أن يضع الأوس والخزرج واليهود التاج على رأسه ، حقا لقد كان خزرجيا إلا أنه كان يبذل غاية الجهد لكيلا يغضب الأوس ، وكان يمقت المتعصبين من الخزرج الذين يشعلون نيران الفتنة فما كان من الميسور أن يصبح التتويج حقيقة واقعة ما دامت العداوات ناشبة بين الحيين ، وكان يعمل على أن ينيم الشر إلى حين ، ولكن العصبية القبلية كانت تشعل الحروب على الدوام فلم يجد ابن أبى فرصة يحقق فيها أحلامه وأغلى أمانيه .

فاجتمع الخزرج وأرسوا عليهم عمرو بن النعمان البياضى وعبد الله بن أبى يرقب ذلك فى حنق شديد ، فهو يريد أن يطفئ هذه الحرب ولكن مشايخ قومه رأوا غير ما يريد ، وهو يرى غيره يرأس على قبيلته وهو يمشى على الأرض فكان الحسد ينهش قلبه ، ولكنه كان يتحلم بالصبر فما يطمع فيه أكثر من زعامة الخزوج وحدهم .

كان أبو عمرو الراهب مع الأوس و لم يخرج عبد الله بن أبى مع قومه بل دخل حصنه واعتزل فيه ، والتقى الأوس وحلفاؤهم بالخزرج فى ثبات ودار قتال رهيب بين الجانبين ، وراح قيس بن الخطيم يصول ويجول بين صفوف أعدائه يقط الرقاب ويطعن القلوب ، وكانت الدّبرة على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان وجيء به تحمله أربعة .

وحلفت اليهود لتهدمنّ حصن عبد الله بن أبى فمشوا إلى الحصن ومعهم أبو عمرو الراهب وكانت تحته جميلة بنت أبى ، فلما أحاطوا بالحصن ، قال لهم عبد الله :

— أما أنا فلم أحضر معهم ، هؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيت الخزرج فعصونى .

كان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فاجاروه من الأوس ومن قريظة فأطلق أولادهم وحالفهم ، ثم راح يعمل فى دهاء ليؤلف بين قلوب الأوس والخزرج واليهود ليعرفوا له جميعا فضله فيضعوا التاج على رأسه راضين .

كانت حرب بعاث بين الأوس والخزرج حرب تطهير للأرض التى أعدها الله لهجرة رسوله ، قتل فيها عمرو بن النعمان زعيم الخزرج وقتل فيها رئيس الأوس حُضَير ، وقتل من أكابرهم من كان لا يُؤمَن أن يتكبر ويأنف

أن يدخل فى الإسلام ، و لم يبق منهم غير عبد الله بن أبى بن سلول وأبو عامر الراهب ليستمر الرسول عليه الصلاة والسلام فى كفاحه حتى يتم الله على المؤمنين نعمته ، فما كان الله سبحانه وتعالى ليفرش طريق رسله بالورود ، بل شاءت إرادته أنه بالصبر الإيمان والعرق والكفاح يُنال الفوز الأكبر .

٢١

كان أبو طالب مسجى فى فراشه وقد التف حول سريره على بن أبى طالب وأخوه عقيل وزوجه فاطمة بنت أسد والعباس وأبو لهب وبعض بنى هاشم ، فالشيخ كان يمضى آخر أيامه على الأرض فكان يقلب بصره فى وجوه الذين جاءوا لعيادته فيبدو على وجهه بعض ما يدور فى رأسه من أفكار وذكريات .

ودخل عليه أبو سفيان ابن أخيه الحارث فرفت بسمة ترحيب على شفتى الشيخ وأقبل يحادث شاعر الهاشميين فى ود عميق ، فقد حمل أبو سفيان بن الحارث لواء الشعر فى البيت الهاشمى بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب ، وسيصبح المنافح الوحيد عن شرف قبيلته بعد أن يمضى الشيخ الذى هدته السنون ، فأبناؤه على وجعفر وعقيل وشباب المطلبيين الذين دخلوا فى الإسلام لم يحفلوا بالشعر .

وطاف بذهنه ابنه جعفر فاستشعر شوقا طاغيا إليه وود لو تكتحل برؤيته عيناه قبل أن يموت ، ولكن أنى له هذا ؟ فجعفر هناك فى الحبشة مع زوجه أسماء بنت عميس ، إنه فر بدينه من اضطهاد قومه ، خرج خائفا

يترقب من البلدة الطيبة التى يأمن فيها الطير ، فضل أن يكون فى رعاية الله على أن يكون فى جوار أبيه .

وراح يفكر فى جعفر ، رآه طفلا ورآه شابا وتذكر يوم أن رأى محمد ابن عبد الله وعليا يصليان وعلىٌّ على يمين ابن عمه ، فالتفت إلى جعفر وقال : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره .

ما كان أبو طالب عدوا للإسلام ولا عدوا لمحمد عليه السلام ، فهو على يقين من صدق ابن أخيه وأنه يدعو إلى مكارم الأخلاق وأنه لعلى خلق عظيم ، ولكنه كان يؤمن إيمانا عميقا بأن الله سبحانه وتعالى أجل من أن يبعث بشرا رسولا ، ولولا ذلك الإيمان الراسخ لدخل أبو طالب فى دين الله ، ولو فعل لكان ذلك فى غير صالح الإسلام، فلو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به لقيل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له ، ولأغلق أبناء بيوتات قريش المنافسة لبنى هاشم أفئدتهم فى عناد وجاهلية فى وجه أنوار اليقين .

وكان عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأمية بن خلف وأبو سفيان جالسين فى الحرم ، فجاءهم نبأ أن المرض قد ثقل على أبى طالب فقال بعضهم لبعض :

— إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء فتعيرنا العرب ويقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه .

كانوا يخشون أن تعيرهم العرب إذا ما قتلوا محمدا عليه السلام بعد موت عمه ، فبعثوا رجلا يقال له المطلب ليستأذن لهم فى الدخول على شيخ بنى

هاشم ، فانطلق إلى دار أبى طالب فقابل عليا فقال له :

— إن مشيخة قومك يستأذنون فى الدخول على أبيك .

فدخل على كرم الله وجهه ودنا من سرير أبيه فقال :

— هؤلاء مشيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك .

— أدخلهم .

ومشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم إلى دار أبى طالب ، فلما دخلوا عليه قالوا :

— يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ونكف عنه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه، ولما دخل — صلى الله عليه وسلم — على أبى طالب وكان بين أبى طالب والقوم فرجة تسع الجالس فخشى أبو جهل أن يجلس النبى — صلى الله عليه وسلم — فى تلك الفرجة فيكون أرق منه فوثب أبو جهل فجلس فيها، فلم يجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — مجلسا قرب أبى طالب فجلس عند الباب.

والتفت الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى أشراف قومه وقال :

— خلوا بينى وبين عمى .

— ما نحن بفاعلين وما أنت بأحق به منا . إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك .

فقال أبو طالب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— يابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك .

فالتفت رسول الله — ﷺ — إلى سادات قومه وقال :

— تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا :

— أيسع لحاجتنا جميعا إله واحد ؟

كانوا يؤمنون أن فى الأرض سبعة آلهة وفى السماء إلها ، وأن كل إله له عمله فقالوا :

— سلنا غير هذه الكلمة .

فنظر إلى عمه وقال :

— يا عم ما أنا بالذى يقول غيرها .

وقال بعضهم لبعض :

— والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم قاموا وقبل أن يغادروا المكان التفتوا إلى رسول الله — ﷺ — وقالوا مهددين :

— لتكفن عن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى أمرك بهذا .

وخرجوا ، وانطلق رسول الله إلى داره وهو حزين فعمه الذى يحوطه وينصره ويغضب له يجود بأنفاسه وقومه لا يزالون سادرين فى عداوتهم ، فقد مضت عشر سنين منذ أن نزل عليه الوحى فى غار حراء وهو يدعوهم إلى الهدى ليلا ونهارا فلا يزيدهم دعاؤه إلا فرارا ، لعله باخع نفسه ألا يكونوا مؤمنين .

وفكر فى أبى طالب ، فى الرجل الذى كفله بعد موت عبد المطلب والذى قال له بعد أن بعث ولقى من قومه عنتا : اذهب يابن أخى وقل ما

شئت . ولم يكن على دينه ، بل وقف كالطود فى وجه غضب قومه يبعد عنه أذى الحاقدين الثائرين المطالبين بدمه ، ولا يكتفى بحمايته بل يتحمل الأذى والجوع فى شعب أبى طالب ويظل محصورا سنتين ونصف سنة دون أن يضعف أو يلين ، فلولا عناية الله وحماية أبى طالب لكان فى الغابرين .

أن يموت أبو طالب وهو على الكفر يحز فى نفسه ، بل يغمره بالأسى العميق ، فهو يشفق على عمه الحبيب نار جهنم والعذاب الأليم ، فإن كان قد غادر بيت عمه فسيعود إليه يرجو الشيخ فى حرارة أن ينطق بشهادة الإيمان ليشهد له بها عند الله العظيم .

وفاضت أحزانه لما فكر فى تهديد قريش ، إنهم سيسبون الله سبحانه وتعالى إن سب آلهتهم ، وهو لا يدرى ماذا يفعل حيال ذلك التهديد . لماذا أبى أكثر الناس إلا كفورا ؟ لماذا يدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ؟ إنه ليحزنه إعراض أبى طالب عن الحق وإنه يتوق إلى أن يأخذ بيده إلى الجنة ولنعم دار المتقين . وإنه ليحزنه استكبار قومه ويزيد فى أساه تهديدهم بسب الله وهجوه .

كان يأسو على عمه وعلى قومه ، وفيما هو غارق فى أحزانه نزل عليه الوحى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾(١) ، فبعث إلى كتاب الوحى ليكتبوا ما أنزل عليه فى سعف النخل والرقاع والعظام ويتلوه على المؤمنين .

وانقلب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عمه ، فراح أبو طالب يرمقه من بين أجفانه التى ثقلت فيستشعر راحة ، فهو فى قرارة نفسه يحب ابن أخيه عبد

---

(١) الأنعام ١٠٨ .

الله حبا يفوق حبه لبنيه ، حبا استولى على مشاعره حتى إنه كان لا يطيق فراقه . وتذكر أنه عما قريب سيودع الدنيا فرأى أن يوصى بنى هاشم بمحمد خيرا فقال :

ــ يا معشر بنى هاشم ، أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا .

فلما قال ذلك طمع رسول الله ــ ﷺ ــ فيه فقال :

ــ يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟

ــ فما تريد يابن أخى ؟

ــ أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو طالب فى وهن :

ــ يابن أخى قد علمت أنك صادق ، ولكنى أكره أن يقال إنى قلتها جزعا من الموت .

فراح رسول الله يقول له :

ــ أى عم ، فأنت فقلها أستجل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

ــ والله يابن أخى لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن أنى إنما قلتها جزعا من الموت لأقررت بها عينك لما أرى من شدة وجدك .

وجاء أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبى ابنى خلف وعتبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى إلى أبى طالب ورسول الله ــ ﷺ ــ عنده وقد استولى عليه الجزع خشية أن يموت أبو طالب على كفره ، فهو يطمع فى هدايته وفى انتشاله من الضلالة قبل أن تفيض روحه جزاء على عطفه عليه ونصرته له وقيامه دونه ، فلما رأى أبو طالب وجهاء قريش راح يوصيهم :

ـــ يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة . أوصيكم بتعظيم هذه البنية (الكعبة) فإن فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش .

صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن صلة الرحم منسأة (فسحة) فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم . أجيبوا الداعى وأعطوا السائل ، فإن فيهم شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام .

وصمت أبو طالب يلتقط أنفاسه فدنا محمد عليه السلام من سريره ليقول له فى توسل : « قل يا عم لا إله إلا الله » ، ولكن أبا طالب قال وهو يقلب عينين واهنتين فى وجوه سادات قريش الذين بدوا له كأشباح :

ـــ وإنى أوصيكم بمحمد خيرا فإنه الأمين فى قريش ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن . وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا . إذ أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم يا معشر قريش ، كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد .

فلاحت الرقة فى وجه على بن أبى طالب واستبد به انفعال شديد ، فلم يبق على إسلام أبيه إلا أن ينطق بالشهادة فيتوج جليل أعماله بتاج المتقين ، ويفوز بجنات النعيم . وراح يرقب رسول الله — ﷺ — وهو يدنو من أبيه الذى كان يعانى سكرات الموت بقلب يتأرجح بين الرجاء واليأس ، ويبتهل فى أعماقه إلى الله أن يشرح قلب الشيخ إلى الإيمان وأن ينيره بأنوار اليقين .

ومال محمد — ﷺ — على عمه الذى يجود بأنفاسه وقال وقد ترقرق الدمع فى عينيه :

— يا عم قل أشهد أن لا إله إلا الله .

كان رسول الله — ﷺ — يريد أن يدخل عمه فى رحمة الله ، يريد ألا يموت عمه وهو ظالم لنفسه ، يريد ألا يخزيه الله يوم القيامة ، يريد أن تتوفاه الملائكة طيبا . إنه يحرص على هداه ، فنياط قلبه تكاد تتمزق أسفا على أن عينى عمه فى غطاء عن ذكر الله . إنها لحظات فإن لم ينطق أبو طالب بالشهادة قبل أن يلفظ آخر أنفاسه فستحبط أعماله فلا يقيم الله له يوم القيامة وزنا ، وأشفق عليه فقال فى نبرات متوسلة كأنها ذوب نفسه الطاهرة :

— يا عم قل أشهد أن لا إله لا الله .

وراح سادات قريش ينظرون فى قلق وقد تعلقت أعينهم بشفتى الرجل الذى كان يحتضر ، فإن نطق بالشهادة فسيزعزع ذلك موقف العناد الذى يتخذونه من ابن أخيه ، بينما كان على بن أبى طالب ومن حضر من المسلمين يتلهفون على أن ينطق الشيخ الجليل بالشهادة ليزحزح نفسه عن النار ، كانوا يستشعرون خطر اللحظة ، إنها كلمة ثم تصبح الجحيم هى المأوى أو

الجنة هى المأوى .

وخشى أبو جهل أن يلين الشيخ لتوسلات ابنَ أخيه وأن يرق لعبراته فقال :

— بل على ملة عبد المطلب ..

وارتفعت أصوات الكافرين :

— على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

فقال أبو طالب فى صوت خافت :

— أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

واشتد وجد رسول الله — ﷺ — ونزل به جزع شديد ، وملأت الدموع عينى على بن أبى طالب ، وهل أوجع للقلب أن يرى الابن البار أباه الحبيب يلقى بنفسه فى أتون الجحيم ؟

إن عليا يكاد يتفجر أسى فهرع إلى أبيه يتوسل إليه أن يستجيب لدعوة رسول الله — ﷺ — قبل الفوات ، وراح العباس يقلب عينيه بين أخيه الذى كان فى النزع الأخير وابن أخيه على بن أبى طالب الذى ارتمى على صدر أبيه يحاول أن ينتزع منه الشهادة قبل أن يسبقه الموت بانتزاع الروح ، وبين رسول الله — ﷺ — الذى ارتسم على وجهه المتألق بالنور أبلغ آيات الأسى العميق .

وراح أبو لهب يمد عينيه إلى ما يجرى أمامه فإذا به يتمنى أن تخمد أنفاس أخيه لينتهى ذلك القلق المدمر الذى استبد به ، فالانفعالات التى مارت فى وجدانه كانت أعنف من أن يحتملها الشيخ الذى أمضى حياته فى اللهو والميسر والشراب .

وكانت فاطمة بنت أسد تذرف الدمع الهتون وما كانت لتحفل بذلك الذى يجرى بين سادات قريش وبين الرسول عليه السلام ، فقد كانت حزينة حتى الموت لفراق الرجل الذى شاركها الحياة والذى كان نور العينين وهواء الرئتين وخفقات الفؤاد .

وشهق أبو طالب شهقة فإذا به فى الغابرين ، فأطرق رسول الله — ﷺ — وهو واله حزين ، ثم ألقى نظرة وداع على عمه الحبيب فقال :

— أما والله لأستغفرن لك .

وضاق صدر على ابن أبى طالب فجعل يغدو ويروح وهو يسح الدموع ، وملأ الرضا قلوب أبى سفيان وأبى جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبىّ ابنى خلف وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى ، فقد مات أبو طالب على ملتهم ملة عبد المطلب وهاشم وآبائهم الأولين .

ورأى على بن أبى طالب من خلال دموعه الراحة التى ارتسمت على وجوه شيوخ قومه فأحس كأن خناجر مسمومة تمزق أحشاءه ، إنه لم يقف من قبل موقفا أغيظ له من هذا فأبوه قد اختار النار على الجنة ، وكفار قريش قد اغتبطوا لموت أبيه على الكفر فلن ينسى لهم أبدا أنهم هم الذين حرضوا أباه على أن يموت على ملة عبد المطلب وهاشم وقصى ، أيقظوا فيه فى لحظة ضعف عصبية الجاهلية ودفعوا به إلى السعير .

وخرج رسول الله — ﷺ — وعيناه تفيضان من الدمع حزنا يشكو بثه إلى الله ، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى خديجة ينبئها أن عمه الحبيب قد مات لتشاركه فى أحزانه ولتحمل عنه بعض ما يضيق صدره ، فخديجة مسجاة فى فراشها قد ثقل عليه المرض منذ أيام .

وبقى رسول الله — ﷺ — وحده وقد فاض فؤاده بالأسى ، وراح يتذكر أيامه مع أبى طالب ، يتذكر طفولته ورحلة الشام ، وعرض عمه عليه أن يؤجر نفسه لخديجة ، وخطبة عمه يوم أن ذهب معه ليخطب الطاهرة سيدة نساء قريش ، وذلك اليوم الذى تكلمت فيه قريش وطلبت منه أن يخلى بينهم وبينه عليه السلام ، وإباءه ذلك وقوله له عليه السلام اذهب يابن أخى وقل ما أحببت .

إنه جزء من حياته ، إنه جزء من رسالته ، فإن كانت خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام فأبو طالب قد دافع عنه دفاع الصناديد ولو أنه لم يعتنق دينه إيمانا منه بالحرية . إنه أبى أن يسلم ابن أخيه وقبل منابذة المشركين لبنى هاشم وبنى المطلب ، ودخل فى الشعب وحوصر واحتمل آلام الاضطهاد والجوع . إنه يستحق أن يبتهل رسول الله — ﷺ — إلى ربه ودموعه تجرى على خديه وأن يستغفر للرجل الذى حدب عليه وكان يحيطه وينصره ، وقبل أن يرفع أكف الضراعة إلى الله تفصد العرق منه وثقل جسمه ونزل عليه الوحى بآيات ربه : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾[1] .

---

(١) التوبة ١١٣ .

٢٢

كانت خديجة مسجاة فى فراشها وقد ذبلت ودب الوهن فى جسدها ، ولكن عقلها كان صاحيا فكانت الذكريات تنثال على رأسها ، إنها ترى ذلك اليوم الذى خرجت فيه إلى الحرم مع سيدات من قومها فى عيد من أعيادهم وجاء يهودى ووقف يصيح : هذا زمان ظهور نبى ، فمن استطاعت منكن أن تكون له فراشا فلتفعل . وإنها لترى النساء يحصبنه بالحصى بينما وقفت ساكنة ، وإن كان قوله قد استقر فى سويداء قلبها .

وإنها لتذكر ذلك اليوم الذى رأت فيه فى منامها الشمس تهبط من السماء لتستقر فى سقف دارها فتنتشر منها ضياءها على العالمين ، ورأت بعين خيالها قوافلها تستعد للخروج إلى الشام ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح بين مخازنها والقافلة وهى ترقبه من العالية ، وسرعان ما رن فى ضميرها صوت ميسرة وهو يحدثها عن الأمين وعن الأرباح التى كسبوها بحسن خلقه وجميل شمائله .

وجاء رسول الله — ﷺ — وهو يحاول أن يخفى القلق الذى استبد به وراح يسألها كيف أصبحت ، وجلس إليها يحدثها فى رقة ويحوطها بحبه فكانت على الرغم مما تعانى من آلام مرضها تستشعر راحة نفسية ، فهو حبيبها وزوجها ورسولها الذى أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام والسلام ، وأخذ بيدها إلى النبع الروحى الصافى الذى نهلت منه فلم تظمأ بعدها أبدا . إنه ارتفع بها من دنيا الماديات إلى عوالم السعادة الأبدية ، فتح بصيرتها وفؤادها لاستقبال نفحات ربها وعرفها سبل اللذة

الحقة ، لذة النظر إلى وجه الله والسعادة بالقرب منه والاستبشار بإشراق أنوار المعارف فى عين ذاتها .

ورأته بعينيها الزائغتين فحاولت أن تبتسم فى جهد دون جدوى ، فهى تحاول حتى فى أشد الأوقات قسوة أن تلقاه باشة ، فهو زوج كريم لم يخدش كبرياءها أبدا ، ظل منذ أن تزوجها الزوج الوفى الذى لم يفكر فى أن يتزوج أخرى أو يتسرى بجارية من الجوارى ، وما كان فى مكة كلها من اكتفى بزوجة واحدة فالرجال يتزوجون كيفما يشاءون ويتسرون بالإماء دون حدود . ولكن رسول الله — ﷺ — كان يحبها حبا ملك عليه كل عواطفه ، حبا صافيا عظيما جليلا لا يدع مجالا لحب آخر ، وقد شد أواصر ذلك الحب أن الزوجين الكريمين كانا يحبان ذات الله ويتفانيان فى عبادته .

ومرت بخيالها الليالى التى كانت تقومها خلف رسول الله — ﷺ — تصلى فى استغراق ، حتى تغيب عن الدنيا وترتفع على أجنحة الشوق لتهيم فى ملكوت السماء تغترف من خزائنه لطائف المعارف والسعادة السرمدية.. والساعات الطويلة التى كانت تقفها بين يدى ربها تبتهل إليه والدموع تسيل على خديها أن ينصر رسوله وأن يتم نوره ، فلفها أسى عميق أن ستغادر الدنيا تاركة محمدا عليه السلام ليقطع الشوط وحده دون أن تشاركه لذة الكفاح والبذل حتى يأتى نصر الله . فاغرورقت عيناها بالدموع وخنقتها عبراتها .

إنها ذاهبة إلى إله كريم زهدت فى الدنيا من أجله وأنفقت أموالها فى سبيله وبذلت كل ما فى طاقتها بل ما فوق طاقتها لتؤيد رسوله وتهيىء له الأسباب ليبلغ رسالات ربه . إنها ليست حزينة على إدبارها ولكنها تكاد

أن تتمزق أسى كلما خطر لها أن سيصبح زوجها الحبيب وحده أمام الذين قست قلوبهم ، دون أن يجد القلب الحنون الذى يمسح آلام نفسه التى تمزقها سخرية الساخرين وهزء المستهزئين ممن بعثه الله لهم هدى ورحمة ونورا .

إنها على يقين من أنه مع الله وأن الله معه ، ولكنه كان يعود إليها بعد أن يعرض على الناس دين الله ويتلقى إهاناتهم مرهقا حزينا ، فكانت تواسيه وتغمره بعطفها حتى تصفو نفسه ويستعيد عزمه وتشتد روح الكفاح فيه . فإلى من يعود رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بعد الجهاد والتعب والكفاح ؟ سيعود إلى بيت خلا من الأنيس الذى يشاركه فى حمل متاعبه . سيعود إلى الوحدة والصمت وإرسال الخيال إلى ما لاقى من اضطهاد فيزداد حزنا على حزن .

سيتألم دون أن يجد من يخفف عنه آلامه . سيبكى دون أن يجد من يجفف له دموعه ، سيغلق صدره على لوعة نفسه فلن يجد من يبثه أشجانه ، سيدخل صامتا ويخرج صامتا وما أقسى أن يصبح صاحب الحس المرهف حليف الوحدة والأحزان .

كانت الدموع تبلل روحها والأسى يعتصر قلبها لأنها ستترك الرجل الذى ملأ حياتها غنى وحده ، لأنها ستحرم اللذة الروحية الصافية التى كانت تنعم بها حتى فى أقسى أيام الاضطهاد . لقد أكلت ورق الشجر أيام أن حاصرهم الكافرون فى شعب أبى طالب ، ولكنها كانت متفرحة بالله ، سعيدة بالأنس به ، مستبشرة بترقب رحمته . كانت حياتها مذ عرفت رسول الله ــ ﷺ ــ حقيقة أمتع من الأحلام ، مفعمة بالروعة والآمال التى كانت تسمو فوق كل الآلام .

وأطبقت جفنيها على عينيها ولكن الرؤى استمرت تلح على خيالها وصدى صوت رسول الله — ﷺ — يهمس فى وجدانها ، إنها تسمعه وهو يقول لها : إن جبريل يقرئك السلام من ربك ، فترتجف من الرأس إلى القدم ؛ ويسرى فى ضميرها ترجيع صوت الرسول عليه السلام وهو يتلو القرآن ، فتحس كأنما ترتفع لترفرف فى السماوات العلى وقد غمرتها رقة فياضة تفيض من المآقى عبرات ويستجيب لها القلب الواهن شدة خفقات .

ومر بخاطرها يوم أن مات القاسم فاستشعرت أسى ، إنها لم تفطن فى ذلك اليوم إلى عظم الفاجعة فما كان أبو القاسم قد نبئ بعد . أما الآن فإنها تقدر فداحة المصاب ، فلو أن القاسم كتب له أن يعيش لورث مجد النبوة ولكانت منه سلالة رسول الله — ﷺ — .

وطاف بها طيف عبد الله الطيب الطاهر الذى قرت به عينا وفرح رسول الله — ﷺ — لمولده وسر به المسلمون سرورا عظيما لأنه قد أصبح لنبيهم من يحفظ فيهم نسله الشريف . إنها كادت أن تطير به فرحا فقد جاءها بعد أن يئست من أن تلد لرسول الله — ﷺ — ذكرا . ولكن نشوتها ماتت فى مهدها فقد فاضت روح ابنها الحبيب فى أحضان أبيه الواله الحزين ، حزنت على عبد الله حزنا كاد ينقض ظهرها ولكنها وجدت السلوى فى تفريغ القلب من شواغله والإقبال بكنه الهمة على الله ، والعزاء فى أنها قد أصبحت أم المؤمنين جميعا .

وراح رسول الله — ﷺ — ينظر فى وجهها فيلفه خوف شديد . كانت الطاهرة وسيدة نساء قريش ناصعة البياض غاضت حمرة وجنتيها وخبا بريق عينيها ومشى الفناء فى جسدها المسجى . أتموت أم المؤمنين ولما

يمض على موت عمه ثلاثة أيام ! إنه لم يفق بعد من هول فجيعته فى عمه أبى طالب . إنه حزن لموت عمه الذى نصره حزنا عميقا وزاد فى أساه أنه كان قد عزم على أن يستغفر لعمه ولكن الله نهاه عن أن يستغفر له . وقد أحس فداحة غياب خديجة من حياته لما كتم آلامه و لم يبثها شجونه ، فكيف يشكو إليها ما به وهى مريضة تسرع الخطا فى طريق الفناء ؟

الموت ؟! أتموت خديجة حقا ؟! أتتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده ؟ أتذهب وتترك داره بلا روح ؟ ومن للصبية من بعد الأم الرءوم التى تبسط حنانها على الجميع ؟ وحانت منه التفاتة إلى فاطمة الزهراء فأحس كأن كبده تكاد أن تنفطر . وزاد فى كربه أنه فطن إلى أن ابنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت فى وجه أمها ، فراحت تغالب دموعها حتى لا تؤذى ببكائها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أيفقد أبا طالب وخديجة فى ثلاثة أيام ؟ أيفقد الحماية والرعاية والعطف والتأييد والنصر فى ساعات ؟ إن موت أبى طالب كان فاجعة ، أما موت خديجة فكارثة ، ستجرح قلبه جرحا لن يندمل على الأيام . صدقته لما كذبه الناس ، وأنفقت أموالها راضية فى سبيل الله لما بخل الناس ، وواسته ونصرته لما عز الأنصار ، ولولا حضانتها للإسلام لما بلغت دعوته ما بلغته .

وشرد رسول الله — ﷺ — وفى وجهه أعمق الأسى ، وراح يقلب صفحات الماضى فى وجد وقد غلبته رقته فترقرقت الدموع فى عينيه . رأى نفسه وقد عاد من غار حراء بعد أن نزل عليه الوحى ترتجف بوادره وخديجة تستقبله فى خوف ، حتى إذا ما سمعت منه ما كان بينه وبين الروح الأمين قالت له فى إيمان : أبشر يابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده

إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

كان فى حاجة إلى من يسكن روعه ، فلم تكتف خديجة بإنزال السكينة على قلبه بل نفثت فى روحه من إيمانها وأيدته بتصديقها ، و لم تذهلها المفاجأة بل قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله — ﷺ — أنه رأى وسمع ، ثم رجعت مستبشرة إلى زوجها لتقول له إن ابن عمها قال لما سمع منها : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة .

وراحت خديجة تدور على أحبار اليهود ورهبان النصارى تسأل عن جبريل فيقال لها : قدوس قدوس ! يا سيدة نساء قريش أنى لك بهذا الاسم ؟ فتقول : بعلى ابن عمى أخبرنى أنه يأتيه . فيقال لها : ما علم به إلا نبى ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، فإن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا أن يتسمى به .

إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى سمع فيه صوتا من السماء فرفع بصره فإذا الملك الذى جاءه بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب فرجع إلى خديجة يقول لها :

— زملونى زملونى !

إنه لا يستطيع أن ينسى عطفها السابغ وحدبها عليه وثباتها . فلو أن خديجة فزعت أو ذهبت نفسها شعاعا لزادت فى آلامه ، فإنه أشفق على نفسه أن يكون به كهانة ، وخشى أن يكون به جنون ، ولكن قولها العظيم الذى قالته بدد مخاوفه . إن ذلك القول يمده بقوة هائلة كلما اشتد به الكرب وإنه ليسرى فى ضميره كأجمل أنشودة ترددت فى وجدان الزمن :

« كلا يابن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث » .

ورقت نفسه وود لو أجهش بالبكاء ، ولكنه كان يغالب دموعه وإن سرت فى كل كيانه مرارة الفراق . فما أقسى أن يتصور أن سيعود يوما إلى الدار وقد خلت من الطاهرة ، من كانت ابتسامتها التى تستقبله بها تغسل أوصاب نفسه ، وإقبالها عليه وقد تهللت بالفرح يجدد آماله التى كاد يزعزعها عناد المعاندين وهزء المستهزئين . إنه ما سمع شيئا يكرهه من قومه إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به . إنه لا يدرى ماذا يكون حاله لو لم يكن الله قد قيض له خديجة لتكون حاضنة الإسلام وراعية رسوله .

وأحس فى تلك اللحظة أكثر من أى وقت مضى أن الله قد اصطفى خديجة لتكون زوجة رسوله لأن الله يعلم ما أودع فى قلبها من كنوز غالية نادرة قلما تجتمع فى قلب امرأة : حب عارم لله ورسوله ، وإيمان عميق بالله ورسوله ، وعدم خشية لومة لائم فى الله ورسوله ، وإنفاق عن طيب خاطر فى سبيل الله ورسوله ، وتضحية عن رضا بكل غال مرضاة لله ورسوله ، وزهد فى الدنيا وقطع كل العلائق بها للإقبال بكنه الهمة على الله ورسوله . كان فؤادها مستودعا لكل ما فى البشرية من جلال وفضائل وخلق عظيم ..

وطاف بذهنه أول يوم خرج فيه إلى الكعبة ليصلى لله ولم يكن معه غير سيدة نساء قريش وعلى بن أبى طالب . كانت ثابتة الخطو هادئة النفس لاذت بالسكينة كأنما لم تكن خارجة لتعلن على الملأ أنها اختارت دينا غير دين قومها ، وأنها كفرت بما ورثت من عقائد أسلافها ، غير حافلة بأنها تسفه أحلام الآباء ما دامت قد أحست إشراق أنوار اليقين فى عين ذاتها ، إن أروع ما فيها أنها صادقة مع نفسها قد وهبت حياتها وما ملكت يداها لله

ولرسول الله .

وجاء ابنها هند بن أبى هالة ومال عليها وقبلها وراح يسألها :

ـــ كيف أنت يا أمه ؟

فحاولت أن تحرك شفتيها ولكنها عجزت عن أن تتكلم ، ففتحت عينيها وملأتهما منه ، ثم التفتت إلى زوجها الكريم فإذا بالأسى يغمره وإذا به يحاول أن يبعد عينيه عن عينيها حتى لا ترى ما فيهما من أحزان . إنه رقيق مرهف الحس . ويا طالما تهللت بالفرح كلما ارتادت معه عوالم ما فوق الطبيعة وما وراء المحسوسات ، ويا طالما انقلبت مستبشرة بشرف ما حصلت عليه من معلومات وسعيدة بالعطايا النورانية التى وهبت لها من جود الله وكرمه ، ولكنها فى هذه اللحظة أحست أن يدا قوية تعتصر قلبها لا جزعا من الموت بل حزنا على فراق رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وجاء أسامة بن زيد وارتمى فى أحضان الرسول عليه السلام ، كان زيد ابن محمد قد تزوج أم أيمن وكان أسامة ثمرة ذلك الزواج الذى باركه رسول الله ـــ ﷺ ـــ . وكان عليه السلام يحب زيدا ويحب أسامة ، فكان يقال لأسامة الحب ابن الحب . وكان الرسول يبتهج إذا ما مشى إليه ، وكان يستقبله بالترحاب ويقبله فى عطف أبوى ، ولكنه احتوى الصبى بين ذراعيه وهو صامت ، فقد كان قلبه ينز حزنا على خديجة الوفية التقية التى أحسنت فى هذه الدنيا حسنة وهى على صراط مستقيم .

وذاع فى مكة أن أم المؤمنين تجود بأنفاسها فهرعت إليها أختها هالة وابنتها زينب وزوجها العاص بن الربيع ، وخرجت تشتد إليها أم الفضل زوجة العباس ، وفاطمة بنت أسد وإن لم يمض على موت زوجها أبى طالب ثلاثة أيام ، فقد تعلقت بالطاهرة القلوب .

ودخلت زينب على أمها ونظرت فى وجهها فلاح عليها الجزع الشديد ، ورأى رسول الله — ﷺ — الحزن والألم فى وجه ابنته فلم يحتمل البقاء فانسحب خارجا يبكى وينتحب ليطفئ النار التى تلظت بين ضلوعه .

وراحت زينب تنادى أمها الحبيبة فى لهفة ، وهالة تذرف الدموع على أختها ، وفاطمة الزهراء تتلوى من الألم وعبراتها تغسل وجهها . وفتحت أم المؤمنين عينيها فرأت زينب فمدت يدها وقبضت بها على يد الغالية ، وشرد خيالها فرأت رقية وزوجها عثمان بن عفان وقد وقفا يودِّعانها قبل الهجرة إلى الحبشة . كانا كملكين كريمين جميلين جليلين يفران من الأبالسة ، فعقبة بن أبى معيط زوج أم عثمان بعد موت عفان ، قد سامهما سوء العذاب حتى هان عليهما فراق الأهل والوطن والأحباب .

وملأها على الرغم من الوهن الذى مشى فى بدنها حنين إلى رقية وعثمان ، فيا طالما سمعت من زوجها عن جمال سارة زوج إبراهيم فكانت تتخيلها كرقية ، ويا طالما سمعت منه عن جمال يوسف فكانت تراه بعين خيالها فى صورة عثمان . وكانت تصغى إلى سورة يوسف فتتحرك أشجانها للغلام الذى انتزعته القسوة من أحضان أهله . وما دار بخلدها أن سيأتى يوم تفر فيه بناتها من وجه الاضطهاد .

إن رقية هناك فى الحبشة وهى تتلهف على أن تراها قبل أن تموت ، إنها فى شوق إلى أن تشم ريحها ، إلى أن تمرر يدها على شعرها ، إلى أن تضم صدرها إلى صدرها ، إلى أن تلثم عينيها ووجنتيها وشفتيها ، وأن تمتزج دموعها بعبراتها ، وأن تختلط أنفاسها بأنفاسها ، ولكن هيهات ! ستذهب دون أن تودع فلذة كبدها فقد كان وداعها يوم أن خرجت إلى الحبشة

آخر الوداع .

وشهقت أم كلثوم شهقة وهى فى غمرة الأسى فالتفتت إليها العيون الدامعة كأنما تنهاها عن ذلك النحيب الذى يؤذى الطاهرة ، فانسلت من الغرفة لا يرقأ لها دمع فإذا بأبيها عند باب الغرفة واقف يسح الدموع ، فاستشعرت أم كلثوم كأنها ستلفظ زوحها مع عبراتها .

ودخل على بن أبى طالب وقد تمزق حزنا على موت أبيه على كفره ، وما مد الفتى عينيه إلى أم المؤمنين حتى أحس بقلبه ينخلع من مكانه ، أينضب ينبوع الحنان الذى نهل منه أنبل المشاعر مذ جاء إلى هذه الدار مع ابن عمه ؟ أتغيب أم المؤمنين من حياة رسول الله عليه السلام ؟ وما دار بخلده ذلك الخاطر حتى فزع وغص فما كان بقادر على أن يتصور عيش رسول الله الحبيب وقد اختفت من حياته الطاهرة وزيره وعونه بعد الله .

وراح الفتى يبكى فى صمت المروءة والشجاعة والأنفة والحنان وحلاوة اللسان وصدق النية وصلاح السريرة ، إنها كانت تعمل للآخرة دائما أبدا ، لا تنفك عن ذكر المعاد . رضيت عن الله ورضى الله عنها ، فطوبى لخديجة ولرسول الله العزاء .

وجاء حكيم بن حزام يلقى على عمته نظرة أخيرة فوقف أمام جلال الموت مطأطئا حزينا ، نسى فى تلك اللحظة أنها حاضنة ذلك الدين الذى جاء به زوجها ليسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويفرق به بين الأخ وأخيه والرجل وصاحبته والأب وبنيه ، ولم يعد يذكر إلا أنها عمته التى كانت تغمره بحنانها وكان يهفو إليها قلبه . إنه يحبها حبا صادقا على الرغم من كل ما كان بينه وبينها من أمر الدين ، وإنه يحسن غصص الدموع فى حلقه وقد فاض بها وجدانه ، وراح يجاهد دموعه فلزم الصمت فكان صمته أبلغ

بيان .

وهرعت نساء بنى هاشم وبنى أسد إلى دارها وفاضت بهن غرفتها ، وجاءت أم أيمن إلى رسول الله — ﷺ — وقد أفحمت بالبكاء تقول له إن سيدتها الطاهرة تطلبه ، فوقف عليه السلام أمام باب حجرتها لا يستطيع أن يتقدم خطوة ، فأم المؤمنين فى النزع الأخير وهو لا يحتمل أن يراها وقد ضاق صدرها بروحها . إنه يتمزق من الألم ويهتز من الحزن حتى ليكاد ينهار ، واختلس إليه النظرات على بن أبى طالب وزيد بن محمد وهند بن أبى هالة فانقبضت قلوبهم وأحسوا كأن شوكا يعترض حناجرهم وقد تحركت فيهم الشفقة على حبيبهم حتى كادت أن تنسيهم عظم فجيعتهم فى الأم الحنون التى سكبت فى وجدانهم أرق المشاعر وأنبل الإحساسات .

وجاءت أم الفضل إلى رسول الله — ﷺ — وعيناها تفيضان من الدمع حزنا لتقول له إن خديجة تناديه ، فجعل رسول الله يتلفت بعينين زائغتين وقد نزل به حزن ثقيل ، وأشفق على نفسه من قسوة معاينة الطاهرة وهى تموت فلم تطاوعه قدماه على الدخول بل ظل فى مكانه عند الباب لا يريم وقد سرت جمرات الحزن بين ضلوعه .

وارتفعت الأصوات بالنحيب فكان ذلك إيذانا بانطواء أربع وعشرين سنة وثمانية أشهر شاركت فيها خديجة بعلها العظيم حياة التقشف التى فرضها على نفسه قبل الرسالة ، وحياة الكفاح وتحمل كل الإساءات فى سبيل الرسالة وإشراق النور . وصكت الأصوات آذان الواقفين خارج غرفة الطاهرة مطرقين فانفجروا بالبكاء . وقد ذهل رسول الله — ﷺ — عن نفسه فانخرط فى النحيب ، ولم تقو رجلاه على حمله فانهار وهو يحس كأن نارا استشرت فى جوفه ، فإنه لشىء أليم موجع لقلبه أن تذهب

خديجة رفيقته وأنيسته وأن تتركه وحده فى ظلام الطريق .

واستشعر كأن العواصف والأعاصير قد هبت عليه وهو يضرب فى بيداء الحياة وليس له من ناصر يعينه على تبليغ رسالات ربه . وزاد فى كربه أن زينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء كن يولولن ويندبن الطاهرة سيدة نساء قريش وأم المؤمنين ، وأن أم أيمن جعلت تغدو وتروح والهة حزينة بينا راح أسامة يجأر بالبكاء يعلو صوته على صوت الجميع .

وجاء المسلمون إلى بيت نبيهم مهطعين يحملون أحزانهم وقد راح كل منهم يفكر فى أسى فى كلمات يعزون بها رسول الله — ﷺ ، حتى إذا ما أقبلوا عليه ورأوا فى وجهه لوعة الحزن عقدت ألسنتهم فقد عز العزاء ، وأطرقوا برءوسهم يبكون فى صمت أليم .

وأقبل أبو بكر يستعبر فلما رأى حبيبه محمدا عليه السلام قد هدته الفاجعة سرت فى بدنه رعدة و لم يقو على كبح جماح عواطفه فارتفع صوته بالنشيج ، واندفع إلى رسول الله عليه السلام وضمه إلى صدره كأنما يود لو يحميه من الأشجان التى انقضت عليه ، فتعانق الصديقان يبكيان ويذرفان أغلى الدموع على حاضنة الإسلام الغالية .

ونظر حمزة وعمر إلى الصديقين المتعانقين اللذين غسلت العبرات وجهيهما ، فتفجرت ينابيع الأسى بين ضلوعهما وسحت أعينهما الدموع تنفيسا عن اللوعة التى تكاد أن تكتم الأنفاس ، ورنا أبو لهب إلى ابن أخيه الذى أعتق جاريته يوم أن بشرته بمولده فرق له قلبه ونسى فى غمرة الحزن ما كان بينهما من خصام ، فسالت دموعه تغسل لحيته الحمراء .

وجهزت خديجة فحمل المسلمون نعشها وساروا به فى الطريق الذى طالما قطعته خديجة فى جاهليتها وفى إسلامها ومن حولها إماؤها إلى الحرم .

وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسيرون فى الجنازة مطرقى الرءوس يسيرون فى هدوء ، وقد غمرتهم الأحزان . فمنذ ثلاثة أيام قبروا أبا طالب وها هم أولاء ينطلقون اليوم لقبر الطاهرة ، فأفئدتهم لا تزال ممتلئة بالعبرة .

وساروا إلى الحجون وقد ثارت العواطف فى الأفئدة . كان رسول الله ــ ﷺ ــ الذى ألف الله به إخوانا وفرق أقرانا وأعز به الذلة وأذل به العزة يستشعر كأنما يودع قطعة عزيزة من نفسه ، أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه ، وكانت وجوه المسلمين باسرة وقلوبهم باكية يزيد فى أساهم أنهم يحسون فى صميم وجودهم أن السماء تبكى على أم المؤمنين ، ناصرة الإسلام .

وبلغوا القبر فاشتد النحيب حتى تجاوبت به جبال مكة التى تطل على الحجون ، والتف المسلمون برسول الله عليه السلام يبكون وهو يذرف الدمع الهتون ، فكانت أفئدتهم تتمزق حزنا لحزن نبيهم الذى نزل حبه بسويداء قلوبهم . ودلى الجسد الطاهر فى القبر فجأر الناس بالبكاء وجزع المسلمون جزعا شديدا ، فنبيهم الكريم قد خنقته عبراته وارتفع صوته بالنشيج لينفس عما يتلظى بين ضلوعه من نيران الأحزان .

وغيبت فى الثرى أول من أشرق قلبها بأنوار اليقين بعد رسول الله ــ ﷺ ــ ، وطويت صفحة من أنبل صفحات البشرية ، وأغلى الدموع تذرف على الطاهرة سيدة قريش حاضنة الإسلام أم المؤمنين عليها السلام .

٢٣

مات أبو طالب فأحس أعداء الرسول — ﷺ — راحة فقد انهار السد المنيع الذى كان يحول بينهم وبين صب جام غضبهم على أبى القاسم ، فلن يجد بعد اليوم من يمنعهم من إنزال الأذى به وتعذيبه حتى يعود إلى ملتهم ، أو يقتلوه ويستريحوا من تلك الفتنة التى لم تترك دارا من دور مكة إلا دخلتها وفرقت أهلها شيعا وأحزابا .

وماتت خديجة فنزل بدارها حزن عميق ، وكان أكثر المحزونين محمدا عليه السلام ، فلم تكن خديجة زوجة عاقلة رشيدة وحسب ، بل كانت نعم العون لزوجها على تبليغ رسالات ربه ، إن قلبه يتمزق أسى على فراقها ولكن ما كان حزنه ليمنعه من أن يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الصراط المستقيم ويرشدهم إلى سبل ربه .

غادر محمد عليه السلام الغرفة التى أعدت لعبادته وسار فى الردهة خطوات يتحاشى أن يلتفت إلى الحجرة التى فاضت فيها روح الطاهرة ، ثم هبط فى الدرج ومشى هونا فى الممر الذى يقود إلى الباب . حتى إذا ما وقف على عتبته وهم بأن يصعد إلى الطريق إذا بالحجارة تصوب إليه من دور أبى جهل والأسود بن عبد يغوث وأمية وأبىّ ابنى خلف والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، فتقهقر عليه السلام يحتمى بالحجر الكبير الذى كان فى ممر الدار ، والحجارة تهطل عليه هطول المطر المدرار .

وامتلأ رسول الله عليه الصلاة والسلام بالحنق والغضب ، فقومه قد بيتوا العزم على أن يجاهروا بعداوته وأن يسوموه سوء العذاب وأن يقتلوه

دون أن يخشوا بني هاشم وبني المطلب . فقد أصبح فى الغابرين الرجل الذى كان يستطيع أن يجمع الهاشميين جميعا مسلمين وكافرين لنصرة ابن أخيه ، وما من رجل هاشمى بقادر على ذلك غير أبى لهب ، وأبو لهب من حزبهم قد شن أقسى ألوان الاضطهاد على ابن أخيه واشترك مع الكافرين فى حصار عشيرته فى شعب أبى طالب .

رأى رسول الله — صلوات الله عليه وسلامه — تهجم قريش فتذكر أبا طالب فقال :

— يا عم ، ما أسرع ما وجدت فقدك .

لم يكن رسول الله عليه السلام يخشى القتل بعد أن كتب الله على نفسه أنه سيعصمه من الناس ، ولكنه ما كان بقادر على أن يخرج من خلف الحجر الذى احتمى به ، فقذائف الحجارة تنهال عليه من بيوت جيرانه فى إصرار كأنما قد عزموا على أن يضعوا حدا للعداوة الناشبة بينهم وبينه .

كانت دار أبى لهب تطل على دار خديجة فصكت أصوات الحجارة مسامع أبى لهب فراح ينظر ، فرأى جيران ابن أخيه يلقون عليه الحجارة فى ضراوة . لقد نالت قريش من رسول الله — ﷺ — ما لم تكن تناله فى حياة أبى طالب ، فتحركت فى أبى لهب نخوته فانطلق مهرولا إلى حيث كان ابن أخيه مختبئا . فلما رأى الرجال أبا لهب يشتد إلى دار خديجة كفوا عن إلقاء الحجارة وقد تهللوا بالفرح ، فقد حسبوا أن أبا لهب سيسلمه لهم ليقتلوه فتطيب نفوسهم بعودة عزتهم التى أذلها ابن عبد الله .

وجاء أبو لهب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد ، امض لما أردت وما كنت صانعا إذا كان أبو طالب حيا فاصنعه . لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

وخرج أبو لهب مع ابن أخيه يحدثه فى ود وأبو جهل والنضر وعقبة بن أبى معيط وسادات قريش الذين قبضوا على الحجارة بأيديهم ينظرون فى دهش ، فما خطر لهم على قلب أن يحمى أبو لهب ابن أخيه الذى قال فيه قرآنا كله هجاء قاذع يتلوه المسلمون .

واتفق أن أحد المستهزئين سب النبى — ﷺ — فأقبل عليه أبو لهب ونال منه ، فولى وهو يصيح :

— يا معشر قريش ، صبأ أبو عتبة .

فأقبلت قريش على أبى لهب وقالوا له :

— أفارقت دين عبد المطلب ؟

— ما فارقت دين عبد المطلب ، ولكن أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى إلى ما يريد .

— أحسنت وأجملت ووصلت الرحم .

وما كانوا صادقين فيما قالوا بل كانوا لا يريدون معارضة أبى لهب حتى لا يزداد إصرارا على تأييد الرسول عليه السلام . وأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بين أبى القاسم وعمه فما أيسر إثارة غضب حليف الخمر والميسر .

وجعل الرسول عليه السلام يدعو الناس إلى الإسلام وهو مطمئن إلى نصرة عمه لا يخشى إيذاء المشركين ، وأحنق أبا جهل وعقبة بن أبى معيط بسط أبى لهب حمايته على ابن أخيه ، فقد رسما خططهما بعد موت أبى طالب للإجهاز على عدوهما اللدود ظنا منهما أن اختفاء أبى طالب سيترك الصابئ بلا ناصر . أما وقد قام أبو لهب دونه فلا بد من الإيقاع بين سيد بنى هاشم الجديد وأبى القاسم .

كان عجبا أن يقوم عدو ابن أخيه اللدود دونه ، فراحت أم جميل تلوم زوجها على مساندة من هجاهما فى قرآنه أشد الهجاء ، ومشى رجال من أعداء الرسول عليه السلام إلى المرأة الحانقة يؤججون نيران حقدها على ابن عبد الله ويوسوسون لها أن تلتقط أذن زوجها تنفث فيها نقض ذلك العهد العجيب الذى قطعه على نفسه ، وما كانت المرأة فى حاجة إلى إيعاز فنفسها الممرورة كانت كفيلة بأن تحيل حياة أبى لهب جحيما مادام على عهده لمنافس أخيها أبى سفيان .

ومكث رسول الله أياما يعرض نفسه ودين الله على الناس لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب ، إلى أن انطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى رسول الله — ﷺ — فقال له أبو جهل :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب[1] ؟

— فى النار .

فانطلق أبو جهل وعقبة بن أبى معيط إلى أبى لهب فقالا له :

— أأخبرك ابن أخيك أين مدخل أخيك أبى طالب ؟ يزعم أنه فى النار .

فذهب أبو لهب إلى ابن أخيه فقال :

— يا محمد أين مدخل أبى طالب ؟

لم يشأ أن يثير عداوة عمه الذى يحميه ، ولم يكن ليكذب قط ولو خسر العالم كله فقال :

— مع قومه .

---

(١) فى الأصل عبد المطلب وأعتقد أن ذلك خطأ لأن عبد المطلب من أهل الفترة ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

فخرج أبو لهب إلى أبى جهل وعقبة فقال :

ـــ قد سألته فقال مع قومه .

فقالا :

ـــ يزعم أنه فى النار .

فعاد أبو لهب إلى الرسول عليه السلام فقال :

ـــ يا محمد أيدخل أبو طالب النار ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أسى :

ـــ نعم ، ومن مات على مثل ما مات عليه أبو طالب دخل النار .

إنه موقف شديد على الرسول عليه السلام ، فأبو طالب قد نصره وهو يحبه ولكن حبه ربه أشد ، وما كان يستطيع أن يكذب على الله ولو فقد تأييد أبى لهب ، فقال أبو لهب فى حدة :

ـــ لا برحت لك عدوا وأنت تزعم أن أبا طالب فى النار .

واشتد على رسول الله عليه السلام وعادت قريش إلى إيذائه ، فبينا هو فى طريقه إلى داره حزينا لموت أبى طالب وفقد خديجة التى كان يجد عندها العطف والمواساة ، إذا ببعض سفهاء قريش نثر على رأسه التراب فدخل بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكى ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول لها :

ـــ لا تبكى ، لا تبكى يا بنية ، فإن الله تعالى مانع أباك .

وجلس الرسول صلوات الله وسلامه عليه مهموما من كيد الكافرين ، وزاد فى أساه أنه بدأ يحس قسوة غياب خديجة من حياته ، فما ملكت بناته غير البكاء وما خفت إليه إحداهن تمسح عنه أحزانه ، وما كان ليرضى أن يبثهن آلامه أو يحدثهن عن لوعة الأسى المتأججة بين ضلوعه ، فقد كان

أكبر من أن يحملهن همه ، بل صار عليه أن يحملا أعباءه وأعباءهن بعد أن استجابت سيدة الدار لنداء ربها ، وتركته بلا أنيس فى الأرض يكشف له عن خبيئة نفسه ، ولا وزير صدق يشاركه التفكير والتدبير ، بينما العواطف الجياشة تمور فى الصدور .

وأطرق عليه السلام يفكر فى أمره ، فوجد أشد الناس عداوة له أبا جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وابنى خلف . فأبو جهل قد شنها عليه حربا لا هوادة فيها منذ أوحى إليه ، وعقبة قد داس على رقبته ذات يوم بينا كان ساجدا لله فى الحرم حتى إن عينيه كادتا أن تخرجا من محجريهما فانتصب عليه السلام قائما وهو يتوعد عقبة بالقتل إن لقيه خارج مكة ، ومنذ ذلك اليوم لم يُنه — صلى الله عليه وسلم — عما توعد به ابن أبى معيط وزاد عقبة طغيانا وكفرا .

تزوج عقبة بن أبى معيط أروى بنت عمر بن كريز ابنة عمته أم حكيم البيضاء توأم أبيه عبد الله بعد أن مات عنها عفان ، ولم يخفف زواجه من ابنة عمته من حدة عداوته للإسلام والمسلمين ، بل إنه أوغل فى الكيد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — واشتد فى إيذاء عثمان بن عفان ابن زوجه ورقية بنت محمد عليه السلام حتى خرجا مهاجرين إلى الحبشة ، فرارا من اضطهاد عقبة وصحبه .

ونهض عقبة مع أبى جهل والنضر وابنى خلف فى أمر مقاطعة بنى هاشم وضرب الحصار عليهم فى شعب أبى طالب ، وكانت له اليد الطولى فى تأليب عمه أبى لهب عليه بعد أن رق له قلبه وبسط عليه حمايته . كان محمد قد توعد عقبة بالقتل إذا لقيه خارج مكة ، وإنه وهو فى إطراقته الحزينة بعد أن استأنف أبو لهب عداوته واشتد عليه هو وقريش يجد أن القتل جزاء

وفاق لعقبة بن أبى معيط على ما جنت يداه .

وجعل يفكر فى النضر بن الحارث ابن خالته ، إنه يؤذيه ويكثر من إيذائه والنيل منه . وما أكثر أقاربه الذين آذوه ولكن النضر قد تجاوز كل حد فى عداوته ، لم يكتف بالسخرية منه بل راح يستهزئ بالله سبحانه وتعالى وقرآنه استهزاء الجاهلين . ولو وقع النضر ذات يوم فى يده فلن يدعه يمشى من بعد فى الأرض التى دنسها بأساطيره وسب الله بغير علم ، سبحان الله عما يصفون ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .

وانقضى الليل والرسولُ عليه السلام يناشد ربه ويدعوه ويشكو إليه هوانه على الناس والدموع تنهمر من عينيه ، فالخطوب تحيط به من كل جانب ، حزن ثقيل نزل بقلبه لموت أبى طالب وأم المؤمنين ، واشتداد الكافرين عليه شدة لم يذق مثلها قبل أن يفقد عمه الحبيب ، إنه أضعف من أن يقف أمام ذلك الطغيان الهائل وحده ، وهو فى أشد الحاجة إلى عون الله ونصره ، وهو على ثقة بالرغم من كل ما يلاقى من صعاب بأن نصر الله قريب .

وخرج إلى المسجد وهو شارد يستشعر فى أعماقه أن الكافرين يتربصون به ، ودخل إلى الحرم من باب بنى مخزوم ومد بصره فإذا بأبى بكر وعلى وبعض الصحاب قد جلسوا بالقرب من زمزم ، فمشى إليهم فوقعت عليه أعين سادات قريش فهبوا إليه مزمجرين وأخذوا يتجاذبونه وهم يقولون له ـ ﷺ :

ـ أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا .

وجعل بعضهم يدفعه إلى بعض وما دنا من أصحابه أحد إلا أبو بكر ،

لم يحتمل أن يرى رسوله ونبيه وصفيه وحبيبه وهم يتجاذبونه فانطلق إليهم يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول :

— أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ولم يكن لينفعه دفاع أبى بكر عنه فالعداوة قد بلغت ذروتها ، فإما القتل وإما أن يخرج من مكة ، وفى شوال سنة عشرة من النبوة خرج إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة ضيق الصدر كسير الفؤاد ، لعله يجد فى ثقيف من يشرح الله صدورهم للإسلام ويقومون معه على من خالفه من قومه .

كان الحارث بن كلدة زوج خالته فى الطائف . أيكذبه الحارث كما كذبه ابنه النضر وقاوم رسالته ؟ وكان بها أمية بن أبى الصلت من كان يرجو أن يكون رسول الله ، وكان يجلس إلى نساء ثقيف يحدثهن أنه النبى الأمى الذى تفيض بذكره الكتب المقدسة ، فلما أخبره أبو سفيان أن النبى الذى كان يحدثه عنه قد بعث وأنه محمد بن عبد الله حسده ، فلما قال له أبو سفيان : أتصدقه ؟ قال أمية : ما كنت أتبع نبيا من غير ثقيف .

وكان بها أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفى . إنهم سادات ثقيف وأشرافها ، فلو تابعوه لوجد منعة ورجالا يناصرونه على الإسلام . وذهب ومعه زيد إلى دار الحارث ابن كلدة طبيب العرب وراح عليه السلام يعرض على زوج خالته الإسلام فلم يلق إليه سمعه ، بل راح يتيه عليه بأجزاء الحكمة التى جاء بها من الحيرة وحوران وبصرى ، وما كان ما جاء به إلا فتات موائد فلاسفة اليونان والرومان وأساطير الفرس .

وأعرض الحارث بن كلدة عن دعوة رسول الله — ﷺ — كما أعرض عنها من قبل ابنة النضر ، فقام رسول الله — ﷺ — وهو ضيق الصدر

يسير ومعه زيد بن حارثة إلى دار أمية بن أبى الصلت .

وفى دار أمية اشتد الجدال بين رسول الله — ﷺ — وبين من كان يطمع فى النبوة ، وقد كان حديث ابن أبى الصلت يقطر حسدا وحقدا . إنه لبس مسوح الرهبان وانقطع للعبادة وعكف على قراءة الكتب ليكون أهلا للرسالة ، ولكن الله جلت قدرته اصطفى غيره والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وغادر رسول الله — ﷺ — دار أمية بن أبى الصلت وهو حزين قد ضاق صدره بعناده ، فالرجل على علم بالله وكتبه ورسله ، بل إنه ليعلم أنه رسول الله حقا وصدقا ، فما باله لا يصدقه ولا يتبع الهدى ؟ فأنزل الله عليه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون * من يهد الله فهو المهتدى ومن يُضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[١] .

ودخل رسول الله — ﷺ — وزيد بن حارثة على أولاد عمرو بن عمير ، وكانوا إخوة ثلاثة : عبد ياليل وعبد كلال وحبيب . فلما جلس إليهم راح يكلمهم فيما جاءهم به ، يقول إنه رسول رب العالمين ويعرض عليهم الإسلام ونصرته والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم :

---

(١) الأعراف ١٧٥ — ١٧٨ .

— إنى أمرط (أنتف) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

وقال له آخر مستهزئا :

— ما وجد الله أحدا يرسله غيرك .

وقال له الثالث :

— والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسول الله كما تقول أنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام — ﷺ — من عندهم وقد أيس من خير ثقيف ، وخشى أن يبلغ قومه ما لقى من ثقيف من خذلان فيشتد أمرهم عليه ، فالتفت إلى أولاد عمرو بن عمير الثقفى وقال فى صوت متهدج قد بللته الدموع :

— اكتموا على.

— اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض .

وسار رسول الله عليه السلام ليخرج من الطائف وقد ضاق صدره وتعب خاطره واستولى عليه حزن ثقيل ، وانطلق زيد بن حارثة مطرق الرأس كسير الفؤاد ، وما ابتعدا قليلا عن سادات ثقيف وأشرافهم حتى أغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم فخفوا إليه يسبونه ويصيحون به :

— الكافر باللات . الصابئ .

واجتمع الناس عليه يؤذونه وزيد بن حارثة يحاول أن يفض السفهاء من حوله دون جدوى ، فقد كبر عليهم أن يأتى من مكة رجل يسب آلهتهم اللات فى عقر دارهم .

وقعدوا له صفين على طول الطريق وفى إيديهم الحجارة ما إن يمر بين الصفين حتى يرموا رجليه بالحجارة لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا

أرضخوها بالحجارة ، ونظر زيد بن حارثة فى جزع إلى الصفين فإذا بهما يمتدان على مدى بصره .

وراح رسول الله — ﷺ — يتقدم والسفهاء يدقون رجليه بالحجارة دقا ، وزيد بن حارثة يحاول أن يقيه بنفسه دون جدوى فشج رأسه وسالت الدماء من رجليه ، بيد أن ألمه لرسول الله — ﷺ — كان أشد من إلمه على نفسه .

واختصب نعلا رسول الله عليه السلام بالدماء ووجد ألم الحجارة ، فقعد إلى الأرض وقد نال منه الجهد وارتسم على وجهه أعمق آيات الألم وراح يلتقط أنفاسا مكروبة ، وزيد بن حارثة يحس أنه سيموت كمدا على الرسول الحبيب ، فخف السفهاء إليه فأخذوا بعضديه فأقاموه فدفعوه ليستأنف مسيره .

وراح محمد (ﷺ) يسير والحجارة تصوب من الصفين إلى قدميه فيسيل الدم الطاهر على الأرض ويترنح عليه السلام من العذاب بينا ضحكات السفهاء الماجنين تجلجل فى الفضاء ، وراح زيد بن حارثة يعاون أحب أهل الأرض إلى قلبه ليقيم صلبه ويقطع طريق الآلام ، ولكن الطريق ما كان لينتهى فالألم الذى كانا يحسانه كان فوق طاقة البشر . فقعد الرسول عليه السلام على الأرض مبهور الأنفاس ، وارتمى زيد بن حارثة وهو يكاد أن يغيب عن الوجود ، فخف الرجال إليهما فأخذوا بعضديهما فأقاموهما فدفعوهما إلى الطريق ليستأنفوا رضخ أقدامهما بالحجارة وهم يضحكون ، فالدماء الطاهرة التى تسيل على الرمال كانت تثير ضحك غلاظ الأكباد قساة القلوب .

وسارا وهما يسمعان الضحكات كأنما كانت آتية من مكان سحيق ،

وقد مادت الأرض تحت أقدامهما ورأيا السماء تتراقص وقد راحت الدماء ترسم أربعة خطوط حمراء على الأرض ، وقد ضاق صدر رسول الله — ﷺ — وصدر زيد بذلك الظلم المبين ، فما كان يخطر على قلب أن أقواما تقسو قلوبهم حتى يصبح تعذيب الأبرياء لعبتهم التى تشرح الصدور .

وتحمل الرسول عليه السلام ومولاه عذاب الهون حتى خلفا الصفين اللذين اصطفا من الظالمين على جانبى الطريق ، فلم يقو زيد على الوقوف فارتمى على الأرض يلهث ويلتقط أنفاسه فى جهد جهيد ، بينا رفع رسول الله — ﷺ — رأسه والدم يسيل من رجليه والعرق يتفصد من جبينه وقد امتزج بالتراب وراح يناجى ربه ويقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

كان طريق الآلام ينتهى عند بستان لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة ، وكانا فى البستان يريان ما لقى أبو القاسم من سفهاء أهل الطائف فأشفقا عليه وطافت بهما رأفة ، فما ناله ابن عبد الله من إيذاء يمزق أقسى القلوب ، إنه كان ينوء من الجهد فتأبى قسوة السفهاء إلا أن يأخذوا بعضديه ليقيموه حتى يستأنفوا دق رجليه بالحجارة وهم يضحكون ملء الأشداق ، وهو يرفع رجليه ويضعهما والدماء تنبثق منهما لتروى الأرض .

وراح رسول الله — ﷺ — يعاون مولاه على النهوض ، حتى إذا ما

استطاع زيد أن يقيم صلبه راحا يتقدمان إلى البستان وهما يترنحان وقد زاغت منهما العيون ، ويزفران ويشهقان فى صوت مسموع ، حتى إذا ما بلغا شجرة راحا يستظلان بها وتمددا تحتها يلتقطان الأنفاس .

وتحركت لأبى القاسم رحِمُهما فدعوا غلاما لهما يقال له عداس فقالا له :

ـــ خذ قِطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، ثم قال له :

ـــ كل .

ووضع زيد فيه يده ، فلما وضع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيه يده قال :

ـــ باسم الله .

ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال :

ـــ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟

ـــ أنا نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

ـــ من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فقال عداس فى دهش :

ـــ وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها وما فيها عشرة يعرفون ما متى ، فمن أين عرفت أنت متى وأنت أمى وفى أمة أمية ؟

ـــ ذاك أخى ، كان نبيا وأنا نبى .

فأكب عداس على رسول الله — ﷺ — يقبل رأسه ويديه وقدميه وزيد ينظر وقد اغرورقت فى عينه الدموع تأثرا .

رأى عتبة وشيبة ابنا ربيعة ما يفعل عداس بأبى القاسم فالتفت أحدهما إلى الآخر فى عجب ثم قال :

— أما غلامك فقد أفسده عليك .

فلما جاءهما عداس قالا له :

— ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟!

— ما شأنك سجدت لمحمد وقبلت قدميه و لم نرك فعلته بأحدنا .

فقال عداس وقد أشرق وجهه بالإيمان :

— يا سيدى ، ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

— ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك .

— لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خداع ودينك خير من دينه .

ويئس رسول الله — ﷺ — من خير ثقيف فانصرف من الطائف راجعا إلى مكة وهو حزين ، وزيد بن حارثة ينطلق معه يفكر فيما سيفعل حبيبه بعد أن أخرجه قومه من مكة وبعد أن لقى أبشع ألوان الاضطهاد فى الطائف .

وسارا صامتين على راحلتيهما ، رسول الله ﷺ يستشعر أعمق آيات الأسى ، فقد انقضت عشر سنين منذ أوحى إليه أول مرة وما انتشر دين الله فى مكة و لم تستجب له القبائل ، وقد ردته الطائف ردا قاسيا غير كريم . إنه سأل القوم أن يكتموا عليه خشية أن يصل إلى قومه أنباء خذلان ثقيف له ورفضهم دعوته فيزداد إيذاء قريش له ، ولكن عتبة وشيبة ابنى ربيعة

كانا فى بستانهما وقد رأيا ما فعل به سفهاء الطائف وما نالوا منه .

وكان زيد يئن أنينا مكتوما فوقع الحجارة منه لا يزال يؤلمه . ولكن ألم نفسه كان أقسى وأشد ، فما بال الناس يؤذون فى ضراوة من يريد أن يفتح عيونهم العمى وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ وما بال قريش قد لجت فى العداوة حتى إنها أخرجته من داره ؟ وكيف يعود رسول الله عليه السلام إلى مكة بعد أن طرده أعداؤه منها ؟

ونزلا بوادى نخلة على مسيرة ليلة من مكة ، وقام — ﷺ — فى جوف الليل يصلى ، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

وأقام رسول الله — ﷺ — بنخلة أياما ، فقال له زيد :

— كيف تدخل عليهم وهم أخرجوك ؟

— يا زيد . إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

لم يتزعزع إيمانه بنصر الله لحظة فى أحلك أيام رسالته ، كان على يقين من أن الله ناصر دينه ومظهر نبيه . فإن كان قد مكث فى نخلة أياما فقد أقام بها حتى يلتقط أنفاسه بعد ما لقى من سفهاء ثقيف . وإنه داخل على قومه على الرغم من أنهم أخرجوه ليبلغ رسالات ربه ، فإن لم يفعل فإنه يكون قد تقاعس عن تأدية رسالته وحاشا لله أن يكون من اصطفاه خوارا ، أو أعجز من أن ينهض بأمانته .

وامتطى رسول الله — ﷺ — راحلته وانطلق إلى مكة وزيد فى رفقته يستشعر خوفا على النبى عليه السلام ، وانتهت الرحلة عند غار حراء فنزل به رسول الله ، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره . كان الأخنس

يعطى النبى — ﷺ — من طرف اللسان حلاوة وكان يظهر له الود ، فإذا ما انصرف الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وجلس إلى المشركين نال من أبى القاسم ، وعاد الرجل الذى بعثه محمد عليه السلام إلى الأخنس فقال :

— إن الأخنس يعتذر بأنه حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث — ﷺ — إلى سهيل بن عمرو فقال :

— إن بنى عامر لا يجير على بنى كعب .

وراح رسول الله — ﷺ — يفكر فى شريف من أشراف قريش يجيره فتذكر مطعم بن عدى وبلاءه فى رفع الحصار عن بنى هاشم لما حاصرهم أعداء الرسول فى شعب أبى طالب فأرسل رجلا من خزاعة إليه يقول : « أدخل فى جوارك » .

وبلغ الخزاعى مطعم بن عدى فقال له :

— إن محمدا يريد أن يدخل فى جوارك .

فقال مطعم دون أن يتردد :

— نعم .

ودعا بنيه وقومه فقال :

— تلبَّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت ، فإنى قد أجرت محمدا .

فدخل رسول الله — ﷺ — حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدى على راحلته فنادى :

— يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمدا فلا يهجُه أحد منكم .

فانتهى — ﷺ — إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ومطعم وولده مطيفون به وفى أيديهم السيوف ، قد أجاروا رسول الله

من أعدائه وإن لم يدخلوا فى دين الله .

وخفت فاطمة وأم كلثوم إلى أبيهما يقبلانه فى وجد والدموع تنهمر من أعينهما ، وهرع أسامة بن زيد إلى النبى فضمه إليه فى حب ، ثم دخل غرفته التى أعدت لعبادته وشرد بذهنه فرأى بعين خياله سفهاء ثقيف وهم يأخذون بعضديه ويرفعونه بينهم لينتصب واقفا بعد أن يكون قد قعد على الأرض من الإعياء ليتمكنوا من دق رجليه بالحجارة فى أثناء سيره وهم يتضاحكون ، كانت قسوتهم أليمة ولكن رفضهم لدعوته كان أقسى على قلبه من كل آلام بدنه وما حاق به من عذاب . وفيما هو شارد حزين إذ أوحى إليه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

وفصم عنه الوحى فرفت على شفتيه ابتسامة عذبة وأحس رضا ، فقد كان إسلام الجن بعد ما لاقى من اضطهاد قريش وثقيف تسرية عنه وبارقة ضياء لمعت فى الظلام ، فازداد يقينا على يقين أن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

تذييـــل

قال بعض الزنادقة وهم يحاورون جعفر الصادق منتقدين القــرآن الكريم :

ــ طعنًا فى القرآن ، لو قال امرؤ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . وكرر ذلك أربع مرات فى نسق أما كان عيبا ؟ فكيف وقع فى القرآن : ﴿ قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾(١) ؟ وهى مثل ذلك .

فقال جعفر الصادق :

ــ قال له المشركون : اعبد معنا آلهتنا يوما نعبد معك إلهك عشرة ، واعبد معنا آلهتنا شهرا النعبد معك إلهك سنة . فنزلت إنى لا أعبد ما تعبدون يوما ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة ، ولا أنا عابد ما عبدتم شهرا ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة .

وقد تضمنت كتب التفسير بحوثا فى تعليل سبب تكرار آية « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فيرى بعضهم أنها ضرب من ضروب التأكيد وبعضهم الآخر يرى أن واحدة منهما تشير للمستقبل والثانية تشير إلى الماضى .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده :

ــ مفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام فى المعبود ، ومفاد الجملتين

---

(١) سورة الكافرون .

الأخريين تمام الاختلاف فى العبادة : فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع ، المتعالى عن الظهور فى شخص معين أو المحاباة لشعب أو واحد بعينه والذى تعبدونه على خلاف ذلك .

وعبادتى مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة ، فأين هى من عبادتى ؟.

وجاء فى منتخب تفسير القرآن :

« قل يا محمد : يأيها الكافرون المصرون على كفرهم . لا أعبد الذى تعبدون من دون الله . ولا أنتم عابدون الذى أعبد وهو الله وحده . ولا أنا عابد مثل عبادتكم لأنكم مشركون . ولا أنتم عابدون مثل عبادتى لأنها التوحيد . لكم دينكم الذى اعتقدتموه ولى دينى الذى ارتضاه الله لى » .

وأعتقد أن السورة تحتمل كل هذه التفاسير .

وقد حاول الزنادقة الطعن فى القرآن والتشكيك فى صدق رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام فوضعوا أحاديث نبوية لزعزعة ضعاف الإيمان ، وكان مما وضعوه حديث ما ألقى الشيطان فى روع الرسول عليه السلام من كلمات لما أنزلت عليه سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[1] وقد أخذ بعض الرواة والإخباريون المولعون بكل غريب هذا الحديث دون تمحيص ودسوه فى سيرة سيد المرسلين ، وإن كان بادى الاختلاق .

قال محمد بن سعد عن محمد بن عمر بن واقد بسند يرفعه : لما رأى

---

(١) النجم ١ .

رسول الله — ﷺ — من قومه كفًّا عنه ، جلس خاليا فتمنى فقال :

— ليته لا ينزل على شيء ينفرهم عنى .

وقارب رسول الله — ﷺ — قومه ودنا منهم ودنوا منه ، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ حتى بلغ ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة ﴾[1] ألقى الشيطان على لسانه كلمتين : « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ولما بلغ الغرانيق العلا قال الواقدى : فتكلم رسول الله — ﷺ — بهما ، ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا ، ورفع المغيرة بن الوليد ترابا إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخا كبيرا لا يقدر على السجود . ويقال : إن أبا أحيحة سعيد بن العاص أخذ ترابا إلى جبهته فسجد عليه — وكان شيخا كبيرا — فرضوا بما تكلم به رسول الله — ﷺ — وقالوا :

— قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فأما إذ جعلت لها نصيبا عندك فنحن معك .

فكبر ذلك على رسول الله — ﷺ — من قولهم حتى جلس فى البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل فعرض عليه السورة ، فقال جبريل :

— ما جئتك بهاتين الكلمتين .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قلت على الله ما لم يقل .

فأوحى الله إليها : ﴿ وإن كادوا ليفتنوك عن الذى أوحينا إليك لتفترى

---

(١) النجم ١٩ — ٢٠ .

علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾[1] .

ففشت تلك السجدة فى الناس حتى بلغت أرض الحبشة ، فبلغ أصحاب رسول الله — ﷺ — أن أهل مكة قد سجدوا فأسلموا ، حتى إن الوليد بن المغيرة وأبا أحيحة قد سجدا خلف النبى — ﷺ — ، فقال القوم :

— فمن بقى بمكة إذا أسلم هؤلاء ! عشائرنا أحب إلينا .

فخرجوا راجعين ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب :

— ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم وعادوا له بالشر فتركناهم على ذلك . فأتمر القوم فى الرجوع إلى أرض الحبشة . ثم قالوا : قد بلغنا . ندخل فننظر ما فيه قريش ويحدث عهدا من أراد بأهله ثم نرجع .

فدخلوا مكة و لم يدخل أحد منهم إلا بجوار ، إلا ابن مسعود فإنه مكث يسيرا ثم رجع إلى أرض الحبشة ، فكان خروجهم فى شهر رجب سنة خمس ، فأقاموا شعبان ورمضان وقدموا فى شوال من السنة .

هذا الحديث الذى فيه الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ونحوها و لم يدخله البخارى ولا مسلم ولا ذكره فى علمه مصنف مشهور . والغرنوق طائر طويل العنق وهو الكركى أو يشبهه ، ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعلو وترتفع فى السماء ، فالأصنام شبهت بها فى علو

---

(١) الإسراء ٧٣ — ٧٥ .

القدر وارتفاعه ، وقبل أن أقول رأيي فى هذا الموضوع سأورد آراء من كذبوا ذلك الحديث أو سلموا به من السالفين .

قال القاضى عياض فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » :

— اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

أما المأخذ الأول فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل ، مع ضعف نقلته واضطراب رواته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته ، فقائل يقول : إنه فى الصلاة ، وآخر يقول : قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول : قالها وقد أخذته سنة . وآخر يقول : بل حدث نفسه فسها . وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبى — ﷺ — لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك . وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبى — ﷺ — قرأها ، فلما بلغ النبى ذلك قال : « والله ما هكذا أنزلت » إلى غير ذلك من اختلاف الرواة .

ومن حُكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية . والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما أحسب . قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى — ﷺ — بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا . ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن الكلبى . عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف

ما نُبِّه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه .

وأما حديث الكلبى فما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه كما أشار البزار إليه ، قال : والذى منه فى الصحيح أن النبى — ﷺ — قرأ « والنجم » وهو بمكة ، فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

هذا توهينه من طريق النقل ، والله أعلم بالصواب .

وأما من جهة المعنى : فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته — ﷺ — ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى — ﷺ — أن من القرآن ما ليس منه حتى يُنبهَه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع فى حقه — ﷺ — من قبل نفسه عمدا — وذلك كفر — أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد تقرر بالبرهان وبالإجماع عصمته عليه السلام من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمدا ولا سهوا ، أو أن يتشبه عليه من يلقيه الملك مما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو يتقول على الله لا عمدا ولا سهوا . وقد قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾(1) الآية . وقال : ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾(2) الآية .

ووجه ثان وهو استحالة هذه القصة نظرا وعرفا ، وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبى — ﷺ — ولا من

---

(١) الحاقة ٤٤ .

(٢) الإسراء ٧٥ .

يحضره من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك — وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه واتسع فى باب البيان معرفة فصيح الكلام علمه ؟!.

ووجه ثالث ، أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندى المشركين وضعفة القلوب والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبى — ﷺ — لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأقل شبهة ، ولم يَحْكِ أحد فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة كما فعلوا فى قصة الإسراء وقصة القضية ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ، فما روى عن معاند فيها كلمة ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل على بُطلها واجتثاث أصلها .

قال القاضى عياض : ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبِّس به على ضعاف المسلمين .

ووجه رابع ، ذكره الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿ وإن كادوا ليفتنونك ﴾[1] الآيتين .

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم ، فمضمونه هذا .

---

(١) الإسراء ٧٣ ، ٧٤ .

ومفهومه أن الله عصمه من أن يفترى وثبته حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيرا ! وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم ، وأنه قال عليه السلام : « افتريت على الله وقلت ما لم يقل » . وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كل ما فى القرآن كاد فهو ما لا يكون . قال الله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[1] ولم يذهب .

قال القاضى القشيرى : ولقد طالبه قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ووعدوه الإيمان به إن فعل فما فعل ، وما كان ليفعل — ﷺ .

وأما المأخذ الثانى — وهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعاذنا الله من صحته — فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ذكرها القاضى عياض وضعف بعضها واستحسن بعض ، نذكر منها ما استحسنه وجوزه إن شاء الله .

منها ما ذكره القاضى أبو بكر فى أجوبته عن هذا الحديث قال :

— لعل النبى — ﷺ — قال ذلك فى أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار ، لقول إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا ربى ﴾[2] على أحد التأويلات . يريد : أهذا ربى ؟! ولقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾[3] بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته ، وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينة تدل على المراد وأنه ليس من المتلو .

---

(١) النور ٤٣ .

(٢) الأنعام ٧٦ . (٣) الأنبياء ٦٣ .

قال القاضى عياض : ولا يعترض على هذا بما روى أنــه كان فى الصلاة ، فقد كان الكلام فيها قبل غير ممنوع . والذى يظهر ويترجح فى تأويله عند القاضى أبى بكر وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبى — ﷺ — كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصل الآى تفصيلا فى قراءته كما رواه الثقاة عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكنات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا نغمة النبى — ﷺ — بحيث يسمعه من دنا منه من الكفار ، فظنوها من قول النبى — ﷺ — وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله تعالى وتحققهم من حال النبى — ﷺ — من ذم الأوثان وعيبها ما عرف منه ، وقد حكى موسى بن عقبة فى مغازيه نحو هذا وقال : إن المسلمين لم يسمعوها وإنما ألقى الشيطــان ذلك فى أسماع المشركين وقلوبهم .

قال القاضى عياض ويكون ما روى من حزن النبى — ﷺ — لهذه الإشاعة والشبهة وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ﴾[١] الآية . فمعنى (تمنى) تلا . قال الله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾[٢] أى تلاوة ، وقوله : ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾[٣] أى يذهبه ويزيل اللبس به ويحكم آياته .

ومما يظهر فى تأويله أيضا أن مجاهدا روى هذه القصة : « والغرانقة العلا » . فإن سلمنا القصة قلنا : لا يبعد أن هذا كان قرآنا ، والمراد

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .

بالغرانقة العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى : الملائكة على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبى الغرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله كما حكى الله عنهم ورد عليهم فى هذه السورة بقوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾[1] . فأنكر الله كل هذا من قولهم .

وقيل : إن النبى — ﷺ — لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، خاف الكفار أن يأتى بشىء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليخلطوا تلاوة النبى — ﷺ — ويشغبوا عليه على عادتهم قولهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[2] ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحمله لهم عليه ، وأشاعوا ذلك وأذاعوه ، وأن النبى — ﷺ — حزن لذلك من كذبهم وافترائهم عليه فسلاه الله تعالى بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾[3] الآية ، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل ، وحفظ القرآن وأحكم آياته ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه الله تعالى من قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[4]

وقال الفخر الرازى : هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القبول بها ، قال الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[5] ، وقال بصحتها جمع منهم الشهاب بن حجر وقال :

— رد عياض لا فائدة فيه ولا يعول عليه .

هذه جملة آراء السلف السابقين فى حديث « الغرانيق العلا » .

---

(١) الحج ٥٢ . (٢) فصلت ٢٦ . (٣) الحج ٥٢ .

(٤) الحجر ٤٩ . (٥) النجم ٣ ، ٤ .

وعندى أنه موضوع قد أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، فهو حديث لا يثبت للنقد . ومن عجب أن يلقى الشيطان فى روع رسول الله — ﷺ — بكلمتين فى سورة يقول فى صدرها علام الغيوب : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى ﴾[1] . أفكان عالم الغيب والشهادة لا يعلم أن الشيطان سيجترئ أن ينطق بشىء من الوحى ؟. إن كان سبحانه وتعالى يعلم فما كان يؤكد فى صدر السورة أن رسوله لا ينطق عن الهوى ، وإن كان لا يعلم — وحاشا لله ألا يعلم — فتلك نقيصة يتنزه عنها رب العزة ، ألصقها بذاته العلية كل من قال بصحة ذلك البهتان والزور .

ولو استشهدنا بتسلسل أحداث السيرة لانهارت هذه الفرية من أساسها ، فالمشهور أن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الأولى قد عادوا إلى مكة قبل حصار الكافرين لبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب ، وما لا جدال فيه أنهم عادوا بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة . وسواء أكانت عودتهم أنهم قد بلغهم أن عظماء مكة قد سجدوا مع المسلمين لما قرأ الرسول عليه السلام سورة والنجم ، أى أن سورة « والنجم إذا هوى » كانت قد نزلت قبل عودة المسلمين من الحبشة ، ولكن أحداث التاريخ تكذب ذلك الزعم ، فسورة والنجم قد نزلت بعد أن أسرى به — ﷺ — ، وقد أسرى به بعد عودة المسلمين العودة الأولى من الحبشة ، وبعد وفاة عمه أبى طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها ،

---

(١) النجم ١ — ٥ .

وبعد خروجه إلى الطائف وما لقى به من عذاب ، فكل قول بأن سورة النجم قد قرئت أيام كان المسلمون الذين هاجروا الهجرة الأولى فى الحبشة قول خاطئ يكذبه الواقع التاريخى ، فكيف يتحدث القرآن عن الإسراء والمعراج وما كان الإسراء قد وقع ؟! إن حديث « الغرانيق العلا » حديث موضوع دون مهارة ، فهو مضطرب الروايات متقطع الإسناد ، قد مزج المدح بالذم ، يكذبه الواقع التاريخى وتسلسل أحداث السيرة . ولو كان النبى — ﷺ — قد نطق بالشهادة لأصنام قومه لظهر هذا الحدث الخطير فى أقوال أعدائه الذين لم يكن لهم من حياتهم إلا مجادلته وإظهار جوانب الضعف فى دعوته .

وقد قيل فيما قيل من غث الحديث أن الكلمتين اللتين ألقى الشيطان بهما فى روع الرسول ، وحاشا لله أن يكون للشيطان عليه سلطان — قد نسختا ، وهذا الزعم يجرنا إلى توضيح الناسخ والمنسوخ فى القرآن .

والنسخ لغة إبطال الشيء ورفعه ، والمتكلمون عن النسخ فى القرآن يجعلونه على ثلاثة أضرب(١) .

١ — ما نسخ خطه وحكمه ، ويروون فى ذلك عن أنس أنه قال : « كنا نقرأ على عهد رسول الله — ﷺ — سورة تعدلها سورة التوبة ، ما أحفظ منها غير آية واحدة : « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب لا بتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » .

كما يروون عن ابن مسعود أنه قال : أقرأنى رسول الله — ﷺ — آية

---

(١) تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى .

فحفظتها وكتبتها فى مصحفى ، فلما كان الليل رجعت إلى مصحفى فلم أرجع منه بشىء ، وغدوت على مصحفى فإذا الورقة بيضاء . فأخبرت النبى — ﷺ — فقال لى : « يابن مسعود تلك رفعت البارحة » .

وهذا عندى قسم يكاد سرده يدل عليه ويكشف عن سقوطه ، فما أجل الله حكيما عليما ، وما كانت الرسالة تجربة بشرية يجوز عليها تعديل أو الوقوع فيما سينقض بعد حين . ولقد كان الرسول يحدث المسلمين بحديثه ويقرأ عليهم وحى السماء . ولقد كان عليه السلام يعارضهم ما حملوه عنه على التوالى حرصا على سلامة الوحى من أن يختلط به غيره . وكم من سامع خلط ما بين ما هو وحى وبين ما هو حديث للرسول ، ولكنه كان بعد حين قليل مردود إلى السلامة حين يلقى بما عنده الرسول أو صحابيا على بصيرة بما هو وحى وما هو حديث . وسرعان ما كانت تستقيم الأمور وسرعان ما كان يبين هذا من ذاك ، حتى إذا ما حان أن يقبض الله إليه رسوله كانت العرضة الأخيرة للقرآن ولم تكن إلا لهذا ومثله .

٢ — ما نسخ خطه وبقى حكمه ، ويروون لهذا خبرا عن عمر بن الخطاب يقول : « لولا أكره أن يقول الناس قد زاد فى القرآن ما ليس فيه لكتبت آية الرجم وأثبتها ، فوالله لقد قرأناها على رسول الله — ﷺ — ، لا ترغبوا عن آبائكم فإن ذلك كفر بكم . الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا منن الله والله عزيز حكيم » .

وأحسب أن عمر لو صح هذا عنه وأنه سمعها عن الرسول ما تخلف عن أن يكتبها ، ثم ألم يسمعها مع عمر غيره فيجعل منه شاهدا معه ، إن كان عمر لا يرى أنه وحده مجزىء ، اللهم إن هذا ينقض علينا ذاك التحرى فى

الجمع الذى قام به الصحابة ، وينقض علينا تلك المعارضات التى كانت تتم بين الرسول والقارئين ، وينقض علينا التفكير السليم ، وما نحب لمن يعالج ما يتصل بكتاب الله إلا أن يكون ذا تفكير سليم .

٣ ـــ ما نسخ حكمه وبقى خطه . وهذا شىء يقتضيه التشريع والانتقال والتى انتهت بقوله يخاطب نبيه : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[1] وكانت قبلها ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[2] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إنما حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ فجاء قوله عليه الصلاة والسلام « أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال » . يستثنى شيئا من الميتة المذكورة فى القرآن .

وقد عد الناظرون فى هذا نحوا من ١٤٤ ، منها : ثلاثون آية فى البقرة : عشر آيات فى آل عمران ، أربع وعشرون آية فى النساء ، تسع آيات فى المائدة ، خمس عشر آية فى الأنعام ، آيتان فى الأعراف ، ست آيات فى الأنفال ، إحدى عشرة آية فى التوبة ، ثمانى آيات فى يونس ، أربع آيات فى هود ، آيتان فى الرعد ، آية فى إبراهيم ، خمس آيات فى الحجر ، أربع آيات فى النحل ثلاث آيات فى بنى إسرائيل ، آية فى الكهف ، خمس آيات فى مريم ، ثلاث آيات فى طه ، ثلاث آيات فى الأنبياء ، ثلاث آيات فى الحج ، آيتان فى المؤمنين ، سبع آيات فى النور ، آيثان فى الفرقان ، آية واحدة فى النمل ، آية واحدة فى القصص ، آية واحدة فى العنكبوت ، آية واحدة فى

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١١٥ .

الروم ، آية واحدة فى السجدة ، آيتان فى الأحزاب ، آية واحدة فى سبأ ، آية واحدة فى الملائكة ، أربع آيات فى الصافات ، آيتان فى ص ، ثلاث آيات فى الزمر ، آيتان فى حم « المؤمن » ، آية واحدة فى حم « السجدة » ، سبع آيات فى الشورى ، آيتان فى الزخرف ، آية واحدة فى الدخان ، آيتان فى الجاثية ، آيتان فى الأحقاف ، آيتان فى محمد ، آيتان فى ق ، آيتان فى الذاريات ، آيتان فى الطور ، آيتان فى النجم ، آية واحدة فى القمر ، آية واحدة فى المجادلة ، ثلاث آيات فى الممتحنة ، آيتان فى القلم ، آيتان فى المعارج ، ست آيات فى المزمل ، آيتان فى الإنسان ، آية واحدة فى عبس ، آية واحدة فى التكوير ، آية واحدة فى الطارق ، آية واحدة فى الغاشية ، آية واحدة فى التين ، آية واحدة فى العصر ، آية واحدة فى الكافرون .

فهذا بيان الآيات التى فيها نسخ نستطيع أن نرجع إلى تفصيلها فى كتب النسخ مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » لأبى القاسم هبة الله بن سلامة المتوفى سنة ٤١٠ هجرية ، ثم فى كتب التفسير .

وسوف نرى أن كل ما يتصل بها هو ترتب أحكام اقتضاها التشريع السماوى ، الذى أملاه نزول القرآن مجزءا وفق أحوال المسلمين وتدرجهم فى الحياة .

هذا هو ما جاء فى تاريخ القرآن للأستاذ إبراهيم الإبيارى ، وإن أى عاقل يفهم مبادئ البلاغة ليستطيع أن يجزم بأن ما زعم من أنه كان فى القرآن ما نسخ حكمه وخطه إن هو إلا من وضع من أرادوا الكيد لقرآن الله المجيد ، فما من كلمة أنزلت قد رفعت ، وإن ما استشهد به المولعون بتدليس الروايات ونسبتها إلى كبار الصحابة ليحمل فى طياته دليل بطلان الدعوة ،

أيصدق أى لبيب أو غير لبيب أن مثل هذا القول المتهافت الذى وضعه الواضعون : « ولولا أن لابن آدم واديين من ذهب وفضة لابتغى إليها رابعا . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب » يمكن أن يكون من نبع القرآن العظيم ؟ إن هذا الزعم لا يزيد على أنه استخفاف بالعقول .

وما زعم من أن فى القرآن ما نسخ خطه وبقى حكمه ، فهو قول لا يستند إلى دليل ، بل إنه افتراء على الله ، فإذا كان مبدأ الرفع من القرآن معترفا به فلماذا بقيت الآيات التى قيل إنه نسخ حكمها .

إن بقاء الآيات التى قيل إن أحكامها نسخت فى القرآن لخير برهان على أن ما ينزله الله لا يرفع ، فما كان القرآن من عمل بشر يبدل ويغير فيه ويرفع آيات وينزل آيات ، بل هو من لدن عليم حكيم خبير ، فليس فى القرآن ما نسخ خطه وحكمه وليس منه ما نسخ خطه وبقى حكمه .

بقى ما زعم أنه بقى خطه ونسخ وحكمه ، وفى رأيى أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ ، فإنى أنزه الله سبحانه وتعالى عن أن ينزل حكما ثم ينسخه ، وإذاما رجعنا إلى الآيات الـ ١٤٤ التى زعم أنها نسخت لوجدنا أن أحكامها لا تزال قائمة ، فمن يستطيع أن يقول إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[١] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[٢] إن آية ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ تقرر حقيقة ستظل حقيقة لا ريب فيها ما دامت الأرض والسماوات . وهل يمكن أن يقال إن آية : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من

(١) البقرة ١١٥ . (٢) البقرة ١٤٤ .

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[١] قد نسختها آية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ؟

إنى أعتقد فى يقين أن ليس فى القرآن ناسخ ولا منسوخ فى أى صورة من الصور التى زعم المتكلمون عن النسخ فى القرآن أنها على ثلاثة أضرب ، فالقرآن قد نزل من عند أحكم الحاكمين ، ولو أن الكافرين قد علموا بوقوع هذا النسخ لوجدوا حجة تؤيد زعمهم أن القرآن إن هو إلا من إملاء رسول الله — ﷺ — .

قالوا فيما قيل إن آية : ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾[٢] قد نسخت ، فهل نزلت آية صرحت للمسلمين بأن يقربوا الصلاة وهم سكارى ؟ إننا لو استعرضنا جميع الآيات التى قيل إنها نسخت نجد أن حكمها لا يزال قائما ، وأعتقد أن بدعة الناسخ والمنسوخ قد شاعت بعد صدر الإسلام عندما شغل الناس بإحصاء عدد آيات القرآن وترتيب الآيات وترتيب السور والبحث عما هو مكى منها وما هو مدنى . وقد شجع بعض العلماء على الخوض فى الناسخ والمنسوخ عدم فهمهم حقيقة تفسير : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾[٣] . فقد حسبوا أن التبديل إنما يقع على الآية القرآنية وهى طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ، بينما المقصود بالآية هنا المعجزة التى يقوم بها الأنبياء ، فالمراد أن معجزة عيسى

---

(١) البقرة ١٧٧ .

(٢) النساء ٤٣ .

(٣) النحل ١٠١ ، ١٠٢ .

كانت غير معجزة موسى ، فمعجزة عيسى عليه السلام كانت إحياء الموتى ، بينا كانت معجزة موسى عليه السلام لما واجهه فرعون بالسحرة أن يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى . ولما بعث الله محمدا — ﷺ — إلى قوم اشتهروا بالبلاغة والبيان بدل الله معجزته وأنزل على رسوله عليه السلام القرآن ، ويؤيد هذا ما جاء فى « المنتخب » فى تفسير : « وإذا بدلنا آية .. » : (وإذا جعلنا معجزة لك بدلا من معجزة مساوية لنبى سابق فجئناك بالقرآن معجزة ، رموك بالافتراء والكذب على الله ، والله وحده هو العليم علما ليس فوقه علم بما ينزل على رسله من المعجزات ، ولكن أكثرهم ليسوا من أهل العلم والمعرفة الصادقة) .

ولقد مات رسول الله (ﷺ) والقرآن كله مكتوب على العُسُب (جريد النخل) واللخاف (صفائح الحجارة) والرقاع والأديم والأكتاف (عظام الأكتاف) والأقتاب (ما يوضع على ظهور الإبل ، كما كان محفوظا فى صدور الرجال يحفظه حفظة من المسلمين) .

وكان رسول الله — ﷺ — يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام مرة فى شهر رمضان ، فلما جاءت السنة التى مات فيها قرأه عليه مرتين فى رمضان ، فراح رسول الله — ﷺ — يعارض ما أنزله عليه ربه بسوره وآياته على ما حفظه عنه حفظة المسلمين ، فكان فى صدور الحفظة صورة مما كان فى صدر الرسول .

وبعد موت الرسول — ﷺ — ارتدت بعض القبائل عن الإسلام فأعلن أبو بكر الصديق الحرب عليها ، وقد اشتد القتل يوم اليمامة بقراء القرآن فخف عمر بن الخطاب إلى أبى بكر يعرض عليه جمع القرآن قبل أن يذهب من الصدور . وراح أبو بكر يفكر فيما عرضه عليه عمر فاقتنع

بضرورة جمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت وكان من كتاب الوحى فى المدينة ، وحضر زيد مجلس أبى بكر وعمر وسمع منهما ما هما فيه فإذا هو معهما فى الرأى ، وإذا أبو بكر حين يجد من زيد حسن الاستجابة يتجه إليه ويقول :

— إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبع القرآن اجمعه .

فراح زيد بن ثابت يتتبع القرآن يجمعه وما كان ذلك أمرا عسيرا ، فقد كان هناك حفظة من المسلمين . ولو أردنا اليوم أن نجمع القرآن مرة أخرى دون أن نرجع إلى المصحف فما أيسر ذلك لو جئنا بعشرة من القراء الحافظين .

وفى أيام عثمان رضى الله عنه عاد حذيفة بن اليمان من حرب أرمينية وأذربيجان ودخل على أمير المؤمنين فزعا من اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن ، وراح يقول لعثمان :

— أدرك الأمة قبل أن يختلفوا .

أرسل عثمان يطلب الصحف من عند حفصة بنت عمر زوج النبى عليه السلام ، وأرسلت حفصة بالصحف إلى عثمان ، وجمع عثمان إليه زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام وكلهم من كتاب الوحى ، وأمرهم بنسخ هذه الصحف بعد أن وقف يخطب الناس يناشدهم أن يأتوه بما معهم من كتاب الله ، وكان عهدهم بالنبى عليه السلام قريبا ، إذ لم يكن مضى على وفاته أكثر من ثلاث عشرة سنة ، فراح الرجال يأتونه بالورقة والأديم فيه القرآن .

ولم يكتف عثمان بذلك بل دعاهم رجلا رجلا يسألهم عما إذا كان

رسول الله — ﷺ — قد أملاه عليه ، فيقول الرجل نعم ، حتى إذا فرغ من ذلك قال :

— من أكتب الناس ؟

فقال الناس :

— كاتب رسول الله زيد بن ثابت .

قال عثمان :

— فأى الناس أعرب ؟

— سعيد بن العاص .

وكان سعيد أشبههم لهجة برسول الله عليه السلام ، قال عثمان :

— فليمل سعيد وليكتب زيد .

وتم جمع مصحف عثمان ، ولما قورن بالمصحف الذى جمعه أبو بكر رضى الله عنه وشارك فيه عمر وجد أنه هو هو الذى جمعه عثمان ثانية واستحلف الناس عليه ، وأرسل عثمان ستا من هذه المصاحف إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس مصحفا بالمدينة ، وأمر عثمان فحرق ما كان مخالفا لمصحفه .

ويقول ر . ف . بودلى فى كتاب « الرسول : حياة محمد » عن القرآن : « إنه لمن الغريب أن تلاحظ دون أسباب ثابتة وطيدة أن هناك سوء فهم عام لمحمد — ﷺ — أكثر من أى مؤسس آخر من مؤسسى الديانات العظيمة . إننا لا نجد ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا ولا نعرف إلا بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته ولا نعرف شيئا عن الثلاثين سنة التى مهدت الطريق للسنوات الثلاث التى بلغ فيها أوجه ، ولكننا نجد أن قصة محمد — عليه السلام — واضحة كل

الوضوح . ففى سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض ، ونعرف الشيء الكثير عنه ، كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا فى زمان أكثر قربا من زماننا ، وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات ولا شائعة من الشائعات ، وما كان تاريخه الداخلى وقد وضح بعد رسالته برواية مبهمة لمبشر غامض أو مشوش ، فبين أيدينا الآن كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامته لم يشك فى صحته كما أنزل أى شك ، وهذا الكتاب هو القرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد . ولو أن الأفكار قد دونت فى الرقاع وسعف النخل والعظام فى لحظات غريبة ، فالسور والآيات الأصلية قد حفظت ، وما كان هذا هو الحال فى العهد القديم والعهد الجديد (التوراة والإنجيل) بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت الرسول، فإن أبا بكر خليفة محمد ـــ ﷺ ـــ قد جمع الرقاع التى دون فيها القرآن ونسخها حرفيا ، وحفظت هذه النسخة عند حفصة إحدى زوجات محمد (عليه السلام) .

وفى عام ٦٤٦ بعد الميلاد ، أى بعد موت محمد ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ بأربع عشرة سنة ، أحرق عثمان خليفة محمد الثالث وصديق محمد ومعاصره جميع نسخ القرآن التى كتبها الأتباع المتحمسون من الذاكرة و لم يبق إلا مصحف حفصة ، وقد نسخ عنه جميع المصاحف الأخرى ، ومنذ ذلك الوقت لم يضف إلى القرآن شيء و لم يحذف منه شيء » .

وهذا رأى لكاتب أمريكى آخر فى القرآن وإعجازه[١] ، قال : « إن

---

(١) المستشرقون والإسلام للأستاذ المهندس زكريا هاشم زكريا .

كل نبى يجب أن يأتى ببرهان عن طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزا ، وهما يضعان من يتلوه ، ولو كان أقل الناس تقوى فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدي محمد الإنس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . و لم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فإن محمدا كان يحتقر الشعر ودفع عن نفسه أن يكون واحدا من الشعراء .. ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين » .

وقد عكف كبار الكتاب الغربيون على قراءة القرآن وقد تأثر به كثير منهم ، فقد قرأ جوته القرآن فى ترجمة ألمانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته (فرانكفورت) المستشرق العلامة مرجولين (١٧٧٢ م) ، حتى إذا ما فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها طبعها فى مدينة (بادوا) فى الشمال الشرقى من إيطاليا القس الجزويتى (ماراتشى) Marracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية .

وما أن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية نقلا عن الترجمة الألمانية . ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة شول Sholl عام ١٨٤٦ م وهذه الآيات قوله تعالى :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾[١] .

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾[٢] .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[٤] .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٥] وكلها من سورة البقرة ، ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾[٦] .

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء

---

(١) البقرة ١١٢ . (٢) البقرة ١١٥ . (٣) البقرة ١٦٤ .

(٤) البقرة ١٧١ . (٥) البقرة ١٧٧ . (٦) آل عمران ١٤٤ .

فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾[١] .

ومن سورة النساء : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضللْ الله فلن تجد له سبيلا ﴾[٢] .

ومن سورة المائدة : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون ﴾[٣] .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾[٤] .

ومن سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾[٥] .

ومن سورة يونس : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ﴾[٦] .

ومن سورة يوسف : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾[٧] .

ومن سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾[٨] .

ومن سورة العنكبوت : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ، إن

---

(١) آل عمران ١٧٩.　(٢) النساء ١٤٣ .　(٣) المائدة ٦٥ ، ٦٦ .
(٤) المائدة ١٠١، ١٠٢.　(٥) الأنعام ٧٥　(٦) يونس ١٠ .
(٧) يوسف ٨ .　(٨) طه ٢٥ .

فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾[١] . ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لا رتاب المبطلون ﴾[٢] .

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾[٣] .

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن إمعان الباحثين وهو يقول : إن القارئ الأجنبى يمله لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب إليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم . ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٤] .

ويقول جوته : إن القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة . وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من المخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وإنما

---

(١) العنكبوت ٤٤ .
(٢) العنكبوت ٤٨ .
(٣) العنكبوت ٥٠ .
(٤) البقرة ٢ — ٧ .

محمد نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه أبسط وسيلة وأقوم طريق ، وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد إنما بعث به إلى الناس ليقتضيهم القنوت والإيمان ، ومن ثمة نراه إذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الأمثال ومواضع الاعتبار .

ويظهر فى شعر جوته الأخير الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته .. فالقارئ المسلم لا يسعه إلا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته : لله المشرق ولله المغرب وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا ، هو الحق وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى وتبارك اسم الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . ينازعنى وسواس الغى وأنت المقيد من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات إلى الصراط المستقيم ، ومهما زينت النزعات والشهوات فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والإباء تنطلق عارجة إلى أوج العلا .

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير . هذا يفعم الصدر وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب ، فاشكر ربك إذا بليت ، واشكر ربك إذا عوفيت » .

ويعمد جوته أحيانا إلى التضمين الصريح ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه : « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله

لا يستحي أن يضرب مثلا للحياة ببعوضة ؟ » « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينى الحبيبة لمحة من جماله رائعة عجيبة » .

ويقول جوته فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه : « من حماقة الإنسان فى دنياه .. أن يتعصب كل منا لما يراه .. وإذا الإسلام كان معناه التسليم لله فإننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين » .

***

هاجم كثير من المستشرقين والمهتمين بالدين الإسلامى من كتاب الغربيين نبى الإسلام والقرآن ، فمنهم من زعم أن محمدا عليه السلام قد ادعى النبوة وأنه قد وضع القرآن مستمدا أسس دينه من التوراة والإنجيل ، وقد سمع بما فيهما أثناء رحلاته إلى الشام ، ولم يأت هؤلاء النقاد بجديد فمعاصرو النبى صلوات الله وسلامه عليه من الكافرين كانوا يقولون افتراه ، وأن القرآن يتلى عليه ، وأن بعض النصارى يعلمونه ما يقول ، وقد رد القرآن الكريم على هذه الافتراءات .

إن محمدا عليه السلام تحمل أفدح ألوان الاضطهاد وصبر صبر أولى العزم من الرسل ، ولو كان مدعيا للنبوة فى سبيل مغنم أرضى لقبل ما عرض عليه من جاه وسلطان وأموال ، أو لنصب من نفسه ملكا على جزيرة العرب بعد أن دانت له المدن والقبائل بالولاء ، ولما عاش عيشة الكفاف التى اختارها لنفسه .

وقد سبق فى التذييلات السابقة أن دفعت افتراء الزعم بأن محمدا عليه السلام قد أخذ من التوراة والإنجيل ما جاء به من تشريعات ، وقلت إن الديانات كلها قد عرفت منذ بدء الخليقة بالإسلام ، وأنه كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ودخلت الأساطير فى الديانات بعث الله الرسل

ليعيدوا الإسلام نقيا كما كان . وإن التشابه بين ما فى القرآن وما فى التوراة وما فى الإنجيل فإنما مصدره أن النبع الروحى الذى استمدت منه كل الديانات السماوية واحد . ولو عثر على صحف إبراهيم وإدريس فلن تفترق فى قليل ولا كثير عن القرآن ، والتوراة قبل أن يعاد كتابتها فى أرض السبى ، وإنجيل السيد المسيح الذى لم يصل إلينا ، فالأناجيل الأربعة التى اعتمدت فى مجمع نيقية إن هى روايات يفترض أن بعض الحواريين قد كتبوها و لم يقل أحد أنها منزلة من عند الله .

القرآن معجزة الإسلام ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن على أن يأتوا بآية من مثله فعجزوا على مر العصور . إن ما فيه من علوم يفوق كل ما كانت تعرف البشرية فى ذلك الوقت ، فما بالك بعلوم محمد ابن عبد الله ، ولا تزال الكشوف الحديثة تلقى أضواء على تفسير بعض ما فيه من آيات اليوم والغد ، وقد صدق الإمام على كرم الله وجهه لما قال : « القرآن حمال معان » .

إذا كانت التوراة قبل أن يعتورها التبديل من عند الله ، وإذا كان الإنجيل قد نزل على عيسى عليه السلام من السماء ، فلماذا لا يوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد بن عبد الله عليه السلام ؟ الحقيقة لا يمكن تجزئتها ، فإما وحى أو لا وحى ، فإن الله يكلم رسله وحيا أو من وراء حجاب أو يبعث رسولا ، فقد أوحى الله إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه قرآنه ، وقد قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] فكلما مر يوم والقرآن يقرأ فى الأرض كان ذلك تأكيدا على صدق محمد عليه

---

(١) الحجر ٩ .

السلام ، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وقد خالف الإسلام اليهودية والنصرانية فى كثير من الأصول والعقائد والعبادات ، وأقول اليهودية والنصرانية ولا أقول إسلام موسى وإسلام عيسى ، فاليهودية والنصرانية إنما تطلقان على ما طرأ على إسلام موسى وعيسى من تبديل وتحوير . ومخالفة الإسلام لليهودية والنصرانية إنما هى إعادة تشريعات الديانتين السابقتين إلى الحق الذى كانتا عليه قبل أن تخضعا لأهواء حكماء صهيون والمجالس المسكونية والمؤتمرات الدينية التى كانت تسخر الدين لخدمة الأباطرة والحكام .

زعم اليهود أن عزيرا ابن الله ، وقال النصارى المسيح ابن الله أو الله أو ثالث ثلاثة ، يضاهئون قول الذين من قبلهم . وما من دين سماوى إلا وقد جاء ليؤكد وحدانية الله ، فنوح كان يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإدريس من قبله وإبراهيم من بعده وموسى وعيسى والحواريون لم يعبدوا إلا الله وحده . فجاء الإسلام ليعيد هذه الحقيقة الأزلية ويمحو الشرك من الأديان .

وراح اليهود يعبدون أنفسهم غرورا ويزعمون أنهم شعب الله المختار وأنهم الناس ومن عداهم أمم ، كما فعل من قبلهم اليونان والرومان والفرس ومن بعدهم العرب فى الجاهلية ثم الإنجليز والألمان وكل الدول التى ظنت أنها عظمى فى العصر الحديث . وجاء الإسلام ليعيد إلى البشرية كرامتها وليؤكد أن الناس إخوة وأن كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وراح اليهود عباد المال يفترون على الله ويحللون الربا ، وما من دين سماوى قد أباح الربا ، وقد جاء الإسلام ليقول للناس إن الله يمحق الربا

ويربى الصدقات .

وقد عبث الفريسيون والصدوقيون ومن قبلهم من المتنطعين فى الدين اليهودى فى العقيدة والتشريع ، فجاء الإسلام ليصحح العبث فى الميراث وليعيد للمرأة حقوقها وإنسانيتها وكرامتها التى أهدرت على آيدى تجار الدين ، الذين قالوا إنها نجس وحرموها من الميراث إذا كان لها أخ ، فإذا لم يكن لها أخ ، فعليها أن تتزوج رجلا من عشيرتها ليكون لها حق فى الميراث ، أما إذا ما مات عنها زوجها فلا حق لها فى ماله ، وكانت إذا ما جاءها المحيض تطرد من الدار طرد الكلاب .

جاء الإسلام معترفا بكل الأديان السماوية التى سبقته ، مطهرا لها من كل ما لحق بها من شوائب وما دخل عليها من أساطير الأولين ، معترفا بالوحى الذى ينزل على الأنبياء جميعا ، لا فرق بين نبى من بنى إسرائيل أو نبى من الأمم ، فلم يتناقض مع نفسه ولم يتحزب لنبى دون نبى كما فعل معتنقو الأديان التى سبقته: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[1] .

كان كتاب أوروبا فى العصور الوسطى يعتقدون أن الإسلام دين وثنى ، فكانوا يصورون محمدا عليه السلام عابد أوثان ، وينسجون حول شخصيته الكريمة مزاعم وأوهاما تحط من شأنه ، ولكن قام بعض المستشرقين فى القرن العشرين بعدة محاولات لتقديم محمد عليه السلام فى صورة مقبولة ولا أقول صحيحة . ففيما يكتبون بعض الثغرات إما لأنهم

---

(١) البقرة ١٣٦ .

لا يؤمنون بالوحى إطلاقا ، وإما عن سوء قصد مبررين طعناتهم بأنهم يتبعون الأسلوب العلمي الذى لا يؤمن إلا بالتحليل وأنبوبة الاختبار !

وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أشهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا . ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض ، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مبادئ مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفخرون به من الفن أو العلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي وكانوا مفككين لا رابط بينهم . كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت ، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، ولكن ظهر النبى « محمد » الذى أرسل هدى للعالمين فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المحطمة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد ما كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة حتى فاقوا النساك والزاهدين . ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا ، فإذا ما أذن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا إلى الله رب العالمين ، وكانوا يقضون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح . وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين فى الصوامع للتعبد ، فسموا بفعل الإسلام إلى ذروة السمو الخلقى . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقا لتقواهم ، فاحتلوا مكانا مرموقا بين غزاة العالم العظام . لقد ذابت الإمبراطوريات العظمى تحت حرارة إيمانهم كما يذوب الجليد تحت حرارة الشمس اللافحة . ولم يكتفوا بغزو الأقطار

الشاسعة بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، قوية عزيزة الجانب بغض النظر عن الأجيال التى تضعضعت أخيرا . لقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحى والرخاء الاقتصادى وتثقفوا بعلوم الإسلام التى فاض خيرها على العالم أجمع فى ذلك الوقت ، والتى تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشى فى كل مكان ، وإنه لعجيب حقا أن يتم هذا فى عشرين عاما فقط . إذن لقد كانت تعاليم النبى سنهلة من الميسور الأخذ بها وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم فيهديه الصراط المستقيم » .

ويبرز هنا تساؤل : لماذا ضعفت الدول الإسلامية أخيرا ؟ السبب أن الدول الإسلامية وقعت فريسة للاستعمار الأوروبى المسيحى فى القرن التاسع عشر ، وكانت الدول المسيحية قد أعلنت الثورة على الدين ، ولما كان الضعفاء يحاولون دائما تقليد الأقوياء دون تفكير ، فقد سرت موجة من الإلحاد فى العالم الإسلامى ونخرت فيه ، على الرغم من أن ثورة المفكرين الأوروبيين على الكنيسة كان لها مبرراتها و لم يكن هناك أى مبرر للثورة على الإسلام ، ولكنه التقليد .

لما اعتنق بولص المسيحية راح يقيم أركانه على مبادئ لم يأت به السيد المسيح ، قال إن السيد المسيح هو الله وهو ابن الله ، فنشأت نظرية لاهوت السيد المسيح وناسوته ؛ وقال إن السيد المسيح قد جاء ليطهر البشرية من خطيئه آدم التى ورثها أبناؤه على مر السنين ، وأن السيد المسيح إنما قبل أن

يصلب تطهيرا للبشر من تلك الخطيئة . وقد قبضت الكنيسة على رقاب العباد لا يفكرون إلا بوحى منها ، وأن يسخر العلم لخدمتها ، وكل من قال برأى يخالف رأيها يقتل أو يحرق أو يطرد من رحمة الله .

رأى نيتشة أن الله قد تجسد ومشى فى الأسواق وانتصر عليه أعداؤه وتمكنوا من صلبه ، فلم يستطع عقله أن يتصور جسدا يبقى دون أن يفنى ، فقال إن الله قد مات . وله عذره فى ذلك التصور فمن يمشى على الأرض لا بد أن يموت . ووجد أن فكرة الخطيئة الموروثة فكرة تتنافى مع العدل الإلهى ، وعجب كيف أن الله يسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فكفر بذلك الإله الظالم وآمن بالحس الأرضى وقال أن لا بد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة ويهتف : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله » ، ويعنى بذلك أن المعرفة الحقة إنما هى تلك المعرفة الفرحى المنتشية التى تنبعث من صميم الإحساس الأرضى .

ولو أمعنا الفكر لوجدنا أن نيتشة قد ثار على الله الذى تصوره فكر بولص الرسول ، على الله الذى تجسد وأكل الطعام ومشى فى الأسواق . ولو عرف نيتشة الله الرحيم الغفور الودود الكريم الذى لا يزر وازرة وزر أخرى ، ماثار نيتشة ولما جرؤ أن يقول إن الله قد مات ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وقد عبر ماركس عن نزعة الإلحاد المتطرفة حينما كتب : « إن أى موجود كائنا من كان لا يمكن أن يكون مستقلا فى عينى نفسه إلا إذا كان مستكفيا بذاته ، وهو لا يمكن أن يكفى نفسه بنفسه إلا إذا كان لا يدين بوجوده لأحد سواه . أما الإنسان الذى يحيا بمدد من إنسان آخر يكون له الفضل عليه فإنه لا بد من أن يشعر فى نفسه بأنه مخلوق مستعبد

خاضع مفتقر ، وأنا أشعر بأننى أحيا تماما على حساب موجود آخر أو بفضل نعمة ذلك الموجود الآخر ، ليس فقط حينما أكون مدينا له ببقائى والمحافظة على حياتى ، وإنما أيضا حينما يكون هو الذى وهبنى الحياة باعتباره مصدر كل الحياة ، ولا بد من مصدر حياتى من أن يكون بالضرورة خارجا عنى ، حينما لا تكون حياتى من خلقى أنا . وهذا هو السبب فى أنه قد يكون من العسير بمكان أن نطرد فكرة « الخلق » من أذهان العامة .. وأما نظر الرجل الاشتراكى — على العكس من ذلك — فإن تاريخ الكون بأسره ليس شيئا آخر سوى عملية خلق الإنسان ، بفضل الإنتاج البشرى ، أعنى عملية التحكم فى مصير الطبيعة بفضل تدخل الإنسان ، ومن ثم فإن الإنسان الاشتراكى إنما يملك الدليل الواضح الذى لا سبيل إلى دحضه على خلقه نفسه بنفسه ، أو على عملية إبداعه لمصيره الذاتى » .

وكان ماركس ضحية أخرى من ضحايا تعاليم بولص وسجن الكنيسة للأفكار المتحررة ، كما كان كل الفلاسفة الملحدين الذين ناقضوا أنفسهم باستمرار مع تتابع مذاهبهم ، والذين أوضحت مذاهبهم فى جلاء أنهم جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الإخوة ، فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة .

وراح سارتر يقرر أن الإنسان حر ، يعنى بذلك أن « الله غير موجود » وأن الموجود البشرى إنما ينزع إلى شىء واحد فقط ألا وهو « الوجود » ، أى أن الإنسان ينزع إلى أن يكون إلها .

تعقيد وترديد وتجريد وتسكع ذهنى لا طائل تحته ، وبذور تبذر فى الصحراء ، ومحاريث تحرث فى الماء ، وبعد عن الإنسانية وإفقارها بهدم تراثها الروحى كنز البشرية ما داموا يريدون أن يروا كل شىء بالحواس

وعلى الحواس غشاوة ، وما داموا لا يفرقون وهم فى خضم الضياع بين النار والنور .

إن كان لهم العذر أن يثوروا على ما جاءهم بولص من أوهام فعلى ماذا نحن نثور ؟ هل قال لنا الإسلام إننا ورثنا خطيئة آدم ظلما . لقد كان الله أرأف بعباده من بولص فقال جل شأنه : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾(١) ، هل قال الإسلام إن الله سبحانه وتعالى نزل إلى الأرض وأكل الطعام ومشى فى الأسواق وأن له طبيعتين إلهية وإنسية ؟ لقد حرص الإسلام على تنزيه الله تعالى عن التجسيد . فكيف يخطر على ذهن مسلم يعرف حقيقة دينه أن الله قد مات أو أن العلم قد انتصر على الله . هل وقف الدين الإسلامى فى سبيل حرية التفكير والكشف والاختراع ؟ لقد كان الإسلام يدفع أتباعه على الدوام إلى التدبر فى الكون والسير فى مناكب الأرض وجعل طلب العلم فريضة ، هل كان فى الإسلام رجال دين وكنيسة تفرض آراءها على الجميع وتطرد المعارضين من رحمة الله ؟ لم يعرف الإسلام وظيفة رجل الدين ولم يعرف الوساطة بين الخالق والمخلوق ، بل كان يصر على تأكيد الصلة المباشرة بين العبد وربه . فعلى أى شىء تثورون أيها الثائرون ؟ أتثورون على جهلكم يا عبيد الاستعمار الفكرى ؟ ولم تتشككون ؟ وما الذى يدفعكم إلى العربدة الذهنية والطريق واضح والسبيل مستقيم ؟ وكيف يرضى أصحاب العقول السليمة أن يستبدلوا اللآلئ والدرر بالماس المصنوع وإن بدا للعيون تألقه وبريقه ؟ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾(٢) .

---

(١) البقرة ٣٧ .　(٢) الرعد ١٧ .

أين كانت فلسفة الغرب يا أصحاب العقول قبل عصر النهضة فى أوروبا ، ومن أين جاءت هذه النهضة التى يتغنى بها ضحايا الاستعمار الفكرى من المسلمين ؟ يقول الأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى نجيب محمود فى كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » : اتصل الأوروبيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقا واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى إن كثيرا مما بقى من مؤلفات « ابن رشد » حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد لها أصلا بالعربية . وفى القرن الثالث عشر كانت كل « كتب ابن رشد » تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتبا قليلة منها كتاب « تهافت التهافت » الذى رد به على « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، « فروجر بيكون » الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ودرس فلسفة ابن رشد .

والقسم الخامس من كتاب فى البصريات Optics مستمد ومساير كتاب « ابن الهيثم » فى « هذا الموضوع نفسه » .

إن فلاسفة الإسلام هم الذين فتحوا أعين فلاسفة الغرب على ما فى أقوال بولس من تناقض مع المفهوم السليم والعدل الإلهى ، فهم أصحاب الفضل فى تحريرهم من رق الكنيسة ومن أن السلطة الكنيسية هى وحدها مصدر الحقيقة !

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه « التفكير الفلسفى فى الإسلام » الجزء الثانى « على أن الله قد وفق رجالا متعصبين من الغرب لرد هجمات التعصب والهوى الصادرة من بنى وطنهم ، ونكرر القول بأنهم ليسوا من المستشرقين ولا من أذناب الاستعمار ، ومن أمثلة ذلك :

الأستاذ كاردانوس وهو فيلسوف ورياضى إيطالى يقول عن « الكندى » إنه واحد من بين الاثنى عشر الممتازين فى العالم .

ويقول الأستاذ فلنت عن ابن خلدون : « إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابن خلدون ، وكل من عداهم غير جدير بأن يذكر إلى جانبه » .

ويقول الدكتور محمد إقبال فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » ترجمة الأستاذ عباس محمود : « لقد كانت أوروبا بطيئة — نوعا ما — فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى . وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة » .

ويقول بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » : إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس « لروجر بيكون » ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان المذهب التجريبي العربي فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس — فى لهف — على تحضيله فى ربوع أوروبا .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، و لم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية .

فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره ، أى فى العلوم الطبيعية وروح البحث العلمى .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه . فالعالم القديم — كما رأيناه — لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ، و لم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ،

والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني . ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهليني .

أما ما تدعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي » :

ومن يشأ الاستزادة في معرفة فضل العرب على الفلسفة الغربية الحديثة فليرجع إلى كتاب الفلسفة الحديثة في الميزان لفضيلة الدكتور محمد فتح الله بدران .

هذه بعض الحقائق نضعها أمام المفتونين بكل ما تأتي به الحضارة الأوروبية من إلحاد وانحلال وتفكك ، راجين أن يعودوا إلى كتابهم الكريم ليتدبروا ما فيه من سمو ورفعة ، وإلى تراث المفكرين الإسلاميين السابقين ليعلموا أي نبع غزير قد نهل منه المفكرون الغربيون .

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الصواب .

القاهرة في ١٦ / ٥ / ١٩٦٨ .

المراجـع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية لابن هشام

السيرة الحلبية لعلى برهان الدين الحلبى

نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

بلوغ الأرب للألوسى

المستشرقون والإسلام المهندس زكريا هاشم زكريا

قصة الفلسفة الحديثة أحمد أمين وزكى نجيب محمود

الفلسفة الحديثة فى الميزان الدكتور محمد بن فتح الله بدران

الرسول . حياة محمد بودلى
ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى

تحت راية الإسلام الدكتور أحمد الحوفى

جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار

مشكلة الحرية للدكتور زكريا إبراهيم

مشكلة الإنسان للدكتور زكريا إبراهيم

إيران فى عهد الساسانيين لكريستينس ـــ ترجمة يحيى الخشاب

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

A Literary History of the Arab By Ntchilson .

Muslim Institutions By Maurice Gaudefroy - Demombynes .

العقد الفريد لابن عبد ربه

تاريخ القرآن لإبراهيم الإبيارى

أسباب النزول للنيسابورى

١ — ابراهيم ابو الانبياء
٢ — هاجر المصرية ام العرب
٥ — قريش
٦ — مولد الرسول
٧ — اليتيم
٨ — خديجة بنت خويلد
٩ — دعوة ابراهيم
١٠ — عام الحزن
١١ — الهجرة
١٢ — غزوة بدر

٣ — بنو اسماعيل
٤ — العدنانيون
١٣ — غزوة احد
١٤ — غزوة الخندق
١٥ — صلح الحديبية
١٦ — فتح مكة
١٧ — غزوة تبوك
١٨ — عام الوفود
١٩ — حجة الوداع
٢٠ — وفاة الرسول

محمد رسول الله والذين معه

(في عشرين جزءا)

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

قصة الاسلام منذ أيام ابراهيم الخليل الى ان لحق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى . وقد كتب المؤلف الحقائق التاريخية فى أسلوب قصصى أخاذ .

وفى هذه الأجزاء يستقصى المؤلف تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكتب لأول مرة تاريخ العرب ما بين ابراهيم ونشأة العدنانيين ، معتمدا على ما كشفت عنه الحفريات الأخيرة فى بلاد العراق وسورية وأرض العرب ، وهى حقبة لم يتعرض لها الاخباريون ولا المؤرخون الاسلاميون .

وفسر المؤلف التاريخ تفسيرا روحيا من خلال سرده للحقائق التاريخية . انها موسوعة عربية اسلامية بذل فيها الجهد الكثير .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٣٩٧٠
الترقيم الدولى ٧ ــ ١٦١ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

